لجنة النشر للجامعيين

الرسول

حياة محمد

تأليف

ر . ف . بودلى

ترجمة

عبد الحميد جوده السحار محمد محمد فرج

يطلب من

مكتبة مصر بشارع الفجالة بمصر

تليفون ٥٨٩٢٠

طبع بدار الكتاب العربي بمصر



« قل هو الله أحد ✡ الله الصمد ✡ »

« لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

« القرآن . السورة ١١٢ »

تقدمة

كان أول معرفتي قدر محمد بين جبال كشمير الشامخة ، وكان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى وما كان يُشجِّع التواد بين البيض والوطنيين ، وما كان يروقني على الرغم من ذلك طريقة تابعي في ترك ما كان يفعله ليستقبل مكة ويصلي صلاته . كان يعرف قليلا من الإنجليزية ، فابتدأت بعد مدة أسأله عن ربه الذي يعبده هكذا على الدوام ، فكانت دهشتي عظيمة لما اكتشفت أنه كان نفس الإله الذي كنت أعتقد فيه وأعبده ؛ وقد ازداد عجبي لما سمعت ذلك الصياد الممزق الثياب يتكلم في عدم تكلف عن إبراهيم وموسى وعيسى ويحيي (يوحنا المعمدان) على أنهم جميعاً أنبياء دينه . وكان هذا كل ما وصلت إليه إلى هذه اللحظة ، وقد حولني عن متابعة دراستي تحامل زملائي الغربيين على كل شيء لا يألفونه كعقائد سكان البلاد التي نحكمها ، واندلاع لهيب الحرب العالمية الأولى .

واستمر هذا التحول برهة طويلة ، وقد مر أكثر من عشر سنين دون أن أكوّن فكرة واحدة عن المسلمين والإسلام ، ثم ذهبت لأعيش بين عرب الصحراء لما كنت ضجراً من التعقيدات التافهة التي جاءت عقب الحرب الأولى ، وقد بقيت معهم سبع سنين .

أصبحت الخيمة المصنوعة من وبر الجمل داري ، والبدو أصدقائي ،

والصحراء المترامية في بلادى ؛ وإن ما أعطانى الكشميرى عنه لمحة ، أصبح الآن أمامى تفصيلا ؛ فسمعت القرآن فى اللغة العربية المكية العظيمة ، وأحسست دون أن أصبح مسلماً ، روعة هذا الدين الذى يخلى بين العبد وخالقه فى الصحراء ، وسمعت عن محمد الرجل الذى وحَّد حفنة من القبائل المتنافرة المتنافسة وجعلهم دعامة امبراطورية من أعظم امبراطوريات العالم قوة ، وسمعت عنه أنه الرجل ذو القلب الحار الذى حول الوثنيين وعبدة الأصنام إلى مؤمنين صادقين يؤمنون بإله واحد ، وباليقين بالموت والبعث فى الحياة الأخرى . لقد رأيت أناساً ، تسعين فى المائة منهم يقومون بشعائر دينهم لأنهم يعتقدونه .

وقد تراكمت معلوماتى عن محمد على مر الشهور والسنين ، ولم يكن هذا نتيجة دراسة متبصرة ، فإنى لا أعتقد ذلك ، فى خلال هذه الفترة جميعها التى عشتها فى الصحراء لم أقرأ أية كلمة مطبوعة عن رسول الله ما عدا القرآن ؛ ولقد حصلت على معلوماتى من مناقشاتى حول نيران العسكر ، وفى خلال رحلاتى الطويلة مع القوافل ، وبينما كنت أرقب القطعان فى الليل . وفى الواقع لم أبدأ فى القراءة عن محمد إلا بعد أيام الصحراء بمدة طويلة ، فلما فعلت ذلك أحسست خيبة أمل عظيمة .

قد لاح لى أن بساطة تعاليم محمد ومثله العليا الموقرة فى الصحراء قد غمرت تحت محيطات من الروايات والفقه والسياسة . لقد كان ذلك كقراءة حياة صديق كتبها كتَّاب لم يعرفوه أبداً عن كثب ، وحتى الكتاب المسلمين يبدو أنهم فشلوا فى الظفر بذلك التأثير الشخصى . وهناك استثناءات ولا شك ، فإن بعض سير محمد قطع رائعة من الأدب ، ولكن

الغالبية ليست كذلك. وقد ذكرت كشفاً فى نهاية الكتاب بالكتب التي قرأتها لمن يهمهم هذه السيرة، ولكن بينا أن هذه الكتب تثبت وتؤيد ما التقطته من أصدقائى العرب البدو، إلا أن الأفكار الأساسية لقصتى عن حياة محمد نبتت بين قمم كشمير المغطاة بالجليد والأوقات الذهبية التى أمضيتها فى الصحراء.

وإن عنوان هذا الكتاب قد يحتاج إلى شرح، فإن أناساً كثيرين يطلقون على محمد لفظة The Prophet وإن كلمة نبي العربية لا تدل على معنى Prophet المقصودة فى المعنى اليونانى، وإن هذه اللفظة غالباً ما تستعمل على الرغم من أنها ليست صواباً. إن لقب محمد المعروف هو «رسول الله» ولعل هؤلاء الذين سمعوا المؤذن يدعو للصلاة من مآذن مساجد المسلمين يذكرون فقرة من الفقرات:

- لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

لذلك سميت قصتى «الرسول. حياة محمد».

وقد ضمنت كتابى بعض ملاحق لتيسير قراءة هذه السيرة الطويلة.

إن قصة محمد مكتظة بالأسماء، وإن أغلبها غير مألوف لكثير من الغربيين لذلك وضعت إلى جانب الفهرس العام كشفاً متمماً بأسماء هؤلاء الرجال والنساء الذين يظهرون دواماً أو أحياناً فى حياة رسول الله.

ولتحقيق نفس الغرض ذكرت أسماء أزواج محمد وذكرت أسماءهن الكاملة وأسماء آبائهن[1] وقد حاولت أن أترجم الحوار العربى حرفياً وفى بساطة، وقد كان الشعر والبيان فوق طاقتى، واعتمدت

---

(١) ذكر المؤلف بعد ذلك طريقة رسمه للحروف والأسماء العربية وجدنا أن لا فائدة من ترجمتها.

فى الآيات القرآنية على ترجمات مارمادوك ورودويل(١)

وإنى أود أن أقول لأى قارىء يبحث عما هو تاريخى فى حياة محمد وما هو مروى ، أن فى جميع قصص الرجال العظام كثيراً من الرواية التى لا يمكن إثباتها ولا يمكن إنكارها ، وفى الحقيقة أنه من الصعب فى بعض الأحيان أن نقول كيف أصبحت الحقيقة حقيقة وكيف صارت الرواية رواية . زيادة على ذلك فإن هناك فى جميع الديانات كثيراً من الأمور التى ليست رواية فقط بل خرافة . إن رجال الدين لا يطرحون جانباً الحوادث غير الثابتة التى يعوزها البرهان . وعلى ذلك فبينما كنت ، فى الأصل ، أحافظ على الحقيقة ، إلا أنى ما كنت لأشوه نسق الجملة بإضافة « وقيل » حينما أكون غير متأكد مما إذا كنت قد ابتعدت عن التاريخ .

وأود أن أشكر هؤلاء الكرماء الذين عاونونى فى إخراج هذا الكتاب : الدكتور فيليب حتى والدكتور خير الله ، اللذين راجعا أصل الكتاب معى ، ومستر دونالد إلدر والسيدة مورتن بينيباكر ، والسيدة ندا باتسفيتش والسيدة إلين سيبروك والآنسة آن وتكينس الذين عاونوا بطرق مختلفة على كتابة هذا الكتاب ، وأن أشكر الآنسة اميلى دافى التى قرأت وصححت أصول « الرسول » .

ر . ف . بودلى

واشنجتون .

ديسمبر ١٩٤٥

---

(١) كانت ترجمة القرآن باهتة لاروعة فيها وإن كانت تؤدى المعنى اللفظى وقد ذكر المؤلف رأيه فى ترجمة القرآن فى الفصل الخاص بالقرآن

مقدمة الكتاب

كتبت هذا الكتاب لمن يرغبون فى معرفة شيء عن محمد والإسلام أكثر مما كتبته للشرقيين وطلاب الدين ، وليس معنى ذلك أننى فى علاج هذا الموضوع أخذت حريتى فلم ألتزم الدقة ، أو أننى حذفت أية تفاصيل من حياة محمد أو من تعاليمه ، فإن الأمر على النقيض : فالمواد التى فى هذه الصفحات أغنى منها فى كثير من كتب السيرة ، وقد بذلت عناية خاصة فى المحافظة على دقة الحقائق على قدر المستطاع فى حالة تسجيل حياة إنسان لا يعرفه المترجم له معرفة شخصية . وبذلت أيضاً ما فى وسعى لأتجنب تحمس المتعصبين للإسلام أو سوء العرض الذى يجنح إليه المتعصبون المسيحيون . وقد أعطيت الخرافات والمجادلات قيمها المناسبة ، وإنه لمن الغريب أن نلاحظ ، دون أسباب ثابتة وطيدة ، أن هناك سوء فهم عام لمحمد أكثر من أى مؤسس آخر من مؤسسى الديانات العظيمة .

وبينا أننا لا نجد ما دونه معاصرو موسى أو كونفوشيوس أو بوذا ، وبينا أننا لا نعرف إلا بعض شذرات عن حياة المسيح بعد رسالته ، ولا نعرف شيئاً عن الثلاثين سنة التى مهدت الطريق للسنوات الثلاث التى بلغ فيها أوجه [1] ، إلا أن قصة محمد واضحة كل الوضوح .

---

(١) يقال إن المسيح قد صلب فى سن الثالثة والثلاثين .

ففى سيرة محمد نجد التاريخ بدل الظلال والغموض ، ونعرف الشىء الكثير عن محمد كما نعرف ذلك عن رجال عاشوا فى أزمان أكثر قرباً من زماننا ، وما كان تاريخه الخارجى وشبابه وأقاربه وعاداته خرافة من الخرافات ولا شائعة من الشائعات ، وما كان تاريخه الداخلى وقد وضح بعد رسالته برواية مبهمة لمبشر غامض أو مشوش ، فبين أيدينا كتاب معاصر ، فريد فى أصالته وفى سلامته ، ولم يستطع أن يشك فى صحته كما أنزل[1] أى شك جدى .

ويعرف هذا الكتاب بالقرآن ، وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت إشراف محمد . وعلى الرغم من أن الأفكار قد دونت فى الرقاع وسعف النخل والعظام فى لحظات غريبة ، فإن السور والآيات الأصلية قد حفظت ، وما عمل هذا ، كما هو الحال فى العهد القديم والعهد الحديث ، بعد قرون أو حتى عشرات السنين بعد موت المؤلف ، فإن أبا بكر ، خليفة محمد الأول ، قد جمع الرقاع التى دون القرآن فيها ، ونسخها حرفياً وحفظت هذه النسخة عند حفصة إحدى زوجات محمد .

وفى عام ٦٤٦ بعد الميلاد ، أى بعد موت محمد بأربع عشرة سنة ، أحرق عثمان الخليفة الثالث ، وصديق محمد ومعاصره جميع نسخ القرآن التى كتبها الأتباع المتحمسون من الذاكرة ، ولم يبق إلا مصحف حفصة ، وقد نسخ عنه جميع المصاحف الأخرى ، ومنذ ذلك الوقت لم يضف إلى القرآن شىء ولم يحذف منه شىء .

وإن هذا الكتاب ليس بمجموعة أحاديث أو تقارير يفترض فيها أن

---

(١) الكلمة الانجليزية هى Authenticity ومعناها ثبوت صحة مؤلف كتاب .

يكون محمد قد قالها ، فإنه نفس الآيات التى أملاها بنفسه يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر خلال حياته ، إنه انعكاس هذا الفكر الثاقب ؛ وهو أحياناً غير فنى ويناقض نفسه ، وهو غالباً ملهم وشاعرى ، وهو دواماً ملىء بالأفكار العظيمة التى تبرز فى الكتاب جميعه .

ولكن إذا لم يكن القرآن عندنا ، فهناك حلقات أخرى تربطنا بأزمان محمد هى الشعب العربى .

لم يتبدل الجنس البشرى جسمانياً ، وتبدل تبدلا طفيفاً عقلياً فى خلال عشرات الآلاف من السنين التى سجلها التاريخ على اعتبار أنها سبقت زماننا ، فقد كانت الانفعالات النفسية والسرور واللهفة والمعضلات السياسية والمنزلية للناس الذين عاشوا فى تلك العصور السحيقة تشابه كل المشابهة انفعالاتنا ومشاكلنا .

ويميل الغربيون إلى اعتبار الحضارة تياراً مقبلا يتقدم ثابتاً منذ بداية الخليقة ، وإن هذا ليس صحيحاً كل الصحة ، فالحضارة موجة يصيبها المد والجزر ، فترتفع إلى أقصى غاياتها ثم ترتد ثانية : وعلى الرغم من ذلك فإنه لو بعث بابلى أو إغريقى لوجد من الصعب أن يعد نفسه ليحيا الحياة العصرية ، فإن القرون التى تفصل تلك العصور عن هذا العصر فى الأفكار والعادات لا يمكن اجتيازها ، ومن الممكن أن يقال ذلك عن معظم العهود ، عهود أقل بعداً من عهود الاغريق وبابل ، عهود لا يفصل بينها إلا مئات السنين فقط ، ولكن هناك استثناء ، فإن الثلاثة عشر قرناً الواقعة بين أيامنا وأيام محمد كان أثرها فى تغيير أحفاد الرجال الذين قرروا أول مرة أن الإسلام هو طريق الخلاص ، أقل من أثر الزمن

الذى انقضى بين الجنرال واشنجطن والجنرال إيزنهاور ، فلو أن مسلماً من مسلمى القرن السابع قد عاد إلى تلك البقعة من جزيرة العرب الواقعة بين مكة والمدينة حيث عاش محمد لما وجد ما يثير دهشته ؛ فإنه سيجد العرب الرحل فى خيامهم السود ، والمسافرين على ظهور إبلهم ، والحجاج يتدفقون من البحر الأحمر فوق الصحراء ، إنه سيجد كل شىء فى مكانه كما تركه ، وسيجد ملابس الناس كما كانت ، ومظهرهم الجسمانى كما كان .

إن سحنة العربى وبنيانه اليوم أو من ثلاثة عشر قرناً ، أو ثلاثة آلاف سنة لم يصبها تلك التغيرات التى طرأت على الأجناس الانجلوسكسونية أو اللاتينية ، وحتى طريقة ارتداء الثياب لم تتبدل قط ، وإن فى مقدور المسلم الذى عاش فى القرن السابع أن يتعرف على قبائل من القبائل التى ترعى حول مكة تحمل نفس الأسماء التى كانت تحملها أيام محمد ، وسيتعرف على رجال من رجال هذه القبائل قد انحدروا مباشرة من رجال عصره ، ولو أن سيارة أحدثت جلبة وهى منطلقة مثيرة النقع ، ولو أن طيارة قد أزت أزيزاً فوق رأسه ، لما وجد ذلك العربى المبعوث أية صعوبة فى أن يعزو هذه العجائب إلى الجن .

وعلى الرغم من أنه ليس هناك كتب كتبها معاصرون لرسول الله إلا أن هناك كتباً عديدة كتبها رجال استمدوا معلومات موضوعهم من أناس عاشروا الرسول ، وبعض هذه الكتب يمكن قراءتها اليوم : وقد لا يبدو لنا هذا شيئاً يستحق الانتباه ، لأننا اعتدنا أن نرى كتاباً يكتبون سير أناس أحياء ، وإن هذه العادة على أية حال عصرية ، فقد كانت السير إلى زمن قريب نسبياً فى موات .

عاش أناس عديدون من أصحاب محمد بعده ، فرووا ذكرياتهم عنه لذريتهم ، وقد نفذ خلفاء محمد تعاليمه السياسية والعسكرية دون أن يحيدوا عنها ، وكان من العرب الذين استولوا على إسبانيا وتوغلوا حتى منتصف فرنسا رجال معروفون سمعوا دعوة الرسول .

إن البدو الذين عشت معهم فى الصحراء لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد عنهم كما يتحدث المسيحيون عن المسيح . وإن المرء لا يحس أبداً ذلك الغموض ، ولا تلك العزلة التى يحسها إنسان يرتدى ثياباً تختلف عن ثياب القوم ويعيش فى أرض غريبة بين أناس لا يستطيع الرجل العادى منهم أن يلحظه . وليس هنالك تفكير كتفكير تلك السيدة العجوز من بالتيمور التى قالت عن الصلب :

« لقد كان من أمد بعيد جداً ، ولنأمل ألا يكون ذلك صحيحاً » .

إن العرب ليتحدثون عن مؤسس دينهم كما يتحدثون عن شخص يعرفونه ، لقد كان راعياً ، وقد ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها ، وقد امتطى إبلا كما يفعلون ، وقد كان التمر الذى عاش عليه يشابه تمرهم ، إنهم ليشاركونه فى كل ما فعله ، لقد كان محمد بالنسبة لهؤلاء البدو حياً كأى فرد منهم .

لذلك كانت استعادة هذا المشهد الذى مر عليه ثلاثة عشر قرناً بالنسبة إلى أيسر من وصف جامعى من أكسفورد الحياة فى عصر اليزابيث ، وكان أبسط من كتابة مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال ، وكان أقل صعوبة علىّ من أغلب من كتبوا سيرة محمد .

إن أغلب هؤلاء الكتاب كانوا يمتازون غنى بالأسلوب وسعة الاطلاع وبالسرد الفنى للسيرة ، ولكنهم كانوا جميعاً ينقصهم ما أملك ، لأنهم ، سواء أكانوا شرقيين أم غربيين لم يعش أى منهم نفس الحياة التى عاشها محمد وأتباعه فى بلاد العرب فى أوائل القرن السابع ، والتى عشتها أنا فى خلال النصف الأول من القرن العشرين ، فلا الأسيويون ولا الأوربيون ولا الأمريكيون الذين كتبوا عن محمد قد تغلغلوا أبداً فى تلك البقاع المنعزلة من صحراء العرب حيث جاء محمد بالإسلام إلى الوجود .

لم يقم الغربيون بالتجربة لأنهم لم يكونوا ليخضعوا أنفسهم لحياة العرب ، فقد عرفوا أنهم مالم يعيشوا عيشة البدو لسنين فإنهم لن يخرجوا بشىء يستحق التجربة المتعبة .

وقد يجد الشرقيون هذه التجربة أكثر صعوبة : فرجال الشرق الذين يكتبون معتادون على حيـاة الإقامة والاستقرار ، فهم يعيشون فى واحات أو مدن لا يعرفون شيئاً عن الصحراء ، وليس بينهم وبين البدو أى اتصال ، وإنهم ليفكرون فى تمضية بضعة أشهر فى خيمة من وبر الجمل كما يفكرون فى قطع البحر الأبيض سباحة .

وعلى ذلك فجميع هذه السير ينقصها شىء ، إنها غير كاملة ، وقد فشلت فى عرض موضوعها من كل الزوايا ، فإن محمداً ليظهر عادة كصورة محددة على حائط أبيض ، وقد تكون الصورة روحية أو مادية أو مخيبة للآمال ؛ وأياً كانت الصورة ، فإنها منعزلة ، فمن النـادر أن نجد الظلال والبيئة ، وإن الصورة لتبدو صورة باهتة ألصقت على ورق مقوى ملطخ ،

وما كان محمد سهلا منبسطاً ، فقد كانت له أبعاد كثيرة ، وما كان هناك شيء لا لون له في حياته .

وقرأت لمؤلف ما كتبه عن محمد ، فكان من الواضح أنه لم يغادر نيو إنجلند أبداً حيث كان يعمل راعى كنيسة ، فكانت آسيا وأفريقيا أبعد عنه من الجنة والنار ، وبرغم ذلك فقد سود ثلاثمائة صفحة ، استعرض خلالها حياة الرسول استعراضاً وثيقاً . وعلى الرغم من الأسلوب المشرق ، ومعرفة الكتب المقدسة معرفة رائعة ، والإلمام باللغة العربية إلماماً سطحياً ، فقد كشف عن جهل فاضح ، فما كان يدرى كيف كان محمد يعيش ، ولا ما جاء به .

وكان فى خلال كتابه لا يدعو محمداً أبداً إلا باسم « الدجال » دون أن يوضح لنا كيف أن الدجال المزعوم قد دفع أتباعه المباشرين لفتح مساحة من الدنيا تبلغ رقعتها ثلاثة أمثال الولايات المتحدة ، وكيف وهب للبشرية حضارة لا زالت قائمة حتى اليوم .

وإن جورج سيل الذى ترجم القرآن ترجمة طيبة فى أوائل القرن الثامن عشر ، والذى كان من الواجب أن يعرف محمداً معرفة أفضل ، صدر ترجمته بالآتى :

أخبرنا المؤرخون أن المدن الشهيرة المميزة على جميع المدن الأخرى فى التجارة والآداب تنازعت فيما بينها على أيها كان لها شرف أن تكون مسقط رأس هوميروس . . . وإن مثل هذا النزاع ليستحق الثناء لأنه يدل على رقى فكر رجال ذلك العصر . ولكن لما فحصت شخصية محمد فحصاً دقيقاً كانت الصورة فظيعة معيبة ، حتى أنه لمن الغريب أن مكان منبته

لم تسدل عليه سدول النسيان ، إن أى قطر ليخجل من إنجاب مثل هذا المجرم ، ومع ذلك فقد كان توقير العرب لهذا المخاتل الكبير دواماً ، حتى إنهم لم يدعوا المكان الذى تنفس فيه أول ما تنفس يحيطه أية ريبة أو غموض .

واستمر هكذا ، وإن التعليق الوحيد على هذا هو أن نستعير الألفاظ من صفحات قصة محمد التى كتبها راعى كنيسة نيوإنجلند الذى ذكرناه آنفاً :

كيف استطاع مثل هذا المجرم ، مثل هذا المخاتل الكبير ، أن يخلق ديانة يدين بها اليوم ثلاثمائة مليون مؤمن وبدلا من أن تأخذ فى الزوال كما هو حادث لكثير من ديانات العالم ، فإنها اليوم أقوى مما كانت ، ويزداد معتنقوها يوماً بعد يوم ؟

ويبدو أيضاً أن هؤلاء المتشككين فى النبى المزيف قد نسوا أنه كان هناك اختلاف طفيف فى الرأى بين المسلمين والمسيحيين فى بداية الأمر ، ففى أيام دعوته الأولى ما كان يغضبه أن يظن أنه مسيحى ، ولما اضطهد لجأ إلى نجاشى الحبشة ، فوجد عنده مأوى لأتباعه ، وكان النجاشى يحكم مملكة مسيحية ؛ وفى الواقع إنها مسألة حظ فقط أن الإسلام لم يصبح مذهباً مسيحياً كالموارنة أو الكورنثيين ، كما سنبين ذلك فيما بعد ، ولم يبدأ سوء فهم المسيحيين للإسلام حتى أواخر أيام محمد ، وقد بدأ فى صورة جدية فى الحروب الأولى التى شنها الصليبيون ، وقد ازداد سوء الفهم منذ ذلك الحين حتى إن لفظة « محمد » أصبحت بمعنى الكفر بالله ، وتطورت لفظة « المحمدية » فى أذهان معاصرى شكسبير حتى أصبحت بمعنى أية ديانة

مزيفة ، وعلى الأخص الديانة التى تعبد الأصنام ، وأصبحت لفظة « محمد Mammets » تستعمل بمعنى أصنام ، واشتقت كلمة Mahomerie ثم كلمة Mummery بمعنى مجون من نفس المصدر .

كانت بعض الأفكار المقبولة فى تلك الأوقات وهمية خيالية ، فقد أظهر محمد ، مثلا ، فى شعر القرن الثانى عشر كأمير من أمراء الإقطاع يتلقى الأوامر المسيحية المقدسة ، وأنه قد خلق ليكون كردنالا ، ولكنه لما فشل فى أن ينصب نفسه بابا ، ثأر لنفسه بأن ابتدأ بدين جديد .

وكانوا يعتقدون حتى زمن قريب نسبياً فى الفكرة القائلة بأن نعش محمد معلق بين السماء والأرض ، وقال المؤرخون دون خجل إن محمداً مدفون فى مكة ، وقال آخرون إنه مات من السكر ، وإن الخنازير قد أكلت جسمه ؛ بينما أن محمداً قد أعلن أن الخنزير غير نظيف وأنه قد منع أتباعه من لمس الخمور ، وبينما أن جسده قد بقى حيث رقد رقدته الأخيرة فى المدينة مذ ثلاثة عشر قرناً مضت .

وإن المثل السائر عن محمد والجبل [١] لا علاقة له ببلاد العرب فى القرن السابع ، وقد ذكر لأول مرة بعد مقال بيكون « الشجاعة » الذى نشره حوالى ١٥٩٧ م .

وقد يصادف المرء أحياناً كتَّاباً من طراز جون سلدن الذى أجهد نفسه فى دراسة دين العرب هذا ، فقد قال هذا الكاتب الذى عاش فى القرن السابع عشر :

« إنهم يطلقون على الأوثان لفظة « محمد Mammets » وعلى عبادة

---

(١) المثل الذى يشير إليه المؤلف هو : « لو لم يسع محمد إلى الجبل لسعى الجبل إليه » .

الأوثان « المحمدية » Mammetry ، فصارت محمد والمحمدية أسماء بغيضة ، فى حين أن العالم أجمع يعرف أن الترك (يقصد المسلمين) يحرمون الأوثان فى دياناتهم . »

ولكن مثل هذه الحقائق كانت نادرة ، وكان الاعتقاد السائد هو أن أية ديانة جاءت عقب موت المسيح ينبغى أن تكون ديانة زائفة .

وهنالك أيضاً كتّاب ذهبوا إلى الطرف الآخر ، فجعلوا محمداً قديساً ، إذا لم يجعلوه إلهاً ، كتّاب عزوا إليه معجزات ، وظواهر خارقة للطبيعة ، وقوى سماوية ، وهى ليست أكثر صدقاً من اتهامات جورج هيل ، والمفكرين من مدرسته ، لقد قال محمد قبل أن يموت :

« قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

لقد كان يحس خزياً لو أنه رأى الخرافات العديدة التى ينسجها الكتّاب على حسابه . وإن هذا هو عيب كتاب سيرة محمد ، فهم إما مؤمنون به وإما كافرون به بدرجات مختلفة فى التعصب ، وإن القليلين هم الذين سردوا قصة الرجل دون تحزب أو محاباة ، ودون أن يبرزوا فضائله أو عيوبه ويضغطوا عليها ، ولم يبرز أحد منهم عملياً تأثير الإقليم والمناخ والعادات ، وهى التى تسبب أعظم الاختلافات فى طريقة معيشة أى فرد .

وعلى ذلك فإن محاولتى هى عرض محمد كما كان — أعرابى مثل كثير من الأعراب الذين عرفتهم فى الصحراء ، رجل له رغبات بسيطة ، ولكن له شخصية عظيمة ، يحب قومه من كل قلبه ، رجل يوحى إليه ، ولكنه كان يفكر فى كل ما يفعل تفكيراً منطقياً ، رجل يصفح عن ضعف الرجال

والنساء ، لأنه كان نفسه ضعيفاً غالباً ، وما كان إلهاً أبداً .

ولم يستعمل محمد وأتباعه أبداً عبارة « محمدى » أو « المحمدية » ، فعلى الرغم من توقيرهم لزعيمهم ، فقد كان محمد المخلص يعرض عن هذه التسمية دواماً ، وإن التعريف الوحيد الذى ينطبق على من يدين بالدين الذى أسسه محمد هو : « المسلم من يسلم نفسه لمشيئة الله » .

كانت رغبات محمد بسيطة ، فكان الزهد فيها أمراً ميسوراً ، ولكنه كان رجل دُنيا أيضاً ، وما كانت دنيا الماضى السحيق ، وما كان محمد ليحس امتعاضاً لترف المجتمع الغربى أو الشرقى : فقد أحب كما أحببنا ، وكان له أولاد ، وكان فارساً لا يشق له غبار ، وكان يستطيع أن يصنع نعله ، ويرقع ثيابه ، وكانت فيه دعابة حسنة ، وكان يعرف فى نفسه أنه قائد ، ولكنه ما كان محباً للمظاهر ، ولم يحاول أبداً أن يؤسس شيئاً يشابه البلاط ، ولم يسمح أبداً لأى كان أن يعتقد فى أن له صفات إلهية أو خارقة للطبيعة .

وأعود إلى ما قررته أولا فأقول إن البشر قد تبدلوا تبدلا طفيفاً خلال القرون التى سجلها التاريخ ، إنهم قد جعلوا الحياة أكثر تعقيداً ، ولكنهم حافظوا على نفس السحن ونفس الغرائز البدائية ؛ وعلى ذلك فلو أن هذا الكتاب عن رسول الله مؤسس الإسلام فلا ينبغى اعتباره شيئاً لا يهم القارىء العادى ، فإن سيرة محمد يمكن أن تكون سيرة أية شخصية فذة فى التاريخ أو الرواية ، فبها جميع عناصر الرواية والمفاجأة والروعة الضرورية للقصة الطيبة .

وعلى ذلك فلينس القارىء الإسلام والمسلمين والقرن السابع وبلاد العرب ، ولينظر إلى رجل شرع فى عمل الخير ، وقد عمل الخير على الرغم

من جميع العقبات الممكنة التى اعترضت طريقه. وإن الفرق الوحيد بين قصة محمد المثيرة الناجحة وقصة أى شخص آخر هو توليف الحوادث، وإن هذا لمما يزيد فى الشغف والروعة.

وليس هناك جديد عن محمد فى هذه السيرة، وإن الجديد هو إظهار كيف أن الظروف جعلت محمداً يقوم بأشياء ظلت غامضة على الغربيين. وقد تمكنت من ذلك بسبب مصاحبتى الطويلة للعرب، ولصداقتى لهم:

إنى أعرف العرب عن كثب، وإنى أحبهم، وقد عشت فى خيامهم وأحببتها، ولقد اهتممت اهتماماً عملياً بعقيدة المسلمين، وإنى أظن أنى أستطيع أن أفكر كما يفكر محمد وأحس كما يحس، وإنى أفهم على التحقيق مشاكله. لذلك قصصت محاسنه وعيوبه دون تحيز، وإنى أحس أن محمداً عظيم العظمة الكافية ليتحمل أخطاءه كما يتحمل فضائله، ويظل بعد ذلك عظيما. وإنى أشك فيما إذا كان هناك أى رجل آخر قد تبدلت ظروفه الخارجية ذلك التبدل العظيم ولم تتبدل نفسه لتقابل تلك الظروف.

الفصل الأول

مكة

القرن الثالث الميلادى

تقع مكة — حاضرة الإسلام المقدسة — فى منتصف الطريق بين اليمن وسوريا ، فى قلب صحراء العرب ، وتقع فى واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها ، وكأنما الطبيعة قد تآزرت والمسلمون على حماية هذه البقعة الطاهرة وكتم أسرارها .

وليست مكة بالرقعة التى تستهوى الأفئدة ، ولا يحس الغريب النازل بها مودة من أهلها ، وإنها لتقع بين تلال صخرية سوداء ذات أطوال متساوية ، تمتد لأميال عدة ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لهذه التلال الجرداء ، ولا لهذه الصحراء المترامية التى يكاد ضوؤها يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة ، فحصاها وصخورها الصماء تبعث إلى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق يصعد إلى السماء دخانه .

وإذا ما استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم الحياة كأنما جمدت فى هذه الفلاة ، فالوحشة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك أذنيك إلا صفير الريح الصرصر العاتية ، والتغير الوحيد الذى يطرأ على

هذه الأرض المنبسطة دائماً ، هو شبوب أعمدة من الرمال وارتفاعها فوق السهل المنبطح ، فكأنها مردة غاضبة ثائرة . وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل فى النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة لاوجود له ، فلا نخيل هناك ولاحدائق توحى بالتفكر فيها وتمنيها ، فما من شىء ينبت فى بلدة الرسول المقدسة ، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية . والبلدة نفسها مطبوعة بطابع أرضها ، فبيوتها المتلاصقة المتباينة فى الحجم والشكل والمساحة مبنية من الحجر ، وتتدرج على جانب الوادى المنحدر فتبدو كخلية نحل ، ويقع هنا وهناك دار منعزلة قد شيدت على قنة صخرة سوتها الرياح ، فتظهر كأنها تنتظر سنوح الفرصة لتندفع وتنضم إلى رفيقاتها المتلاصقة المتشابكة بعضها ببعض .

ويتوسط البلدة بيت الله ، وهو رحبة واسعة ذات عمد كثيرة تمتد فى أماكن عديدة من الحرم ، وقد أقيمت الكعبة فى وسط الرحبة تقريباً فى مكان منخفض ، والكعبة بناء لا نوافذ له ، مكعبة الشكل ذات سطح مستو مصنوع من الحجر الرمادى ، ويبلغ ارتفاعها أربعين قدماً ، ويغطيها غطاء هائل أسود ، موشى بالذهب الخالص ، وقد طرز عليه آيات من القرآن ، وهذا الغطاء يعرف بالكسوة ويجدد فى كل عام . والكعبة هى قبلة المسلمين التى ييمون شطرها فى صلواتهم خمس مرات فى اليوم .

كانت الكعبة مركزاً للعبادة مذ فجر التاريخ ، وقد تلاشى أصلها على الأيام واختفى فى ضباب الخرافات ، وإن اشتهارها باسم (بيت الله) ليدل على أن قديساً متناهياً فى القدم قد أقامها بعد أن أوحت إليه الملائكة

بإقامتها فى حلم من أحلامه ، وقد سمى يعقوب عموده « بيت إل » أى « بيت الله » :

وتعود أساطير العرب بالكعبة إلى آدم فتنسب إليه بناءها ، ثم تعود فتذكر أنها التى قضى الطوفان عليها ، وأن إبراهيم وإسماعيل قد جددا بناءها ، ثم وقعت عقب ذلك فى أيدى عبدة الاصنام ، فأضافوا إليها طبقات حتى جاء محمد ، فطهرها وجعلها مركزاً لعبادة إله واحد . ووضع الحجر الأسود فى الزاوية الخارجية لحائط من حيطان الكعبة .

ويتكون الحجر الأسود من قطع صغيرة عدة ، أثنى عشرة قطعة على التحقيق ، قد شدت بعضها إلى بعض بملاط أسود وتربطها بعضها إلى بعض عصابة فضية ، وشكل الحجر على العموم بيضاوى ، ويبلغ قطره سبع بوصات ، ولم يثبت أصل هذه القطع . وتقول الأساطير إن الحجر جاء من الجنة ، وسلمه جبريل لإبراهيم وإسماعيل لما كانا يقيمان الجوانب من البيت ، وكان ناصع البياض كالثلج ، واستحال إلى لونه الحالى من تقبيل ملايين الخطائين الذين يفدون سنوياً إلى مكة للحج ، وإن هذا القول لا يميط اللثام عن أصله ؛ وما يزيد الأمر صعوبة أن الذين يفدون إلى مكة للحج يعتقدون أن الحجر الأسود رمز مقدس ، ولا يهمهم معرفة أصله الجيولوجى ، ويختلف عنهم التجار الذين دفعهم حب الاستطلاع إلى فحصه ، والذين كانت عقولهم حرة ، فقال بعضهم إنه صخرة من جبل أبى قبيس الواقع شرقى مكة ، وقال بعضهم إنه نيزك ، وأكد آخرون أنه من أصل بركانى .

ولا يهم كل هذا كثيراً ، على الرغم من الاهتمام الشديد بالموضوع

فى آونة مختلفة ، فأياً كانت مواده فقد بقى فى مكانه لأحقاب طويلة .
ويخبرنا مكسيموس تياروس الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى « أن العرب يعبدون إلهاً يرمزون إليه ببناء مستطيل فيه حجر أسود » .

وتوقير الحجر الأسود اليوم إن هو إلا تقليد من التقاليد المرعية ، وكان للعرب تعاليم لا يقبلها العقل بشأن عبادة الأصنام قبل أن يدخلوا فى دين محمد ، فكانت الكعبة مكدسة بقطع الصوان المختلفة والمنحوتة نحتاً بدائياً ، وكان بينها تماثيل كانت تمثل مريم وإبراهيم وإسماعيل والمسيح فى زعمهم ، ويقال إنه كان فى هذا البناء الذى لا نوافذ له ثلاثمائة وستون صنماً ، وبقى الحجر الأسود منفرداً دون أن يربط المسلمون بينه وبين الأصنام ، كما يربط المسيحيون بين برج الكنيسة والأقواس القوطية وبين رموز الخصب الطبيعى . وحول الكعبة سبع بنايات صغيرة أهمها بئر زمزم ، حيث انطلقت هاجر لتقضى ما بقى من عمرها بعد أن طردت من خيام إبراهيم بتحريض من سارة ، ولقد هامت هاجر على وجهها فى الصحراء حتى بلغت وادى مكة الصخرى ، وبعد أن نفدت مؤونتها ، وما بقى معها ما يروى غلتها ، وهاجمها عطش قاتل أخذت تهرول هنا وهناك تبحث عن ماء ؛ فلما نال منها الجهد وأشرفت على الموت عطشاً ، ارتمت فوق الرمال الصادية وقد تركت ابنها تحت شجرة سنط شائكة . وجعلت تذرف الدمع وقد غطت رأسها بشالها ثم قالت : « لا أنظر موت الولد » . وقبل أن ينفذ ما كان مقدراً نفاذه ، لاح لها ملك وهداها إلى موضع البئر ، وكانت على قيد خطوات منها ، فزحفت هاجر إليها . فما كانت بقادرة على أن تنتصب واقفة ، وعبّت وابنها منها فمشت فيهما

الحياة . وإن هذه البئر لهى بئر زمزم ، ولقد سميت بهذا الاسم لانبعاث صوت « زمزمة » عند خروج المـاء لهاجر ، فإذا ما صدقنا ما جاء فى سفر التكوين كان من المحتمل أن تكون زمزم من أقدم آبار العالم ، ولا يداخل العرب أدنى شك فى ذلك ، فإنهم ليقولون إنه من الواضح وضوح النهـار أن مكة تقع فى نفس الموقع الذى نزلت فيه هاجر ، وليس هناك ما يمنع من الأخذ بهذا القول .

كان إبراهيم رحالة يعيش فى الخيام ، فإذا ما طرد إنسان إلى الصحراء ولا جمل معه ، فإنه لمن المتعذر أن يستمر حياً إذا لم يعثر على ماء ، فإذا كان هناك منابع ماء وآبار كما هو الحال الآن ، فإنه ليتعذر عليه إذا لم يكن راعياً أو عالماً بالمكان الاهتداء إليها، وخصوصاً إذا كان فى ضيق منهوكا محطما . وإن قصة هاجر لأكثر قصص العهد القديم احتمالا للوقوع ، وإن النبع الضئيل لهو الذى جاء بمكة إلى حيز الوجود ، ففى مثل هذه البادية المنعزلة تجذب البئر القوافل فى آثار الرعاة ثم تصبح محطاً للقوافل تقضى بها ليلها ، ثم تتسع على الأيام فتصير مركزاً تجاريا .

فإذا أخذنا بالأساطير ، فإنه يمكن القول إن تاريخ العرب ليبدأ من هذه النقطة ، وقد جاء عقب طرد هاجر الفاجع ، حادث لا يقل عنه إيلاماً ، ألا وهو حرمان يعقوب للعيص من الميراث ، وكانت النتيجة غير المباشرة لهاتين المأساتين أن تزوج العيص من مكالا ابنة إسماعيل ، وكان ثمار هـذا الزواج الآدميين (Edmites) والعمالقة (Amalekites) والإسماعيليين وهم أجداد الشعوب العربية .

وقبر اسماعيل وهاجر فى مبنى لا يبعد كثيراً عن زمزم ، وفى مبنى

آخر يوجد الحجر الذى أشرف من فوقه إبراهيم عندما أعاد بناء الكعبة.

وبيوت مكة مصنوعة من الحجر الرمادى ، وهى فى العادة أعلى من مثيلاتها فى معظم الدول الشرقية ، وسقوفها مسطحة ذات شرفات مغلقة ، وشوارعها ملتوية ضيقة ، ويصعد بعضها صعوداً شديداً فى التلال المكتنفة مكة ، وهذه الشوارع تكتظ دائماً بالسابلة ، فهم منطلقون إلى عملهم أو لزيارة أصدقائهم أو عائدون من رحلاتهم . وتسير الإبل فى رفق فوق الحصى دافعة إلى جانب الطريق البغال والحمير ، وهى دواب الحمل الثقيل . وهناك جدال وضحك وغبار دواماً ، وعلى الرغم من أن السيول الهاطلة من المرتفعات إلى وادى مكة الضيق فى ثورة وغضب قد هدمت المبانى الأصيلة إلا أنه قد قام مكانها مبانٍ مماثلة ، وبقيت الدور التى لم تبلغها السيول كما هى ، ويرى زائر مكة اليوم الدار التى ولد فيها محمد والدار التى تزوج فيها ، ويقال إنهـا هى بعينها لم تتبدل ، وليس فى هذا غرابة . فما هو من قول الخيال ، فالمبانى تبقى فى مثل ذلك الجو الجاف مدداً أطول من بقائها فى جو كثير الرطوبة والضباب ، فلو قدر لعابد أصنام ممن عاش قبل الإسلام أو لو قدر لصاحب من أصحاب محمد أن يبعث فى البلد الحرام ، فلن يعييه أن يميز الآثار التى رآها فى الطرقات من عشر أو عشرين قرناً خلت ، ولن يلمس تبدلا ملحوظاً فى وسائل المعيشة ، فالحوانيت والمنازل التى تكرى والمطاعم ثبتت على ما كانت عليه منذ ثلاثة عشر قرناً أو يزيد .

وصارت مكة ذات أهمية فى القرن السادس ، وكانت لغتها العربية تعتبر أعلى مراتب الثقافة ، وكان رجالها يعتبرون أنفسهم أكثر الناس

وجاهة ، فكان التجار والحجاج يفدون إليها من أطراف بلاد العرب ولا زال الحال إلى اليوم كما كان عليه من قبل ، فاللهجة المكية لا زالت تعتبر اللهجة الأصلية ، وقد ارتقت مدن أخرى وصارت مراكز للحضارة ، ولكن لا زالت القوافل والحجاج مصدر رزق المكيين ، ولا زال المكيون يستغلون الزوار كما كانوا يفعلون من قبل ، فهم يحددون الأجور على حسب العدد الموجود بمدينتهم ، وبقيت مصادر السوق المالية ، واحتكار وسائل المعيشة والمقامرة على المحاصيل على ما كانت عليه من أزمان سحيقة متناهية فى القدم .

ومن وسط تلك الأرستقراطية المكية العابدة للأصنام ، المهتمة بشئون المال والتى تعيش فى هذه البقاع القاسية الماحلة ظهر محمد . وما كان من البدو ، وعلى الرغم من ذلك فإن قبائل البادية كانت من أشد الناس إيماناً بدينه ، وقد حمل رجالها رسالة الإسلام إلى العالمين . وقد يبدو هذا شيئاً عادياً لا غرابة فيه لمن عاش بعيداً عن العرب ، ولكن هذا ، فى حقيقة الأمر ، من فعال محمد التى تقرب المعجزات .

ينقسم العرب إلى فريقين : فريق ظاعن وفريق قائم ، فالفريق الظاعن هم الرحل والبدو ، والفريق القائم هم رجال الحضر ، فرجال الحضر هم دائماً رجال الدرس والتجارة ، ويرجع الفضل فى تنوير العرب من الوجهة السياسية إلى هذه الفئة القليلة . والبدوى هو الراحل المقاتل الباسل الذى حمل رسالة الإسلام إلى أقصى الأرض بدافع حب المجازفة ، لا رغبة فى نشر ثقافة العرب ، وهكذا يختلف البدوى عن الحضرى اختلافاً بيناً . وعلى الرغم من اختلاف حياة الواحة أو المدينة عن حياة

البادية فإنهما تؤلفان اتحاداً كما يؤلف الأب والأم .

قد تكون الواحة حدائق واسعة من نخيل وورود فى وسط البادية كمدينة الرسول ، وقد تكون مدينة نشأت حول بئر صحراوى كما حدث لمكة ، وأياً كان نوع الواحة فالحياة فيها لا تشبه الحياة فى أى مكان سواها . فهى كالحياة فى جزيرة تتركز أفكار ساكنيها فيها . فرجال الواحة يتعلقون بالبقاء بواحتهم أكثر مما يتعلق سكان قرية من ريف أمريكا بقريتهم ، فهم لا يشاركون البدو فى صفاتهم ، فالبدوى المقاتل يعتبر قطع المسافات الشاسعة وما يكتنفها من مخاطر وحروب ضرورة من الضرورات ، فهى مصدر صفاته المكتسبة الطيبة وأمانيه وروح الدعابة فيه ، وقد خلقت منه حياته التى لا تعرف الاستقرار رجلا ذا صفات عالية ، ولكن إذا ما فقد حصانه أو جمله وركن إلى القعود والاستقرار فإنه ليحس مسكنة ومهانة ، وسرعان ما ينال العطب أصله الطبب . والبدوى لا يحتقر أهل الحضر ولا يقاتلهم ، ولكنه يعتبرهم تبعاً له ، ولا يحب أن يقتفى أثرهم أو يسلك سبيلهم : لذلك كانت سيطرة محمد على البدو شيئاً يدعو إلى الدهشة والعجب .

وعلى الرغم من أن العرب كانوا يخضعون لقوانين متشابهة ، ويتكلمون لغة واحدة ولهم وطنية عربية مشتركة إلا أنهم كانوا قبائل مستقلة ، لكل عاداتها ولهجتها ، على أهبة الذود عن حياضها . ولا زال العرب حتى اليوم يحسون مثل هذا الإحساس . وإن هذا ليجعل من المستحيل قيام حكومة عربية مركزية ، فإذا ما صار رجل من رجال الصحراء قائداً لهذه القبائل ثم يجمعها جميعاً تحت لواء واحد لتموت دونه

لأمر يدعو إلى العجب : فما بالك إذا خرج هذا الرجل من رجال الحضر الذين لا يوقرهم أهل البادية كل التوقير ! إن هذا ليبلغ حد الوهم والخيال . إنه لمن الجلى أن العرب الرحل حتى ظهور محمد كانوا يغارون على حريتهم لدرجة أنهم كانوا لا يترددون فى طرد أى شخص بدوى أو غير بدوى يظهر أى مطامع ملكية . والعربى عامة والبدوى خاصة اشتراكى بطبعه ؛ فكل من الراعى ورئيس القبيلة يتساويان ، فلا فضل لرجل على رجل إلا بجليل أعماله . وإن صحراء العرب لهى المكان الأوحد الذى تطبق فيه الديمقراطية على وجهها الصحيح . ولكن بينما يحافظ العرب على ديمقراطيتهم فى أوساطهم إلا أنهم يعتبرون أنفسهم أفضل الخلق ، لأنهم أصل أجناس العالم فى اعتقادهم . فهم يعتقدون أن حواء وآدم بعد أن هبطا من الجنة أخذا يهيمان فى الأرض على وجهيهما منفصلين بضع سنين . فلما جمع الله شملهما كان ذلك فوق عرفات ، فكان أول ما قام به آدم أن بنى الكعبة . وهكذا انحدر العرب من آدم مباشرة ومن نوح عن ابنه شم أيضاً . وهذه على كل حال معتقدات العرب . وإن ما يتعلق بإسماعيل مذكور فى العهد القديم : « وأما إسمعيل فقد سمعت لك فيه : هأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً ، اثنا عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة » وقد أكد الملك لهاجر هذا عندما كانت تنقب فى الصحراء عن ماء « قومى احملى الغلام وشدى يديك به ، لأنى سأجعله أمة عظيمة » وذكر فى العهد القديم أن أبناء إسمعيل الإثنى عشر كانوا يقطنون من هافيلا إلى صور وأنت متجه إلى سوريا . وقد أطلق اسم فاران فى العهد القديم على المكان القفر الذى أقامت به هاجر وإسماعيل .

وإن أوصاف القوم لتدل على أنهم العرب « بعضهم يقطن المدن وبعضهم ينزل بالخيام » وهذه الخيام هي التي يندبها داود في مزاميره الخاصة « بقيذار » نجل إسمعيل الثاني الذي انحدر منه معظم الجنس العربي.

فإذا كان ما جاء في كتاب العهد القديم يوثق به ويعتمد عليه، وطبق ما ذكر في التوراة على المدن والآبار العربية كان كل ما يرويه العرب حقيقة لا مرية فيها.

وفي حقيقة الأمر، فإن تاريخ العرب — لو أهملنا قصة آدم — يرجع إلى عصور أقدم بكثير من عصور أنبياء التوراة، ويثبت ذلك معتقداتهم التي كانوا يدينون بها قبل الإسلام، فقد عبدوا إله الخصب وقدسوا الشمس والقمر والنجوم بجوار اعتناقهم الوثنية واليهودية والمسيحية، ولم يذكر هيرودوت الكعبة بالاسم، ولكننا نراه يذكر « الليلات » أو على الأصح « الإلاة » ومعناها « الإلاهة » وهذا اسم صنم من الأصنام الشهيرة التي كانت في الحرم الذي لا نوافذ له.

وعلى الرغم من هذه المعتقدات القديمة فلم يهتم العرب بالفجر الذي أشرق على الدنيا في القرن السادس. وفي الحقيقة لم يهتم أحد بذلك كثيراً. فقد كانت فترة قلق، فقد دمرت فيها إمبراطوريات شرق أوربا وغرب آسيا بالفعل وآذن سلطانها بالمغيب.

لقد كان العالم ما زال مأخوذاً بفصاحة الإغريق وعظم الفرس وجلال الروم، فما كان ليظن أن يحل مكانها أي شيء آخر ولو كان ديناً جديداً.

كان اليهود مشردين في بقاع الأرض لا قيادة مركزة لهم، مضطهدين

أو صابرين حسب الظروف والأحوال ، وما كان لهم من وطن كما هو حالهم اليوم . وكان المسيحيون فيما خرج عن نطاق نفوذ الأب جريجورى الأكبر ، قد توصلوا إلى إيجاد جميع التفسيرات المعقدة الملتوية لدينهم الواحد البسيط ، فنشبت المنازعات القاتلة بينهم .

أما فى فارس فلازالت الخفقة الأخيرة تسرى فى جسم الإمبراطورية ، فكان كسرى الثانى يمد فى حكمه ، فيحتل كبادوسيا ومصر وسوريا متحدياً روما ، واغتصب بيت المقدس وسلب الصليب المقدس حوالى سنة ٩٣٠ م ؛ فلما سطع نجم محمد كان كسرى قد استعاد ملك داريوس الأول .

ولاح كأن حياة استقرار سترفرف على الشرق الأوسط ، ولكن لم يكن ذلك صواباً ، فما زال للبيزانطيين بعض حيويتهم القديمة ، فلما هاجم كيسرى بجيوشه الجرارة القسطنطينية هبوا يحاولون محاولتهم الأخيرة .

مات الإمبراطور جستنيان زوج تيودورا الشهيرة عام ٥٦٥ أى قبل مولد محمد مباشرة ، وأعقبه أباطرة لاوزن لهم ، حتى إذا ما كان عام ٦١٠ اعتلى هرقل — وكان من طراز آخر — عرش آبائه ، فلم يضيع وقتاً ، بل راح يتأهب لملاقاة الفرس ، وهزمهم أخيراً عام ٦٢٧ ، فاستعاد معظم ما اغتصبه كسرى من روما وأعاد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، ولكن لم يدم نصره طويلا ، فبعد سنين قليلة كتب عليه أن يقابل هجوم الإسلام . لقد كان هجوماً قصيراً قاسياً ، فما دوت « الله أكبر » صيحة الحرب حتى كان النسر الرومانى يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة . وكان جنود العرب يطأونه بالأقدام .

وهناك فى الشرق البعيد كان لسير الحوادث أقل الأثر ، فكانت

الهند لا تزال دويلات تافهة متعددة متأخرة متناحرة على السلطة سياسياً وحربياً ، وكان الصينيون على عادتهم يقاتلون بعضهم بعضاً ، فجاءت أسرة سو Sui وانقضت وقفتها أسرة تانج Tang وبقيت ثلاثة قرون.

أما فى اليابان فقد اعتلت عرشها ملكة لأول مرة وابتدأت البوذية تتغلغل وتؤثر فى العقلية اليابانية ومثلها العليا.

وكانت أوربا تتحول تدريجياً إلى إمبراطورية الفرنج التى ستحوى على مرور الأيام فرنسا وإيطاليا الشمالية ومعظم الأراضى الواقعة شرقى الرين حتى الحدود البروسية الهولندية الحالية . ومات كلوفيس Clovis وكان أمر تتويج داجوبرت Dagobert آخر ملوك أسرة مورفنجيان Morevingian وشيك الوقوع . وكانت إسبانيا وانجلترا دولتين صغيرتين هملا .

كانت إسبانيا تحت حكم الفيزيجوت Visigoths وهم الذين طردوا أخيراً من فرنسا وكانوا يحكمونها حتى نهر اللوار ، وكانوا يضطهدون اليهود الذين سيبذلون الشىء الكثير لتسهيل الغزو الإسلامى الذى سيقع بعد أقل من قرن .

أما الجزر البريطانية فكانت دويلات مستقلة بعضها عن بعض ، وكان قد انقضى على خروج الرومان منها مائة وخمسون سنة وقد اندفع إليها سيل جارف من أهل الشمال ، وكانت إنجلترا نفسها تتكون من سبع دول منفصلة ، وكانت اسكتلندا موطن البيقط (Pict) المحاربين ، وإن زيارة كولومبس الحديثة لهم حولت ملكهم إلى المسيحية وأتاحت لهم فرصة الاتصال بالعالم المتحضر .

وكان الدرويد (Driuds) يقيمون طقوسهم القديمة فى ويلز ، وكان أغلب الإيرلنديين يعيشون كما يعيشون اليوم ، وكان الآخرون ينتمون إلى مجموعة من الأديرة فيبعثون الرسل لتشييد أسس السلتية [1] العظيمة فى قارة أوروبا .

وكان تاريخ شمال أفريقيا مرتبطاً بتاريخ الرومان البيزنطيين ، فقد طرد بلساريوس الوندال ، فساد سلام قلق شطئان البحر الأبيض الجنوبية . لقد كان الهدوء الذى سبق عاصفة الجيوش الإسلامية .

وعلى الرغم من أن الأوربى لم يطأ بقدمه الأرض الأمريكية بعد ، فقد كان هناك أناس لهم مدنيتهم الخاصة ، فكانت قبائل المايا ، فى عصر محمد ، متقدمة فى هندسة البناء والفلك والحساب ، وكانت الهجرة قائمة هناك فى أقصى الشمال من آسيا عبر مضيق بيرنج ، فكان القادمون الجدد يحاربون المستوطنين ويدفعونهم أمامهم شطر الشرق ، فكان السكان الأصليون يقيمون شعائر الخصب ، والعلاقات الجنسية الشاذة بحماس أناس صارت أيامهم فى الأرض معدودة .

كانت الدنيا على قدر ما يمكننا أن نتصور ، لا تختلف كثيراً عما هى عليه اليوم : فكانت آفات الإمبراطوريات وجشع الاستعمار يدفع الناس لقتل بعضهم بعضاً فى وحشية فى القرن السادس كما هو الحال الآن فى القرن العشرين ؛ وكان القتل والتعذيب وأعمال القسوة ترتكب فى أيام محمد وهرقل باسم مدنية أو أخرى كما ترتكب اليوم فى أيام البابا بيوس

---

(١) السلتية : هم طائفة من البشر شرقية الأصل وينسب إليها سكان الجبال فى ايرلندا واسكتلندا وويلز وشمال فرنسا .

الثانى عشر وجورج السادس ، ولم يتعلم الجنس البشرى شيئاً من الدروس التى جرعها خلال الألفى عام الماضيين ؛ وما كان من المقدر له أن يتعلم شيئاً فى خلال الخمسة عشر قرناً التى أعقبتها . ولكنها كانت بالرغم من ذلك فترة سكون خلال زلازل الحروب والديانات ، وكانت مرتعاً خصباً ودقيقاً فى نفس الوقت لغرس فكرة قد تقود العالم إلى الكمال . وإنه لشخص له شجاعة وشخصية واعتداد وثقة بنفسه من يستطيع محاولة مثل هذه التجربة ؛ وإنه لشخص رحيم ذكى الفؤاد ، ممتلىء حماسة لا تقدر من ينجح فى كسب أناس إلى جانبه كانوا دواماً يعيشون فى غير نظام وتحت تقاليد قبلية ، فى حرية تامة ، لا عقائد دينية تسيطر عليهم .

وعن هذا الرجل نقص قصتنا .

الفصل الثانى

طفولة محمـــد

(٥٧٠ م)

لا توجد أسرار تحيط مولد محمد إذا ما استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل ، فما كان هناك من بشائر على أنه المصطفى من الله ، فما زارت الملائكة أمه قبل مولده ولا بشرتها بقدومه ، فقد حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع . وكان أبوه وأمه غنيين فقد كانا من قريش التى اشتهر أهلها بالتجارة ولم يشذ محمد وأهله عنهم . وكان أبوه عبد الله ، وقد اشتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحراً وذيوع صيت فى مكة . ويقال إنه لما خطب آمنة بنت وهب تحطمت قلوب كثيرات من سيدات مكة .

وكان لعبد الله أخوات جميلات وأحد عشر أخاً ، قدر لأربعة منهم أن يلعبوا أدواراً على جانب عظيم من الأهمية فى الثورة العالمية التى أشعل نيرانها ابن آمنة من عبد الله ، وهؤلاء الأربعة هم : أبو طالب وأبو لهب رفيقا عبد الله ، والعباس وحمزة وكانا أصغر من السابقين سناً ، وكان أبوهم مكياً ذائع الصيت هو عبد المطلب بن هاشم .

ونقف بنسب محمد عند هذا لما نعتقده من أهمية ذلك — فهاشم كان له مكانته الملحوظة فى مكة ، وقد أثر ذلك فى حفيده ، فقد توافر لهاشم

المنصب والمال ، فكان تاجراً مبجلا وجابى ضرائب مكة الرسمى ، وكان يميل ككل عربى إلى عمله بطبعه ، وقد لحظ مركز مكة المنعزل الذى لا يجذب إليه الأفئدة ، وأحس حرارتها اللافحة القاسية ؛ فلولا مكانتها المقدسة لهجرها هاشم ، ولتركها الآخرون ولعفت عليها الرمال من أجيال . ولكن كان من المحتم على هاشم أن يبقى بها ، فعمل جاهداً على مدّ يد الإصلاح إليها ، فراح يضيف إلى موارد البلد الحرام موارد أخرى غير ماكان يأتيها من الحجيج ، فقد بدأ رحلتى الشتاء والصيف العظيمتين ، ففى الشتاء كانت قوافل مكة تنطلق إلى اليمن والجنوب ، وكانت تنطلق فى الصيف إلى سورية والشمال ، وشجع القوافل الصغيرة على المرور بمكة ، وأمن طرق القوافل بابرام معاهدات مع الرومان والأمير العربى السورى ، وعقد حلفاً تجارياً فى ذات الوقت مع الفرس والأحباش ، وقد ضمن للحجاج الأمن ، فاطمأنوا على ما يحملون معهم من أموال أو متاع . لقد جلب ذلك الرجل المتبصر إلى مكة الخير كله فعم مكة الرخاء ، ونال أشرافها جانباً منه ، وتكدست الأموال فى خزائن هاشم العظيم .

وهكذا ، وعلى الرغم من إقفار مكة وحرها وانعزالها عن المدن الأخرى ، فما كانت بالراكدة أو الساكنة وما كانت متأخرة عن زمانها . بل كانت الحياة تسرى فيها ، كانت متيقظة تملأها الحركة والمتناقضات ، فكانت الثروة الهائلة تجاور الفقر المدقع ، والبذخ الشديد بجوار التقشف والحرمان ، لقد نشأت بين تجار الزيوت والأقمشة والروائح والأحجار الكريمة والعبيد أرستقراطية أقرب شبهاً بأرستقراطية فنيسيا المستقبلة .

وما كان هؤلاء الأرستقراطيون يفكرون إلا فى التجارة وإنفاق أموالهم فى اللذات ، وما كانوا يشقَوْن فى جمع هذه الأموال ، وأول صفات المكيين ميلهم إلى المقامرة ، فاشتغلوا بالمضاربات وبيع البضائع المتوهمة أو البضائع التى لم تصل إلى مكة بعد ، فلطالما باعوا البضائع قبل وصولها من اليمن أو الشام ، وباعوا المحاصيل قبل حلول موسم الحصاد بوقت طويل ، فأفلست بيوتات واغتنت بيوتات بين عشية وضحاها ، وشاركت النساء فى الأعمال ، وكان لبعضهن أثر فعال فى المضاربات واكتفت الكثيرات منهن بمعاونة التجار فى تبديد ما ربحوا ، فسيطرت الطبيعة الحاسبة على عواطفهن وحبهن ، فكانت عواطفهن ترتفع وتنخفض مع السوق .

ونحا صغار التجار نحو كبار التجار فى المضاربة فيما بينهم ، ولطالما عملوا على غش البدو السذج . فاحتقر البدوى الحضرى . وقد قال أهل البادية « إن قريشاً » تصغير « قرش » «سمك القرش » . وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا مجبرين على أن يتعاملوا معهم لبيع إبلهم وأغنامهم وأصوافهم . وعاش الفقراء كأحسن ما يستطيعون . وكانوا يأملون دائما فى تحسين حالهم ، فكانت أفكارهم مهيأة دواماً لتلقى عقيدة تمنيهم بالجزاء فى حياة قادمة ، ولكن آلهة الكعبة لم تلقنهم مثل هذه العقيدة .

وكان هاشم يقوم بواجبات دينه إلى كونه من الأرستقراطية الغنية ؛ والقبيلة الغنية . فكان حارساً للكعبة وآلهتها ، وكان هذا الشرف فى أسرته يعود إلى مئات السنين . فما كان لغير هاشمى أن يقوم بهذا الواجب كما هو بالنسبة للاويين ببيت المقدس ، مع فارق واحد ، هو أن الهاشميين يمكنهم

أن يقوموا بواجباتهم الدينية بجوار قيامهم بعملهم التجارى المربح . وإن قضاة مكة والمدينة حتى اليوم يختارون من نسل محمد ، وهم أمراء من بنى هاشم لهم مركزهم . وعلى ذلك فقد كان لهاشم أهمية لمحمد وكان له سنداً .

ولا ريب أن هاشماً كان يحس خزياً لو أنه فكر فى أن أحد أحفاده سيثير ثورة تقلب أوضاع العرب رأساً على عقب . ولا شك أنه كان يحس عرق الخجل يتصبب منه لو أنه قرأ صفحات الغيب فرأى بعين خياله الكعبة وقد خلت من آلهتها التى نصب هاشم من نفسه حارساً لها ، ولعله كان ينضم إلى مناوئى محمد ، ولكن منيته عاجلته قبل أن يرى من هذا شيئاً ، فانتقلت سلطته وثروته إلى أخيه المطلب .

ولم يكن للمطلب من أثر فى حياة محمد ، ولكنه حمل عبء القبيلة عشر سنين ثم انقضى وخلفه على أمره ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم ، وكان جد محمد لأبيه ، وسمى بعبدالمطلب نتيجة لبس ، فقد كان يعيش وأمه فى يثرب لما مات أبوه ، فبقى بها حتى بلغ أشده ، وذهب هاشم إلى يثرب . وعاد بابن أخيه وقد أردف المطلب الفتى على بعيره ودخل به مكة ، فظنته قريش عبداً له جاء به ، فتصايحت : عبد المطلب ، وعلى الرغم من أن هاشماً أخبرهم أنه ابن أخيه فقد غلب هذا اللقب على الفتى فدعى به ، ونسى الناس اسم شيبة الذى دعى به منذ ولد .

وكان عبد المطلب عربياً عظيم القدر كأبيه وعمه ، اشتغل بالتجارة والحرب ، وقبل مولد محمد مباشرة هاجم الأحباش بلاده وقد استصحبوا فيلة واستخدموا وسائل حرب لم يكن للعرب بها من علم .

فقاد عبد المطلب جيشاً[1] رد به المعتدين عن دياره .

وكان اكتشاف بئر زمزم سبب علو كعبه وارتفاع ذكره ، فقد غمرتها الرمال المستمزة الهبوب . وكان عبد المطلب مكلفاً بالسقاية والوفادة ، فقد كان أمين الكعبة ، وكان فى جلب المياه من الآبار المبعثرة حول مكة مشقة وجهد ، وقد فطن عبد المطلب إلى وجوب تقارب زمزم والكعبة اذا صحّت القصص المروية ، فراح يحفر وعثر على البئر يوماً ، فنبع الماء وظهرت غزالتا الذهب ودروع وأسياف كانت لآخر ملوك الجرهميين الذين حكموا مكة إلى القرن الثالث . وبعد مناقشات حول البئر والكنز ارتضى القوم أن يضربوا عليها بالقداح عند هبل ، وكان من العقيق اليمانى الأحمر ، فخرجت البئر لعبد المطلب والكنز للكعبة ، وقد أرضى ذلك عبد المطلب كل الرضى ، فقد يسرت له زمزم سقاية الحاج . وذاع اسمه وارتفع ذكره ، ولم يهتم عبد المطلب كثيراً بطعم الماء فقد كانت به بعض المرارة . ولكن ما من بأس فى ذلك ، فقد أنقذ هذا الماء حياة اسماعيل وهاجر .

وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه إليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه الموت عقب زواجه من آمنة فى يثرب وهو فى رحلة تجارية ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذى رأى النور فى أغسطس سنة ٥٧٠ بعد وفاته بعدة شهور .

لم يرث محمد شيئاً مما كان ينتظره ، ولعل ذلك يرجع إلى موت أبيه

(١) لم يقد عبد المطلب جيشاً لقتال الأحباش ، بل قال : للبيت رب سيمنعه ، ثم أرسل الله على الأحباش الطير الأبابيل ترميهم بالحجارة .

قبل موت جده ، فلم يترك له عبد الله الوسيم إلا داراً صغيرة وخمسة من الابل وبعض الماعز وجارية تدعى بركة . وما كانت هذه التركة كافية ليبدأ الانسان حياته بها ، وإنه لشيء أليم لسليل هاشم .

رحل عبد الله إلى حيث قدر الله الرحيم لهؤلاء الذين لم يعرفوا الإسلام ولا المسيحية ولا اليهودية ، وما كان لمحمد وأمه إلا كرم الأسرة . وفى سابع يوم لمولده أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ، ودعا رجالا من قريش فحضروا وأطعموا ، ولو كانوا قادرين على اختراق حجب الغيب لقاموا إلى الوليد وخنقوه أينما وجد . ولكنهم ما كانوا يعلمون ، فابتسموا مواسين لما حمل الوليد ذو الوجه الأحمر إلى حيث كانوا يطعمون .

وقد سمى الطفل عقب مولده « قثم » ولكن عبد المطلب بعد أن شكر آلهة الكعبة على منحه حفيداً ذكراً سماه محمداً . فلما علم القوم منه أنه أسمى الطفل محمداً ، سألوه : لم رغب عن أسماء آبائه ؟ قال : أردت أن يكون محموداً فى السماء لله وفى الأرض لخلقه . وهذه الاجابة الغامضة تشير إلى معنى كلمة محمد . ولعل عبد المطلب كان ممن يقرأون سطور المستقبل ، وأياً كان السبب فقد أصبح اسم الطفل محمداً . وقد تسمى به ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذى قدر أن ينشره على العالمين ابن آمنة من عبد الله .

لم تخطر هذه الخاطرة فى ذهن أحد تلك اللحظة ، لقد اختار عبد المطلب لحفيده اسما براقاً . وكانت مكانة عبد المطلب تسمح له أن يفعل ما يحلو له ، وما كان لمحمد فى الوجود من شيء إلا أمه وبعض

إبل وماعز ، والجارية المخلصة التى تركها له أبوه . وحتى أمه لم تكن بذات فائدة له ، فقد جف لبنها لما أصابها من حزن لموت زوجها . وأثر جو مكة الخانق فى الوليد ، فما كان لمحمد إلا اسمه البراق الذى يعتز به ، وحتى هذا الاسم صار لاجدوى منه ، فإذا لم يغذ الوليد لحق بأبيه فى قبره ، فدفعت آمنة بالغلام إلى ثويبة جارية عمه أبى لهب ، وكان هذا إجراء وقتياً .

وبالنسبة لجو مكة الخانق ، كان من عادة أشراف العرب من أهل مكة أن يدفعوا بأطفالهم إلى المراضع من أهل البادية ، ولذلك كان يفد إلى مكة المراضع البدويات القويات فى السنة مرتين ، يلتمسن الأطفال لإرضاعهن ، وكن يعرضن خدماتهن على الأمهات الثريات ، وما كانت آمنة بالثرية .

وما كانت البدوية لتجود بلبنها لمستجدٍ وإن كان ذا نسب عريض ، وخيم الحزن على آمنه ، فلم تقبل واحدة من المراضع على محمد ، ولكنها وجدت أخيراً بدوية من بنى سعد تدعى حليمة تقبل رعاية محمد اليتيم ، وفى صبيحة أحد الأيام حمل الغلام الذى سيحكم يوماً بلاد العرب على ظهر حمار إلى مراعى بنى سعد ، وهكذا عاش محمد فى البادية .

عاش فى الخيام السود خمس سنين ، وكانت قبيلة بنى سعد من أعرق قبائل العرب ، وكانت مراعيها خصبة ممتدة ، فنطق محمد أول ما نطق ، وخطا أول ما خطا بين أسياد البادية هؤلاء ، الذين سيقاتلونه يوماً ثم يخضعون له أخيراً ويحملون اسمه إلى بقاع من الأرض لم يكونوا ليعرفوها أو يسمعوا بها حتى يومهم ذلك .

ونمـا محمد ، ولم يكنْ نضجه مبكراً ، ولـكن كان عقله وجسمه نشيطين ، فمشى قبل من يقاربونه فى العمر ، وتـكلم سريعاً ، وكان أنضج تفـكيراً من البدوى . وما هذا بغريب ، فالبـدوى فى أفضل حالاته لا يتسامى بتفـكيره إلى الحضرى ، وما إن استطالت رجلاه حتى امتطى حماراً ، وراح يتدرب على استعمال القوس والنشاب ، وكان يهيؤها له أبواه فى الرضاعة .

كان محمد يحيا حياة طليقة من كل قيد ، فكان يخرج مع البدو للبحث عن المراعى ، فما كانت خيام البدوى لتستقر فى مكان إلا لأيام معدودات. وكان يطعم من طعام الصحراء البسيط : فكان يتناول لبن الإبل أو الأرز أو البلح ، أو قطعة من لحم الضأن أو الغزلان أحياناً . وكانوا يصطادون طيوراً حمراء فى بعض الأحايين ، وهبت على البادية عاصفة جراد ، فقدِّم إليه جراد محمر فى الدهن ، فقال إن نفسه لتعافه .

وقد تعلم أن يستيقظ مع الفجر ، وأن ينام إذا ما خيم الظلام ، فتعلم احترام الشمس وشكر المطر ومقابلة العواصف الرملية ورياح السموم بوجه مغطى . وتلقن حكم البدو البدائية كالعين بالعين والسن بالسن . وشاهد العقوبات القاسية كالطرد من القبيلة ، وهذا يقرب من حكم الاعدام ، ولطالما مدّ يد العون إلى الجمالة والرعاة .

وقد تركت هذه السنون التى أمضاها فى مدرسة البدو طابعها فى خلقه ، كما خلّفت الصحراء طابعها هى الأخرى . وحتى إذا ما نقاعد البدوى ، فإن حرية السهول المنبسطة المفتوحة ، والخيام السود — منزله الوحيد — ونضاله والطبيعة الثائرة لتظل عالقة بذهنـه . ولقد

تبدت غريزة محمد البدوية فى كثير من الأحايين .

وعلى الرغم من اعتراف قبيلة بنى سعد بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة ، فإن حليمة عزمت على أن تعيد ابنها فى الرضاعة إلى أمه ، فلما بلغ السادسة عادت به إلى مكة ، ودفعت به إلى أمه التى أحست غبطة لرؤيتها ابنها فى الدار ، وقد بدت عليه القوة والصحة . رأت أن تخرج بابنها إلى يثرب لترى الغلام فيها أخوال أبيه من بنى النجار ، وتقع يثرب على مسافة مائتى ميل من مكة ، وبها مات زوجها من سبع سنين خلت ، وستسمى يثرب بعد حين باسم ابنها « مدينة الرسول » .

إنها رحلة طويلة شاقة فى صحراء قاحلة ماحلة ، وشعاب ضيقة ، رمالها جامدة متحجرة ، وسهولها موحشة . لقد جهزت آمنة وبركة بعيراً ، وحملتا مؤنتيهما ، وجهزت الناقة بهودج من أغصان مجدولة ، وكانت تحجب الشمس عنهما وعن الغلام مظلة مرفوعة ، فلما تم لهما كل شىء ، خرجتا فى قافلة من القوافل الأسبوعية التى كانت تنطلق من مكة نحو الشمال .

وكانت يثرب على نقيض مكة والصحراء ، ففيها الخضرة الوفيرة ، وجوها ألطف ، وما كان بها سهول منبسطة موحشة ، ولا تلال مدببة ، ولا دور رمادية اللون تصليها الشمس ناراً . وتقع المدينة البيضاء التى تستهوى الأفئدة وسط سهل عظيم تكسوه الحقول النضرة والنخيل ، فلم تبد لهم المدينة فى صورة منفرة ، فما كانت عرضة للحرارة الدائمة ، وما كانت عطشى إلى الماء ، ففيها ينطلق الماء فى قنوات يسمع له خرير ، وإن الشجر ليمد فى ظله . لقد كانت الرحلة للرفاق الثلاثة كحلم زاروا فيه جنات عدن .

وقد أفاد آمنة تغير الجو ، وعرَّفت الغلام بأهله وأرته البيت الذى

مات أبوه فيه ، وتمتع محمد شهراً بجو المدينة اللطيف ، ولعبَ وأبناء أخواله وتعلم العوم ، وهذا أمر عجيب لغلام شب فى البادية . ولولا أن أسرة محمد مكية لبقيت آمنة بالمدينة ولتغير بذلك تاريخ العرب . ولكن مكة كانت الموطن فلا بد من العودة إليها . وحملهم بعيرهم مرة أخرى ، ولكن هبت عاصفة وراحت تزجى ريحها المحرقة فتأخرت الرحلة ، وما كانت صحة آمنة الضعيفة لتتحمل هذا ، وما كانت آمنة قوية صحيحة فى يوم من الأيام . واستؤنفت الرحلة ، وفى ليلة من الليالى ماتت آمنة ، فحملت بركة جسمانها إلى قرية « الأبواء » ودفنتها بها ، ثم استأنفت ومحمد رحلتها والأسى يملأ جوانحها . وبلغت مكة ودفعت بالغلام إلى جده ، وكان الكبر قد نال منه ، ولكنه أحس غبطة لما رأى حفيده الذى عاش فى كنفه سنتين .

ولما أحس الشيخ دنو أجله ، دعا ابنه أبا طالب وعهد إليه بكفالة محمد ، فلما مات الشيخ غير محمد داره مرة أخرى ، وهكذا كانت حياته قاسية لا استقرار فيها ؛ فمن خيام الصحراء السود ، إلى دار الأم المتواضعة ، إلى جنات يثرب ، إلى بيت الجد المريح ، تطورات سريعة متلاحقة ؛ وبانتقاله إلى دار عمه وجد نفسه فى بيت تجارى ، تقام به أغلب طقوس الكعبة الدينية فى ذات الوقت .

ووزعت واجبات عبد المطلب الدينية بين ولدين من أبنائه ؛ فأسندت السقاية للعباس ، فكان يقوم بتوزيع ماء زمزم على الحجيج ، وقام أبو طالب بالرفادة ، وهى جباية ضريبة الفقير وإنفاقها فى شراء الطعام وتقديمه إلى المعوزين من الحجاج الذين كانوا يعتبرون ضيوف الله

عاش محمد فى الصحراء فى بيئة تعبد الطبيعة . فكان احترام البدو للشمس والقمر والنجوم أمراً بديهياً . ولعل أمر الديانة لم يشغله وهو فى كنف آمنة . أما فى بيت جده فقد بدت له الطقوس بشعة لا يقبلها عقل . أما الآن فقد شاهد المراسيم الدينية واستمع إلى الخرافات ، وربما راح فكره يعقد المقارنات بينها وبين عقيدة البدو البسيطة . ولكن ما لهذا من أهمية ، فقد كان فوق العاشرة بقليل ، فكان له ما يشغل به فكره غير المقابلة بين الأصنام والشمس والقمر ، فراح يلعب مع الغلمان ويشاركهم مرحهم ، وهذه سنته الحياة . ولعله علمهم أشياء مما تعلمها فى البادية ، ولعله فطن إلى أشياء كثيرة مما يفطن إليها ساكن المدن . وكان رغم كل ذلك لا يعرف الاستقرار ، فقد رأى من العالم أكثر مما يرى أى طفل مكى . فأحس وهو فى مكة أنه حبيس شوارعها الضيقة ذات المبانى العالية ، وقد حجبت التلال المحيطة بمكة عن ناظريه صحراء العرب المترامية ، وما كان يخرج منها إلا ليستقبل القوافل العائدة ، وكان يتطلع فى إعجاب إلى هؤلاء الذين لفحت شمس الصحراء وجوههم وركبوا أخطار الرحلات الصحراوية . وإذا ما تهيأت قافلة للخروج كان محمد هناك يغبط الخارجين على ابتداء رحلتهم إلى المجهول دون أن يخشوا ما ينتظرهم من أهوال . وكان يناقش الخارجين أحياناً فتتفتح له الحقائق الكامنة خلف الفيافى الرملية المترامية . وكلما زاد معرفة إزداد شغفاً لرؤية ما يسمع ، فأحب أن يكون رحالا تاجراً ، أو أجيراً ، أو أيما تكون المهنة التى تمكنه من فك أسره . ولقد تحققت أمنيته يوماً من الأيام .

كان أبو طالب يحترف التجارة إلى قيامه بمقاليد منصبه الدينى ،

فكان له خان وكان يبيع فيه أحدث الأزياء والعطور . وكان العرب قبل الإسلام يقبلون على الثياب الجيدة المستوردة من البلاد الأجنبية ، كما كانوا يهيمون بالعطور النفاذة فيشترونها لهم ولأزواجهم ، فكانت تجارة أبى طالب للجنسين ، ولم يكتف بتزويد مخازنه ، ولكنه لما كان تاجراً بطبعه فقد اهتم بأمر القوافل التى بدأها هاشم جده ، وكان يرأس هذه القوافل أحياناً بنفسه . فلما رأى محمد عمه يتأهب للرحيل اشتاق إلى الهرب من شوارع مكة والانطلاق ليرى ما يحدث فى الشمال أو الجنوب .

لقد كان خروج القوافل وعودتها من الحوادث الهامة فى تاريخ المكيين ؛ فإلى جانب الناحية المادية كانت عواطف الغبطة باللقاء أو الأحاسيس التى يحسها الأزواج والأحباب والأبناء والأهل عند الوداع تملأ الجوانح ، وتفيض على الوجوه . لقد كان لكل مكى نصيب فى الأموال المكدسة فوق ظهور آلاف الأبعرة والتى يقوم بحراستها مئات الرجال . كانت الحمير تخرج بالجلود والشعير وأعمدة الفضة ، وتعود محملة بالزيوت والعطور والمصنوعات من سورية ومصر وفارس ، وبالذهب من الجنوب . وعلى الرغم من أن محمداً لم يكن مساهما ، فلم يكن أقل اهتماماً بأمر الرحلة من الآخرين .

وفى صبيحة يوم من الأيام صحب أبو طالب ابن أخيه فأشرق وجه محمد سروراً ، وكان سروره عظيما لم يحسه قبل اليوم قط ، وانطلقا إلى السوق وكان يموج موجاً بالابل والحمير الصبورة والبغال الرشيقة ، وكان العرب والسوريون والفرس والعبيد واليهود يتحدثون بألسنة متعددة ، وما كان الفجر قد بزغ بعد ، فزادت المشاعل التى كانت ترسل ضوءها

من روعة المنظر . وكان ظهور أبى طالب إيذاناً بالرحيل ، فشدت الرحال وربطت أحزمة الدواب ، واعتلى أبو طالب بعيره فأمسك محمد بيده وتوسل إليه أن يصحبه فى رحلته ، وكان توسله حاراً صادقاً مما جعل أبا طالب الرحيم يفتر ثغره عن ابتسامة لطيفة ، ثم سمح لمحمد أن يشاركه بعيره ، فلما أردف محمداً أمر بالرحيل ، وبعد لحظات راح الفجر الأرجوانى يزحف فى الصحراء ، وأخذت الدواب تستنشق نسيم الصباح البارد وهى تصعد فى تؤدة وبطء حافة الكأس التى تقع مكة فيها . وتنفس محمد الصعداء حمداً لما رأى الصباح الجديد الذى خرج فيه ليرى عالماً جديداً .

وتركت الرحلة الأولى فى نفس محمد أثراً عميقاً ، فما هيأت له تجولاته مع البدو الرحل قطع مسافات شاسعة ، فقد كان تجوالهم فى بقاع كلها مرعى وشجيرات . أما الآن فقد وجد نفسه فى محيط الصحراء المترامى ، وإن أى خطأ فى الملاحة لن تكون نتيجته الحتمية إلا الموت ، فقد كانت للأرض طلاقة البحر ، فما كان هناك من شجرة أو شجيرة أو صخرة تبدل من منظر الأفق الثابت أبداً ، الممل أبداً ، وما كان هناك مأوى من الريح أو الشمس ، وكانت الأرض من الحصى ، وقد سودت أحجارها نيران ما قبل التاريخ ، وقد تركت الرمال السافية الحصى براقاً ، وكان الجمالة يزعمون أن الصحراء مأوى الجن والمخلوقات العجيبة التى لا تقطن إلا الأماكن الهادئة الساكنة .

كانت الرحلة بطيئة موحشة ، فخطوات الإبل الوقور ما كانت لتغذ فى السير ، وكان يلوح أنها لم تقطع أية مسافة منذ أمسها . وكم كانت

غبطتهم عندما وجدوا أنّهم قد خلفوا البادية وراءهم ، ودلفت القافلة إلى ما يعرف الآن بشرق الأردن . وحطوا الرحال لأول مرة فى مكان يعرف ببصرى ، وهو مكان يفد إليه التجار اليونان لمقايضة العرب ، فيأخذون جلود الصحراء وشعير الطائف وفضة بنى سليم بالعطور والحلى والتوابل . وكان اللغط والضحك يسودان المكان ، فقد انتهت رحلة الصحراء ، رحلة الظمأ ، فكأنهم قد فتحوا عيونهم بعد حلم رهيب ، وكان محمد أكثر الناس غبطة ، فقد كان كل شيء جديداً وما كان ينتظر أن يرى هذا ، فأمامه أقوام تختلف كل الاختلاف عمن رآهم من قبل ، لهم أفكار تخالف ما بلغه من أفكار حتى يومه ذاك .

وكان هناك إلى جوار سوق بصرى دير للرهبان النسطوريين المسيحيين ، وكانوا يعرفون أبا طالب فدعوه إلى طعام ، وقد لفت محمد نظر بحيرا الراهب بأسئلته وتفكيره وتتطلعه إلى المعرفة ، وقد أثرت فيه أفكاره السديدة ، فراح الراهب يحادث العربى الصغير ، وكأنما كان يحادث رفيقاً من رفقائه ، فأخبره بعقيدة عيسى ، وسفه عبادة الأصنام ، وأرهف محمد السمع إلى ما ينطق الرجل به ، فقد كان غريباً يخالف ما نشأ عليه واعتقد فيه [1] ؛ وإن الشخص الآخر الذى حدثه حديث المسيحية كانت الجارية بركة ، وكانت مسيحيتها نقية ، فلم يتمكن آنئذ من أن يفهم

---

(١) يمهد المؤلف بهذا لأن يقول فى الفصول الأخيرة إن محمداً قد تعلم من بحيرا ماجاء فى القرآن من نصوص تتفق ونصوص الكتاب المقدس على الرغم من أن محمداً لم ير الكتاب المقدس أبداً ، وإن هذا التعليل واه ، فقد كان محمد فى العاشرة ومن غير المعقول أن مقابلة واحدة بين بحيرا ومحمد (ص) فى سن العاشرة تترك كل هذا الأثر . إن من حظ بحيرا أن قابل محمدا . فلولا هذه المقابلة لاندثر كما اندثر ملايين الرهبان قبله وبعده .

ما تقول ، وإن ما يسمعه الآن لجلى كل الجلاء ، فالوثنية وعبادة الطبيعة تتنافيان والمنطق . هذا هو الحق ، وليس من المعقول أن يكون لدى محمد أية فكرة عن الديانة أو كيفية تطبيقها على نفسه ، وما كان فى شبابه ليشك فى عبادة أصنام الكعبة ، وإنه قد اختزن فى عقله الواعى ما قاله الراهب النسطورى ، فإذا ما جد الجد وجد عنده قدراً من المسيحية استغله خير استغلال .

وما كان الراهب هو المؤثر الجديد الوحيد فى محمد فى ذلك الوقت ، فقد كانت العقائد والأديان تتشابك فى سوق عكاظ فى كل موسم ، فكان اليهود والنصارى وعبدة الأصنام وعبدة النار من الفرس يتلاحون ، فكان التسامح الدينى يسيطر على الجميع ، وكانت الأحقاد تتناسى كما هو الحال فى الألعاب الأولمبية ، وكانت بعض الأعمال تبرم ولكن الملاهى المتوفرة : من سباق إلى إنشاد أصحاب المذهبات والمعلقات إلى شرب إلى رقص كانت أكثر ما يجذب البصر .

وكان قس بن ساعدة راهب نجران النصرانى يخطب النـاس من فوق جمله شارحاً عقيدته ، وكان يقضى الساعات وهو يحدث الناس عن تفاهة الحياة الدنيا وعظمة الحياة الأخرى ، ولقد استمع محمد إلى شذرات من هذه الخطب . وفى السنين التالية كان محمد يخطب الناس من فوق جمله وكان حديثه يحوى كثيراً من العظات التى كان يرددها الراهب النصرانى .

لقد سمع أبو طالب كل هذه الأقوال من قبل فما كانت لتؤثر فيه ، وما كان ليفقه ماتدور حوله ، وما كان يظن أن ابن أخيه يخصها بانتباه أكثر مما يفعل . وقد كان على صواب فى هذا إلى حد ما . فقد كان محمد

غلاما عادياً ، فإذا كان قد تأثر بها أكثر مما يجب فذلك لأنها كانت جديدة عليه ، فقد وقعت عيناه لأول مرة على دنيا جديدة ، دنيا لا ينظر فيها إلى الشمس كعدو ولا إلى المطر كمعجزة يصلى الجميع لجلبها ، وما كان أحد ليظن أن المطر ما هو إلا نتيجة انفجار السحاب — لقد رأى العشب والأشجار وأناساً كانوا يحيون حياة فراغ قد كرسوا حياتهم لأعمال إنشائية أجدى من محاربة الطبيعة الدائمة . ولقد سمع أناساً يتحدثون عن مواضيع أخرى غير الحج والمال وسياسة الكعبة .

وكان على محمد أن يتلقى نزراً يسيراً من التعليم المدرسى ، ولكنه كان يحصل أكثر من أى طالب يمضى سحابة يومه فى حجرة الدرس . وما كانت له رغبة فى المدرسة ، فقد ذاق المغامرة فتاق إليها ، فإذا كان هناك رجل تحققت آماله فإنه هو ، وارث الهاشميين حراس أصنام الكعبة .

الفصل الثالث

أيام الصبا

(٥٨٦ — ٥٩٧م)

ومرت أيام الصبا سراعاً . فما جاوز محمد السادسة عشرة حتى تعددت رحلاته ففاقت ما يقطعه مكى سواه طوال حياته . وقد واتت محمداً فرصة خوض غمار حرب إلى جوار عمه الزبير قائد جيش قريش فى قتال هوازن . وما كان محمد ليقوم إلا بجمع السهام ومناولتها لعمه فلم تتح له فرصة إظهار مقدرته بين أقرانه ، وعلى الرغم من ذلك فقد اكتسب خبرة ما كان يكتسبها فى سنين طوال يمضيها فى الدرس والتحصيل .

وأضفت تلك الرحلات عليه صحة وانشراحاً ، وزادته الأميال التى يطويها شغفاً ، وبذرت فى نفسه رغبة قوية فى تخطى حدود جزيرة العرب . فكم من أميال قطعها ولما يتخط العشرين . فصارت الرحلات التى يخرجها من مكة إلى اليمن والشام وفلسطين وفارس أمراً عادياً يحاكى فى عادته خروج أقرانه لزيارة الكعبة .

وهذه الرحلات فى أيامنا هذه جد صعبة على الرغم من وسائل النقل الحديثة . فما بالك بها فى أيام محمد ! فقد كانت تستغرق الرحلة الأسابيع والشهور . وكان على رجال القوافل أن يكونوا قادرين على احتمال الجو القاسى ورد المغيرين ، والعمل على الوصول بقوافلهم وما تحمل إلى

مستقرهم سالمين . وكان احتراف مهنة تجارة القوافل هو عمل الرّجل فى ذلك الأوان .

وعرف محمد بالأمانة والجد ، فما تخطى الخامسة والعشرينّ حتى كان من أكبر تجار القوافل وأنشطهم فى غرب بلاد العرب ، فعهد إليه كثيرون غير عمه بأمر تجارتهم . وقد اختلف محمد عن زملائه من التجار ، فإنه بعد أن ينقضى يومه يقضى وقته فى السوق أو فى دار صديق حيث يجتمع المغنون ورواة القصص والشعراء . ولطالما أنصت هناك إلى الفلاسفة ورجال الأديان يتلاحون فى أمور دينهم وعقائدهم . وترادفت رحلاته فألم خلالها بتاريخ وتقاليد تلك البقاع من آسيا ، وقد تهيأ له ما يتهيأ لأمثاله ممن يقضون أعمارهم فى الرحلات من الحكمة الدنيوية . وإن الدارس لقصة محمد لتبهره حكمته الساطعة ، وليرى محمداً شيئاً مميزاً لا يمت لعصره بسبب ، وإنه ليعجب أحياناً من اعتدال أحكامه التى تعالج الأمور العامة . لقد كانت أفكاره سابقة لأفكار معاصريه .

وإنه لمن الطبيعى أن تجعل هذه الرحلات محمداً يفكر فيما يرى ويسمع . فكان على نقيض من سبقه من الأنبياء ، فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية ، بل تكشفت له الدنيا ومشاكلها ، فلم يغفل الناحية العملية الدنيوية لما جاء بدينه فوفق بين دنيا الناس ودينهم ، وبذلك تفادى مهاوى من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملى . وقد أمدت القافلة محمدا بتعاليمه ، فقد شبه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها إله ، وإن الجنة لنهاية المطاف . ونضج عقله ونما جسمه ، ولم يجمع مالا كثيراً لنفسه ، فقد كان يعمل أجيراً ويتقاضى نصيباً من الأرباح :

وبالرغم من ذلك لم يصبح غنياً ، وما أثرت المادة فى نفسه . وكان فى أغلب أوقاته يميل للوحدة ، ولما لم يتيسر له الفراغ لفقره عمل كراع . وكان يختفى طويلا فى جوف الصحراء كما كان يفعل موسى وداود من قبل . وكانت تنقضى الأسابيع وهو يرعى غنمه . وقد أشار إلى ذلك بعد سنوات بقوله : ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم .

وظلت أخلاقه ثابتة لا تتبدل أياً كان العمل الذى يعمله ، سواء كان يرعى غنمه فى سكون البادية أو يبيع عطوره وسجاجيده فى دمشق . ولم تتبدل أمانته ولم يتغير صدقه ، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام حتى لقب « بالأمين » . ولم تغوه النساء قط ، ولم تفتنه الشهوات ، وبقيت غرائزه الجنسية التى تحركت فى أواخر أيامه خامدة . وكان حاضر البديهة عذب الحديث ، ميالا إلى معاشرة الناس ، معتنياً دائماً بملابسه وهندامه ، فكان يلبس للخيام لبساً ، وللطريق لبساً ، ويعتنى بلباسه غاية العناية إذا ما كان فى الدار . وكان يهتم بعصابة رأسه . وكانت ملابسه نظيفة أبداً ، وكان يفضل البياض وإن كان قد لبس الألوان الزاهية فى أيامه الأخيرة .

وكان يسيئه منظر الأسنان القذرة ، فكانت أسنانه نظيفة دواماً ، ولكنها كانت غريبة الشكل ، فبرغم انتظامها كانت فلجة . ولم يكتف بجمالها بل كان مشغوفاً بحفظها سليمة . فكان يحمل السواك أينما ذهب ، وكان يضعه بجوار سريره ، وما سافر إلا والسواك معه لا يفارقه .

وكانت أسنانه الناصعة البياض تتفق ومظهره ، فكان ربعة ، جميل الجسم ، قوى البنيان ، عريض الكتفين ، يميل إلى الضمور ، خفيف اللحم ، سريع الخطو كمن يعرف إلى أين يهدف ، وكان رأسه الكبير منتظم الشكل ،

يقوم على عنق به سطع ، وكان شعره أسود يميل إلى التجعد ، ويندلى حتى كتفيه ، فكان كمعرفة متموجة ، وكانت عيناه السوداوان الكبيرتان تلمعان من خلل أهدابه الثقيلة ، وكانت لحيته المتجعدة السوداء صغيرة فى شبابه ، ثم صارت كثة على مر السنين ، وكان شاربه محفوفاً دائماً لا يخفى فمه اللطيف الشهوانى الذى كان يشبه فى حمرته رمانة حديثة القطف ، وكان إذا ما سُرّ يضحك من كل قلبه لا يعمل على إخفاء سروره ؛ وكان سحره فى بشاشته ، وإذا ما توقع مهاجمة انقبضت عضلات فمه عداوة ، وكانت مصافحته كبسمته صادقة التعبير ، فكان يضغط على اليد التى تصافحه ، وما كان البادىء أبداً بسحب يده ، وكان وفياً غاية الوفاء لأصدقائه ، فما عرف عنه أنه خان عهده ، وكان حدبه على الصغار والحيوان صادقا ، فإذا ما سار التف به الصبيان وأمر أتباعه بالرفق بالحيوان .

وما كان محمد ثرثاراً وإن كان صادق الترحاب بمن يقبل عليه ، وكان على سليقته العربية لا يتكلم إلا إذ كان هناك ما يصلح للحديث ، وقد أعلن أن من الإيمان الإعراض عن اللغو ، وعلى الرغم من مواهبه الطيبة هذه وذيوع صيت أسرته ، فإنه بقى حتى الخامسة والعشرين من عمره لم يرتفع عن تاجر قوافل يوثق به أو راع يوكل إليه أمر الغنم فى اطمئنان ، وقد اشتهر بحسن الطبع وقدرة ودماثة وسماحة فى الخلق ميزته .

وكان متوسط الحال ، وقد قال بعضهم فيه يوماً : « إنه أخفر من عذراء فى خدرها » ولم يثبت فى تاريخه حتى اليوم أنه أتى أمراً خارقا ، وإن الحادث التالى الذى يذكر على سبيل التدليل على فطنته ليبرهن على أن محمداً كان يتفوق على أقرانه برجاحة عقله ؛ فقد أثرت الأمطار فى الكعبة

فصدعت جدرانها وأصبح شد بنيانها أمراً ضرورياً، وأقبلت قريش على هـذا العمل بعد إحجام، ولم يصب رب الكعبة القوم بشر أو أذى، ونقل الحجر الأسود دون اعتراض، فلما آن أن يوضع الحجر المقدس فى مكانه، وتحزب الأمر واستفحل الخطب وكادت تندلع نار الحرب، قال أحدهم « اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا » فلما رأوا محمداً أول من دخل هللوا غبطة، ووضعوا الأمر بين يديه، ففكر قليلا ثم خلع عباءته ونشرها، وأخذ الحجر الأسود ووضعه فيها ثم قال: ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب. فحملوه جميعاً إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء، ثم تناوله ووضعه فى موضعه قبل أن ينشب خلاف آخر.

• وقد رفع هذا العمل على بساطته من قدر محمد فى أعين أشراف القوم، فقد حسم نزاعاً كان وشيك الوقوع بسبب الحجر الأسود، فإن من طبيعة العرب أن يثوروا لأتفه الأسباب.

وكانت حياة محمد فى هذه الحقبة تسير على نحو غير معروف، فلم يفلح أحد فى توضيح حياته أكثر مما ذكرنا، ولكن حدث فى الخامسة والعشرين من عمره حدث لم يبدل من حياة محمد فحسب، بل كان له — عن طريق غير مباشر — رد فعل فى العالم أجمع. فقد كانت تعيش فى ذلك الوقت سيدة متوسطة العمر هى خديجة بنت خويلد؛ وكانت قد بلغت الأربعين من عمرها على الوجه الصحيح، وكانت قرشية وبنت عم لمحمد، ولما كانت من جيل سابق لجيل محمد، فلم يسبق لها أن عرفت ابن عمها، وقد مات عن خديجة زوجان، ترك لها كل منهما ثروة، فاشتغلت بالتجارة. واتسعت

تجارتها على مر السنين ، فقد اتبعت خديجة وسائل جديدة فى تجّارتها . فكانت تزود التجار القرشيين الذين يعتمد عليهم بالمال، فكانت تشاركهم بذلك فى تجارتهم ، وأخذت تنال من الأرباح بنسبة ما تمدهم به ، وشاركت فى القوافل فنالت حصصاً من الأرباح بنسبة مشاركتها ، وبذلك جعلت خديجة عملاءها فى المدن وفى الطرق يهتمون بأمر مشروعاتها ، فقد وجدوا أنفسهم مدينين لها وشركاء فى نفس الوقت ، وقد كان الجميع من الرئيس إلى المراقبين والمحاسبين إلى أقل جمال فى القافلة يعملون على نجاح هذه التجارة التى لهم فيها نصيب .

وإلى جانب ذلك لم تحرم خديجة الجمال — فكانت على الرغم من أن العرب يؤمنون بأن من تبلغ سنها تصبح عجوزاً — تشعر بأنها لا زالت صغيرة . بل كانت تثق من ذلك كل الثقة . وما فكرت لحظة فى أن تتخلى عن عقيدتها هذه . وفى الحقيقة كان جسمها يميل إلى السمنة ، وكانت بشرتها نقية بضة ، وشعرها ناعماً فاحم السواد ، وعيناها واسعتين يشع فيهما بريق أخاذ . وكانت ترتدى الثياب الداكنة والعباءات الثمينة التى تتفق ومظهرها . وكانت تحلى جيدها وأذنيها بحلى من فضة وفيروز تنم عن رقة وجمال ذوق . لقد كانت ولا مراء تشتهى إلى جانب ثرائها ، وما كان ينقصها إلا الرجل الكفء .

كان عقل خديجة راجحاً وكان ممتلئاً حيوية كجسمها . فأحست حاجتها إلى رجل أمين نشيط ذى دربة على أعمالها يقوم على رعاية مصالحها . فان تجارتها ممدودة ، وإنها لفى مسيس الحاجة إلى من ينهض بأعباء قوافلها الغادية الرائحة . ولما كانت حذرة فإنها تمهلت ولم تسارع

بدفع أموالها وقوافلها إلى من قد يختفى بها فى سورية أو مصر دون عودة . فاستمرت تشرف بنفسها على أعمالهـا تنتظر سنوح الفرصة المواتية .

وتكلم خزيمة وخديجة ــ وكان ابن عمها ــ عن محمد ، فلطالما صحبه فى رحلاته ، وقد كان فى مثل سنه ، فتأثر كما تأثر كل من صحب محمداً بكريم أخلاقه ووافر نشاطه وعفته وأمانته . وفى ذات الوقت حث أبو طالب ابن أخيه على أن يوسع اتصالاته التجارية ، فيصبح مندوباً لأصحاب رءوس الأموال . وفاتح أبو طالب خديجة فى ذلك وعرض عليها أن يعمل محمد معها . وطلب محمد مقابلتها . فلما تمت المقابلة ، ساعدت وسامة محمد وعذب ابتسامته فى دعم الفكرة الطيبة التى غرسها خزيمة . ومما زاد فى تقدير خديجة لمحمد أنه لم يقبل العمل عقب عرضه عليه مباشرة ؛ فما كان من أخلاق محمد أن يندفع فى إصدار حكمه : سواء كان هذا الحكم فى المسائل التجارية أو المسائل الدينية . بل كان يتروى ، ويأخذ فى التفكير العميق . فطلب منها أن تمهله حتى يستشير عمه . وقد وافقه عمه لما علم أن خديجة عرضت عليه ضعف ما كان يتناوله حتى اليوم .

ودخل محمد فى خدمة خديجة وبذلك وضع قدمه على الدرج الأول الذى سيوصله يوماً إلى حكم بلاد العرب جميعاً .

وبعثت خديجة عبدها ميسرة مع محمد أول مرة . وقد يكون فى هذا احتياط خشية أن تكون قد حكمت عواطفها فى اختيار محمد . وفى الحقيقة لم يكن هناك أى خشية . فقد كانت النتيجة موفقة كل التوفيق . الأمر الذى جعلها تضاعف لمحمد أجره . وما انقضت بضعة شهور حتى كان محمد مسئولا وحده عن قوافلها كلها .

ورحل محمد على رأس قوافلها خلال السنتين اللتين أعقبّتا هذا التعيين إلى معظم الأماكن التى كانت تزورها القوافل فى ذلك الوقت . ولقد كانت دمشق وحلب وبيت المقدس وبيروت وبالميرا وبعلبك من هذه الأماكن .

ووضعت مسئوليات أخرى على عاتق محمد . فأسندت إليـه خديجة إدارة جميع أعمالها . فإذا ما فرغ من رحلاته أخذ يشرف على نواحى العمل المتعددة . وكانت خديجة توافيه لتسمع من مديرها الوسيم إرشاداته ونصائحه التى ضاعفت أرباحها وزادت من إيرادها . كانت خديجة هانئة سعيدة ، وأصبحت مشغوفة بمقابلة محمد والإنصات إليه ، وإذا ما خرج فى قافلة راحت تعد الأيام وتنتظر أوبة قافلتها ، فإذا ما لاحت القافلة أخذت تنتظر فى شغف عودة محمد بعد أن يغتسل ويرتدى ملابسه البيضاء ويرجل شعره الجميل ، ويتدهن ويقبل عليها ليدلى إليها بأخباره .

وراحت رغبة خديجة فى العمل تتضاءل على مر الأيام ، بينما أخذت تزداد شغفاً بمديرها الشاب الممتلىء حيوية وسحراً ، فكانت تعتلى منازلها ترقب الفضاء لتحظى بأول نظرة من الجمال الوافدة ، وهى تخطر فى الطريق الصخرى ، لقد أحست خديجة لأول مرة فى حياتها أنها أسيرة الحب والهيام .

ولكن كيف تترجم عن مشاعرها الفوارة لمن حرك عواطفها النائمة ؟ كيف وقد جاوزت الثانية والأربعين ، وعاشت طويلا وعلمت استحالة ذلك ؟ كيف تبث لواعج نفسها لمن يصغرها بخمس عشرة سنة ؟ وليت الأمر وقف عند هذا : بل إن الذى حرك عواطفها ليعمل لها ،

ولا يملك من المال غير ما حصل عليه من مالها . ما تقول أسرتها ؟ وما يقول عمها الشيخ وهو ولى أمرها ؟ إنها لعلى يقين من أن الجميع سيسخرون من عواطفها ، وقد يرمونها بالخرف على كبر ، وسيقولون إنه كان من حظها أن مات عنها اثنان من أغنى التجار ، فما كان لها أن تجرب تجربتها الثالثة مع شاب حديث السن يصلح أن يكون ولداً لها . إنها لتعلم تماماً عقلية أسرتها ، وإنها لتعلم أنه لو فطن أحدهم إلى ما يشغل ذهنها لضاعت أمنيتها فى الحصول على محمد إلى الأبد ، فلتفكر على مهل فى وسيلة تنيلها ما تتمنى ، ولكن كان مما يقلقها أنها لا تدرى رأى محمد فيها.

وما كان محمد ليحس شيئاً من هذا ، فقد كان يقوم بما يوكل إليه من أعمال فى كفاية ، وكان يحصل على مال كاف ، وكان يوثق به كل الثقة ، وكانت خديجة بالنسبة إليه سيدة فاضلة يكنّ لها كل إعجاب واحترام وتبجيل ، وفى الحقيقة ماكان للنساء فى حياة محمد إلى الآن من أثر أو تأثير ، وماكان فى محمد من الجرأة التى تؤهل لأن يتقدم إلى أية فتاة ، فما بالك بسيدة يعمل عندها ويبجلها تبجيلا ؟ إن ذلك لم يخطر على قلبه ، كما أنه لم يخطر له على بال أنه سيصبح فى يوم من الأيام سيد بلاد العرب جميعاً ، ولكن كان كل من خديجة وبلاد العرب فى يمينه وما عليه إلا قبضها .

واستولى على خديجة خجل شديد ، فما استطاعت أن تفاتح محمداً فى حبها ، فعزفت عن العمل ، فانتدبت عبدها ميسرة ليشرف على أعمالها بدلا منها ، وقد صحب ميسرة محمداً فى كثير من رحلاته ، وقد قربت أهوال الصحراء ومتاعبها بينهما فصارا صديقين على الرغم من التفاوت

فى مركزيهما ، وكان محمد فى ذلك الوقت — كما كان فى أوج عظمته — متواضعاً ، فما كان ليعتقد أنه أحسن مركزاً أو أسمى مقاماً من غيره ، فلم يكن من العسير على ميسرة أن يفاتحه فى أمر زواجه من خديجة . فسأله : ما يمنعك أن تتزوج وقد تخطيت الثامنة والعشرين على ما أنت عليه من الوسامة والشرف ؟ فأجابه محمد فى صراحة بأنه لم يفكر فى الزواج ، فشواغله عديدة ، وإنه لمغتبط بما هو فيه فكيف يتيسر لرجل يقضي حياته فى الترحال أن يقدم على تنشئة بيت وما معه ما يتزوج به . فقال له ميسرة :

— فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والكفاية والشرف ألا تجيب ؟

فسرت إجابة ميسرة محمدا ، فأين يقابل رحالة سيدة غنية ذات شرف وحسب ؟ وإن قابلها فكيف يطلب الزواج منها ؟ وقال ميسرة :

— إن دعيت إلى المال والجمال والشرف ألا تجيب ؟

فراح محمد يفكر فيمن يقصد ميسرة ثم قال :

— كيف لى بذلك ؟

فقال ميسرة دون تردد : خديجة .

فظهرت الدهشة فى وجه محمد واستمر ميسرة فى حديثه ، وما أفاق محمد من دهشته : « علىّ ذلك »

وانقضى بعض الوقت قبل أن يقنع ميسرة محمداً أنه جاد فى قوله ، وانقضى وقت آخر قبل أن يقنعه أن العرض جد معقول ، ولما تم ذلك هيئت مقابلة بين محمد وخديجة .

لطالما اجتمعا قبل اليوم منفردين ، ولـكن كان اجتماعهما ليتحدثا في الأعمال ، ولـكن تمت هذه المقابلة فى بيت خديجة ، وكان محمد حييا خجولا ، وكان على خديجة أن تقوم بالأمر كله ، فلما انتهت من حديثها وافق محمد على عروضها جميعاً ، وكان يلوح أن كل شيء مهيأ لزواج سريع ، ولـكن خديجة تريثت فقد كسبت محمدا ، وبقيت أسرتها لم تحظ بموافقتها بعد .

وثار عمها عمر بن أسد لما علم ما عزمت عليه خديجة ، وراح يعلن معارضته وقال : « إن كل شيء يقف حجر عثرة فى سبيل إتمام هذه الزيجة ، فحداثة سن محمد وعمله عند خديجة ، وفقره كل أولئك أسباب لمعارضته ، وقد كان عمر يعتقد أن فى زواج محمد من خديجة خروج مالى العائلة منها ، وهذا أساس كل نزاع بين الأقارب .

سبقت خديجة بفكرها كل ذلك وتأهبت لسماع المعارضة التقليدية واستعدت للرد عليها ، وما كان لـكل هذا أثر فى نفس محمد ، فكأنما كتبت عليه أن يمضى بقية حياته راحلا .

ويتساءل الـكثيرون : لماذا بقيت خديجة وهى أرمل قد جاوزت الأربعين تحت وصاية عمها ؟ قد جرت العادة أن تصبح كل سيدة ليست فى عصمة رجل سواء أكانت عذراء أم أرمل فى كنف رئيس الأسرة ، ولا يتم زواجها إلا بعد موافقته . ولو أن هذا الرفض قد أغضب خديجة إلا أنه لم يفل من عزيمتها ؛ فأمام عناد عمها استعملت دهاء المرأة ، فتركت هذا الأمر حتى تمر العاصفة ، ونسى الجميع رغبة خديجة فى التزوج من محمد ، وصفا الجو ، وأولمت خديجة وليمة دعت إليها أقرب الناس لها ،

دعت عمها ، ودعت عمى محمد ، أبا طالب وحمزة ، ودعت أشراف قريش ، وكان ضمن المدعوين محمد وخزيمة الذى كان له الفضل الأول فى تقديمه إليها ولا شك .

وبدأ الحفل وتخيرت خديجة أنسب الأوقات للحديث ، فقالت : إن محمداً من عملها هو الرأس والعقل المدبر ، وما هذا الثراء إلا بسببه ونعتته بالأمانة وذكرت شرف أسرته وكريم منبته ، واختتمت حديثها بأنه مما يشرف أية امرأة أن ترتبط برجل مثله ، فصفق الحضور ، وصبت الخمور فى الكئوس مرات ومرات وهب ورقة ابن عمها ووافق على ما قالته خديجة وأيده فازداد تصفيق القوم ، وأيد كل من عمى محمد أبو طالب وحمزة ما قالته خديجة وورقة ، وقبل أن يدرى عمر بن أسد ما يبغى القوم اندفع هو الآخر فى خطبته فآزر الخطة ، فنهض محمد ولف الشيخ فى برده ، وكان هذا ما يفعله الابن بوالده ليلة الزفاف ، وقامت خديجة فى نفس الوقت تمسح رأس عمها بالزعفران والعنبر ، ودوت فى جوانب دار خديجة أصوات التهليل ، وصار زواج محمد من خديجة أمراً واقعاً .

وما كانت خديجة بالمندفعة فى هذه الفرصة السانحة ، فقد كانت تعلم فعل الخمر فى النفوس ، وبينما كان كل يربت على كتف صاحبه ويتقارعون الكئوس ويتفاخرون جاء من يكتب العقد .

وفى هذا الجو الذى يغلب عليه الصفاء ، اتفق على الصداق ، وتم توقيع عقد القران وانتهى الأمر وصار محمد بعلا لخديجة حسب شريعة مكة . وانفض عقد القوم ، وبقى محمد فى دار خديجة حيث قضى ليلته .

وقيل إنه لما أصبح الصباح نهض عمر ورأسه يدور ، وثار لزواج

خديجة من ذلك الفقير بينا أنها كانت تستطيع أن تتزوج من أشرف القوم في مكة. ولكن أبا طالب أسكته بقوله: إن ابن عبد المطلب لأهل للزواج بأية امرأة في مكة أو غيرها. وعلى كل فما قيمة قول عمر أو فعله ما دامت مراسيم الزواج قد تمت، وما من شيء بقادر على أن ينقض ما أبرم.

ولما انتهى العقد، ذبح محمد جملا ووزعه على الفقراء، وفتح دار خديجة للأصدقاء، فدقت الدفوف ورقص الراقصون واستمر الحبور من الفجر حتى الغسق، ومن الغسق حتى الفجر، ولم ير بيت محمد شيئاً من هذه البهجة والسرور.

ولم يسر من هذه المباهج أحد كما سرت ربة الدار الممتلئة الجسم. وقد شهد ميسرة الحفل كما شهدته حليمة أم محمد في الرضاعة، وقد أقبلت من البادية ووهبتها خديجة أربعين رأساً من الغنم وأرجعتها إلى أهلها مكرمة معززة لتعلن لقبيلتها أن إرضاع ابن آمنة قد جاء بالبركات عليهم. ولما انتهت معالم الأفراح تفرغ محمد لتجارة زوجه ورضيت خديجة أن تنعم بالراحة، وكانت تحس الغبطة والسعادة كلما مدت بصرها إلى زوجها الفاتن.

كانت بداية زواج موفق سعيد، فقد كانت خديجة تحب زوجها وتتدله به حباً، وكان زوجها يبادلها ذلك الحب الصادق، بل لعل حب زوجها لها كان أعمق من حبها له، فقد كان اهتمامه بها يفوق اهتمامه بأي إنسان آخر طوال حياته، فقد انفردت برعايته وحبه خلال الإحدى والعشرين سنة التي قضياها معاً، ولم تشاطرها قلبه امرأة أخرى مع أنه كان من المألوف في بلاده أن تتعدد الزوجات. ومهما قيل في حياة محمد العاطفية فقد كانت خديجة المرأة الأولى والأخيرة في حياته.

الفصل الرابع

الوحى

(٥٩٩ — ٦١١ بعد الميلاد)

لم يؤثر زواج محمد من خديجة فى حياته مباشرة ، فقد استمر فى تصريف تجارة زوجه ، ولم ينقطع عن الخروج فى قوافلها ، وقد تمت أطول رحلاته عقب زواجه ، فقد تغلغل فى آسيا الصغرى ، وعلى الرغم من كل ذلك لم تتقدم أعمال خديجة التجارية ، بل على النقيض من ذلك فقد انحدرت نوعاً ما . بيد أنه لم تكن هناك خسائر جسيمة فظلت خديجة محتفظة بمنزلتها ، فكانت من أغنى المكيين ، ولكن خضدت شوكة تجارتها ، أو قل إن محمداً فقد سطوته ، فقد تحول قلبه عما كان يفعله لأنه وجب عليه أن يفعله .

ولما زال دافع العمل للقوت اليومى ، وجد محمد فسحة من الوقت ليتأمل فيما اجتمع فى رأسه ورأته عيناه ، وكانت زوجه تلحظ شرود ذهنه أحياناً وهو يعقد عقداً أو يخرج وقافلة حتى أول الطريق . لقد كان غارقاً فى حلم يقظة ، وما كان هذا بالكسل ، وما كان حال رجل حديث عهد بالنعيم : فما كان محمد كسولا ، وما عرف الكسل يوماً من طفولته إلى أن لاقى ربه . ولكن كان شرود عقل راجح وجد نفسه مجبراً على التأمل والتفكير لما تهيأت له الحرية ، وقد أحست خديجة المرأة الناضجة

العقل ما تميل إليه نفس زوجها ، فترفقت به ، ولم ترهقه بما عرف عن النساء من ثرثرة ، وتركته لتأملاته ونفسه ، وبذلك ساعدت خديجة مرة أخرى على وضع أسس الإسلام ، وكان ابن عمها ورقة الذى شد من أزرها يوم زواجها يرشدها إلى سلوكها الطيب نحو زوجها .

كان ورقة رجلا محوطاً بالأسرار ، فكان الوحيد من أسرة خديجة الذى وقف إلى جانبها لما شاءت الزواج من محمد دون أن ينتظر جزاءً ولا شكورا ، وكان ورقة أول من عضد محمداً لما استوات عليه فكرة الرسالة ، ولا يعرف بالضبط حقيقة اعتقاد ورقة فى محمد ، فقد ولد ورقة وثنياً ثم اعتنق اليهودية ثم تنصر أخيراً ، وتنسب إليه أول ترجمة عربية للعهدين القديم والجديد . وكان معظم ماعرفه محمد عن التوراة والتلمود والإنجيل نتيجة محاورات محمد وورقة ، وما التقطته أذناه فى رحلاته . وإن هذه المعلومات مجتمعة لهى التى جعلت محمداً يشرد أثناء عمله ويتكاسل فوق راحلته .

ما كان محمد حتى ذلك الوقت ليفكر جدياً فى طقوس الكعبة الدينية ، وكان وزوجه وثنيين بحكم التقاليد يعبدان الله وشركاءه اللات والآلهة الأخرى ، وما كان ليقلق محمداً أن هذه الآلهة قد نحتت من حجارة ، فقد وجد آباءه يعبدونها ، والظاهر أن محمداً لم يفكر فى الأمر كثيراً فما كان عنده فسحة من الوقت ليفكر فيها إذا ما استثنينا فترة رعيه الغنم . أما الآن وقد توفر له الفراغ فقد جعل يفكر فيما قاله ورقة : وما قاله الراهب النسطورى فى بصرى من سنين عديدة ، وما قاله حبر نجران ، وما سمعه فى مدن آسيا الصغرى البعيدة ، فبدت له الكعبة وما تحويه كأنما ينقصها شيء .

بدا له البيت العتيق كعش اكتظ بالدجاج بعد أن آذنت الشمس بالمغيب ، فقد تكدس فى ساحته المعتمة ثلاثمائة وستون صنما جلبت من أنحاء بلاد العرب ، فكان بعضها من سورية ، وبعضها من مصر ، وتمثالان لإبراهيم وإسمعيل كانا تذكاراً لمنشئ الأمة العربية ، فصارا وثنين من أوثان الكعبة ، وأقيم هناك تمثالا عيسى ومريم ، وقد كان فى أيديهما الأسهم المقدسة رمزاً للسحر .

تبدت سخافة الأمر كله لعين محمد كما يبدو الفجر الوليد ، فكان من المحال أن يوفق بين ما يعتمل فى عقله من أفكار وعبادة هذه الأصنام الضخمة التى كانت أحجاراً لاشكل لها ، وراح محمد يفكر فلم يجد حلا ، وكان كلما قلب الأمر ازداد حيرة وقلقاً .

وتصرمت فترة تقاس بالسنين ، تلاشت فيها الأفكار العقيمة وتولدت أفكار جديدة تحوى عناصر البناء ، أفكار واضحة تهدف إلى الإصلاح الدينى ، وراح محمد يناقش أفكاره فى غموض ، ثم أخذت تتفتح فى شىء كهذا الترتيب .

يجب أن تكون جميع أسس الديانات وأصولها قد وضحت لآدم ، ويجب أن تكون بسيطة لا تكلف فيها وتدين بإله واحد . وهذا الإله لابد أن يكون موجوداً ، وينبغى أن يكون هو الإله الذى خلق العالم ، فالعالم أعظم دليل على وجود الله ، وعلى ذلك يجب أن يعبد ما دام موجوداً ، وأن يقدس لأنه مصدر كل شىء فى الحاضر والمستقبل . وما كان الأمر ليحتاج إلى كثير من التفكير للاهتداء إليه فى مكة ، فهو الله رب الكعبة ، الإله الذى يوقر أكثر مما توقر جميع الآلهة التى يعبدها العرب .

ولم يرتد محمد فى تقرير ذلك إلى الأصنام، فلم يأخذ صنما منها ليطابق نظريته، فلم يكن « الله » اسم صنم كاللات والعزى، ولكنه كان اختصار « الإله » كما هو الحال فى « اللات » فهى اختصار كلمة « الإلاهة »، وكان يطلق عليه أيضاً « الله تعالى » ومعناها « الإله الأكثر علواً » فكانت الحالة تشابه حالة الأثينيين لما خصص بولس مذبحاً « للإله المجهول » من بين مذابحهم العديدة.

وقد ترتبت هذه الأفكار فى رأس محمد على مهل كأرقام مسألة حسابية عويصة، ولكن دون أن يكون هناك نتيجة واضحة، فما كان محمد من أبناء المدارس، وما كان من الميسور أن يغير تاجر رحالة طريقة تفكيره التى ألفها عشرين سنة فجأة، وإلى ذلك فإنه ما كان ليعلن أوامر ربانية إلا إذا تحقق منها، فلم يكن بعد مبشراً موحى إليه، وما كان إلا تاجراً متقاعداً له نصيب وافر من صفاء ذهن أصحاب مهنته، وكان — فوق كل شيء — رجلا ذا عقيدة طيبة.

وكان هناك سبب آخر يدعوه إلى عدم إذاعة هذه الأفكار الجديدة، فقد كان أخصاء محمد قليلين، على الرغم من كثرة معارفه، فلم يكن له إلا ثلاثة أخصاء إذا أخرجنا زوجته، وكانوا يختلفون كل الاختلاف فى الطباع والسن والماضى، ولولا محمد لما اجتمع ثلاثتهم أبداً.

كان على أصغرهم، وهو ابن أبى طالب، فهو ابن عم محمد، وقد تبناه محمد ليخفف عن عمه الذى كانت له عائلة كبيرة، وهو فتى فى الرابعة عشرة يتدفق حيوية ويتمتع بقوة جسمانية، وكان يقدس البطولة فى ابن عمه منذ نعومة أظفاره.

وكان أقرب أصدقاء محمد إليه عبدالله بن عثمان ، ولا يعرفه أحد بهذا الاسم فقد كان يطلق عليه « الصديق » وغالباً ما يسمى « أبا بكر » ولا يعرف بالضبط متى كنى بهذا الاسم، ولكن هذا الإسم هو الذى سار وذكر به فى التاريخ وهو الذى سأستعمله .

كان أبو بكر تاجراً غنياً ، كون ثروته ومركزه من أصل متواضع ، وكان سريع الخاطر ذكياً ، ولو أنه كانت تنقصه حماسة محمد العاطفية إلا أنه كان أعظم منه شخصية فى بعض النواحى . وكان قصيراً نحيل الجسم ، له رأس كرأس النسر ، وكان وجهه يميل إلى الاحمرار ، وله لحية خفيفة ، وعلى الرغم من أن ماله كان ينيله رفاهية مكة ولذاذاتها ، وعلى الرغم من أنه كان يد محمد اليمنى منذ أول نبوءته إلى أن مات ، وعلى الرغم من أنه صار خليفته من بعده ، إلا أنه كان فى حياته وتفكيره أقرب إلى الناسك ، وتشبه أخلاقه فى كثير أخلاق سليلة عثمان على نظام حيدر أباد الحالى .

وكان زيد ثالث الثلاثة ، وكان نصرانياً اختطفه قريب لخديجة فى غارة على الشام ، وقد أعجب محمد بالشاب فوهبته خديجة لزوجها فصار له عبداً ، وكان زيد شديد السمرة ، قبيح الشكل ، ولكنه كان ذكياً مخلصاً لسيده ، وجاء أهل زيد إلى مكة ليستردوه بعد أن نقبوا عنه كثيراً ، فاختار زيد النبى ، فقد كان راضياً فى عيشه ، ورفض أن يعود إلى أهله : وقد أثر هذا الولاء فى محمد ، فأخذ زيداً وانطلق إلى الكعبة ووضع يده على الحجر الأسود أمام أبى زيد وقال : « إن زيداً ابنى أرثه ويرثنى » وبذلك تبنى محمد زيداً وأعتقه ، ولكنه قيده بتزويجه من جاريته القديمة بركة ، وكانت تكبره بعشرين عاماً ، ولكنها أنجبت له أسامة ، وقد برز كقائد عظيم من

قواد المسلمين . وعلى الرغم من أن هؤلاء الثلاثة كانوا فى صحبته دواماً ، فإنه لم يحدثهم عما يساوره بعد . ففى خلال الاثنى عشرة سنة التى أعقبت زواجه لم يعلم أحد إلا زوجه بما طرأ عليه من تغير روحى ، وكانت خديجة سعيدة جد سعيدة ، فقد كان حنان محمد يزداد على الأيام ، ولم يتغير تقديره لها ، فظل كما كان ليلة زواجه الأولى ، فما أساء إليها بإشراك زوجة أخرى معها فى حياته ، وما كانت خديجة لتعرف على التحديد ما يدور بخلد زوجها ، ولكنها لم تثقل عليه بالسؤال ، ولم تشغل بالها بذلك كثيراً ، فقد كانت مشغولة بالإشراف على أعمالها وتنشئة أبنائها ، وقد أنجبت هذه السيدة المتقدمة فى السن لمحمد ولدين وأربع بنات .

وكان القاسم أكبر أولاده . ولا زال كتاب كثيرون يكنون محمداً إلى الآن بأبى القاسم ، وقد مات القاسم ، وكان من نتائج موته أن انطوى محمد على نفسه ، فراح قلبه يحدثه عن عقيدته الجديدة . ومات الابن الثانى فى طفولته ، وعاشت البنات جميعاً ، وتزوجن فى حيـاة أبيهن ، وقد قبر ثلاثة منهن ، ولم يبق له إلا فاطمة التى زوجها من ابن عمه على . وإن طائفة الشيعة لتذكر اسمها اليوم فى وقار ، فهى أصل الدولة الإسلامية المعروفة بالفاطميين ، وينظرون إليها كأم السلالة التى لا تنقطع من الخلفاء .

فلو أن أولاد محمد قد بقوا على قيد الحياة لتغيرت شواغله فى الحياة ، ولكن ما كان هناك أولاد صغار ليعمل على تنشئتهم ، ولذلك فقد استمر فى تأمله وتفكيره فى إصلاح مكة الدينى ، ولطالما عاودته ذكريات ما سمعه فى أيام رحلاته ، وقد أوصلته تأملاته إلى نتيجة ثابتة . لقد أفسد الناس عقيدة آدم البسيطة النقية ، فأرسل الله أنبياء عديدين ليهدوا الناس إلى

الصراط المستقيم ، ومن هؤلاء الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وزكريا وعيسى المسيح بن مريم ، وقد أعجب محمد بشخصية إبراهيم الذى كان يختلف عن باقى رسل الله ، لم يأت بتعاليم خاصة ، بل كان حنيفاً لا مسيحياً ولا يهودياً .

وقد هدت هذه النظريات محمداً إلى أفكار أخرى . لقد مر على موت المسيح ستمائة سنة ، أفما آن الأوان لظهور نبي ليهدى العالم ؟ وكانت الأصنام الثلاثمائة والستون المحتشدة فى الكعبة الباعثة على هذا التساؤل .

وما إن تملكت هذه الفكرة محمداً حتى عزف عن العمل ، بل ماتت كل رغبة فى العمل ، وأصبح ملازماً العزلة ، وقد أرضى ميله إلى العزلة فى أيامه الأولى برعى الغنم فى البادية ، ولكن القيام بذلك الآن — وقد أصبح من وجهاء القوم فى مكة — أمر يتنافى ومركزه ، بل أمر مستحيل ، فتحاشى المجتمعات ، وما كان ليظهر وأصحابه فى الطرقات ، وابتعد عن الدار فلم تتدخل خديجة فى ذلك ، بل راحت تبذل ما وسعها البذل فى إعانته . لقد أصبح أمر ابتعاد محمد عن الناس ضرورياً ليتفرغ لما يعتمل فى نفسه .

واختار محمد غار حراء الذى يبعد عن مكة أميالاً لعزلته ، وغار حراء صخرة هائلة صقلتها الرماح والريال ، قد شق وسطها شقاً عظيما ، وتقوم هذه الصخرة الهائلة تتألق وحيدة تحت شمس بلاد العرب المحرقة . وهى جدباء لا ماء حولها . وفى الناحية الصخرية منها كهف صغير مظلم ، كان محمد يقضى أياماً ، وأحياناً أياماً ولياليها فيه فى صمت وتأمل وتفكير . كان يأكل قليلا وينام قليلا ، وقد انتابته على مر

الأيام حالة عصبية فى تفكيره أفقدته ماكان له من مرح فى السنين الخوالى .

وقد أثر الصيام والسهر فى صحة محمد الذى كان قد اعتاد على الأكل الوفير والحركة والحياة الطليقة ، فكان يرى فى أثناء نومه الخفيف رؤى غريبة كان يتذكرها جيداً لما يصحو ، وكان يقصها على زوجه ، وكثيراً ما فقد وعيه وسقط على الأرض كمن فارق الحياة ، وكان يتشنج أحياناً ، وإن هذه الحالات هى التى أدت إلى الظن بأن محمداً يعانى صرعاً ، وإن باب المجادلة فى هذا الظن مفتوح ، فالأكثرية تجزم أن محمداً كان مصاباً بالصرع ، وهناك كثيرون يؤكدون أن هذه الإغماءات كانت حقيقية ليتثبت من أن هناك ما هو أفضل وأعلى من تعاليم الكعبة .

• إن حقيقة ما كان ينتاب محمداً ، حسب ما روى عن أخبار عصره ، وماجاء على لسان خديجة ، هو أنه قبل أن يبلغ الأربعين ظهر له الوحى لأول مرة ، وكان فى التاسعة والثلاثين ، فكان من ذلك الوقت إلى أن انقطع الوحى بموته ، إذا جاءه الوحى ثقل تنفسه ، واهتز جسمه ، وتفصد عرقه وتبلل به جبهته حتى فى أقصى حالات البرودة ، وكان ينام أحياناً مدة طويلة وعيناه مقفلتان وهو يتأوه .

وكان محمد يعلم أن هذه النوبات تنتابه ، فكان شديد الحساسية من ناحيتها ، فلم يره وقد انتابته هذه الحالة إلا خديجة وأزواجه اللائى أعقبنها ، وماكان محمد ليتفوه بأشياء ذات أهمية خلال هذه النوبات ، وقد أمليت كل كلمة من كلمات القرآن عقب صفاء ذهنه من أثر الوحى ، ويؤكد كل طبيب أن المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله

بأفكار لامعة ، ولا أن يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها محمد ، حتى قبل مماته بأسبوع واحد . وليس هناك ما يمنع من القول بأن هذه النوبات إن هى إلا نتيجة للملاريا أو أى حمى أخرى ، وربما كانت النتيجة المباشرة لإحلال الوحى فيه .

وسواء أكان صرعاً أو ملاريا أو غيبوبة روحية ، فلن يؤثر ذلك فى الوضع شيئاً ، على الرغم من كل ما قيل فى هذا الموضوع . فما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً ، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً . وكان يعتبر من كانت تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة مجنوناً أو به مس من الجن ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد .

نزل الوحى عليه فى سنة ٦١٠ م فى شهر رمضان ، لما ذهب محمد إلى غار حراء ليتحنث وقد غربت الشمس عن ليلة القدر ، وليلة القدر كما جاء فى القرآن خير من ألف شهر ، سلام هى حتى مطلع الفجر — ويقول العرب إن الملائكة تزور الأرض ، وإن جبريل جاء بأحكام الله من السماء .

كان محمد ملتفاً فى عباءته ، وكان مضطجعاً على الصخرة يقظان نائماً ، فسمع فجأة صوتاً واضحاً لم يسمع مثله من قبل ، فانتبه مذعوراً ، وارتفع الصوت ففزع محمد ، وانتابه الخوف ثم أغمى عليه ، فلما أفاق رأى ملكاً فى صورة إنسان منتصباً أمامه ، وسرى إليه نفس الصمت مرة أخرى ، قال الملك : اقرأ ، فأجاب محمد مأخوذاً : ما أقرأ ؟ فقال الملك فى إصرار : اقرأ . فقال محمد : ما أقرأ ؟ فقال الملك : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ،

خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فراح محمد يكرر هذه الآيات فى نشوة حتى حفظها ، فلما انتهى قال الملك : يامحمد أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل ، واختفى الملك على الأثر .

وفى قول محمد للملك إنه لا يعرف القراءة مجال لمجادلة أخرى كان طرفاها كل من أعداء محمد ومريديه ، فيقول البعض إنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة ، ويقول البعض الآخر بعكس ذلك ، وليس هناك ما يؤيد أو ينفى أحد الزعمين . كانت الكتابة فى هذه الأيام أمراً عادياً بين العرب بدليل أن على بن أبى طالب كان كاتباً ، فما الذى منع أبا طالب وقد علَّم ابنه من أن يعلم ابن أخيه وقد كانا يعيشان فى دار واحدة ؟ ولماذا أهمل فى تعليم سليل بيت هاشم وعبد المطلب ، سليل ذلك البيت الأرستقراطى ؟ إن التعليل الوحيد المعقول هو أن محمداً قد بدأ حياته العملية مبكراً ، فما كان أمامه فسحة من الوقت ليتعلم ، ولكنه لم يبدأ ترحاله قبل الثالثة عشرة ، وعلى الرغم من ذلك فإنهم ليؤكدون عدم إلمامه بالقراءة والكتابة ، وإنهم ليستندون فى ذلك على قول محمد نفسه ، فإنه كان يصر دواما على أنه يجهل القراءة والكتابة . ولعله قد تبادر إلى ذهنه أن فى اشتهار أمر أميته دعاية طيبة له ، فإن صدور كتاب كالقرآن عن أعرابى جاهل بالقراءة والكتابة يحدث ضجة تفوق ولا شك ما يحدثه صدور نفس الكتاب عن متعلم .

وتبدأ بعض سور القرآن « باقرأ » أو « قل » وهذه تدل على أمر جبريل له ، وإن « اقرأ » هى التى اشتق منها « قرآن » . وموضوع دراية

محمد بالقراءة والكتابة كموضوع الصرع تماماً لن يؤثر فى شىء ؛ فلن يؤثر فى حياته أو عظمته ، ومهما كان الطريق الذى جاء عنه القرآن إلى الوجود فهو كتاب خالد ، وسيان إن كان قد جاء عن طريق إملاء محمد لآياته على خديجة أو على علىّ أو زيد .

وما إن أفاق محمد من خياله الإلهى حتى فكر فى خديجة ، فقام من أرض الغار ، وانطلق هائماً فى الصحراء ، وكان الفجر يزحف متلصصاً من فوق الأفق البعيد ، لما كان محمد قد قطع الأميال القليلة قبل أن ينساب فى شوارع مكة ، ودخل على خديجة فى حجرتها وهو يرتجف ، وقد علا الهلع وجهه ، فأيقظ زوجه وراح يقص عليها ما رأى ، واستمر لحظة يديم النظر إليها ، وقبل أن يعود إليها روعها ، وقبل أن تنبس بكلمة ندت عن محمد صرخة استنجاد ، فقد جاءه مالم يكن يحسب له حساب . لطالما أظهر محمد مقته للكهان ، ولطالما ندد بكل ما يتعدى طاقة البشر ، ولكنه يظهر الآن وهو فى حجرة زوجه التى أضاءتها الشمس المتسللة من خلال الكوات وكأنه وسيط ، إنه لا يدرى أ كان هذا حلماً أو به جنة .

قد أحبت خديجة زوجها ، وقد زادت الاثنتا عشرة سنة لزواجهما فى ارتباطهما ، فبعث موقفه الآن وهو أمامها شاحب الوجه ، أشعث الشعر ، وقد كسا تراب الغار ثيابه ، أعمق عواطف الأمومة فى نفس الزوجة ، لقد كان المنزعج المضطرب رجلها ، فشملته بعواطفها ووضعت يدها على ذراعه وقالت فى إيمان : « الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى

هذه الأمة ، ووالله لا يخزيك الله أبداً ، وإنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وانفرجت أسارير محمد فابتسم ، ولفت خديجة ذراعها حوله ، وبقيت كذلك هنيهة ثم التمست منه أن يستريح فنام ، فانطلقت خديجة إلى ورقة تحمل إليه النبأ الجديد .

كان ورقة قد بلغه الكبر ، فوهنت قواه وعشى بصره ، فما كان ليترك الفراش الجالس عليه ، ولكن أنباء خديجة هزته ، فأكد لها دون تردد أن ما قاله محمد لها هو الحق ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فآبت خديجة برسالة ابن عمها وقد ملأت نفسها الغبطة ، وما كان هناك من شيء أدعى لسرور محمد من قول ورقة ، فإنه ليثق به ، وإنه ليعتقد أنه لا ينطق إلا عن علم ويقين .

ونام محمد وأغرق فى النوم ، فغطته خديجة بعباءته ، ثم راحت تحدق فيه ، فألفته يتوجع بعد برهة ، ثم إذا به يهتز ، وإذا بالعرق يتفصد من جبهته ، فوضعت خديجة فوقه أغطية أخرى ، فاستمر يتوجع ويهتز ثم راح فى سبات عميق ، وشخص بصره أمامه كأنما يستمع إلى آخر يحدثه ، وبعد أن انقضى وقت ، تكلم وكأنما يستعيد درساً ألقى عليه : « يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » . وماتت الكلمات على شفتى محمد ، واستمر يشخص أمامه ببصره ، وكأنما ينتظر استمرار الوحى ، ولكن الوحى كان قد ارتفع ، فالتفت إلى زوجه وقال : « انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأدعوهم إلى الله وعبادته » .

وخرج محمد إلى ورقة ، وكان ورقة ينتظره بصبر نافد ، فبعد أن أصغى إلى محمد أكد له ما قاله لخديجة ، قال : والذى نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبن ، ولتؤذين ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » . ثم أدلى رأسه منه وقبل يافوخه ، فشكره ، وأحس صدق ورقة فى قوله ، فبدا له كل ما حدث فى غار حراء حقيقة ناصعة لا يشوبها شائبة .

وكان لتوكيد ورقة أهمية عظمى ، فقدكان محمد رجلا أميناً ، فشاء أن يثق من أن الرسالة التى سيعلنها لم تصدر عن نفسه ، فكان من الواجب أن يكون كل ما يقوله من عند الله ، ولكم حاسب نفسه لكى لا يكون فى رسالته أثر لإنسان ، فكان يفضل أن تكون الآيات التى يأتى فيها ذكر الله مبتدئة بـ « قل » ومن أمثلة ذلك ما أنتخبه من القرآن عفواً : « قل يأيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، لكم دينكم ولى دين » و « بسم الله الرحمن الرحيم »

وإن الأمر الذى يثير العجب هو كيف جزم ورقة دون تردد أن محمداً رسول الله ؟ هل كان ذلك لأن ورقة قد بدل دينه ثلاث مرات ، فحسب أنه لو بدله للمرة الرابعة كان ذلك أمراً حسناً ! أو هل كان ورقة ملهما فأحس عظمة محمد فعلا ؟ ! ومهما كان أمره فإنه لا يمكن أن نغمطه فضله فى ظهور الدين الجديد .

ولو أن نفس محمد كانت راضية مطمئنة ، فإنه ما كان يدرى ما يفعل ،

وبعد أيام ساورته الوساوس ، فماذا يكون الحال لو كانت هذه سخرية إلهية ! وماذا لو انقطع الوحى بعد اليوم ؟ وانتظر نافد الصبر هبوط جبريل عليه ، فإذا الوحى يفتر ، فأصبح محمد قلقاً ثم تملكه يأس ، فاندفع إلى غار حراء فبدا له على عادته أجرد ناصع البياض تحت شمس الصحراء اللافحة ، فاستقر فى نفسه أنه قد خدع نفسه ، فأتى ما كان يسخر منه دواماً ، فقد دمغ نفسه بالكهانة ، وجعل زوجه تعتقد أنه قد كلف برسالة السماء ، فضاق بخجله ذرعاً فتسلق قمة الغار ، فما هناك إلا حل واحد ، وقبل أن يخطو الخطوة الحاسمة التى تبلغه نهايته ، بدا له جبريل رافعاً يده ، وقال بصوت عذب وفى نبرات واضحة : « أنا جبريل وأنت محمد رسول الله » واختفى الملك تاركاً محمداً وقد ثبتت قدماه على شفا الهاوية ، وحاول أن يتحرك ، ولكنه أحس كأن أعضاءه شلت ، ولم يجد صوته ، وعاد وكأنه تمثال قد قدّ من صخر ، لقد جنبه جبريل تحطيم نفسه ، ولكنه تركه للجوع ، ولولا خديجة لمات جوعاً ، فقد علمت أن زوجها يعانى أزمة نفسية حادة ، فلما خرج أخيراً إلى الصحراء لم تكن لتعرف إلى أين يهدف ، فلما طال غيابه بعثت من يبحث عنه ، فوجدوه فى غيبوبة على شفا الهاوية فأعادوه إلى الدار .

وعملت خديجة بذلك مرة أخرى على إنقاذ الإسلام دون وعى منها ، فلو أن محمداً قد ترك وحيداً لأشكل عليه أمر نفسه ولأقدم على الانتحار ، ويرجع عدم ارتكابه هذا المنكر إلى خلقه القويم وإلى فهم الزوجة العظيمة زوجها ، فما أظهرت له شكا فى أمره ، بل كانت تشجعه دواماً ، وإن هذا العطف قد دفع محمداً فيما بعد أن يكتب هذه الآيات

بجزء من القرآن : « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » .

ومما لا شك فيه أن نساء كثيرات كن فى حياة محمد ، ولكنه لم يحمل لإحداهن من صادق الود والحب ما كان يحمله لخديجة ، فكانت ثقتها فى الرجل الذى تزوجته لأنها أحبته تضفى جواً من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التى يدين بها واحد فى كل سبعة من سكان العالم .

ويختلف المؤرخون فيما إذا كان محمد قد بدأ حياته كمؤمن ملهم ، أو أفاق مغرض ، وإن جواب هذا عند خديجة ، فما كان من المعقول أن تختار شخصاً لقيادة قوافلها ثم لإدارة أعمالها جميعاً ، ثم زوجاً لها ، إذا كان هذا الشخص أفاقاً مغرضاً أو غير مغرض ، وما كان من المعقول أن أفاقاً له مثل ذلك النفوذ العائلى الواسع المدى ، ثم يستغل الفرصة الذهبية التى واتته ذلك الاستغلال الضئيل ، وما كان من المفهوم أن تظل شخصية كشخصية محمد التى رسموها ، وفية لخديجة الغنية حتى الممات ، وما كان لأفاق أن يهمل السعادة المادية الملموسة لوحى روحى لا يلمس .

لقد سجل التاريخ ما أعقب الرسالة من حياة محمد ، وقد أهمل كثير من المؤرخين — بل استبعدوا — السنين الأربعين التى سبقت نزول الوحى ، وما كتبوا عنها إلا صفحة أو صفحتين ، وأحياناً فقرة أو فقرتين ، إنى أعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه السنين هى التفسير لشخصية محمد ، وهى مادة مؤسس الإسلام .

الفصل الخامس

الاضطهاد

قد سفه أحلام محمد نفس الكتاب الذين نعتوه بأنه أفاق ، ولا يثبت أو ينفى هذه السخريات إلا ذكر حوادث وردت فى العهدين القديم والحديث لا تقل غرابة عما قيل إنها وقعت فى غار حراء ، وإنه لما لا يؤثر فى الموضوع كثيراً وقوع هذه الحوادث فى أزمان متناهية فى القدم ، فإننا إذا سلمنا بالمعجزات ونزول الوحى ، كان ذلك محتمل الوقوع فى أى عهد ، سواء أكان قبل المسيح بألفى سنة أم بعد المسيح بألفى سنة ، فيجب على الساخرين من محمد فى غار حراء أن يسخروا من موسى أيضاً وهو على طورسينا ، ومن عيسى على تلال الجليل ، وأن يهزأوا من جان دارك فى مرتفعات دومريمى ومن برناديت سوبيروس فى جبال البرناس ، ومن كل ما قيل عن التجلى وحديث ميشيل وجان دارك ، ومن ظهور العذراء فى لورد . لقد قصوا نبأ هذه الأشياء فى بساطة وحسن نية ، وإن هذا لينطبق على محمد بن عبد الله والملك جبريل ، وإنه لما لا يؤثر كثيراً فى تاريخ الإسلام ، أوقعت مقابلة جبريل لمحمد أم لم تقع ، ولا تزيد أهمية هذا الموضوع عن موضوع الصرع وجهل الكتابة والقراءة . وإن القول المروى يرجع فزع موسى إلى شجرة مشتعلة ، وإن الحديث المتواتر ليقرر أنه ما دفع عيسى إلى التبشير إلا يوحنا المعمدان (يحيى) وحمامة نزلت

من الجنة ، ومع ذلك فليس هناك ما يجعلنا نعتقد أن حماسة هؤلاء الرجال كانت لتفتر لو أن هذه الأحاجي قد استبعدت .

إننا لنعلم أن موسى قد بنى ديانته على أسس ماتعلمه من زوجته العربية (زيبوراه) ، وكانت هذه الديانة تقوم في الأصل على عبادة إله صحراوى قاس كان يعيش في خيمة ، وهذا الإله هو ياهو ، وكانت تعاليم ياهو للرحل من البادية العربية دون غيرهم ، وقد طبق موسى هذه التعاليم على الإسرائيليين مستبدلاً اسم ياهو بيهوذا ، وبذلك أخذت تتكون الديانة اليهودية ، ومن المحتمل أنه لم تكن لدى موسى أية فكرة عن كيفية تكون الوصايا في عقله لما اعتقد أنه قد ملىء بروح الله .

وإن ما نعلمه عن بداية المسيح جد قليل ، ولكن هذه البداية كانت تتشابه عموماً وحالة محمد ، فقد كان المسيح غلاماً ذكياً تعلم سريعاً ، واحتمال حصوله على عمل في يسر كما حدث لمحمد احتمال كبير ، فقد كان يتميز مثله بالروح الواعية التى تنبت فيها الأفكار دون وعى ، وقد بقيت هذه الأفكار نائمة لسنين طويلة كما حدث لمحمد ، ولم تبد هذه الأفكار في جلاء لكلا الرجلين حتى ظهرا كأصحاب وحى ، فأصبح من المتعذر على كل من محمد والمسيح التعرف على ذكرياتهما التى تطورت إلى أفكار جديدة ، فقد كانا يعتقدان اعتقاد اليقين أن الله يوحى إليهما ، ومن المحتمل أن يكون ذلك صحيحاً .

ومما تقدم نرى أن ما حدث في غار حراء لا يقبل مجادلة كما هو الحال والشجرة المشتعلة أو اليمامة . لقد روى لنا محمد ما اعتقد وقوعه ، ومن

الواجبْ أن نقبل هـذا كما قبلنا قصة الأربعين ليـلة فى التيه ، والموائد الحجرية كذلك .

كان محمـد فى أول الأمر حريصاً على ألا يعـلم أحد بما حدث فى غار حراء ، فلم يقص هذا النبأ إلا على زوجه وورقة وزيد ، وإنه ما قص على زيد ذلك ، ولـكن وجود زيد بين أبويه فى الدار يجعله يسمع ما يدور بينهما ، فلما رأى فى مبادىء محمد نفس السمو الدينى الذى فى المسيحية أعلن إيمانه وتصديقه لما جاء به الرجل الذى حرره .

وقد عرف علىّ الأمر مصادفة ، فقد دخل يوماً فوجد محمداً وخديجة يصليان صلاتهما الجديدة ، وعلى الرغم من أنه قد شب على الوثنية الهاشمية فإنه لم يتوان فى دخول دين ابن عمـه . ودخل آخرون من العشـيرة الأقربين وعبيـدهم فى الدين الجديد ، وخلعوا ما كانوا يعبـدون ، وكان منهم سعد ابن عم آمنة ، والزبير ابن عم خديجة . وطلحه ابن خال أبى بكر ، ثم عثمان بن عفـان أحد الخلفاء الراشدين . وعبد الرحمن وأبو عبيدة ـ ونفر قليل آخرون كافحوا واستشهدوا فى سبيل الإسلام .

وكان مصدر حذر محمد خشية من رجال الكعبة المسئولين عن الحرم، وسادات قريش ، لعلمه أنهم لو هبوا لمقاومته لتعذر على دعوته أن تتقدم خطوة فى مكة . وكان القـائمون بأمر مكة فريقين متقاسمين : بنى هاشم، ومحمد منهم ، وأبناء عبد شمس شقيق هاشم . وكانت السلطة فى ذلك الوقت فى يد الهاشميين ، وكان أبناء عبد شمس يتطلعون إليها ، وكان ممـا يساعد أبناء عبد شمس فى الوصول إلى مآربهم إيجاد ثغرات ينفذون منها ، فكان ممـا يتفق وأهداف سلالة عبد شمس أن يلصقوا ببنى هاشم ـــ سدنة

الكعبة — تهم الغواية والضلال . حتى لو جاءت هـذه التهم من فرد واحد كمحمد .

وكان أبو سفيان سيد سلالة عبد شمس ، وهو تاجر غنى توارث أهله الثروة لأجيال ، وكان صاحب لواء قريش إذا ما مشت إلى حرب ، وكان رجلا طويلا ، ذا تقاطيع مميزة ، ولحية سوداء قصيرة ، وكانت عيناه السوداوان تلمعان تحت جبينه الأبيض العريض ، فكان مظهره يتفق ومنصبه الحربى ، وكان محبباً إلى النساء ، فتزوج من امرأة جميلة سريعة الانفعال ، هى هند ، وكانت تهتم كخديجة بأمور التجارة ، وكانت تنفق وقتها فى تمويل القوافل بفوائد مرتفعة ارتفاعاً فاحشاً .

كان أبو سفيان مسموع الكلمة ، ولطالما حسم نزاعاً بكلمة ، وكان يمقت محمداً لأسباب شخصية وحزازات عائلية . وكان محمد يعلم من أين تهب الرياح المعادية ، فأخذ يعمل فى تعقل وحذر ، فجمع حوله فى الأربع السنوات الأولى من دعوته أربعين صحابياً ، إلى من تبعه من أهل بيته ، وكان أتباعه غالباً من التجار الفاشلين أو الرجال الساخطين ، وما دعا هؤلاء الرجال إلى اعتناق الدين الجديد إتيانه بحل سهل لمعضلات الحياة ، فإنه على نقيض ذلك يتطلب تضحيات كثيرة وكداً وعناء ، ولكن لأنه قدم لهم شيئاً محسوساً طبيعياً ماكان رجال الصحراء يعرفونه من قبل . وقد قال محمد فى تاريخ متأخر عن هذه السنين الأولى : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكم حين ذكرته له ، وما تردد فيه » . وكان أبو بكر من الذين يثقون بعقولهم ، وعلى الرغم من أن اسمه غير معروف

خارج نطاق دارسى الإسلام ، ولكن بفضله وحده استمرت عقيدة محمد بعد موته وبقى الإسلام ، لقد كان صادق الإيمان ، فقبل تعاليم الإسلام وطبق أوامره تطبيقاً حرفياً ، وقد قال عنه محمد : « لو وزن إيمان أبى بكر ووزن إيمان الناس لرجح إيمان أبى بكر » .

ليس من السهل إخفاء شيء لأمد طويل فى بلاد العرب ، فعلى الرغم من أن محمداً كان يبدل أماكن اجتماعاته ، فينتقل من دار إلى دار ، ويجتمع أحياناً فى جوف الصحراء ، فقد تسربت أخباره ، فجاءت النتيجة تشتيت اجتماعاته ، وانقلبت فى بعض الأحايين إلى صراع وتشابك بالأيدى ، وكان أبو لهب — عم محمد — من أشد الناس عداوة له ، وكان ابنه عتبة قد تزوج برقية ابنة محمد ، وقد قضت زوجة أبى لهب على العلاقات الطيبة التى ولدتها المصاهرة . ولا عجب فى ذلك إذا علمنا أنها أم جميل بنت حرب ، أخت أبى سفيان ، فما توانت يوماً عن تحريض زوجها على محمد الذى لطخ بالهزء اسم هاشم المكى القديم .

كانت هذه العداوات تسبب لمحمد ضيقاً وكمداً ، فقد كان يعتقد اعتقاداً جازماً فى قدسية الرباط العائلى ، وإن الحرب الأهلية لتنشب الآن بينه وبين قومه لأسباب خارجة عن إرادته ، وابتدأ الاضطهاد يؤثر فيه فتحاشى لقاء أصدقائه القدامى ، وراح يقضى معظم وقته فى غار حراء . ومن المحتمل أنه كان ينتظر هبوط الوحى ليحل مشاكله الأليمة أو يرشده إلى النجاة بنفسه .

وقد ظهر له جبريل مرات ، وأكد له نفس الرسالة ، وأمره أن يرشد عشيرته الأقربين ، وكان الأمر واضحاً لا يحتاج إلى نقاش ، فما كان

أمام محمد إلا أن يصدع بما أمر به ، وأن يعود إلى مكة ليبدأ كفاحه ، وكان تاريخ هذا العزم الصادق سنة ٦١٢ م ، وكان محمد قد بلغ الثانية والأربعين من عمره .

تمكن محمد فى أول الأمر أن يجمع الناس عند الصفا لينصتوا إليه ، فوفد كثيرون ، وازدحم المكان برجال فى ثياب بيض ينتظرون ما يقول ابن وطنهم ، وما كان ما قيل كثيراً ، وكانت الشمس آخذة فى الغروب ، فأخذت الظلال تزداد طولا على أديم الأرض ، ووقف محمد على مرتفع من الأرض ، وكان يبدو كأنما ارتدى أشعة النصر البراقة . فقال للرجال والنساء الذين يتلهفون على سماع ما يجيب عما يتردد فى نفوسهم . « يا معشر قريش ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونى ؟ » قالوا : « نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط » فخفض محمد رأسه ، ثم رفع صوته واستمر فى حديثه : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » ثم تلفت حوله وراح يدير عينيه فى السامعين ، وينادى على كل قبيلة باسمها ، فكان يحدث هرج بين أبناء القبيلة التى يدعوها : « يا بنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة ، يا بنى تيم ، يابنى مخزوم ، يابنى أسد ، إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله » .

وشارفت الشمس على المغيب فى الأفق البعيد ، وهبت ريح الليل الباردة على الصحراء يسمع لها زئير ، وتبادل الناس النظرات ، وترقبوا أول من يرد على محمد ، فلما حاول استئناف حديثه ، وقبل أن ينبس

بكلمات ، قاطعه أبو لهب ، وعلى رغم ذلك فقد حاول الاستمرار ، فسبه أبو لهب ، فلما أصر على الاستمرار راح أبو لهب يقذفه بالحجارة ، فتقلصت أسارير محمد ، وتبدل لونه من الغضب . لقد كان قبل اليوم رجلا يأمر فيطاع ، وما كانت مثله العليا قد تكونت فيه بعد ، فلم يكن قد تعلم تقبل إهانات الغير ، لقد تحمل الشيء الكثير من ذلك المتعصب الوقح ، فطفح الكيل ، ولم يكن فى استطاعته أن يتحمل أكثر مما احتمل ، ففارقه طبعه الكريم ، فلعن عمه وزوجه فى صوت عال واضح النبرات ، وأضاف إلى اللعن أن أم جميل ستحمل حطب الجحيم ، وقد وصف الجحيم وصفاً مروعاً ، وقد عنى كل ما قاله ، وجاءت هذه اللعنة فيما بعد فى سورة ١٠١ من القرآن : « تبت يدا أبى لهب وتبّ ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد »

ولما كان العرب بطبعهم قوماً يتطيرون ، ولما كانت لعنة محمد فى غاية من الحبكة والبلاغة ، فقد انسحب أبو لهب وأم جميل فانسحب القرشيون فى أثرهم ، وبقى محمد وبضعة نفر من المسلمين فى الصحراء التى غشاها الظلام ، ثم انصرف محمد إلى داره لما لم يجد من يسمع عظته . عاد إلى الدار فوجد متاعب وهموماً ، فقد طلق عتبة ابنته وأعادها إلى خديجة تبكى وتنتحب ، وكان هذا من حظ رقية ، فقد تزوجها عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين فيما بعد .

ولو أن الدور الذى لعبه عثمان فى تثبيت قواعد الإسلام كان على غاية من الأهمية ، فقد كانت تنقصه الدفعة التى تميز بها الصحابة الأقربون ،

وكان طويلا حلو التقاطيع ، أسمر اللون ، له لحية سوداء طويلة ، وكان يخصص وقته كله لدراسة القرآن ، وكان لدخول عثمان فى الدين الجديد أهمية سياسية عظيمة ، فقد كان يجمع فرعى هاشم وأمية ، وقد ازداد ارتباط عثمان بمحمد بزواجه من ابنته الثانية أم كلثوم (بعد موت رقية) وكانت هى الأخرى زوجة لعتيبة ابن أبى لهب الثانى .

وأثبت عثمان رباطة جأش وشجاعة لما أعلن دخوله فى الدين الجديد المضطهد ، ولا يعلم السبب الذى دفعه إلى ذلك إلا أنه قد اقتنع بأن طريق الخلاص فيما جاء به محمد .

ثبطت همة محمد ، ولكنه أمر بتنفيذ ما أوحى إليه ، فلم يكن أمامه إلا أن يدعو هؤلاء الشيوخ قصيرى النظر إلى اجتماع آخر ، فاقتصرت الدعوة هذه المرة على بنى هاشم ، فتوافدوا على داره ، فلما تناولوا طعامهم من اللبن والضأن ، خطب فيهم خطبة قصيرة وضح لهم فيها الخطر الداهم ، ومنى الذين سيتبعونه بالنعيم ، فلم تتحرك شفة أحدهم بكلمة ، وكان السكون بارداً قاتلا ، فقال محمد فى يأس : « فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ، وأن يكون أخى ووصيِّ وخليفتى فيكم ؟ » فلم ينطق أحد ، وازداد الصمت وحشة ، فهب علىّ وقال وهو ينظر فى تحد إلى رؤساء القوم : « أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على من حاربت » فلف محمد ذراعه حول ابن عمه وقال : « فأنت أخى ووزيرى ووصيِّ ووارثى وخليفتى من بعدى » وهتك ستر السكون فارتفعت الضحكات ، وأشار أحدهم على أبى طالب أن يقدم ولاءه لابنه الحدث ، ولكن أبا طالب هز كتفيه وتولى عنه ، ولو أن أبا طالب لم يقبل السير فى طريق محمد

إلا أنه كان يحب الفتى الذى رباه ورعاه . وانفض الاجتماع فى هدوء ، ولم يحقق محمد شيئاً مما كان يصبو إليه ، ولكنه كان الحد الفاصل بين خروج محمد بدعوته من نطاقها الضيق إلى العالم الرحيب ؛ فقد علم الناس ما يدور بذهنه ، فما كان أمامه إلا طريق واحد فاتبعه ، فأعلن للملأ فى شجاعة فائقة ، دون أن يقدم مقدمات أو ينتحل أعذاراً ، أنه رسول الله إليهم يدعوهم إلى عبادته وحده ، ويقضى على عبادة الأصنام ، فأعلن بذلك الحرب على قريش ، تلك الحرب التى كتب لها أن تشهر ولن تنتهى إلا بتسليم أحد الفريقين دون قيد أو شرط .

وبذلك تحول محمد ليواجه معسكراً آخر ، معسكراً أسوأ من سابقه . فقد كان معسكر من صاحبهم فى أيامه الخوالى ، فقد كبر عليهم أن يتحول هذا الرفيق الذى صاحبهم فى رحلاتهم والذى كان تاجراً بشوشاً سمحاً ذا أخلاق راضية ، إلى بشير ونذير يرشدهم إلى ما ينتظرهم فى السماء . إنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا قوله جدياً ، فإنهم ليعتبرون ما سمعوه عن اجتماعه بالملائكة ، وإعلانه أنه رسول الله إليهم لإصلاح أمر دينهم الذى بقى على الزمن ، بعد أن كان رفيقاً لهم ، قولا هراء ، وكان هذا أمراً عجابا ، ولطالما سخر هؤلاء القوم وضحكوا ، سخروا فى بيوتهم كما سخروا فى طريقهم ، وكلما قابلوا محمداً ازدادوا ضحكا وهزوا ، ولقبوه « بالصابئ » و « راعى النجوم » .

ولم يختلف ما لاقاه محمد عما لاقاه المسيح ، وكان هذا هو الحال مع كل مصلح فى هذه العصور المحافظة لما كانت التقاليد هى القانون ، ولو جاء أى محمد اليوم لوجد كل ما ينفس عن حماسته ، فإن فى مكنته أن يعظ أو

يبشر ، ويمكنه أن يستوحى أوامر سماوية من مخيلته ، وإن بائع مواشٍ متجول ليستطيع أن يؤدى رسالة ، وسيجد من يعاونه بمهاجمة المتعصبين . سيسخر منه قليلون ، بيد أن كثيرين سيصغون إليه ، وسيعطف الجميع عليه أو يواسونه ، وقد لا يضع أسس ديانة جديدة ، ولكن لن يهتم أحد باعتقاده أنه رسول الله .

وما كان هذا التسامح موجوداً فى زمن محمد ، بل كان الأمر جد مختلف .

كان المكيون مغرورين ، وكان يغرهم المال على الخصوص . انحدر محمد من أصل طيب ، ولكن جهوده لم ترفعه إلى مكانة ملحوظة فى المجتمع المكى ، ولو أنه تزوج أغنى أرملة فى مكة — وما زاده ذلك شهرة — إلا أنه ما كان أكثر من تاجر قوافل ، وكان دائماً أجيراً يعمل مقابل أجر أو عمولة ، فلماذا تختار العناية الإلهية مثل ذلك النكرة لتبديل العقائد التى استقرت قروناً بالبلد الحرام ؟ لو أن النبى كان من علية القوم الأربعمائة ، ولو أنه كان من أعضاء الندوة الأثرياء ، أو أحد بنى المطلب الذين عاشوا حول الكعبة ، ولو أنه كان حتى أحد الذين شاركوا فى حياة المرح لهذه المدينة المرحة فى الصحراء ، لنظر إلى آرائه نظرة اعتبار ، ولكنه ما كان كذلك ، بل كان نقيض ذلك .

وكان بعده هذا عن الولائم والخمر والسمر أحد أسباب المعارضه القوية التى واجهته ، فقد خشى القوم أن لا تكون نتيجة هذا الهجوم تحطيم معتقدات الكعبة فقط ، وهى تراث مكة الوحيد ، بل قد يجرفهم بعيداً عن لذاذات الحياة التى يحبونها .

ويضاف إلى هذا حالة لا تختلف كثيراً عما كان بين القسس العظام والسيد المسيح ، فلو تقدمت الدعوة الجديدة لذهبت الكعبة ، وذهبت بذهابها موارد قريش ودخلها ، وسيتبع هذا كساد الأعمال ، وعدم خروج القوافل ، وانقطاع الحج إلى الكعبة ، فما عاد هناك من داع إلى عبادة الأصنام ، هذه الأصنام الذكور والإناث التى قضت حياتها فى صمت بليغ فى حرم الكعبة ، والتى جلبت الثراء إلى مكة . إنه لمن الجنون المطبق نبذها للميل إلى إله آخر نصيره الوحيد ليس له العقل الذى يفهم أن الحظ كله فى جانب الأوثان . كان الأمر فى الحقيقة مزرياً ، وما كان ينبغى أن يسمع له ، لذلك سخر الأصدقاء القدامى ، وراح من تغلغلت فيهم روح الشر يفضون اجتماعاته بإنشاد الأناشيد الخليعة ، أو بتقليد مواء القطط ، بينما راح الشانئون يقذفون الحجارة فيشدخون رءوس أتباع محمد .

وكان يجتمع بعض المعتدلين أمداً ليجادلوا محمداً ، فكان كل من الفريقين يحاول أن يدلل على خطأ الفريق الآخر ، ولما كانت المجادلة تنتهى بعدم الاقتناع ، كان المخالفون يقررون أنهم على استعداد لأن يعتقدوا فى محمد إذا ما قدم لهم البرهان الملموس على أن السماء قد اصطفته لهذه الرسالة ، بأن يقوم بمعجزة مثلا ، معجزة كمعجزات موسى وعيسى ، وقد أتيا بمعجزات كلما اقتضت الحال ذلك ، كالمسيح فى البريه ، ولكنه أصر على الرفض .

كان رده الذى لا يتغير أن الله ما أرسله إلا نذيراً ، لا ليقوم بمعجزات ، وقد أضاف إلى ذلك أنه إذا كان هناك من حاجة إلى دليل

ملموس على أنه رسول الله ، فما على المتشككين إلا أن يقرأوا القرآن ، فقد سجل فيه ما أوحى إليه ، وما هذا الوحى إلا من عند الله ، وإن القرآن لمعجزة فى نفسه . هز المجادلون أكتافهم ، إنهم ليودون معجزات حقة ، إنهم ليرغبون فى أن يروا الميت يحيا ، والأبكم يتكلم ، والمياه تتفجر من الصحراء تفجيراً ، فلما استمر محمد على هز رأسه ، قالوا إنهم يعتبرون القرآن معجزة إذا استطاعوا أن يروا الملك وهو ينزل عليه بما يوحى إليه .

وظل محمد ثابتاً على الرفض بأن يقوم بأى شىء خارق للطبيعة ، لقد قرر وقرر أن ما هو إلا بشر قد اختير كما اختير أى نبى آخر من التاريخ ليساعد البشر على الخلاص ، وما كان ليعرف كيف يأتى بمعجزات .

ولقد استمر يؤكد هذه الحقيقة طوال حياته ، ولقد استمر ينفى أن له أى الصفات الإلهية ، لقد كان بشراً كأى بشر آخر ، وما كان أكثر من مردد لأقوال الله .

وإن هذا ليدل على أن العقلية العملية والإخلاص هما اللذان قادا محمداً بعيداً ، فإن رجلا غبياً أو أفاقاً كان يقوم ببعض الأعمال التى تؤثر فى معارضيه ، ولكن ما كان محمد ليفعل ذلك ، فإنه ليعرف ما يقدم عليه ، وإنه ليعتقد فيما يقدم عليه ، وإنه ليحيا أو يموت فى سبيل هذا الاعتقاد ، وقد اتبع المبدأ القديم ، أن يكون مخلصاً مع نفسه أولا .

وما كان أحد ليفكر فى هذا ، فاستمر هجوه وإيذاؤه ، وازداد الهجو والإيذاء ، وكان بين أعدائه الحانقين رجال صاروا فيما بعد أكثر أصحابه إيماناً ، منهم عمرو بن العاص ابن غانية مكية رائعة الحسن ، كان يأتيها

أشراف مكة ، ولذلك يشك فى نسبه ، ومن المحتمل أن يكون أبوه أى. واحد من الأشراف حتى أبا سفيان ، وقد ينسب والأمر كذلك إلى أبى لهب أو العباس ، أو إلى أى من العشرة المبرزين فى مكة ، ويقول رواة مكة إن مسألة الأب ما كانت بذات بال ، فشباب ابن العاص وجماله ودهاؤه غطت جميعها على الثلم العائلى الذى تلمته نشأته ، وكان أكبر عامل رفعه فى عين القرشيين قرض الشعر ، فرجل هذه صفاته يكون خير معوان لأعداء محمد .

وما كان محمد بشاعر ، وما كان ممن يرسل الجواب المفحم النابى ، فضاق بأشعار عمرو وأغانيه ، وكان من المقدر لهذا الهجّاء أن يكون أحد عظماء قواد الإسلام ، فيقود جيوشه من نصر إلى نصر فيزلزل البيزنطيين فى سوريا ، ثم يقوض دولتهم فى مصر ، ويرجع إلى عمرو فضل التفكير فى شق قناة السويس عام ٦٣٩ م ، وإليه يعود الفضل الأول فى افتحام الأسكندرية ، وقد اختار موقع القاهرة اليوم ليجعله مضرباً لخيامه ، ولو أن محمداً قد وصفه فى مستقبل أيامه بأنه من أصدق المسلمين وأتمهم إيماناً ، إلا أنه كان يقضى سحـابة يومه فى هذه الأيام فى الهزء من كل ما يمت إلى الإسلام حتى يجعله سخرية كل لسان .

وقد قطع البعض فى العداوة شوطاً بعيداً ، فلم يكتفوا باضطهاده بل شاءوا قتله ، ولـكن ثبت كثير من المؤمنين للتعذيب ، فراح ينضم إليهم أناس على الأيام يعلنون اعتناقهم ما جاء به محمد ، وكان كلما دخل أناس فى الدين الجديد ، بدا أن مركز الـكعبة قد تزعزع وقد حاق بها خطر عظيم .

وجاء بعض المعتدلين من أعداء محمد إلى أبى طالب وقالوا له إن الأمر بينهم وبين محمد قد استفحل ، وإن الجو يحمل خطراً عظيماً ، وكان أبو طالب على رغم عدم دخوله فى الدين الجديد يحب ابن أخيه ، فسار إليه والتمس منه أن يعود عما هو عليه فما زال الوقت مناسباً ، فشكر محمد عمه ، وأخبره فى عزم أنه لا توجد قوة تثنيه عن الاستمرار فى دعوته ، فتأثر أبو طالب ، فتناول يد ابن أخيه وقال له : اذهب وقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

قوى هذا الوعد من ثقة محمد ، وكان هذا الوقت من أخطر الأوقات على أصحابه ، فإنه ليكفى أن يتصل به أحد حتى يهدر دمه ، ويصبح مستحقاً للقتل ، وقد هدد عثمان ورقية التى تزوجها عثمان حديثاً تهديداً مباشراً ، لذلك جمع محمد مائتين من أتباعه وأمرهم بالرحيل إلى الحبشة تحت إمرة عثمان عام ٦١٥ م ، وكان الأحباش نصارى نسطوريين ، وكانوا معتدلين بالنسبة للعقائد الأخرى ، فتكونت هناك نواة إسلامية من الرجال والنساء ، قد يعتمد عليهم محمد ، وقد يلجأ إليهم ليأووه إذا ما تحزب الأمر وأصبح فراره حتمياً .

وما ابتعد الخارجون إلى الحبشة عن الخطر حتى واجه محمد عاصفة الغضب ، وكان أبو جهل أشد القوم عداوة ، وكانت أمه مكية غنية تتجر فى العطور ، وقد انضمت أم أبى جهل إلى معارضى محمد من بادىء الأمر لتسق على مكة التى تغرقها بعطورها .

كان أبو جهل ربعة فى الرجال ، قوياً قبيح الشكل ، وكان شَعره على عكس المكيين أحمَرَ ، وكانت لحيته سمراء وكان العرب يرون

الشيطان فيه ، وكان هدف أبى جهل أن يقط رأس محمد ، فكان كلما لمح محمداً فى طريق تبعه وسفهاء مكة وأخذوا يعتدون عليه . وفى يوم من الأيام كان اعتداؤهم قاسياً فقال لهم مهدداً : أتسمعون يامعشر قريش ، أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح » وانطلق فى طريقه فلم يتبعه أحد ، فقد كانت كلماته الهادئة تحمل تهديداً خفياً ، ولو علم المعتدون ما يخبئه القدر لهم لازداد خوفهم أضعافاً . كان من الطبيعى أن يكون لهذه الاعتداءات رد فعل ، وإن رد الفعل لوشيك الوقوع .

ما كان شعور حمزة قِبَل ابن أخيه ليوصف بالاهتمام ، وكان حمزة ترب محمد ، ويتصل نسبه به من أبويه ، فقد تزوج الشيخ عبد المطلب فى سن متأخرة ابنة عم لآمنة ، فتزوج كل من عبد المطلب وابنه عبد الله فى وقت واحد ، وقد رضع كل من محمد وحمزة من مرضع واحدة قبل أن يُدفع بهما إلى مراضع البادية ، وقد ظلا صديقين وإن اختلفا فى المشرب .

وكان حمزة رجل قتال ، قوى الجسم ، وكانت قوته هائلة ، طويل القامة ، وعيناه ناريتين ، فما كان لرجل أن يواجهه فى قتال ، وما كان له مأرب فى مساعدة ابن أخيه ، ولكن كان يكبر فيه شجاعته واحتماله التعذيب ، فلما بلغه أن أبا جهل قد اعتدى عليه ، ثار لذلك فانطلق يبحث عن المعتدى ، فوجده فى المسجد يفاخر بما ارتكب أمام نفر من قريش ، فاحتمل حمزة الغضب ، وكان فى يده قوس فضرب بها أبا جهل فشجه شجة منكرة ، وحاول القرشيون أن يحموا أبا جهل ، ولكن حمزة أشار لهم أن يرجعوا ، وقال لهم والشرر يتطاير من عينيه : « فأنا على

دينه أقول ما يقول » وعقب أن قذفهم بقوله هذا ، نظر أمامه دون أن يرى شيئاً ، فقد كان الغضب يتملكه ، ثم استدار على عقبيه تاركاً القرشيين مشدوهين . وتولى حمزة نحو ابن أخيه وأعلن إسلامه ، وكان لإعلان حمزة اعتناق الدين الجديد أهمية عظمى ، فقد انضم إلى معسكر محمد أحد أعمامه ، وهو رجل عالى الهمة ، شجاعاً شجاعة فائقة تقرب من الخيال ، لقد كان لإسلام حمزة أثر فى الدين الجديد ، ما كان يحدثه مائة من الرجال .

وتحقق أبو جهل ومن معه بعد ابتعاد حمزة من أنهم قد ظهروا بما لا يشرفهم ، فها هو شج رأس أبى جهل خير رد على اعتداءاتهم على محمد ، فكان من اللازم القيام بعمل سريع حاسم قبل أن يستغل المسلمون هذا النصر .

كان لأبى جهل ابن أخت يسمى عمر بن الخطاب ، طويل القامة ، وكان يوصف بأنه وهو جالس يبدو أطول من رجل قائم ، وكان شديد السمرة ، تحجب وجهه لحية ملتوية ، وكان أعسر ، له قوة تتناسب وجسمه ، عنيف الطبع ، وما كان لأحد أن يعترض سبيله ، ولو أنه كان عزوفاً لا يشارك أهل مكة لياليهم الصاخبة ، إلا أنه ما كان ليرضى عن انتهاك حرمة التقاليد ، وقد استغل أبو جهل هذه الناحية فيه فأحفظ صدره على محمد حتى جعله يقسم ليقتلنه وليعودن برأسه ، وانطلق عمر ينقب عن محمد لينفذ وعيده ، وانتظر القرشيون عودة عمر وهم يمنون النفس ، فما حنث عمر فى قسمه أبداً .

وبينا عمر فى طريقه إلى محمد ومن اتبعه قابل قرشياً مسلماً ، وما كان

عمر ليُعرف إسلامه ، فأخبره بما وطن العزم عليه ، فقال الرجل له : والله غرتك نفسك من نفسك ياعمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ، أفلا ترجع إلى أهلَ بيتك فتقيم أمرهم ؟ فسأله عمر إيضاحاً : وأى أهل بيتى ؟ فأخبره الرجل أن أخته وزوجها سعيد قد اعتنقا الإسلام ، فانثنى عمر إلى بيت أخته بينما انطلق الرجل إلى محمد لينذره .

وجد عمر أخته وزوجها يقرآن القرآن فى صحيفة ، فثارت ثائرته ، وبطش بسعيد فشجه ثم تأهب ليطيح رأسه ، فقامت إليه أمينة (فاطمة) لتكفه عن زوجها فدفعها بشدة فراحت تترنح ثم سقطت فى نهاية الغرفة وقد شجت ، فلم يفزعها ذلك ، بل نظرّت إلى أخيها فى برود وقالت : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع مابدا لك » ثم أضافت فى هدوء : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

نظر عمر إلى أخته فى ذهول ، فقد كان فى صوتها شجاعة تسترعى الانتباه ، فترك عمر سعيداً ، وقال لأخته : أعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما جاء به محمد . فسلمته أخته الآيات الكريمة بعد تردد ، فابتدأ عمر يقرأ : طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

فقعد عمر وأخذ فى القراءة ثم نزع سيفه ، ثم ترك بيت أخته فجأة كما هبط عليه فجأة ، ثم سار مهرولا فى طريقه الأول ، وكان محمد وصحبه

وفيهم حمزة ينتظرون إقبال عمر بعد أن أنذروا بحضوره، وأقبل عمر فدق الباب، وكان مقدراً أن يكسره عليهم، فأمره محمد بالدخول. فلما اجتاز بقامته الفارعة عتبة الباب قال له محمد : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فقال عمر فى خشية : يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله .

فلم تظهر الدهشة فى وجه محمد بينما لم يتمالك المسلمون الموجودون أنفسهم من وقع المفاجأة، وبعد أسئلة قصيرة أعلن عمر إسلامه، ونطق بالشهادتين، وما كان لإسلام عمر أهميته الوقتية فحسب، بل لقد انطبع أثره فى تاريخ الإسلام كله، فقد صار ثانى الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، وبقى هذا اللقب حتى عام ١٩٢٢، وقد انتشرت الإمبراطورية الإسلامية الجبارة فى خلافته، وبنى جامع عمر بالقدس تخليداً لذكراه، وتأتى أهمية عمر بعد محمد فى التاريخ الإسلامى، فعلى الرغم من أنه لم تكن له سماحة النبي أو اعتدال أبى بكر، إلا أنه كان ممتلئاً حماسة دينية، فألهب حمية مرءوسيه، وبعثهم لفتح البلاد دون خشية أو رهبة .

وقد مرت لحظة شديدة الحساسية لما نطق عمر : وأشهد أن محمداً رسول الله، فقد كان فيها كل الخير الذى ما كان منتظراً، والذى لم يخطر على قلب أكثر الناس تفاؤلاً، فقد كان هذا بعيد الاحتمال، فصار من الواجب الاستفادة من هذا التبدل فى الحال، وكان عمر نفسه أكثر الناس تحرقاً إلى إعلان دخوله فيما جاء به محمد، فاقترح — عقب أن قبل محمد إسلامه — أن ينطلق إلى الكعبة ليعلن الملأ أنه اعتنق الدين الجديد .

فلم يعارض اقتراحه أحد ، بل سار موكب المسلمين يتوسطه محمد وعن يمينه عمر فأبو بكر ، وخلفهم حمزة . وكان أبو جهل وأصحابه ينتظرون فى يقين وفود عمر حاملا رأس محمد بين يديه وقد ترشرش دمه تحت أقدامهم ، ولـكنهم رأوا نصيرهم يمشى وسط المسلمين المنبوذين ، وقد فعل فعلهم ، فلم يملـكوا إلا الصمت ، فما عمر بالذى يناجزه رجل يبقى على حياته ، وعلى الأخص إذا كان يظاهره رجال من طراز حمزة .

ومشى عمر فى اليوم الثانى إلى الـكعبة وحده وصلى بها ، فلم يجرؤ أحد أن يرفع أصبعاً فى وجهه ، لقد خشى القرشيون إن قتلوه أن يثير ذلك حرباً للثأر له ، ولو أنهم قتلوه لحرموا محمـداً سلاحًا مسلولاً سيقضى على وثنية مكة . وراح محمد يقول بعد هذا لعمر : والذى نفسى بيـده ما لقيك الشـيطان سالـكا فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك . أصبـح القرشيون الآن هم الذين يسلـكون فجاً غير فجه كلما لحوه مقبلاً . وعلى الرغم من استقرار ألسنة القرشيين فى حلوقهم ، وبقاء سيوفهم فى قرابها ، فقد بقيت عداوة قريش ، وزادها ضرامًا وقوع حادث جديد ، فقد هاجر فوج آخر إلى الحبشة ، وراح القوم يفكرون فى أن محمداً يعمل على دفع الحبشة إلى غزو مكة ، مضيفاً بذلك جريمة أخرى إلى جريمته الأولى التى شق فيها عصا الجماعة ، فقرر القوم قتله دون التدبر فى العواقب ، وأمر أبو سفيان بنفى الهاشميين جميعاً حتى يسلموا ابنهم محمداً لينفذوا فيه حكم القتل ، وتحزبت الأمور وتدخل أبو طالب ، ولما كان يملك خارج مكة معقلا عائلياً (شعب أبى طالب) فقد التجأ محمد وأعوانه إليه ، فـكان مأواهم ، وقضوا به مدة طويلة يقاسون العذاب ، فقد حاصرهم

القرشيون ، وحاولوا القضاء عليهم جوعاً ، وكان ذلك مقدراً لولا عون الأهل والصحاب الذين كانوا بمكة ، ولم يفتّ ذلك فى عضد المسلمين ، بل زادهم مضاء ، وعزيمة ويقيناً ، وقد بيتوا النية على أن يثأروا لأنفسهم.

وساء حال المسلمين فقد أصبحوا فى ضيق شديد ، فرقّ لهم بعض المكيين ، ولم يوافقوا على استمرار الاضطهاد ، وابتدأ المد يتحول عن أبى سفيان قليلا قليلا ، فما غزا الأحباش مكة ، وما بدرت بادرة وهن من محمد وأعوانه ، وأخذت الشفقة تعمل عملها فى رجال مكة ، فرأى أبو سفيان نفسه مضطراً إلى التخفيف من غلوائه ، ووجد لنفسه مخرجاً لما أكلت الأرضة صحيفة مقاطعة الهاشميين التى علقت فى جوف الكعبة ، فخرج بنو هاشم من الشعب وعادوا إلى دورهم.

وبعد رجوع المسلمين إلى دورهم دخل خلق كثير فى الإسلام ، ففضل رجال الكعبة السكوت على هذا الأمر ، وليس معنى هذا أن الإسلام قد نشر جناحيه ، وليس معنى هذا أن السلام قد ساد ، ولكنها كانت هدنة ، فقد جعل أعداء محمد يرقبون ما هو فاعل ، وأخذ محمد هو الآخر ينتظر ، وهدأ الحال وانقضت فترة كانت أهدأ فترة مضاها فى السنين الثمان الأخيرة ، وأصبحت عقيدته بصدق رسالته الآن أرسخ مما كانت عليه فى أى وقت مضى ، وأصبح من الميسور أن يسير فى الطرقات دون أن تنهال عليه الاعتداءات من كل صوب وحدب كما كان الحال من قبل ، ولكن كانت هناك متاعب تنتظره ، فقد بدا له أن مكة جميعاً باتت لا هم لها إلا القضاء عليه ، فبعد أن عاد إلى داره ، سقطت خديجة فريسة المرض ، فقد هد من كيانها ما لاقته من تعذيب واضطهاد

ما كانت تألفه ، وقضت بعد ثلاثة أيام من مرضها ، ما فارقها محمد خلالها لحظة ، وما ابتدأت غيبوبة الموت حتى بشرها بأنها « سيدة نساء الجنة » وقد فاضت روحها بين يدى زوجها الذى صدقته وآمنت به حتى الرمق الأخير ، والذى أحبته من اليوم الأول الذى وقعت عيناها عليه فيه . وكان موتها فى ديسمبر ٦١٩ م وقد بلغت الخامسة والستين ، وما بلغ محمد الخمسين بعد .

وقبل أن يفيق محمد من صدمة فقده خديجة ، تمت أحزانه ، فقدْ فقَدَ عمه أبا طالب ، وكان بجواره حتى جاد بآخر أنفاسه ، وكاد أن يقنع عمه ، وكان قد بلغ الثمانين ، أن يعلن إسلامه ، ولكن لم يجبه الرجل إلى طلبه ، وكانت مساعدة أبى طالب لابن أخيه طوال السنين العصيبة ترجع إلى ما يكنه لمحمد من حب ، وإلى ما يحس نحوه من واجب ، ولم يقر ابن أخيه يوماً على إحداث ثورة دينية ، فمات وهو على وثنية القرشيين ، ودين آبائه الغابرين .

وقد زعزع هذا الموت ثقة محمد فى نفسه ، فبدا له كأن من المحال نجاح من كان مثله ، قد ملأت الصعاب مسالكه : إن الدنيا لم تتحالف ضده ، ولكن كان فى فقد أعز اثنين إليه وأقربهم إلى قلبه صدمة له ، فقد ذهب بذهابهما الحب والتعضيد المعنوى ، وهما كل شىء بالنسبة إليه ، وكان أهم من كل ذلك تلاشى الحماية التى كان يستمدها من نفوذهما ، فقد امتنع أصحاب أبى طالب عن الجهر بعداوة محمد طالما كان أبو طالب حياً ، كما أن عائلة خديجة لم تسلك طريق العداء إكراماً لرباط الزوجية الذى ربطها بمحمد . والآن ، وقد ذهب كلاهما ، قدر على محمد أن يقف

وحيداً لا يشد أزره إلا تلك الحفنة القليلة من الرجال المؤمنين ؛ وحتى المال قد تسرب من يديه ، فقد تدهورت تجارة خديجة فى سنى المقاطعة والاضطهاد والتعذيب ، وما كان محمد خلى البال ليفكر فى هذا الأمر، وما شاءت خديجة أن تلفت نظره إلى هذا ، فعاشا على ما ادخرته خديجة من قبل ، وما فطن محمد إلى هذه الحقيقة إلا بعد موت خديجة ، فتوالت الشدائد عليه بعدها وقد صار معدماً .

إن ثبات محمد على مبدئه ، وعدم إذعانه للضغط الذى نزل به لأعظم دليل على تجرده من عرض الدنيا ، فما كان أيسر وأجدى عليه من أن يذهب إلى قريش معلناً أنه قد ارتكب خطأ يتوب منه ، فيشد كل رجل من رجال هذه القبيلة المتغطرسة على يده دون تردد ، فيعيد بذلك مركزه التجارى ، وقد يفكرون فى تعيينه حارساً للكعبة ، وإيجاد زوجة غنية له ، ولكنه على الرغم من تلميحه لهم يوماً أن اللات والعزى ومناة قد يرجى نفعها[1] مع الله ، إلا أنه قد عاد ونقض ذلك ، فقد فطن إلى أن الأمر الذى يضطلع به لا يقبل مساومة ، وأنه لن يجد مخرجاً سهلا . فقد بدأ السير فى طريق ولن يحيد عنها مهما نزل به من آلام وأحزان ، وقد وجد كل عون من صحابه الذين كانوا حفنة ، فقد عزم أبو بكر وعمر وحمزة وزيد وعلىّ على أن يثبتوا للعالم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

---

(١) يشير المؤلف إلى قصة « الغرانيق العلا » وقد دحضها الدكتور هيكل باشا فى كتابه « حياة محمد » .

الفصل السادس

العقيـــدة

أثارت عبارة « محمد رسول الله » التى لا تحمل فى ظاهرها أى ضرر ثائرة مكة ، فاضطربت وهاجت بما لم تضطرب بمثله من مئات السنين ، ولم ينقض أكثر من مائة عام على إعلان محمد رسالته حتى ثارت ثائرة العالم المتمدين فى ذلك الوقت . واليوم وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً على هذا الحادث فإن قيام هياج بين المسلمين وغير المسلمين إذا ما اصطدما أمر كبير الاحتمال .

فما سبب هذا ؟ وما التغير الذى طرأ على عقلية محمد بعد أن هبط عليه الوحى فى غار حراء ؟ ولماذا كانت تعاليمه أكثر انتشاراً من تعاليم المسيحية أو اليهودية ؟ وما الفرق بين تعاليم محمد وموسى والمسيح ؟ ولماذا ترتفع نسبة المسلمين القائمين بفروض دينهم عن نسبة المسيحيين واليهود ؟ لا يمكن الرد على هذا كله فى فقرة واحدة ، ولو قدر لهذا الكتاب أن يتم لوجدت بين دفتيه الإجابة عن هذا كله ، وكل ما سيشرح الآن هو أسس عقيدة محمد الجديدة التى عرفت بالإسلام ، لا المحمدية ، ومن الخطأ أن نقول رجلا محمدياً أو امرأة محمدية ، فما قرر محمد فى يوم من الأيام أن الدين الذى جاء به من وحى تفكيره ، وما انتحل لنفسه أى صفة إلهية ، وما عبده أحد من أتباعه ، فقد قال إنه رسول كنوح وموسى ، أرسله

الله للناس هدى لأنهم ضلوا على مر الزمن : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبرهيم وإسمعيل وإسحاق ويعقوب ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (سورة ٢) ، « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ »

فعلى ذلك فموضوع الإسلام له علاقة طفيفة بمحمد ، فقد بنى على نظرية موجودة تقول بالوحى الذى نتج عنه التطور المستمر للتاريخ الدينى اليهودى والمسيحى . وكان محمد واقعياً ، ولو عاش فى القرن العشرين لطابقت نظرياته نظريات المستحدثين ، ولكان رائدهم على وجه التحقيق ، ولكن ما كان ليقول أفضل أو أكثر مما قال فى القرن السابع ليدلل على أنه أفضل ممن سبقوه ، ومن المحقق أنه ما كان لينصح أبداً أن تسمى ديانته باسمه .

ويطلق على الرجال والنساء الذين اعتنقوا تعاليم محمد « المسلمون » أى الذين أسلموا أنفسهم ، وقد اشتقت من كلمة « سلامة » أصل مصدر « إسلام » صفة العقيدة الإسلامية .

ومعنى كلمة « سلامة » أن تستريح بعد تأدية الواجب ، فإذا ما أديت ما فى عنقك أصبحت فى سلام تام ، وتترك أمرك فى النهاية فى يد الله سبحانه الذى بيده السلام .

والتعريف المختصر للإسلام هو « التسليم لله » ولكن ليس تسليماً تاماً لله ، ولكن بحثاً وراء الحق ، وهذا ولا ريب ما ترمى إليه كل العقائد الصادقة ، وقال جوته : « إذا كان هذا هو الإسلام فهل نعيش إلا فيه » .

وكلمة « السلام » التى ينطقها الشرقيون عند مقابلتهم وافتراقهم دون

تدبر مشتقة من نفس الأصل ، ومعناها «تحية وسلاماً» وصيغة التحية هى «السلام عليك» أو «السلام عليكم» ومعناها تحية وسلام عليكم ، وتستعمل للفرد كما تستعمل للجمع ، وأركان الإسلام بسيطة : شهادة أن لا إله إلا الله ، الحى القيوم الجبار المتعال ، المعطى الرحمن الرحيم الخالق. وكما ورد فى السورة ١١٢ من القرآن : «قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» .

وجاء فى تعاليم محمد أن الشرك بالله رأس الكفر ، وجاء فى السورة الثانية «الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض» .

والركن الثانى : شهادة أن محمداً رسول الله ، وعلى ذلك فمحمد رسول لا نبى ، فبينا كلمة نبى تعنى ناصحاً أو هادياً — ولو أن محمداً ينعت بها أحياناً — إلا أن رسول هى الصفة الصحيحة التى ينعت بها ، فهى التى تعنى صاحب رسالة.

وهذا الاعتقاد على جانب عظيم من الأهمية ، لأن محمداً قد أعلن أنه بشر كأى عربى ، فكان الاعتقاد بأنه رسول الله أمراً محتما . وقد ربط القرآن بين الاعتقاد فى الله والاعتقاد فى رسالة محمد .

ووصف محمد «الله» بأن العقل يقصر عن تصوره ، فهو الرب المتعال عز وجل ، له الملك كله . وأخذ استعمال كلمة «الرب» يقل واستعمل عوضاً عنها كلمة «الله» وقرب محمد الله من الإنسان حتى صار يحس وجوده أينما توجه ، وراح محمد يردد قول الله : «وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من

ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » فازداد الله بذلك قرباً من الإنسان .

ثم أعلن محمد أن الله ليس موجوداً فى كل مكان فقط بل فى سرائر الناس جميعاً ، وكان مما ترك فى نفسى أعمق الأثر طوال إقامتى بين العرب اعتقادهم فى الله فى كل أعمالهم اليومية ، فهو المتحكم فى أرزاقهم وأسفارهم وأعمالهم وحبهم ، وهو فى فكرهم دواماً ، وأدنى أصحابهم إليهم ، فالاعتقاد بأن الله معنا فى الصحراء أمر يقبله السيد والراعى ، ويتناقش الغنى والفقير فى الله والإسلام فى حرية وحسن إدراك ، ولا يبدأ عمل أو ينتهى منه أو يوعد به دون الاستعانة بالله للعون أو القسم أو الحمد ، لقد كان الله معنا كما أعلن محمد .

وما كل هذا بجديد ، ولكنه كان جديداً بالنسبة لمحمد ، وعلى الرغم من وجود معتقدات وتعاليم قديمة يقوم محمد بتفسيرها الآن ، فالزعم بأنه قد سرق الإنجيل زعم باطل ، فما رآه أبداً ، والقول باطلاعه على ترجمة الإنجيل الناقصة التى قام بها ورقة لا يضع أمامه إنجيلا كاملا ليراه ، وحتى هذه الترجمة لم يرها ، فإن أول ترجمة عربية رسمية للعهدين القديم والجديد ظهرت بعد موت محمد بقرون . وأما حقيقة أن القوى النابتة فى الديانتين القديمتين ظاهرة فى كل وجه من وجوه الديانة الجديدة فترجع إلى ما سمعه محمد فى رحلاته ، وتعود إلى تعاليم بحيرا [1] وورقة وقس بن ساعدة حبر نجران . وحالة محمد هى حالة وثنى تحول إلى التوحيد وقد امتص نظرياته وتطبيقاته من حلقات العابدين والإنصات إلى الوعاظ

(١) قابل الرسول بحيرا مقابلة واحدة أيام خروجه إلى الشام وكان فى العاشرة ، ولا يعقل أن تترك هذه المقابلة هذا الأثر العظيم الذى يشير إليه المؤلف .

المرشدين ، وما درس سطراً واحداً مكتوباً فى كتاب مقدس .

ويعجب الكثيرون من وجود الشىء الكثير من الديانة اليهودية والمسيحية فى الإسلام ، ولكن حسب طريقة محمد فى التفكير ، قد تطورت هذه العقائد من عقيدة إلى أخرى ، وهى تتطور الآن على يديه إلى عقيدة جديدة ، وهو يعتقد أن وحى المسيح كان وحى نبى أرسله الله لتأكيد وتثبيت ما أوحى إلى موسى ، وحسب ماجاء فى القرآن : « وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » .

ومما لا شك فيه أن محمداً كان يعتقد أنه رسول رب العالمين للبشر كافة ، وقد اعتقد أكثر من ذلك بأنه سينجح فى إتمام ما بدأه موسى ثم واصله المسيح ، وكانت فكرته ثاقبة فقد بدأت الديانتان السابقتان للإسلام على يد رجلين كانا يعيشان فى نفس المنطقة التى كان يعيش فيها محمد ، وكانت هذه المنطقة لمحمد هى العالم ، ولو أن رحلاته المتواصلة علمته أن هناك دولا وراء البحر الأحمر والأبيض ، ولكن كان هذا العلم غامضاً لا وضوح فيه ، وكان محمد أكثر ترحالا من موسى والمسيح ، وهذا أقصى ما يمكن أن نقوله .

ويرجع فشل محمد فى قبول اليهود والمسيحيين له ، أو على الأقل فى تنظيم صفوفهم معه ، إلى مثله العليا تارة ، وإلى عدم معرفته ديانتهم معرفة تامة تارة أخرى .

وقد تقرب من اليهود مستعيناً بأسفارهم التى أكد لهم أنه ما جاء لهدمها بل لإتمامها ، فطبق الصوم والأعياد فى ديانته الجديدة وفق نظامهم ، وقد حاول أن يجعلهم يعتنقون آراءه الحرة فيضم اليهود والمسيحيين

والمسلمين ، وكانت قبلته بيت المقدس حتى يئس من عون اليهود ، ولم يقدر محمد أن لو اعتنق اليهود الدين الجديد لعد ذلك اعترافاً منهم بخطئهم فى مجادلة المسيح ، فقد كان محمد يعتقد فى عيسى ، فقد جاء فى القرآن : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا » « ثم قفينا على آثارهم بعيسى بن مريم » .

فلم يكن من العسير والحالة هذه أن يعتنق محمد المسيحية ، فإنه على الرغم من أنه لم يعترف ببعض مبادئها ، فإنه لم يعادها أبداً ، فلم يحرم زواج المسلمين من المسيحيات ، وكانت أم أحد أولاده مسيحية ، ومما لا شك فيه أن محمداً كان يأمل حيناً من الدهر أن يتفاهم المسلمون والمسيحيون على صورة ما ، ويرجع عدم نجاحه فى ذلك إلى مراوغتهم مراوغة عنيفة معقدة .

شاء محمد أن يفرض شريعة التوحيد على قوم تعودوا تعدد الآلهة ، وبدا أن المسيحيين الذين يحمل لهم كل تقدير قد عقّدوا عقائدهم البسيطة الجميلة السهلة إلى عقائد غير مفهومة ولا ضرورة لها ، وقد رأى محمد أن سر الثالوث والتجسد أشياء غامضة تناقض وحدانية الله ، ورأى أنهم يعبدون فى الحقيقة ثلاثة آلهة ، ويتحول الرجل عيسى إلى مادة ابن الإله . وقد جاء فى السورة الرابعة : « يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض . وكفى بالله وكيلا » « تبارك

الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

ورأى احترام المسيحيين للقديسين وصورهم كاحترام العرب لأصنام الكعبة الثلاثمائة والستين ، فكره الصور ، وإن كره محمد لها واضح فى كل جامع من جوامع العالم ، وجاءت فكرة كتابة الآيات كتابة متداخلة ، وما يسمى (بالعربسك) نتيجة لتحطيم الأصنام ، وهى عمل فنى فى ذاته ، فما كان من رأيه أن يصور الإنسان صورة كائن حى ، وما كان هذا طبيعياً ، ولكنه أخذ ذلك من الوصية الثانية من الوصايا العشر .

واعتبر القول بأن عيسى ابن الله كفراً ، فقد أصر محمد على أن الله لا شبيه له (لم يلد) ولم يعتقد أن الله يرضى عن قتل عيسى الذى كان رفيع المنزلة سواء أكان ابن الله أو لم يكن : فأعلن أن شخصاً آخر أخذ على أنه عيسى ثم صلب وقتل ، وقد يكون ذلك الرجل أحد حوارييه ، أو يهوذا الذى يكون قد دفع ثمن خيانته ، أما عيسى فقد رفعه الله ، وفى السورة الرابعة : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيما » ولم يعرف اليهود ذلك فظنوا أن المسيح مات مصلوباً .

وكانت هناك عقبة كبرى خارج نطاق العقائد وقفت حجر عثرة فى سبيل مجاراته للمسيحيين ، فقد رأى أن المسيحية طبقت فى بلاد العرب كلها وما يجاورها من البلدان ، وفشلت هذه الديانة فى خلال الثلاثمائة عام التى عاشتها فى بلاد العرب فى القضاء على وثنية القوم ، وإن جميع الحقائق تؤيد وجهة نظر محمد هذه .

كانت الديانة المسيحية فى ذلك الوقت قد ذهبت شيعاً مختلفة ، لكل شيعة قوانين تناقض نفسها ، وحتى اليوم نرى الكنيسة المسيحية قد تفرقت تحت أسماء عديدة لاتشبه فى شيء ما كانت عليه فى القرن السابع . وكانت بعض العقائد لا تتفق فى شيء وما جاء به المسيح على الرغم من قرب العهد ، فكانت هذه العقائد فى نظر محمد شيئاً لا يقبله العقل .

ومن هذه الشيع السابليون ، وكانوا يقولون إن التثليث يشمل الآب والابن وروح القدس ، شخص واحد وتكوّن جميعها مادة واحدة كما يتكون الإنسان من جسم وروح وعقل باطنى ؛ والأريبون الذين قالوا إن المسيح ابن الله ، ولكنه منفصل عنه وأقل منه ؛ والنسطوريون الذين يرون أن للمسيح طبيعتين مختلفتين : إلهية وإنسانية ، ولم تكن مريم إلا أمه ، وإنه لمن الكفر أن تدعى أم الإله ؛ واليوتيشيانيون الذين يقولون إن عيسى هو الله قبل التجسد ، وبشر أثناء التجسد فقط ؛ والكلوريديون وهم شيعة من السيدات كن يعبدن مريم العذراء ؛ والمريميون وكانوا يقدسون التثليث ، فالله الآب والله الابن والله الأم مريم . وشيع أخرى عديدة لها معتقدات متباينة كل التباين .

كان محمد يحس عطفاً قوياً نحو عيسى على الرغم من هذه الشيع والمتناقضات ، فقال عنه إنه أعظم الأنبياء ، وكان يعتقد فى قدرته على عمل المعجزات ، وأنه كلمة الله ، وكان اسمه المسيح ، وقد قبل الحمل الطاهر ووافق على أن مولد عيسى معجزة . وقال برجوع عيسى قبل نهاية العالم للقضاء على أعداء المسيح ، ثم يسود السلام على الأرض ، ثم يموت عيسى ويدفن إلى جوار محمد ، ويقوم محمد وعيسى يوم النشور يشهدان على

البشر ، فيتهم عيسى اليهود بأنهم كذبوه ولم يعترفوا به كنبي ، ويحاسب المسيحيين على عبادتهم له كإله ، وقد أكد محمد فى السورة الثالثة أن عيسى لم يشر على الناس بعبادته ، وأن عبادة الناس له جاءت بعد موته نتيجة الجهل وسوء التفسير .

وقد وضع محمد بذلك عيسى فى مستواه ، وإنه لبعيد عن الحق أن يقال إن المسلمين إلى اليوم ينظرون إلى عيسى نظرة حقد واحتقار ، فلا يذكر المسلمون اسم عيسى حتى يردفوا « عليه السلام » .

وقد كان من المؤلم لمحمد أن يرى فرعى التوحيد اللذين سبقاه فى التاريخ لا يرغبان الدخول معه فى أى نوع من المساومة على عقائدهم على الرغم من هذه العواطف التى أبداها لليهود والمسيحيين .

بذل محمد المستحيل لصهر الديانات الثلاث وإدماجها بعضها فى بعض ، ولكنه باء بالفشل ، فراح يعمل بعد ذلك للعمل للإسلام ، فأبقى أفضل ما فى ديانات العرب القديمة ، وانتخب ما اعتقد صلاحه فى تعاليم المسيحية واليهودية .

وحان الوقت ليقرر محمد شيئاً بشأن الكعبة ، فقد أحس خطورة استمرار قيام الطقوس الوثنية بها ، ولكنه تذكر تقاليد الكعبة العتيقة واتصال هذه التقاليد به وببنى هاشم ، وتذكر قيمتها وما تقدم للبلد الحرام ، فأبطل عبادة الأصنام وكثيراً من التقاليد الوثنية ، ولكنه ترك القليل من التقاليد التى لا تتعارض والإسلام ، وقد فعل المسيح مثل ذلك من قبل لما أبطل فضائح المعابد وترك المعابد قائمة .

وقد ترك محمد مسألة تعدد الزوجات ، وإنه لمن الثابت فى العهد القديم

أنها عادة متأصلة فى العرب تعود إلى أزمنة متناهية فى القدم ، وقد كانت بذلك من العوائد القديمة التى تغلغلت فيهم ، وما كان محمد ليقرها ، ولكن لم يكن ليملك منعها ، فقد كان تحريمها يفقده كثيراً من أتباعه دون أن يؤدى خدمة ظاهرة للإسلام . فترك لهم ما ألفوه ، ولكنه قيد تعدد الزوجات .

وإن أعداء محمد ليهاجمونه هجوماً عنيفاً غير مشروع بسبب تعدد الزوجات ، فلطالما سمعت أن نجاح الإسلام يعود إلى أنه دين شهوانى ، وإنه على الرغم من أنه من المحال أن يعزى انتشار ديانة عظيمة لسبب تافه كهذا ، إلا أن محمداً لم يكن له فى الأمر شيء ، فما كانت أخلاق العرب من صنعه ، وكان من الفطنة بحيث إنه ما كان ليتصور بأن فى مقدوره إعادة تكوين هذه الأخلاق أو تجريد الناس مما طبعوا عليه دفعة . وينبغى ألا يغيب عن البال أن ما جاءت به المسيحية أو اليهودية كان نتيجة انتشار تدريجى ، وعلى مدى طويل ، وقد أنجز كل هذا رجل واحد فى الإسلام ، وتم كل هذا التبدل فى جيل واحد ، وإن كان هذا عرضة لئلا يلتفت إليه ، إلا أن عمل محمد كان جباراً حتى إن عيسى لا يمكن أن يسجل له شيء يقارب ما أتاه محمد حتى ولا بولص .

لم يلغ موسى نظم الجماعات البدائية ، ولكنه حد من مساوئها العظمى ، ولم ينسخ عيسى القوانين التقليدية ، ولكن كما قال ماتيو دافع عن عكسها : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . فإلى الحق أقول لكم ، إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل » .

جاهد المسيح ليغرس مبادىء فى عقول أتباعه ستتمكن على كر السنين من اقتلاع العقائد القديمة التى اعتبرها عقائد لاتوافق العصر .

فليس من العدل فى شىء أن يذكر نظام تعـدد الزوجات كجزء من الدين الإسلامى دون ذكر الرق كجزء من الدين المسيحى ، فقد صاحب الرق المسيحية ، وجعل يبرر وجوده حتى القرن التـاسع عشر بالقوانين المسيحية ، وإن هذا ينطبق على تعدد الزوجات والإسـلام ، ولـكن هناك فرقاً واحداً ، ألا وهو أن تعدد الزوجات قد لم تمل الأسر ولم يفرقها . وجعل البيت شيئاً مقدساً .

وما جاء الختان عن محمد ، كما هو الحال فى تعدد الزوجات كما قدمنا ، فقد ولد بين قوم ألفوا هذا الأمر ، فما كان هناك ما يدعوه إلى التدخل فيه ، ولا يمكن أن يعد الختان من قواعد الإسلام .

لا رهبنة فى الإسلام ، ولـكن هناك وعاظاً دينيـين وأئمة مساجد ، ولا يوجد فى الإسلام وساطة بين العبد وربه ، فالمسلم على اتصال مباشر بالله ، والعلاقة بين العبد وربه متروكة دائماً لضمير الفرد .

والجوامع قائمة وبها أئمة ليأموا الناس فى الصلاة ، وما كان الذهاب إلى المسجد دليلا على رسوخ الإيمان ، فما يتعدى ذهاب المسلم إلى المسجد عن أنه تفضيل شخصى ، فسواء أصلى المسلم فى الجامع أم فى الخلاء ، وما اجتماع المسلمين للصلاة باجتماع عمرانى يستحب فيه القيل والقال ، فليس هناك حشد كنسى فى يوم من أيام الأسبوع لتعويض ما فاتهم من غذاء روحى فى أيام الأسبوع الأخرى ، فليس هناك فاصل فى الإسلام بين الدين والعمل ، فإنه ليجعل الاهتمام بهما أمراً محبباً مشكورا . ويوم

الجمعة عند المسلمين يوم صلاة جامعة ، ولكنه ليس يوم كسل واستيقاظ متأخر تم الذهاب للعب الجولف أو الاستحمام ، فإنه إذا ما قضيت الصلاة ، انتشر المسلمون فى الأرض كل إلى عمله ، فليس هناك والحالة هذه عبادة آلية يقوم بطقوسها رجال دين محترفون ، يتناولون أجراً على وصفهم الله كما يرونه ، فالمسلم يتحدث عن الله فى احترام وعدم كلفة كما يتحدث الابن عن أبيه، فهو يعيش فى جوار دينه وفى داخله .

وقد أثرت أشياء كثيرة فى مسلك محمد حيال الكهانة ، فإن نفسه لم تمل إلى فكرة اعتكاف الرجال وعزلتهم وفرض العفة على أنفسهم ، والتزامهم بأعمال التكفير ، فإنه كان يحس أنه فى الإمكان أن يكون الرجل مسلماً مثالياً مع حياته حياة عادية ، فما كان ليعتقد أن العفة المفروضة على النفس أمر طبيعى ، أو أمر يجعل المرأة أو الرجل أكثر قبولا عند الله من فرد جرى على النواميس الطبيعية فى علاقاته الجنسية. ورأى ما جلبته الكهانة من أضرار للديانات الأخرى ، فقد أسىء استعمال سلطة القساوسة ، فقد شوهوا الحقائق الدينية ، وكان خير دليل على الضرر الذى يجلبه البشر للعقائد ، تلك المذاهب المسيحية المتباينة بما تحوى من تناقض فى العقائد ، وقد رأى تأثير المرشدين الروحيين السىء فى نفوس المتدينين البسطاء ، فقد كانوا يرتجفون فرقاً إذا ما هددوا بالعقوبة لمخالفة تعاليم مرشديهم .

وكان الدافع الثالث لشعور محمد فى هذا الموضوع يرجع إلى الظروف كما هو الحال فى كثير من أمور الإسلام ، فقد ولد محمد وشب فى الصحراء ، ولو أنه رأى سورية وفلسطين إلا أنه ما كان يعرف إلا حياة الصحراء ،

فنبهه ذلك إلى أنه من العسير على الرحّل أن يجدوا مسجداً أو من يقوم لهم بشعائر دينهم إذا ما حانت الصلاة ، ففرض للصلاة مواقيت معينة وقال إنها جائزة من غير إمام وفى أى مكان كان .

ويجب أن نضع أمام ناظرينا دائماً ما للصحراء من أثر على الإسلام ، فإننا لنرى أن العرب قد خصوا الله بمكانة فى حياتهم أرحب وأعظم مما يخصصه لله من يعيشون فى أماكن اكتظت بالغابات والأنهار والبحار ، فالمسلمون يحسون دواماً حاجتهم المستمرة لحماية الله لهم ، فهم يعتمدون على الله فى كل شىء ، ونادراً ما يتخلى الله عنهم .

وقد أملت الظروف المحلية كثيراً من القوانين الإسلامية ، فيرجع تحريم لحم الخنزير إلى رداءة مراعى الخنازير وقذارتها فى الشرق ، فهى أحط من مثيلاتها فى الغرب ، كما أن العرب لا يعرفون كيف يطيبون لحومها ، ولا يعرفون طريقة طهيها .

ويرجع تحريم الخمر إلى شغف العرب بنوع من المشروبات الروحية المستخرجة من البلح ، فلو كانت بلاد العرب بلاد نبيذ ، فربما أدى ذلك إلى عدم التفكير كلية فى تحريم الخمر ، ولكن لم تكن بلاد العرب لتنتج نبيذاً . وحيثما ينتشر الإسلام تختفى المشروبات الروحية ، وقد أمكن محمداً أن يمنع شرب الخمر بجعله معصية ، الأمر الذى حاولت الولايات المتحدة فعله بسن القوانين والأوامر وفرض عقوبات دينية .

وكان لخلع الحذاء عند دخول جامع أو مكان مقدس دون غطاء الرأس سبب عملى ، فغطاء الرأس عند العرب يصعب نزعه ، فى حين أن نعالهم التى لا أربطة لها يسهل خلعها ، وكذلك فإن أرض الجامع طاهرة

فلا يجوز أن تتسخ . وقبل الإسلام كان العرب يخلعون نعالهم إذا ما دخلوا مبنى أو خيمة ، والغرض من ذلك أن تظل السجادة التى يجلسون عليها أو ينامون فوقها نظيفة .

وما كان ليخطر على قلب رجل مدنى تعود الإقامة أن يجعل البِرّ جزءاً من العقيدة ، فإنه كان يرى أنه من الصعب جمع الزكاة من القبائل الرحالة التى كانت تقبل أوتذهب حسب فصول السنة ، ولكن فرضت الزكاة فأصبحت أمراً دينياً ملحوظاً .

وقد أمر الإسلام الغنىّ بمعاونة الفقير ، فأكد حماية المعدمين ، وقد حرض على الشفقة والعون على التخصيص ، وجاء ذلك نتيجة ذكريات محمد عن الظلم الاجتماعى فى مكة ، فقد كان التجار الأثرياء يسومون الفقراء سوء العذاب ، ولكم أحس محمد رثاءً لهؤلاء الذين كانوا يكافحون الحياة ، فهو أول مصلح اجتماعى كان عملياً نحو البر فجعله ركناً من أركان الدين فارتفع إلى مرتبة القوانين .

والإسلام هو النظام الوحيد الذى تطبق فيه الاشتراكية بمعناها الصحيح ؛ فتعاليمه تنص على أن كل شىء فى العالم ملك للجميع: فليس هناك والحالة هذه ملكية فردية ، ويعلن الإسلام صراحة أن للفقير حقاً معلوماً من مال الغنى .

وقد حُملت هذه الروح الديمقراطية إلى جميع البقاع التى سيطر عليها الإسلام ، وطبقت قواعده على الأمم والأفراد على السواء ، وما كان الإسلام ليعترف بنظام الاستعمار ، فما كان يرى داعياً أن تُخضع الشعوب التى ترى تفوقَها العلمى الشعوبَ الأخرى بحجه تحسين وسائل معيشتها ،

وحينما توجه الإسلام غب موت محمد ، فإنه لم يجعل البلاد المفتوحة إقطاعيات ، ولم يستغل موارد البلاد لصالح المسلمين ، فلم يتبع طريقة الرجل الأبيض فى إنقاذ المتخلفين القاطنين بقاعاً تدر عليه أضعاف المكافأة التى يستحقها ، بل على النقيض من ذلك فإن المسلمين لم يعرفوا شيئاً كثيراً عن الأراضى التى كانوا ينتشرون فوقها وما يمكن أن تغله لهم . إنهم قد انتفعوا طبعاً بكل ماوجدوه ولكن كان ذلك بالتضامن والسكان أصحاب البلاد الذين كانوا يتحولون عادة إلى مسلمين ، فكانوا بذلك يصبحون حلفاء وإخواناً ، وإن خير دليل على العلاقة الطيبة السلمية بين المسلمين وأصحاب البلاد المفتوحة ، أن جميع هذه البلاد (ما عدا إسبانيا) ظلت أمينة للإسلام من القرن السابع إلى الرابع عشر .

* عرضت وجهة نظر محمد فى القضاء والقدر عرضاً خطأ ، واستند هذا العرض الخطأ على أقواله نفسه : « والله خلقكم وما تعملون » وقوله « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » وعلى كل حال فإن الاعتقاد فى القضاء المطلق الذى يحيل الإنسان إلى ألعوبة ليس ماعناه محمد ، فقد قرر مراراً أن الإنسان حر ، حر فى قبول رسالة السماء ، وحر فى رفض هذه الرسالة ، ومسئول عن أعماله ، وبذلك يستحق العقوبة أو المثوبة . وقال : « أغنى الناس من اغتنى ببذله ، وأشقى الناس من شقى بفعله » . فمهما كان شعور محمد حيال القدر فقد كان عليه أن يجارى العرب كما جاراهم فى تعدد الزوجات ، فالقدرية تعود إلى تاريخ أبعد من محمد ، فقد كان العرب قدريين من بدء الخليقة ، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن القدرية والإسلام شىء واحد وما هذا الشىء إلا خيال .

ويتساوى وفكرة أن الديانة الإسلامية لها ضلع كبيرة فى تعدد الزوجات فكرة أن جنة المسلمين مكان يجرى فيه تعدد الزوجات على أوسع نطاق ، وفى الحقيقة ليس هناك شىء أكثر غموضاً فى الإسلام مما ذكر عن الزواج فى العالم الآخر . وكل ماوعد محمد به أتباعه هو مكان فيه الراحة النهائيه حيث يجد المسلم مالم يجده فى الأرض ، أنهار وبحيرات وسندس وإستبرق ، وأشجار قطوفها دانية ، وخمر تنعس ولا تسكر ، وما يؤكل يهضم ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ، وأكد لهم أنهم لن يحتاجوا إلى تنظيف أنوفهم أو آذانهم أو غسل أبدانهم فإن وساخات البدن ترشح كرشح المسك . وهناك يتكئون على فرش بطانتها من إستبرق ، ولن يحس المرء هناك ذلك العطش الذى يحسه الضارب فى الصحراء ، وليس فى الجنة تعب ولا لغوب ، ولكل واحد من أهل الجنة اثنتان وسبعون حورية قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . ولم يحرم الإسلام دخول النساء الجنة ، وقد جاء فى القرآن مراراً ما ينقص الفكرة السائدة بأن الإسلام يعتبر النساء بلا روح ، فقد كانت فكرة محمد عن النساء أسمى من أن يقرر أمثال هذه الفكرة الخاطئة ، لقد أعلن محمد أن أبواب النعيم ستفتح للجنسين دون تفريق ، ولم يذكر الرفاق الذكور للسيدات الداخلات الجنة ، وقد يكون أراد بذلك ألا يشعل غيرة أزواج الدنيا فيفسد عليهم حياتهم ، وقد تفادى المسألة بنفس اللباقة التى تفادى بها المسيح المسألة عندما وقع فى نفس المأزق .

إن نظرة تلقى على الضريح الذى بناه سليمان القانونى لزوجه فى القسطنطينية ، أو على الضريح الذى بناه شاه جاهان لزوجه فى الهند لتدل

على مقدار ما يكنه المسلمون لزوجاتهم من احترام . ولا شك أن من الغباء أن يصرف أناس لا يعتقدون فى الحياة الثانية الملايين لتشييد مبان خالدة من الفن الهندسى الشرقى كجامع السلمانية وتاج محل .

وكان محمد جد مجامل فى مخاطبته النساء ، وتعتبر الحادثة التالية رقماً قياسياً فى الذوق وحسن السياسة ، فقد سألته عجوز كيف ستدخل الجنة ، فقال : لا يدخل الجنة عجوز . فذعرت المرأة ، فقال : إن الله تعالى يقول : « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً » .

ويذكر القرآن أن الفردوس جنتان : « فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » وعلى هذا النمط كتبت السورة الخامسة والخمسون .

ولما كان محمد محباً للحيوان فقد قال إن الحيوان سيبعث يوم البعث العام ، وترجع هذه الفكرة إلى ما قبل الإسلام ، فقد كان الجمل يربط بقبر صاحبه ، حتى إذا ما جاء النشور صحب الرجل جمله فى الحياة الثانية .

وإن إظهار محمد الجنة فى هذا الثوب الخلاب لم يكن استسلاماً للمادية أو الشهوانية ، ولكنه أراد أن يمنى المسلمين بجائزة عملية يفهمونها ، وكان إذا ما تكلم عن المستقبل يقول : « الدنيا سجن المؤمن » وبهذه الوسيلة كان يبدى حكمته ، وقد قررت جميع العقائد أن الدنيا الثانية هى التى يخلد المؤمن فيها .

ويحلم الهنود الحمر بالنعيم خلف تلال تظللها السحب حيث يجد

الهندى المؤمن وكلبه سعادة فى سكون الغابات ، وكان سكان اسكندناوا القدامى ينتظرون ساحة الإله (أودين) ليقيموا بها حفلة سكر لا تنتهى ويشربون فى جماجم أعدائهم عوضاً عن الكئوس ، ويأمل المسيحى المتعبد فى حياة أكثر راحة وأقل عناء من حياتنا هذه التى لا استقرار فيها ، وقد يكون ذلك سراباً ، ولكنها بالتأكيد لن تشابه مدرسة يوم الأحد المقبضة ، ذات التيارات الهوائية ، والتى لا انسجام فيها !

وإنه لمن المتعذر على شعب ألف تعدد الزوجات أن يتصور نعيماً لا تتعدد فيه الزوجات ، وعلى الأخص إذا كانوا لم يعرفوا أية جماعة لم تتعدد فيها الزوجات ، فيصبح تغيير الوضع أمراً بعيد التصديق ، ولا يوجد مسيحى يشعر شعوراً عميقاً بالرباط المنزلى ويفضل المذهب القائل بانعدام الصلة الجسمانية فى الآخرة (حسب ماجاء به سان ماتيو)

لقد توفرت لمحمد الخبرة الدنيوية ، فقد أحب وتعذب ، وكانت حياته كفاحاً فتطلع إلى تعويض إلهى ، ومكان سماوى للراحة حيث يجد هو ورفاقه ما فقدوه فى دنياهم . وإن كثيرين لا يعلمون أن النعيم الممتزج بالشهوانية قد جاء عن مسيحى يدعى سان إفرأم عاش فى سورية فى القرن الرابع الميلادى ، ففى ترانيم إفرام عن النعيم كل ما قال به محمد حتى الحور العين اللائى سيعوضن الرجال المقدسين عن حرمانهم الدنيوى — كما قال إفرام .

وهاك بعض هذه الترانيم : قد رأيت منازل الصالحين ، فرأيتهم متدهنين وقد فاحت رائحتهم الذكية ، وقد التفت الزهور بأعناقهم ، وفرشت أرض منازلهم بالفواكه ، وقدم نبيذ النعيم لمن حرم نبيذ

الأرض ، ومن عانى الحرمان فى حياته فقد ارتمى على صدور الحور العين فقد كان فى حياته قديساً ما ارتمى على الصدور أو نام فى فراش الحب الأرضى (ترانيم سان إفرام الجزء الثالث ص ٥٦٣) .

وبنفس الدافع فقد أنذر محمد مخالفيه ، وإن الصورة التى صورها محمد للجحيم هى تجسيم متاعب الصحراء وأهوالها فيقول : « إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميا وغسّاقا » .

ويقول : « من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يُسِيغُه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ ، مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون على شىء مما كسبوا ذلك هو الضلال البعيد » .

وقد سبق القرآن جورج سيل وزملاءه الساخرين فقال : « ويل يومئذ للمكذبين ، انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمَالتٌ صفر ، ويل يومئذ للمكذبين » .

وإن جهنم عند المسلمين — على عكس جهنم عند المسيحيين واليهود — ليست تعذيباً لا نهائيا ، ولكنها كبيت للتمريض حيث يذهب الناس للعلاج من الآلام النفسية ، فإذا ما برءوا دخلوا جنة النعيم .

وما الجنة إلا تجسيم ما رآه محمد من نعيم خارج بلاد العرب فى أثناء رحلاته ، مع احتمال استعارة بعض أفكار الأب إفرام ، وما الجحيم إلا تجسيم مشاق الصحراء المحرقة القاحلة الماحلة التى تحيط مكة .

وكانت صورة الجنة والنار مشابهة كل التشابه للصورة التي تصورها موسى وعيسى لأنهما كانا من نفس هذه البلاد القاحلة الماحلة ، فكان النعيم لذلك يقابله المراعى الخضر ، بينما يقابل الجحيم النار المندلعة المشبوبة .

وشرّع محمد الاعتقادات الآتية لمعتنق الإسلام :

١ — الاعتقاد أن لا إله إلا الله .

٢ — والاعتقاد فى ملائكة الله وأشهرهم جبريل وسيط الوحى ، وعزرائيل قابض الأرواح ، وإسرافيل النافخ فى الصور ، وميكائيل المكلف بالمخلوقات جميعاً ، وهناك بين الملائكة اثنان أسودان وهما المسئولان عن سؤال الأرواح عقب دفن الأجسام : « من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ وما قبلتك ؟ » .

وتبقى أرواح من يخفقون فى الإجابة عن هذه الأسئلة مع الأجساد فى القبر حتى يوم النشور .

٣ — الإيمان بكتب الله ، فقد أنزل الله كتباً عديدة على آدم ومن جاء بعده من الرسل ، وقد فقدت جميعاً إلا ناموس موسى ، ومزامير داود وإنجيل عيسى وقرآن محمد .

٤ — الاعتقاد فى رسل الله ، فقد أرسل الله للناس مائتى ألف نبى ، ذُكر منهم فى القرآن خمسة وعشرون ، وأعظمهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، والأنبياء معصومون ، وأكثرهم عصمة عيسى الذى يقول محمد عنه : كلمة الله ألقاها إلى مريم .

٥ — الإيمان بالبعث واليوم الآخر ، وفى هذا اليوم توزن أعمال

الناس جميعاً ، والدليل على قرب قيام الساعة ظهور عيسى مرة ثانية ، وسيكون البعث بالجسم حتما ، وقد جادل كفار مكة محمداً فى هذا « وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رءوسهم ، ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً » ولن تقبل الشفاعة يوم البعث لغير المسلمين ، فقد أرسل الله رسوله لهداية الناس إلى الصراط المستقيم ، فإذا رفضوا الهداية فالذنب ذنبهم فقد قام الله بما ينبغى لهدايتهم .

٦ ــ الإيمان بالقدر وبأن ما يصيب الناس من خير أو شر مقدر . إن الله خلق ما كان وما هو كائن .

• وقد فرض محمد على المسلمين ، إلى جوار هذه العقائد ، خمسة فروض :

١ ــ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وهى ركن الإسلام الأول .

٢ ــ الصلاة خمس مرات فى اليوم ، الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقد قال محمد إن الصلوات الخمس كنهر متجدد يجرى بجوار دار الإنسان ، فمن يغتسل فيه خمس مرات فى اليوم يظل طاهراً نقياً . ولم يمنعه هذا من التشدد فى المحافظة على النظافة الجسمية ، فعلى المسلم قبل الصلاة أن يتوضأ ، ولما كان محمد واثقاً من أن الماء لا يتوفر فى كل وقت فى بلده فقد سمح بالتيمم . وليست هذه الصلوات شكايات ترفع إلى الله ، فالله قوى عالم بما يحتاج إليه العبد . وإنه لمن السفاهة أن ينبئه الإنسان

بما يحتاج إليه ، وما هذه الصلوات إلا لشكو الله وحمده ، والتماس صفحه وغفرانه .

٣ ـــ الصيام ، ويصوم المسلمون فى شهر رمضان ، فلا يأكل الصائم ولا يشرب طوال شهر الصيام من الفجر حتى غروب الشمس ، فيمسك الصائم عن الطعام والشراب لما يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وإن شهر رمضان ، وهو شهر من الشهور القمرية ، يأتى فى فصول مختلفة ، فيكون الصيام فى شهر يونيه أقسى ما يكون لطول النهار ، وشدة الحرارة فى ذلك الشهر . والحكمة من الصيام واحدة فى جميع الديانات ، فبالحرمان يتعود الناس النظام ، ويتساوى الغنى والفقير ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحرمان بين الطوائف المسيحية يعتمد فى كثير على ضمير الصائم ، بينما أنه على المسلمين أن يمسكوا عن الطعام والشراب طوال الساعات المعلومة .

٤ ـــ الحج إلى مكة ، وترجع هذه العادة إلى أقدم العصور ، فقرر محمد فى نفسه أن يبقى على هذه المراسيم كجزء من ديانته الجديدة ، فقد رأى بعينه الثاقبة أن الحج سيجمع المؤمنين من جميع بقاء الأرض فى صعيد واحد مرة فى كل عام ، وقد أضاف إلى هذه الفريضة شرطاً يتفق وطبيعته العملية ، فقد جعلها واجبة على من استطاع إليها سبيلا .

٥ ـــ الزكاة وهى صدقة قانونية لصندوق الجماعة ، وهى غير إجبارية ، ولكنها تحض على مساعدة المحرومين ، وهذا النوع الرسمى من الصدقة يخرجه أكثر المسلمين بوازع من ضميرهم

وبالاختصار فهذه هى أسس المثل العليا الجديدة التى عرَّض محمد حياته للخطر من أجلها فى مكة ، فقد قدم لقومه إلهاً سامياً سمو إله المسيحيين . ولكنه أشد منه قسوة ، فكان أكثر ملاءمة لحياتهم الخشنة . فإن هذه الديانة هى ديانة البدوى والمقاتل ، ديانة البادية المحرقة المترامية التى لا تحدها حدود .

وفى المسيحية آفاق من الأخلاق ، وعوالم من الفكر لا وجود لها فى ديانة محمد ، كما أن أسس المثل العليا للحياة المسيحية أكثر روحانية ، كما أن حياة منشىء الإسلام تفوق فى ماديتها حياة منشىء المسيحية ، وليس فى الإسلام حياة روحية بالمعنى الصحيح ، لأن حياة محمد كما اعترف بنفسه لم تكن روحية ، وقد يكون ذلك من أسباب شهرتها . ومن أسباب انتشارها .

وعلى الرغم من ذلك فليس الإسلام بالديانة السهلة الهينة ، فهو بما يحوى من صيام وصلوات يومية وحج وزكاة لا يتفق وطبيعة الكسول أو الأنانى ، فليس هناك جزاء دنيوى لمعتنقيه كما هو الحال فى الديانات الأخرى ، ولما كان محمد هو الحاكم الزمنى فإنه لم يعط لأتباعه جوائز إلا ما غنموه فى حروبهم .

وقيل إن الإسلام أقل قابلية للامتصاص من الديانات الأخرى . وقد يكون هذا صواباً ، فقد بنى الإنسان على أفكار كانت موجودة قبلا ، فإذا كان هذا هو كل ما به فهو غير شائق لأنه غير أصيل ، ولكن العنصر الذى لا يستطيع الإنسان أن ينساه ، بل الذى يجب على الإنسان أن لا ينساه هو محمد نفسه ، فهو الذى خلق

الإسلام ، هو الذى أمده بقوته الدافعة وجعله يزدهر وينمو خلال الثلاثة عشر قرناً منذ أن عرضه أول مرة على العرب ، فمحمد هو الإسلام أكثر من أن موسى هو اليهودية ، ومن أن عيسى هو النصرانية ، وإن تاريخ هذه الديانة لن يكون شيئاً ذا بال بدون قصة مؤسسها .

الفصل السابع

السموات السبع

(٦٢٠ م)

مهما قست البداية ، وطال الطريق ، فقد بلغ معظم الرجال هدفهم، وقد بلغوا الخمسين ، وما شذ محمد فى ذلك ، فقد قضى أكثر من نصف عمره مغموراً ، وربعه مضطهداً معذباً ، وسدسه فى تحقيق رسالته ، وإن كل ما يذكر عن محمد قد تم فى السنين العشر الأخيرة من حياته بعد أن جاوز الثانية والخمسين ، ويعجب كل من له إلمام بسيط بالإسلام مما وقع لمحمد قبل الخمسين ، فلو أن حياة محمد قد بدأت بعد الخمسين ، إلا أن ما أمضاه من عمره قبل ذلك فى غاية الأهمية لتكملة صورة واضحة لشخصيته .

وإن أكثر الظواهر المخيبة للآمال فى حياة المسيح هى قلة تفاصيل شبابه ، فما نكاد نسمع أنه ولد حتى نراه شاباً فى الثلاثين يقوم بالمعجزات ثم تنتهى حياته بعد ذلك بثلاث سنين . وإن قصة موسى لتعانى نفس النقص ، ويمكن قول ذلك عن يحيى (يوحنا) وبولص ، فلا نعلم بهم إلا عند ما يبلغون قمة مجدهم ، وإن ما فعلوه فى طفولتهم لا نلم به ويترك فراغًا ، فلو أضفنا هذا الفراغ إلى تمثال الزجاج أو الحجر أو الخشب الذى يصور كلا منهم يافعاً لكانت نتيجة كل هذا الحتمية شخصيات

خرافية ، ولو أن محمداً يبدأ تسطير تاريخه بعد الآخرين فإن حقبة شبابه ليست غامضة ، وعلى الأخص لأولئك الذين يكلفون أنفسهم مشقة البحث عنها .

قام محمد بعد موت خديجة بفعل ما كان منتظراً ، فقد تزوج من اثنتين ، وما كان الحب الدافع إلى إحدى الزيجتين ، فقد كانت إحدى الزوجتين طفلة فى السابعة من عمرها ، وكانت الثانية متوسطة فى العمر وليست على جانب من الجاذبية ، وكان زوجها ممن هاجر إلى الحبشة سنة ٦١٤ م ومات بها ، وكان الدافع إلى هاتين الزيجتين دافعاً عملياً .

فكانت الطفلة عائشة بنت أبى بكر صديقه الحميم ، وأول الناس إسلاماً ، ولا يمكن أن تنسب إلى محمد فكرة الارتباط بعائشة ، فقد كان لموت خديجة أسوأ الأثر فى نفسه ، وكان إلى جوار ذلك يلاقى من شانئيه اضطهاداً ، فما كان والحال هذه خلى البال ليفكر فى الزواج ، ولكن جاء الاقتراح عن طريق خالته خولة بنت حكيم أخت آمنة ، وقد قالت له : إن زواجه من عائشة فى ذلك الوقت إن هو إلا خطبة ، وبذلك يضمن أن بنت أعز أصدقائه وأخلصهم تصبح من أسرته ، وإن الدلالات لتوحى أن عائشة ستكون ذات جمال فاتن ؛ فقبل محمد ذلك ، وتم الزواج ، ولو أن الزواج لم يتم فعلا إلا بعد سنتين ، فإن هذا الجمع الغريب بين الناصح الكهل وهذه الفتاة الغريرة كان له أبعد الأثر على الإسلام ، وما كانت نتائجه جميعاً فى صالح الدين ، فقد عاشت عائشة بعد موت زوجها سنين طويلة ، وكانت أول المتآمرين على تأليب المسلمين بعضهم على بعض .

وإنى أذكر ذلك لأن كثيراً من المؤرخين قد لاموا محمداً على ذلك

الزواج ، فمحمد لم يفكر فى ذلك الزواج أبداً ، وليس هناك أى اعتراض فى أن العلاقة بين الزوج الكهل والطفلة العذراء كانت إجبارية أو كانت ذات صبغة شهوانية ، فإنه من يوم أن وطئت عائشة بيت محمد والجميع يحسون وجودها ، وكانت فى كثير من الأحيان شاغلا لمحمد ، كما أصبحت معضلة لخلفائه ، ولو كانت هناك امرأة وفت شروط « السيدة » بكل معنى الكلمة فهى عائشة بنت أبى بكر .

أما الزوجة الثانية فهى سودة بنت زمعة ، فإنها دخلت بيت محمد كمربية أكثر من أى شىء آخر ، وكانت امرأة ضخمة ثقيلة ، ولم يشعر محمد نحوها بأدنى عواطف الحب ، ولكنها كانت من أوائل المسلمات ، وقد مات عنها زوجها فى مهجره فى سبيل عقيدته ، وقد قالت خولة لابن أختها إن أقل مايفعله لها هو أن يتزوج بها ، فإنها لم تعش إلا قليلا وزوجها الأول ، وقد حاول محمد فى ظروف كثيرة أن يتخلص منها ولكنها عرضت أن تبقى دون أن يكون لها امتيازات ، وبقيت فى الحريم إلى أن ماتت دون أن تجد من يلحظ موتها أو يحزن عليها .

ولو أنه قد تيسر لمحمد أن يتزوج الكثيرات ، إلا أنه لم يجد راحة البال ، فبعد موت خديجة وأبى طالب عمل أبو جهل وأبو سفيان جاهدين على التخلص من هذا الصابئ ، فأعلنوا دون مناقشة فى مكة أن لا بد من قتل محمد ، فوجد محمد نفسه مضطراً إلى الفرار مرة أخرى .

خرج محمد ولم يكن يصحبه إلا زيد ، ولما لم يكن هناك مكان يلجأ إليه كشعب أبى طالب ، فقد ابتعد عن مكة ، فامتطيا راحلتيهما وانطلقا إلى قبيلة هوازن على سبعين ميلا شرقى مكة ، وكان المكان جبلياً يهرب

إليه أثرياء مكة من قيظ الصيف ، وكان المشهد يختلف كل الاختلاف عن الصحراء المتوهجة القاحلة حول البلد الحرام ، فالمياه وفيرة ، ويعيش القوم على الزراعة ، ويكسو جوانب التلال النخيل وأشجار الفواكه والحدائق التى تتخللها القنوات الخضر المتدفقة ، فكان المكان كالنعيم بعد الصحراء ، وشعر محمد براحة وامتنان لما تفيأ الظلال ، ولكن كانت تلك الراحة قصيرة ، فكانت الصدمة الأولى علمه أن أهل الطائف لم يسمعوا به ولا بتعاليمه ، وكانت الصدمة الثانية عدم اهتمامهم بالدين الجديد إذ أنهم مطمئنون لعبادة أصنامهم الحجرية ، فإن « اللات » قد أغدقت عليهم كل ما التمسوه منها ، وما كان هناك اعتراض من محمد إلا على عبادة اللات .

وكما هى عادته لم يساوم ولم ينازل ، وقد كان فى مقدوره أن يركن إلى الراحة وأن يستريح من أفكاره عن الإسلام ، فيسترد ما فقدته صحته ، ولكنه لم يفكر فى مثل هذه الأفكار ، فقد اختار الطريق الوعر وراح يعظ الناس ، وكانت النتائج سيئة ، فقد تحرش الناس به وأعقب التهكم والسخرية والإساءة ، رميه بالحجارة ، وبعد قليل وقت وجد نفسه منبوذاً من الحدائق الرطبة ، بعيداً عن الماء ، يوغل فى الصحراء المضجرة ، وبدا له وكأن هناك شيئاً خطأ فى رسالته وإلا ما قوبل بمثل هذه العداوة المنظمة . وكان زيد صغيراً ، وكان يتعلق بالحياة ، فترك متبنيه ومعه ما حمل من مؤونة من الطائف ، وعاد إلى مكة ، وأقنع مسلما يدعى المظلم بن عدى كان له منزل كبير أن يأوى محمداً فيه — لم يسلم المظلم بن عدى ومات قبل بدر بنحو سبعة أشهر — ثم عاد زيد ثانية إلى الصحراء ، فألفى محمداً فى

شبه غيبوبة من الحر اللافح ، وكان فى صحبته اثنان من الجن (وأكد محمد ذلك) — يشير إلى قراءة محمد سورة الجن واستماع الجن إليه ولم يشعر بهم — فلم يضيع زيد وقتاً فرفع محمداً ووضعه على راحلته . وعاد به إلى مكة وأدخله دار مظلم بن عدى فلم يلمحه أحد من قريش .

وحدث هنا ما أصبح موضع مساجلة كالصرع وأمِّيَّة محمد ، وعلى الرغم من أن الأمر يدعو إلى التسلية إلا أنه لا أثر له فى الإسلام ، فقد كانت هذه الليلة « ليلة الإسراء » وقصة الإسراء تظهر فى معظم الكتب التى كتبت عن محمد فى أشكال متباينة ، وإن بعض ما جاء بها مُلهَم وبعضه ملىء بالاحتقار وبعضه ركيك عديم الحجة . وسأدلى بهذه القصة كما سمعتها من صديقى مدنى خارج خيمتنا فى ليلة من ليالى الصحراء . وإن مدنى من الرجال القليلين الذين لم أعرف مثلهم . فلو كان سيداً إنجليزياً من الريف أو فلاحاً أمريكياً عوضاً عن أنه زعيم بدوى لبدت طيبته للعيان . وما عليك إلا أن تنظر فى عينيه الزرقاوين البراقتين المتلألئتين ، وترقب ابتسامته العذبة لتوقن أنك أمام شخص نقى طاهر . وإنه إلى جوار ذلك قاص بارع يعتمد فى كثير من أحاديثه على كتاب العهد القديم والقرآن والسنن الإسلامية ، وكانت له القدرة على صياغة القديم فى قالب حديث جذاب ، وتقرير ليلة الإسراء هذا هو أقوال مدنى التى لا زلت أذكرها كاملة من بدايتها حتى ختامها وكأنها شىء جديد .

سوى مدنى من عباءته ثم دفع عمامته إلى الخلف ، وأمعن النظر فىّ ثم قال : كانت الصحراء هادئة تلك الليلة ، وسكنت فيها الكلاب وبنات آوى ، وانقطع صفير الرياح ، ولم تمش قطط فى طرقات مكة ، وساد

الصمت دور العاهرات ، وانقطع خرير الغدران ، فكان كل شئ قد مات عقب غروب الشمس .

ودخل محمد للراحة عند الغسق ، وكان جسمه وروحه مثقلين بما لاقى من جهد فى سحابة يومه ، فنام نوماً عميقاً على سجادة ابن عمه المظلم بن عدى ، وتحطم السكون الثقيل فجأة ، وبلغ أذنيه صوت واضح كالطبل : أيها النائم قم ! وقام فإذا أمامه الملك جبريل يلمع فى الظلام الدامس ، وكان النور يشع من أجنحته التى كانت من كل الألوان ترتعش ، ومن شعره الأبيض بياض الثلج ، ومن ثيابه المزركشة بالدر والذهب ، وكرر الملك نداءه ، وأشار لمحمد أن يتبعه إلى الطريق . وكان أمام الدار دابة براقة المظهر كجبريل ، لها أجنحة براقة كأجنحة النسر ، وكانت عيناها كالعقيق ، وكان رأسها جميلاً ، وكانت تشبه الإنسان ، وقدم جبريل الدابة إلى محمد وسماها « البراق » : وصهلت البراق ثم سمحت لمحمد باعتلاء صهوتها ، وانطلقت به تسابق الريح ، فلما قاربت سور البلدة النائمة نشرت أجنحتها وأخذت فى الارتقاء فى الليل الذى تبدد ظلمته النجوم .

وكان وصف مدنى لمحمد والبراق وصفاً عربياً بسيطاً ، فإننا لنرى الملك يقدم البراق إلى محمد فيركبه فى ثقة من ولد ليكون فارساً ، وإننا لا يمكننا أن نتصور موسى أو عيسى على صهوة جواد خفيف الحركة ، وإن هذا لن يتأتى إلا لعربى ، فهو الذى يجرؤ على رحلة سماوية كهذه وعلى هذا النمط . « وانطلقا سابحين فى الهواء ، وأمر جبريل البراق بالهبوط فنزل على الأرض ، وطلب من محمد أن ينزل ويصلى فقد كان على قمة جبل سيناء فى نفس المكان الذى أعطى الله (ياهو) موسى الموائد

الحجرية . ولما انتهت الصلاة استأنفا رحلتهما ، ثم هبطا ثانية ، فقد كان المكان هذه المرة بيت لحم ، فصلى محمد فى المكان الذى ولد به عيسى ، ثم استأنفا الطيران ، وفى هذه المرحلة الثالثة بدت نسوة جميلات من خلل السحب ثلاث مرات ورجون محمداً أن يقف ، فسأل جبريل عما إذا كان سمع ما سمع ، ولما كان الملك يسمع كل شىء فقد أجابه دون تردد : كان الصوت الأول ليهودى ، وكان الصوت الثانى لمسيحى ، وكان الصوت الثالث للعالم وغروره ، فلو أنك وقفت من أحد الثلاثة لصار شعبك مثله .

وقبل أن يسأل محمد سؤالا آخر كان البراق يهبط إلى الأرض فى بيت المقدس خارج المعبد . فأمر محمد جبريل أن يربط الدابة ، ثم دلفا إلى المعبد فوجدا عدداً من الأنبياء منهم إبراهيم وموسى وعيسى ، وبعد أن قدمهم جبريل بعضهم إلى بعض صلوا جميعاً . ولما قضيت الصلاة أخذوا فى مناقشة رسالاتهم ، ثم أمر جبريل بالرحيل ، ثم أتى بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وكان بالغاً السماء ، وكان ذلك أسهل مما حسب ، وكان مصنوعاً من هواء ، وعليه صعد محمد سراعًا إلى السماء ، وبعد لحظات كان محمد على باب النعيم .

وعندئذ نظر إلىّ مدنى نظرة انتصار ، وكانت ابتسامته توحى بالسؤال « أ كنت تنتظر ذلك أم كنت لا تنتظره ! » وفى الحقيقة لم أ كن أنتظر ذلك ، فأحنى مدنى رأسه فى سرور واستمر فى حديثه .

« وأخبر جبريل خزنة الجنه عمن فى رفقته ، ففتحت الأبواب ، فتبع محمد جبريل واجتاز العتبة فألفى نفسه فى السماء الأولى ، وكانت من فضة خالصة علقت إليها النجوم بسلاسل من ذهب ، وتقدم رجل هرم لتحية

الزوار فقدمه جبريل إلى محمد فإذا هو آدم ، فأخذ آدم محمداً بين ذراعيه وحيا فيه أنبل أبنائه ، وكان المكان يغص بالحيوانات والطيور والزواحف ، وكان فى وسطها ديك هائل فلم يتمكن محمد من رؤية رأسه الذى كان يبلغ السحاب ، وقال له آدم إن الطيور ملائكة يشفعون عند الله للمخلوقات غير الآدمية ، ومهمة الديك الأذان كل صباح لإيقاظ من فى السموات السبع .

ولما رأى محمد السماء الأولى عرج وجبريل إلى السماء الثانية وكان لها باب كالسماء الأولى مصنوع من حديد مصقول وفيها نوح ، وكان سروره بمقابلة محمد يعدل سرور آدم بلقاء ابنه البار ، وكان مع نوح المسيح ويحيى ، وما كان محمد يدرى أكان هذا مقامهما أم كانوا فى زيارة ، وقد رحبا بمقدمه كل الترحيب ، وحادثاه كما يحادثان صديقاً قديماً .

وكانت السماء الثالثة أرحب وأجمل من سابقتيها ، وقد انتثرت فيها ربى من الأحجار الكريمة ، وعلم محمد من جبريل أن بها داود ويوسف ، ولكن لم تتح له فرصة رؤيتهما فقد شُغل برؤية ملك ضخم هائل ، بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين ألف يوم ، ولم يتكلم هذا الملك لما دخل محمد السماء الثالثة ، ولم يقدمه جبريل إليه ، فقد كان يقلب صفحات كتاب ضخم فى سكون أليم عميق يسجل فيه أو يمحو منه ، وقال جبريل : هذا ملك الموت عزرائيل ، وتحت إمرته مائة ألف فرقة . فسأل محمد : وما يفعل بكتابه هذا ؟ فأجاب جبريل : إنه يسجل من يولدون ويمحو من يموتون .

وأحس محمد راحة لما عرج إلى السماء الرابعة ، وكانت من الفضة

كالأولى ، ورأى فيها ملكاً طوله مسيرة خمسمائة يوم . وكان يبكى دواما حتى جرت من عينيه أنهر من الدمع ، وقال عنه جبريل : هذا ملك الدمع يبكى خطايا الناس .

ولم يتأخر محمد عن مغادرة هذه السماء أيضاً ، وتبادل وخازن الجنة الواقف بالباب كلمات ، ثم ارتقى السلم ثانية وكان ينزلق من درجة إلى أخري وكأنما قد صنعت من ريش طير ، وكانت السماء الخامسة من الذهب الخالص ، وكان هرون ينتظر تشريف الضيف الكريم ، وكان محمد يأمل فى أن يجد راحة وأن يتناقش فى اللاهوت ، ولكن وقع بصره على مخلوق فى غاية من البشاعة ، وكان جالساً على عرش من لهب ، كان وجهه نحاسياً وقد انتشرت به الدماميل ، وكانت عيناه ترسلان برقا ، وكانت يده النارية قابضة على حربة ملتهبة ، ورأى هرون نظرة الدهش التى ارتسمت على وجه محمد فأخذ يده وانتحى به جانباً وقال له : هذا ملك النقمة المتصرف فى عنصر النار ، وواجبه تنفيذ أوامر الله والانتقام من الخطائين والكفرة .

وكانت السماء السادسة من مادة عجيبة شفافة لم ترها عين محمد من قبل ، فنظر لعله يجد ملكا جباراً ، وقد وجد فعلا ملكا عجيباً نصفه من نار ونصفه من ثلج وحوله من الملائكة فرقة لا تفتر عن ذكر الله قائلة : اللهم قد جمعت الثلج والنار ، وجمعت كل عبادك فى طاعة سنتك . وقال جبريل : هذا الملك الحارس للسموات والأرض وقد بعث للناس لينضموا إليك وليعبدوا الرحمن ، وسيستمر فى عمله حتى يوم البعث .
وحسب محمد أن هذا أحسن ما رأى مذ غادر مكة ، وقبل أن يعبر

عن تقديره ظهر موسى ثانية وهو يبكى، فأخذ محمد يده ، وحاول أن يرفه عنه ، فقال له : ما يبكيك ؟ فقال موسى ودمعه ينهمر : « أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى » وشاء محمد أن يقول شيئاً ولكن أظهر جبريل ضجره ، وفى دقائق قصار عرجا إلى السماء السابعة .

وسلم إبراهيم بأن انحنى لمحمد فى محرابه المبارك ، وكان من نور سماوى يجل عنه الوصف ، وهنا رأى محمد ملكا لم تقع عينه على مثله ، ولو قورنت الملائكة التى رآها من قبل بهـذا الملك لكانت أقزاماً ، فهو أكبر من الأرض كلها ، له سبعون ألف رأس ، فى كل رأس سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان ، يتكلم كل لسان سبعين ألف لغة ، من كل لغة سبعين ألف لهجة ، كلها تسبح بحمد الله وتقدس له .

وتوقف مدنى كأنمـا ينتظر أن أتحداه فى هذه الأرقام ، ولكنى لم أكن أحاول حتى أن أعد ، فإن عملية ضرب الأرقام ٧٠٠٠٠ فى ٧٠٠٠٠ لأربع أو خمس مرات لا تدل على شىء يمكن للعقل الإنسانى أن يدركه ، أما بالنسبة لمحمد ومدنى فهذا دليل عظمة الله التى لا تحد ، وإنى لا أرى ما يدعو إلى مناقشة ذلك .

وكان محمد لا يزال ينظر إلى هذا المخلوق العجيب ، فأحس نفسه يرفع على ريح طيبة ، ولم يستعمل السلم ، وبعد ثوان معدودات وجد نفسه فى شجرة اللوتس النابتة بجوار عرش الله (سدرة المنتهى) وهذه الشجرة أضخم من الملك ذى الألسن ، وغصونها أطول من المسافة بين الأرض والشمس ، وأوراقها ضخمة ، وتنتقل فوقها ملايين الطيور وهى ترتل

سوراً من القرآن ، وفواكه هذه الشجرة متنوعة ، وقد جمعت كل واحدة بين الأكل والشراب ، وإن فاكهة واحدة تكفى لإشباع أهل الأرض جميعاً ، وفى كل ثمرة عذراء من نصيب المؤمنين الصادقين ، وفى ظل الشجرة أربعة أنهار تنبع من جذعها حيث يلهو ملائكة لا تحصى ، ويروى الجنة نهران وينطلق النهران الآخران ليكوّنا النيل والفرات . وكان منظر الشجرة مريحاً بعد رؤية الملائكة العظام ، وكان محمد يبغى بضع دقائق ليجمع شتات فكره ، ولكن جبريل كان متعجلا ، فبعد أن أنصت محمد إلى الطيور رفعته الريح إلى البيت المعمور، وكان من العقيق والمرجان ، ثم أُتى بإناء من خمر وإنا من لبن ، وإناء من عسل ، ولما كان محمد عربياً فقد أخذ اللبن ، فقال جبريل : لو أخذت الخمر لضلت أمتك ، ثم قال : هذا نهاية ما يمكننى أن أبلغ معك ، وبعد لحظة سترى الله ، وسأنتظرك فى السماء السابعة .

وتنحى جبريل ، وقبل أن ينطق محمد كلمة ، ألفى نفسه يرفع فى الفضاء ، فتخطى مناطق ضياء يعشى ، وظلمة قاتمة ، وما كان يشعر بالحوائل ، وكان يبدو له كأن ستاراً نرفع كلما دنا من مملكة الرحمن المحجوبة فى السحب حيث يشرف الله على الدنيا . وانتهت أخيراً الرحلة المخطرة ، ثم كان فى حضرة العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى .

ونظر إلىّ مدنى فى نشوة ، وبعد لحظة قال :

« وساد السكون العميق لحظة ، لم يسمع خلالها إلا صرير القلم يسطر أوامر الله فى لوح القدر . فلم يرفع محمد رأسه توأ ، ولما رفعه رأى وجه الرحمن وقد حجبه عشرون ألف حجاب ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان

النور الإلهى يشع وينفذ من هذه الأحجبة ، فكان أقوى من خمسين ألف شروق شمس .

وأخذ مدنى نفساً طويلا ، ونظر إلى الليل فبدا كأنما تبددت ظلمته إثر قوله ، لقد كانت كلماته رائعة حقيقة ولأول مرة كنت أسمع عظمة الله الخفية وكأنما قد بدت حقيقة ، واستأنف حديثه بعد برهة :

ولما اعتادت عينا محمد الضوء الساطع الباهر ، رأى منقوشاً على يمين العرش بحروف من نور : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

فأعاد ذلك الثقة فى نفس محمد ، ولكنه أحس صعوبة فى الوقوف لما مد العلى العظيم يداً على صدره والأخرى على كتفه ، فأحس كأنه أثلج إلى قفاه ، ثم بسكينة راضية ونشوة وسعادة رفعت محمداً إلى درجة من العظمة لا يمكن وصفها ، ثم سمع صوتاً مهدئا يقول : يا محمد ، حى الخالق . فولّت مخاوفه ، وأحس هدوءاً وتمكن من مناقشة الله فى العقيدة التى حملها إلى العرب ، فأمر الله عبده أن يصلى كل مسلم خمسين صلاة فى كل يوم وبذلك انتهت الزيارة المقدسة ، وحُمل محمد على الريح إلى السماء السابعة ، فوجد جبريل فى انتظاره ، ولم يسأله جبريل عما حدث ، ولكن لما هبط محمد إلى السماء السادسة التقى بموسى فسأله عما حدث ، فأخبره ، فقال موسى : كيف نرجو أن يقوم أتباعك بخمسين صلاة فى كل يوم ؟ لقد جربت الناس قبلك ، وحاولت مع أبناء اسرائيل كل ما يدخل فى الطوق محاولته ، فصدقنى وعد إلى ربنا ، واطلب إليه أن ينقص الصلاة ، ولما كان محمد يحترم من سبقه من الرسل ، فقد عاد إلى العرش ، وأجاب المولى عز وجل طلبه فنقص عدد الصلاة إلى أربعين ، وجدها موسى

فوق الطاقة ، وجعل يرد محمداً إلى الله مرات عدة حتى انتهت الصلاة إلى خمس . فشكر محمد موسى .

وابتدأ محمد فى الهبوط على المعراج من سماء إلى أخرى حتى بلغ الأرض فوجد البراق ولم يجد جبريل فركب الدابة وبعد لحظات كان فى مكة وعلى بساطه .

وتوقف مدنى عن الحديث وكأنما نسى أمراً ذا بال ، فأخذ يداعب حبات سبحته وهو يتطلع إلى السماء ، وبعد فترة صمت سألته : كم من الوقت استغرقت هذه الرحلة ؟ فأجاب مدنى دون تردد : « وقت قليل ، لا يتجاوز ساعات » وجلسنا وقد خيم علينا السكون لحظة ثم سألته : هل قرأت دانتى ؟ ، فأجاب : لا . ومن هو ؟ فلم أجبه . ولكن منذ تلك الليلة التى قضيتها فى الصحراء أستمع إلى مدنى يقص على قصة الإسراء ، سمعت الكثيرين يقولون إن دانتى قد تأثر بهذه الأسطورة العربية ، فالتشابه ملحوظ فى القصتين فيما يختص بوصف الجنة .

والسؤال الذى وددت أن أوجهه لمدنى ولكنى كنت أخشى أن نفقد الجو الشعرى للرواية هو : « هل يعتقد أن محمداً أسرى بالجسد أم بالروح » أو — وهذا ما كان يغضب مدنى — هل القصة من نسج خيال محمد ؟ وعلى الرغم من أنى لم أوجه إليه سؤالا ، فإن هذه الأسئلة شغلت ولا زالت تشغل بعض مفكرى الإسلام .

وكان استفهامى الوحيد الذى استفهمته سطحياً ، فلا يوجد عن محمد ما يثبت أن هذه الرحلة الليلية قد تمت ، وما كنت أدرى أن مدنى كان يقص علىّ عقيدة يدين بها كثير من العرب ، ويعتقدون فى صحتها اعتقادهم

فى القرآن استناداً على حديث متواتر ، وإن كل ما جاء فعلا عن هذه الرحلة الإلهية على لسان محمد هو ماذكر فى سورة « الإسراء » ، وفى هذه السورة بالذات لا توجد أية إشارة إلى ما ذكره مدنى وما يعتقده العرب ، وكل ما جاء عن الإسراء فى هذه السورة هو : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا إنه هو السميع العليم » .

وما الحكاية فى الغالب إلا خرافة من الخرافات التى تذكر للتدليل على معجزات محمد ، وما قال محمد يوماً إنه أتى بمعجزات ، فإذا ما أكد محمد قصة الإسراء فى القرآن ، فلا يجب والحالة هذه أن يتسرع نقاد الإسلام فى التشكيك فيها . فإن قصة صعود إيليا [1] فى عربة نارية إلى السماء لا يسخر أحد منها ، ويقبل معظم المسيحيين أمر بعث المسيح ورفعه دون شك أو تشكيك ، ولا ينظر إلى وحى « سان جون المقدس » على أنه قول هراء جاء به مجنون مصاب بالصرع ، وإن من الغريب أن يشبه ما قاله مدنى ما جاء فى رؤيا يوحنا فى كثير ، بل لا يقل ما قاله مدنى عنها غرابة .

فلو أخذنا أى اصحاح من الكتاب الأخير من الانجيل (رؤيا يوحنا اللاهوتى) لوجدنا فقرات يمكن أن تضاف إلى قصة الإسراء .

فى الإصحاح الرابع : بعد هذا نظرت وإذا باب مفتوح فى السماء ، والصوت الأول الذى سمعته كبوق يتكلم معى قائلا : اصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا . وللوقت صرت للروح وإذا عرش موضوع فى السماء ، وعلى العرش جالس . وكان الجالس فى المنظر شبه

(١) ذكر فى الكتاب المقدس .

حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد . وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً ، ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخاً جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رءوسهم أكاليل من ذهب . ومن العرش يخرج بروق ورعود وأصوات . وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هى سبعة أرواح الله . وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور . وفى وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء ، والحيوان الأول شبه أسد ، والحيوان الثانى شبه عجل ، والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان ، والحيوان الرابع شبه نسر طائر ، والأربعة الحيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة حولها ، ومن الداخل مملوءة عيوناً ولا تزال نهاراً وليلا قائلة : قدوس . قدوس قدوس ، الرب الإله القادر على كل شىء الذى كان والكائن والذى يأتى ، وحينما تعطى الحيوانات مجداً وكرامة وشكراً للجالس على العرش الحى إلى أبد الآبدين ، يخر الأربعة والعشرون شيخاً قدام الجالس على العرش ويسجدون للحى إلى أبد الآبدين ويطرحون أكاليلهم أمام العرش قائلين : أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء ، وهى بإرادتك كائنة وخلقت .

وفى الإصحاح الثامن : ولما فتح الختم السابع حدث سكون فى السماء نحو نصف ساعة ، ورأيت السبعة الملائكة الذين يقفون أمام الله وقد أعطوا سبعة أبواق ، وجاء ملاك آخر ووقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأعطى بخوراً كثيراً لكى يقدمه مع صلوات القديسين جميعهم على مذبح الذهب الذى أمام العرش ، فصعد دخان البخور مع صلوات

القديسين من يد الملاك أمام الله . ثم أخذ الملاك المبخرة وملأها من نار المذبح وألقاها إلى الأرض فحدثت أصوات ورعود وبروق وزلزلة .

ثم إن السبعة الملائكة الذين معهم السبعة الأبواق تهيأوا لكى يبوقوا ، فبوق الملاك الأول ، فحدث برد ونار مخلوطان بدم وألقيا إلى الأرض فاحترق ثلث الأشجار واحترق كل عشب أخضر، ثم بوق الملاك الثانى فكأن جبلا عظيما متقداً بالنار ألقى إلى البحر فصار ثلث البحر دما ، ومات ثلث الخلائق التى فى البحر التى لها حياة ، وأهلك ثلث السفن .

ثم بوق الملاك الثالث فسقط من السماء كوكب عظيم متقد كمصباح ووقع على ثلث الأنهار وينابيع المياه ، واسم الكوكب يدعى الافسنتين فصار ثلث المياه افسنتينا . ومات كثيرون من الناس من المياه لأنها صارت مرة .

ثم بوق الملاك الرابع فضرب ثلث الشمس وثلث القمر وثلث النجوم حتى يظلم ثلثهن والنهار لا يضىء ثلثه والليل كذلك ، ثم نظرت وسمعت ملاكا طائراً فى وسط السماء قائلا بصوت عظيم : ويل ويل ويل للساكنين على الأرض من أجل بقية أصوات أبواق الثلاثة الملائكة المزمعين أن يبوقوا [1] .

ولا يقال إن هذه الأقوال إن هى إلا خرافات . فهى فى صميم الإنجيل المقدس ، وإن الحال لكذلك فى عبارات سان ماتيوس عن الحديث الذى جرى بين عيسى وموسى وإيليا . وكلام موسى لله على سيناء (سفر الخروج ١٩) .

(١) جاء فى الاصحاح الحادى عشر والاصحاح الثانى عشر ما يشبه حديث الاسراء .

ويذكر القديس أراينوس (فى القرن الثانى الميلادى) قصة كقصة الإسراء ، فهو يقول إن المسيح قال للقديس جون مايلى ، وقد قيد الحديث القديس جون :

« وستأتى أيام يكون فيها للكروم عشرات الآلاف من الأفرع ولكل فرع عشرات الآلاف من الفريعات ، ولكل فريع عشرات الآلاف من الأغصان ، ولكل غصن عشرات الآلاف من العناقيد ، وفى كل عنقود عشرات الآلاف من الحبات ، فإذا ما عصرت حبة من هذه الحبات لأخرجت مائتين وخمسة وسبعين جالوناً من النبيذ .

ولم يتيسر لى معرفة هذه المعلومات لما كنت أعيش بين العرب وإلا لرويتها لمدنى كدليل على أن المسيحيين قادرون على تعقيد العقائد السماوية كالعرب المسلمين تماماً .

ورغم ذلك فمهما كانت أسس هذه الخرافات والأحاديث المتواترة أو ما جاء فى الكتاب المقدس فليس هناك ما يمنع من حذف ما نعتقده شخصياً غير مقبول ، وسيان فى ذلك أكنا مؤمنين أو غير مؤمنين ، فإن إثباتنا أن المسيح وموسى لم يوجدا على الأرض أو أن محمداً كان أفاقاً لن يجدى شيئاً ، فالرجال الذين يعتقدون اعتقاداً راسخاً فيما قيل عن ليلة الإسراء كما رواها مدنى ، وهو واحد منهم ، يشعرون بالراحة والرضا أكثر من شعورهم بالريبة ، فإذا ما نحينا الفكرة الشخصية عن هذا الموضوع فإن رؤية محمد للملك له ملايين الألسن لن تؤثر فى قصة حياته أبداً .

الفصل الثامن

الهـــجرة

(٦٢٠ — ٦٢٢ م)

قد يحسب المرء أن محمداً وجد عضداً كافياً للاستمرار فى دعوته دون أن يأبه لتهديد قريش عقب رحلته إلى السماء، ومقابلته الأنبياء، وكلامه لله، ولكن كان هناك عقبتان تقفان حائلا دون ذلك، أولاهما أن محمداً لم يكن متأكداً مما إذا كان الإسراء بالروح أو بالجسد، وثانيتهما أن الله ما كان ليشجع أمثال هذه الطرق لمبعوثيه إذا ما قضى بظهور دين جديد.

أمكن موسى أن يرفع الطاعون عن مصر، وأن يتنبأ بكسوف الشمس، وقد شق البحر فى البادية، ولكن الظاهرة الملموسة التى أحدثها الله هى عمود النار الذى هدى الإسرائيليين عبر البحر الأحمر.

وأحيا عيسى الموتى، وحول الماء خمراً، وكثر الطعام، ولكن لم يتجل الله له إلا فى هيئة يمامة، فوق الجردان، ثم شق الصخور فى أثناء الصَّلب.

ولم يذهب الله ومحمداً إلى أى من هذه النهايات، بل تركه وحيداً ليقنع العرب برسالته، وإن ماحققه محمد دون مثل هذه الظواهر الخارقة لمما يزيد من عظمته.

مرت سنون عشر مذ أمر الله محمداً أن يدعو المكيين، وقد فقد

فى هذه السنين كل ما كان قد كسبه فى السنين الأربعين الماضية السابقة لدعوته ، وقد بدا كأن هناك خطأ فى نفسه أو فيما يشغله .

وفى أحد الأيام حدث حادث يقرب فى أهميته القطيعة بين البابا وهنرى الثامن . فقد كان يهود جزيرة العرب ينتظرون مجىء المسيح من أجيال وعلى الأخص يهود يثرب حيث ينزل ثلاثة قبائل من أشهر قبائل اليهود : بنى النضير ، وبنى قريظة ، وبنى قينقاع ، وكانت لهذه القبائل أهمية محلية وإن كانت تحت حكم الأوس والخزرج الذين تحضروا وأقاموا بيثرب .

وكانت عقيدة اليهود فى مجىء (المعزى) معروفة للأوس والخزرج ، فتصادف أن سمع رهط من الخزرج محمداً يعظ فى سوق من أسواق مكة فصادف حديثه هوى فى نفوسهم ، فقال بعضهم لبعض دون تردد : « والله إنه النبى الذى يوعدكم به يهود » ولما تيقنوا من أهمية ما وقعوا عليه قالوا : « فلا يسبقنكم إليه » .

فانتظر رهط الخزرج حتى خلا المكان إلا من محمد ، فأبدوا اهتمامهم بما كان يقول ، والتمسوا منه أن يزيدهم إيضاحاً ، ففرح محمد لوجود أناس يدفعهم ميلهم الشخصى إلى الإنصات إليه ، وضرب لهم موعداً فى الصحراء حتى لا يعكر خلوتهم أحد ، والتقى الجميع هناك ، وراح محمد يحادثهم حتى الليل . فتأثر رجال المدينة بإخلاصه ووضوح برهانه ، وأخبروه بما أحسوا نحوه ، ولكنهم قالوا إنهم لا يعدون شيئاً عن إخوانهم حتى يناقشوهم فيما سمعوا الآن .

وما إن عادوا إلى يثرب حتى وفوا بعهدهم ، فنشروا بين القوم نبأ

ظهور نبي عربي لا يهودي ، يبشر بالله ، سيوحدهم ويقضي على خصوماتهم التي استمرت قرناً من الزمان . وأثر قولهم تأثيراً بالغاً في النـاس ، فما استدار العـام حتى خرج إلى مكة رهط أكبر من الرهط السابق لسماع محمد ، وطلب منه أن يشرح لهم ما جاء به ، فنفذ كلامه مرة ثانية إلى قلوب أهل يثرب ، فأعلنوا إيمانهم برسالة محمد ، فأخبرهم بخطورة إعلانهم هذا ولـكنهم بقوا ثابتـين لا يتزعزعون ، وأقسموا فوق أديم الصحراء الصخرى ، وقد كادت الظلمة تغشى المـكان ، يمين الإخلاص ، أقسموا أن يطيعوا الرسول فى السراء والضراء ، وأن يكونوا له مخلصين ، ثم بسط الرسول يده فبايعوه واحداً واحداً ، ثم قفلوا راجعين إلى المدينة وفى رفقتهم مصعب بن عمير ليفقه الناس فى دينهم .

ولو أن محمداً كان ملهماً ، إلا أنه كان ذا إدراك عام متزن يجعـله يحسب حساب الطوارىء ، فقد كان يدرك نار التعصب الدينى ، ولـكنه ما كان ليقبل أن يندمج وأصحابه من المؤمنين المتحمسين فى أناس قبل أن يقتنع أن أغلبية أهل يثرب على اسـتعداد لقبوله والتسليم بمبادئه . فانتظر محمد وكانت فترة الانتظار هذه من أقسى المحن التى صادفها .

كان الخزرج أفضل العرب أصولا ، وما كان يشك فى قوتهم ومتانة مركزهم ، فإذا ما اعتنقوا الإسـلام كان ذلك خير ظهير له لتحقيق رسالته ، أما إذا خذلوه ، فإن الظواهر جميعاً لتدل على أنه لن يستطيع مواصلة الـكفاح وحيداً ، وقد صارت مهمته فى مكة جد مستحيلة ، وكانت حياته وحياة أصحابه تزداد حرجاً على مر الأيام ، فقد كان التهديد يحوم فوق رءوسهم ، وقد دعاه ذلك إلى بعث جماعات من

المؤمنين إلى يثرب . وإنهم قد لا يجدون ترحيباً إسلامياً ولكنهم لن يقتلوا بسبب عقيدتهم . وراحت جماعات المسلمين تنسل فى إثر جماعات إلى الملاذ الجديد ، وأحس محمد أنه أصبح وحيداً وأن الخطر على حياته آخذ فى الازدياد يوما عن يوم ، وبعد مضى وقت قليل أصبح وليس معه إلا أهله : على وعائشة وسودة وأبو بكر وأم رومان زوجه وأسماء ابنتهما الكبرى وابنهما عبد الله ، وكان زيد معهم أيضاً يرقب ويعاون ، وكان كل منهم متوتراً كقوس مشدود ، وماكان توتر قريش بأقل من توتر المسلمين .

وانقضى العام دون وقوع حادث رهيب ، وابتدأ شهر الحج ، وفيه يفد الحجيج من أنحاء جزيرة العرب إلى مكة ، وكان مصعب بن عمير الذي بعث ليفقه أهل المدينة فى دينهم بين الحجاج ومعه سبعون من أهل المدينة ، وتواعدوا على لقاء النبى فى الصحراء إذا ما خيم الظلام .

وذهب محمد إلى هذا الاجتماع وأبو بكر وعمه العباس ، وكان العباس ذا شخصية غريبة ، وقد لعب دوراً هاماً فى تاريخ الإسلام ، فكان أصغر بكثير من أبى لهب وأبى طالب ، وكان مثلهما لم يقبل تعاليم ابن أخيه ولكنه كان يحبه حباً جماً ، فلما بلغوا جماعة الرجال الذين بدوا فى الصحراء التى غاب عنها القمر فى بياض قاتم ، سلم العرب فى رقة وقال العباس : يامعشر الخزرج . قد أبى محمد إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب ، واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة فأروا رأيكم وائتمروا بينكم ، ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع .

فأجاب البراء وكان سيد رهط المدينة .

ــ قد سمعنا مقالتك فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ماأحببت .

فكان على محمد أن يعيد كرة أخرى ما قاله فى المناسبتين السابقتين لما قابل رجال المدينة . وقد سئل أسئلة كثيرة أجاب عنها ، وقد أنذر هؤلاء الرجال بالمسئولية الثقيلة التى يتطلبها الإسلام من المسلمين فكان موقفه رائعاً .

إن قضيته كلها وحياته وحياة عائلته وأصدقائه الأقربين متعلقة على قبول هؤلاء المدنيين لدينه قبولا حسنا . لقد كان فى مقدوره أن يعرض الدين من زاوية التفاؤل ، ولكنه ظل صادقا مع نفسه ، على الرغم من أن إخلاصه لم يجلب له إلا سوء الحظ ولكنه ما كان ليتخلى عنه لأنه قد تعب ، إنه عاش لمبادئه وسيموت عليها .

كون أهل المدينة رأيهم عن محمد ، فتركوا تحذيراته جانبا ، وكان كل ما يرغبون أن يتأكدوا منه أنه لا يتركهم إذا ما أظهره الله . فهز محمد رأسه وقال : « بل الدم الدم والهدم الهدم » فقال البراء : ابسط يدك .

فأخرج رسول الله يده وضرب كل من السبعين على يده وأقسم كل منهم بالوفاء لمحمد وإلهه .

كانت لحظة رهيبة ، وما كان أحد من هؤلاء المبايعين الذين ينتصبون فى الصحراء التى تزأر ريحها ليفطن إلى أهميتها البالغة . فلو أن المدينة لم تقرر احتضان الأسلام وقبول التعاليم المقدسة من مكة لكان من المحتمل أن يموت دين القرآن فى مهده .

وقد اتفق على خروج محمد إلى المدينة حالما يتم تأهبه لذلك ، قبل أن

يعود مصعب ورهطه إلى دورهم ، فلاح أن السحب قد ابتدأت فى الانقشاع ، وأن نهاية الرحلة الطويلة أصبحت على قيد البصر ، وما كان الحال كذلك فإن محمداً قد نسى القرشيين مؤقتا .

وتسرب بطريقة ما خبر هذا الاجتماع الصحراوى السرى بالمدنيين إلى قريش ، وقد حدث فى نفس الوقت أن اكتشف أن معظم معسكر المسلمين قد اختفى من مكة ، فقد أقفرت جميع الطرقات منهم ، وقد أغلقت أبوابهم ونوافذهم وعلا غبار الصحراء وغطى أحجار دورهم ، وقد بلغ الأمر نهايته لما خرج عمر فى ثياب السفر متقلداً سيفه ، متنكباً قوسه ، مختصراً عكرته (الحربة الصغيرة) ميمما صوب الكعبة ، قائلا لأصحابه إنه مهاجر ، وإنه ليس بهارب ولكنه ذاهب إلى مكان يمكنه فيه أن ينظم جماعة المسلمين حتى يستطيعوا أن يعيدوا إلى القرشيين ما ذاقوه من اضطهاد ، وأضاف مهدداً : « من أراد أن تثكله أمه فليلقنى وراء هذا الوادى » .

فلم يحرك أحد ساكناً ، ومضى عمر فى الظلام المخيم وقد هز منكبيه العريضين دون احتفال .

وقد أوضح هذا الإعلان الجرىء حقيقة أخرى ، هى أن محمداً أصبح له من الأتباع أكثر مما كان يظن أحد ، فأصبح موقف القرشيين حرجا ، فلو أنهم سمحوا للمسلمين أن يهاجروا فإن مركز القرشيين أنفسهم يصبح فى خطر ، فإن عدواً يتجمع فى المدينة ، وإنه لقادر على أن يهاجم قوافل التجارة الرئيسية الخارجة إلى سوريا ، وإن فى مقدور هذا العدو أن يمزق تجارتهم ، وأن يقطع عنهم إمداداتهم .

وأصبح أبو سفيان حاكم مكة ، زيادة على أنه قائد جيوشها ، فزاد

كرهه لمحمد لما ولى منصبه الجديد ، فلما بلغته هذه الأحداث المقلقة ، عقد اجتماعا فى دار الندوة ، وأخبر الأعضاء بما هو حادث فى مكة دون أن يقدم مقدمات ، فقال لهم إن خصام محمد هذا ، الذى كان بعضهم يميل إلى الهزء به ، قد خرج من أيديهم ، وإنه إذا لم يتخذ إجراء رسمى فوراً ، فإنه من المحتمل أن يحدث أى شيء . إن الأمر أصبح أكبر من أن يقوم به فرد بمفرده ، وإن هذا الأمر ليؤثر فى كل فرد من أفراد قريش ، بل وفى كل مواطن من موطنى مكة ، وفى رأيه أنه من الواجب أن يتخلص من محمد الآن وفوراً ، فلما اقترحت العناصر المعتدلة فى المجلس حبسه فى الحديد وإغلاق باب عليه ضحك أبو سفيان وقال : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لو حبستموه كما تقولون لخرج أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا ، ما هذا برأى .

فقال أبو جهل ، وكان كرهه لمحمد يعادل كره أبى سفيان له : إنه ليس هناك إلا طريقة واحدة للتخلص منه : يجب قتل محمد ، ولقد فكرت فى هذا منذ البدء ، فلو أن هذا القتل قد وقع من خمس سنين لمات هذا القلق بموت مبعثه . ثم قال : وأرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدون إليه ثم يضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل كلها . وساد الصمت وأخذت الأصوات فلم يعارض أحد ، فنصح أبو جهل بضرورة تنفيذ ذلك الليلة ، فاتفقوا جميعاً على ذلك أيضا .

وفى هذه الحالة أيضاً كان هناك من يستمع ، وما كان له أن يكون ، فما انقضت دقائق على إدانة محمد والحكم عليه حتى بلغه النبأ . فعلم أن هؤلاء الرجال فى هذه المرة يعنون ما يقولون . فينبغى له إذا أراد أن يبقى على حياته وعلى حياة كثير ممن يعرضون حياتهم للخطر من أجله ، أن يعمل سريعا .

فاستدعى أبا بكر وعلياً وأخبرهما بما قر عزم القوم عليه . فاتفقا كلاهما على أنه على محمد أن يفجأ القوم . وقال أبو بكر إنه سيرحل مع الرسول . وقال علىّ إنه سيبقى ، فعلاقته بالقرشيين ليست سيئة على أية حال ، وفى مقدوره أن يعنى بالنساء والأطفال ، وما كان هناك وقت ليضيعوه ، فإن صوت أبى جهل وأبى سفيان ورجالهما المتعطشين إلى دم محمد لَيُسمع وهم قادمون فى الشوارع الضيقة الملتوية . فأمسك على ببردة النبى ثم دفعه وأبا بكر من الباب ، ثم أغلق الباب خلفهما وأحكم إغلاقه . ولما تأكد من أن الباب قد أحكم رتاجه . ذهب إلى فرش النبى ونام فيه وتغطى ببردته .

ووصل القتلة إلى الدار ولكنهم ترددوا لما وجدوا انه لابد من استعمال القوة للدخول . فنظر أحدهم من خلل الباب ، فرأى فى الفراش من حسبه محمداً مسجى فى بردته المعروفة ، فأنبأ القوم بذلك فقر رأيهم على أن ينتظروا حتى الصبح ثم يقتلوا محمداً عند مايخرج من الدار . فربص الرجال فى سكون طوال ليل الصيف القصير ، وسيوفهم مشرعة فى أيديهم .

وصفر نسيم الصباح فى الصحراء ، وأقبل الفجر الأرجوانى من الشرق ، فنبه القتلة للتأهب ليضربوا ضربتهم ، وفتح باب محمد لما ضربت

أشعة الشمس المشرقة البيضاء أسطح مكة المنبسطة ، فانتصب الرجال وتأهبوا للوثوب ، ولكنهم ارتدوا وعيونهم الذاهلة قد ثبتت على وجه علىّ الواقف على عتبة الدار وقد حمل بردة محمد فوق ذراعه .

ولما تلاشى أثر المفاجأة ، انهالت الأسئلة على علىّ ، فأمر أبو جهل الآخرين بالتزام الصمت وسأل عليًّا : أين كان ابن عمه ؟ فأجاب على : إنه لايدرى فقد خرج وأبو بكر فى المساء ولا يعلم إلى أين ذهب ولا متى يعود . ونظر إلى حاكم مكة وأعضاء دار الندوة الذين كانت سيوفهم مشهورة فى أيديهم فى دهشة ظاهرة ، فلما لم يوضح له أحد منهم شيئاً انطلق دون مبالاة فى الطريق إلى الكعبة .

ولم يجد أبو سفيان وأبو جهل ما يقولانه ، فإنهما لا يستطيعان اقتحام الدار ، فالنساء هناك ، وزيادة على ذلك فإنهم أقارب محمد وكانوا أصدقاء ، وإلى جانب ذلك كان من الواضح أن علياً يقول صدقاً ، لقد خدعتهم البردة ، ومهما كان الحال فإذا كان محمد قد خرج لاجتماع من الاجتماعات التى يعقدها للصلاة فإنه سيعود ، وإذا كان قد خرج قاصداً المدينة فإنه من الميسور أن يلقى القبض عليه ، فإن رحلة كهذه لا يمكن أن تتم إلا على ظهور الإبل ، وإن الإبل لتنطلق فى بطء ، وإن سيرها لا يقارن بعدو الجياد ، فانطلق المتعطشون إلى دماء محمد وقد اطمأنوا بعض الاطمئنان ليبدأوا رحلة اقتناص رجل .

خمن محمد تماماً ما سيفعله القرشيون عندما يجدون أنه قد ذهب ، لذلك لم يمتط راحلته فوراً ويذهب إلى المدينة ، ولكنه انطلق وأبو بكر سيراً على الأقدام حتى بلغا جبل ثور على مسيرة ساعة من مكة ، ولقد

أنبأ علياً بخطته وطلب منه أن يوافيه بأنباء القوم .

وبلغ الهاربان جبل ثور ولا زال الظلام مسيطراً واختبأا فى أعماق كهف فى جانب التل الصخرى ، وراحا يدعوان الله أن يعمى الأعداء عن مكانهما .

وعقب شروق الشمس بقليل سمعا وقع حوافر خيل قريش التى كانت تطوى الصحراء ، فلما بلغ الفرسان مسافة ما ولم يجدوا أثر إبل ، تيقنوا أن محمداً خدعهم مرة أخرى ، فراحوا ينقبون عنه بالقرب من مكة ، وقد بلغ بعضهم الكهف الذى يختبىء فيه الهاربان ، فابتدأ أبو بكر يرتجف فقد كان رجلا حضريا وقد تجاوز الخمسين ، ولقد احتمل كثيراً أثناء السنوات الماضية ، وكان هذا النوع من الهرب بعيداً عن مجرى حياته ، فكان يرتجف فرقاً وقد قال ذلك ، وكان محمد هادئاً كما كان هادئاً دائماً فى أى الظروف والمناسبات . فلما سأله أبو بكر عما يمكن أن يفعله اثنان أعزلان أمام عصابة مسلحة تطلب دمهما ، أجابه محمد : « لا تحزن إن الله معنا » .

وقد أعاد هذا القول الهدوء إلى أبى بكر . ولكنه لم يقف مطاردة قريش ، فقد عزمت على العثور على محمد وإن استغرق ذلك شهراً ، وراح اثنا عشر فارساً يتحدثون خارج الكهف على مسمع من الفارين ، وقد حدث هنا ما يعتبره المسلمون معجزة ، فقد كان عند مدخل المخبأ شجرة طلح ، بنت حمامة بها عشها ووضعت فيه بيضها وقد نسج العنكبوت خيوطه بفم الغار . فلما رأى الفرسان ذلك وكانوا على وشك دخول الغار أحجموا فإنهم رأوا فى ذلك تضييعاً للوقت ، وقالوا : ما من أحد قد دخل الغار حديثاً .

وإن هذا لا يبدو خيالياً معجزاً . فالطريقة الإجبارية التى جعلت الحمامة تبيض فى يونيه يظهر أنه مبالغ فيها ، ونسج العنكبوت خيوطه بفم الغار ليس بعيد الاحتمال كلية ، أما الشىء الوحيد الذى يصعب فهمه فهو غباء القرشيين المطاردين.

وعلى كل حال فقد امتطى هؤلاء الحمقى المتعطشون إلى الدماء صهوة جيادهم ، وانصرفوا ، فشكر الهاربان الله وظلا فى مكانهما لا يتحركان .

ولما ابتدأ الليل يخيم على الكون . أقبل عبد الله بن أبى بكر وأخته أسماء إلى الغار وأنبآ الفارين أن لا بأس على علىّ، وأن أسماء قد سئلت عنهما ، ولكنهم لم يلحوا فى السؤال لما أقسمت لهم أنها لا تعرف شيئاً عن مكان أبيها وزوج أختها ، ولم يضايق أحد عائشة وسودة ، وعاد الأخ والأخت إلى مكة قبل أن يتنفس الصبح .

وراح راع من رعاة أبى بكر فى أثناء النهار يرعى بالقرب من الغار . ويترك غذاء للرجلين فى مكان مستتر .

وظل الرجلان فى مخبئهما ، وقد مر فرسان قريش بالغار مراراً ، ولكن الحمامة والعنكبوت كانتا تعملان عملهما فلم يفكر أحد فى إزعاجهما . وفتر البحث فى اليوم الثانى ، فقرر عبد الله وعائشة اللذان كانا على اتصال بما يجرى هناك أنه قد أصبح فى مقدور محمد وأبى بكر أن يستأنفا هجرتهما فى أمان . ففى اليوم الثالث أقبلا إلى الكهف براحلتين ودليل يثقون فيه ، فامتطى محمد راحلته سريعاً ثم تبعه أبو بكر ، وراحوا يضربون فى سواد الليل فى جوف الصحراء ، وكان القمر هلالا يسبح فى رقعة السماء السوداء.

ويقال إن ذلك الهلال هو أصل شعار الإسلام الحالى ، وهذه

الفكرة الرائعة لا أساس لها ، فالنجمة والهلال هما الشعار التركى منذ حضرة أرتغرل الأول سنة ١٢٠٩ جد العثمانيين ، ومؤسس الأسرة العثمانية ، وزيادة على ذلك فهناك طوائف إسلامية كالشيعة لا تعرف أية علاقة بين الهلال والنجمة وبين الإسلام .

واتجه الفاران صوب الشمال الغربى فى اتجاه البحر الأحمر ، ليتجنبا طريق القوافل الرئيسى ، وإن المدينة لتقع على بعد مائتى ميل من مكة ، وعليهما أن يطويا أغلب هذه المسافة قبل أن يصبحا بعيداً عن خطر الأسر ، وخضب الفجر فجأة رقعة السماء ، وراح يكشف بالتدريج صحراء مترامية ذات صخور بركانية وأحجار ، وكثبان رملية ، لا ينمو فيها شىء ، ولا يوجد بها ما يبدد وحشة المكان ، وما كان هناك تغريد حبيب للطيور لاستقبال النور القادم . وكان السكون مخيما فى أرض العطش لا يعكره إلا وقع حوافر المطايا على الحصباء المتألقة . وارتفعت الشمس مهددة ، وبدت أشعتها مجردة من الضوء المنعش ؛ وأصبحت السماء العربية فجأة كنحاس محمى فوق رأس الفارين ؛ وراح الطريق يصعد دخانا تحت أقدامهم كصلب مصهور ؛ وكان الأفق بحر سراب ؛ بينما كانت أعمدة رملية هائلة تدور فى الفضاء .

واستمر الرجال الثلاثة فى سيرهم حتى قطعوا أقصى ما يمكنهم قطعه ؛ وأخيراً استراحوا فى ظل صخرة هائلة ؛ وما كان هناك أمل فى العثور على بئر أو واحة ؛ ولما كانوا قد أخذوا الطريق المهجورة إلى البحر ؛ فقد تركوا جميع الأماكن التى يمكنهم أن يجددوا فيها زادهم من الطعام والماء .

وعلى الرغم من ذلك فما كانوا فى أمان ؛ فقد وعدت قريش من

يعيد محمداً إلى مكة حياً أو ميتاً بمائة ناقة ؛ وكاد بعضهم يفوز بالجائزة.

ففي فجر اليوم الثانى لرحيلهم من الغار ، عثر رئيس قبيلة يدعى سراقة بن مالك على الفارين ودليلهم ، فقد امتطى فرسه دون أن يدع أحداً من رجاله يعلم بما يدور فى رأسه ؛ ثم خرج فى أثر ما حسبه جائزة مضمونة ؛ وعلى الرغم من أنه كان مسلحاً بقوس ورمح فقد كانت تحته فرس أصيلة ؛ فرأى أبو بكر الحساس سراقه ؛ فأنذر محمداً من فوره : فنظر محمد فى اتجاه العربى الذى يعدو نحوهم واستمر فى قراءة آيات من القرآن ، واقترب الفارس منهم ثم تحسس سهامه وتجهز ليضع سهما فى قوسه ، ولكن قبل أن يطلقه جفلت فرسه فجأة وألقت براكبها عن ظهرها.

إنه لعار أن يسقط بدوى عن جواده ، وإنه لمن المخجل أن يسقط أمام بصر محمد ، فلم يعد فى طوق سراقة أن يفعل شيئاً ، فانتصب واقفاً فى الصحراء وقد طار قوسه فى ناحية وسهمه فى ناحية ، بينما انطلقت فرسه نحو الأفق وكأنما يجد فى أثرها شيطان ، لقد كان الموقف مما لا يحتمله عربى يحترم نفسه ، ففعل سراقة الشىء الوحيد المشرف الذى تقتضيه الظروف ، فقد التمس من محمد صفحه ووعده أنه لن يخبر أحداً أنه قد رآه ، فصفح عنه محمد وكان هو أيضاً فى موقف دقيق ، وقد أيد صفحه بكتابة كتبها أبو بكر على قطعة من عظم . فترك سراقة الهاربين يستأنفان سيرهما فى أمان وراح يلتقط أسلحته وذهب ليبحث عن فرسه . وأخذ محمد يرتل آى القرآن فى هدوء كما هى عادته ، وهو ينطلق إلى غايته .

واستمرت الرحلة فوق الفضاء اليابس الماحل الكئيب لأسبوع

تقريباً ، وما كانت هناك مخلوقات حية ، وحتى الزواحف والحشرات قد هجرت هذه البادية ، وكان الطلح الوحشى والثمر الهندى النبات الوحيد الذى يظهر هنا وهناك .

وفى صبيحة اليوم السابع من ابتداء الهجرة بلغا واحة قباء ، وتقع على أميال قليلة من المدينة ، ولما نفخت الشمس الحياة فى الأرض . لم يصدق المسافران عيونهم ، فقد تركا الخراب خلفهما ، ووجدا أنفسهما بين تلال تغطيها أشجار النخيل الباسقة بدلا من أن يجدا أنفسهما فى الصحراء ، إن حدائق البرتقال والليمون والرمان قريبة منهما ، وإن المياه لتتدفق فى قنوات الرى تخترق الأرض الغنية التى تنبت التين والكمثرى ، إن هذا لا يصدق ، بل إنه لأكثر غرابة مما كان يوم زار محمد وأهله تلك الجنة من خمس وأربعين سنة خلت . وأناخ محمد بعيره ونزل عنه ، ثم شكر الله على أنه قد بلَّغه نهاية رحلته فى سلام ، ثم استلقى فى الظل ليستريح .

عرف المكيون الذين هاجروا قبل زعيمهم أنه فى طريقه إليهم . فراحوا يرقبون قدومه ، وما ابتدأت أنباء وصوله تنتشر حتى وفدت الجماعات زرافات من المدينة ، وكان فيهم كثير من أقاربه ، منهم حمزة وعمر والزبير ابن أخى خديجة ، وقد جلبوا معهم ملابس نظيفة وأرزاً وعسلا وتمراً وقربا ملآى باللبن ، فقبل محمد الهدايا وتقبل التهانى الحارة ، ومكث بقباء لأيام قليلة ، فقد كان تعباً منهوكا . وقد استولى عليه التأثر ، فقد وجد نفسه يستقبل استقبالا ودياً حاراً بدلا من أن يردَّ الإهانات . ويدفع الاعتداءات .

وفى اليوم الرابع لوصوله عاد إليه نشاطه القديم ، فأعلن أن وقت دخوله المدينة التى تبنته قد حان ، وقبل أن يبدأ فى الرحيل جمع هؤلاء الذين أقبلوا لتهنئته وأمَّ أول صلاة جماعة للمسلمين وأتبع ذلك بأول خطبة خطبها فى وضح النهار دون أن يقاطعه مقاطع أو يعترضه معترض ، ثم اعتلى بعد ذلك ناقته القصواء وكانت دابة بيضاء ، وانطلق إلى نخيل المدينة المطأطىء رأسه .

وكان بجواره أبو بكر الصديق المخلص ، وذهب أمامه بريدة شيخ قبيلة مجاورة ، وقد حل عمامته وشدها فى رمح لتكون لواء للرسول ، وأخذت الرواحل تسير خلف القصواء وأخذ الرجال يعدون حول الركب وقد شهروا سيوفهم ورفعوا أقواسهم وراحوا يهتفون بوصول محمد ، ويعلنون أنهم سيحمونه بمهجهم .

لقد كان منظراً رائعاً لا يصدقه عقل ، فقد كان هذا الرجل منذ أقل من شهر ينسل فى أزقة مكة ، لا يدرى ما إذا كان سيطعن فى المنعطف المقبل بخنجر ، ولا يدرى إذا كان من يقابله صديقاً أو عدواً ، لقد سخط عليه الناس واحتقروه وهجروه لما أعلنه وها هو اليوم يدخل مدينة من أجمل مدن جزيرة العرب دخول الملك الفاتح .

ولما بلغ الركب مدخل المدينة بلغ الهتاف والسرور غايته فازدادت غبطة محمد ، ولكنه أمر بالتوقف ثم نزل عن دابته ويمم وجهه شطر بيت المقدس ثم صلى لله صلاة شكر لما أنعم عليه بهذا النصر العظيم ، ثم امتطى راحلته وأرخى للقصواء العنان وتركها تتجه حيثما يحلو لها ، فراحت الناقة تجوس خلال شوارع عدة بين جموع زاخرة وهتافات السرور

والغبطة ، وبركت أخيراً فى محل تحت أشجار نخيل فنزل محمد عنها ثانية وقال : هذا إن شاء الله يكون المنزل .

وتضاعفت جلبة الجماهير المحتشدة حول الزعيم الجديد رغبة فى رؤيته ومحاولة لمسه ، وقد أفسح له بعض رجاله الطريق إلى بيت أبى أيوب الأنصارى الذى استضاف الضيف العظيم حتى يتم بناء مسكنه .

وكم كانت دهشة محمد عظيمة لما لحق به علىّ سريعاً ، فقد قطع الطريق جميعه من مكة على قدميه ، وقد كان فى حالة حسنة وفى حماسه العادى لو استثنينا ما أصاب رجليه من ألم ، وقد حمل معه أنباء طيبة فسيصل باقى الأسرة قريباً ، فإن زيداً قد خرج بزينب زوجه ، وسودة زوجة محمد ، وابنتاه فاطمة وأم كلثوم ، وإن عبد الله بن أبى بكر قد خرج بأختيه عائشة وأسماء وأمه أم رومان — أم رومان ليست أم عبد الله بل هى أم عائشة وعبد الرحمن بن أبى بكر .

واضطجع محمد وأسبل عينيه ، لقد مرت به أحداث جسام ، وقاسى روحياً وجسمانياً ، ولكن لم تتزعزع عقيدته فى أن ما أوحى إليه هو الحق ، وإنه لينال الآن جزاء إخلاص ثلاث عشرة سنة ، وكان أسفه الوحيد أن خديجة ليست بجواره لتشاطره نصره ، ولكن رغم كل ذلك فإنها لتعلم كل شىء عن نصره وإنها لتنعم به فى جنات النعيم . وتنهد محمد تم تمدد فقد أحس أنه فى حاجة إلى أن يستريح فقد قطع شوطاً كبيراً خلال الأسابيع الماضية ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يعلم أن ما قطعه هو جزء يسير من الطريق إذا ما قورن بما ينتظره .

كان محمد رسول الله ولكنه كان واقعياً أيضاً ، فقد عرف أن ارتفاع

شأنه الملوس إن هو إلا بداية رسالته ، فإذا كان الإسلام مقبلا على أن يكون له أساس ثابت ، وإذا كان العرب مقبلين على أن يروا ما يرى وأن يحسوا مايحس ، وإذا كان هو مُقبلا على تنفيذ أوامر الله ، فإن أمامه مهمة شاقة هائلة . وعلى الرغم من ذلك فما كان يخمن مقدار ما ستتركه هتافات الصباح هذه فى حياته وفى الأجيال المقبلة .

إن الحالة العالمية الوحيدة التى ترتكز على الدين فقط كانت ترى الحياة فى هذه اللحظة فى واحة المدينة الخضراء . كان اليوم ٢ يوليو سنة ٦٢٢ بعد الميلاد وقد عرف منذ ذلك الوقت بالهجرة ، وفى خلافة عمر بعد موت النبي تقرر أن يكون هذا اليوم مبدأ التاريخ الإسلامى ، ومنذ ذلك الوقت أصبح المسلمون فى جميع أنحاء الأرض يؤرخون بهذا اليوم ، وأصبح من المألوف للمسلمين أن يذكروا « قبل الهجرة » و« بعد الهجرة » كما هو مألوف للمسيحيين أن يذكروا « قبل الميلاد » « وبعد الميلاد » ولكن لم يفكر أحد فى هذا ولم يقدر أحد — أثناء كان محمد يشرب لبنه وأبو بكر يصلح من شأنه بعد الرحلة بأن يمشط لحيته ، والقصواء تلتقط عشبها — أن الفكرة التى نبتت فى الكهف الموحش بجبل حراء المنعزل قد خلدت ودخلت فى التاريخ . ولم يحلم أحد كيف ستنضج وتنتشر سريعاً كفيضان هائل يغمر مناطق عظمى من العالم ويكتسح فى طريقه حكومات وديانات بقيت لا تنازع لقرون عدة .

الفصل التاسع

المدينة

(٦٢٢ م)

كان أبو أيوب الأنصارى الذى استضاف محمداً لما وصل المدينة من أبناء أخواله ، فقد كان حفيد هؤلاء الأقارب الذين حملت إليهم آمنة ابنها البالغ من العمر ستة أعوام قبل أن تموت فى الصحراء ، وكان أبو أيوب مسلماً صادقاً ، فقد وقف بجانبه فى جميع الغزوات أثناء حياته ، واستمر جندياً مسلماً باسلا بعد موته . ولقد قتل بعد ثمانية وأربعين سنة من دخول محمد المظفر إلى المدينة خارج أسوار القسطنطينية وهو يقاتل فى جيش معاوية بن أبى سفيان خامس خلفاء المسلمين . وقد شيد ضريح هائل ومسجد فى البقعة التى سقط فيها ، ولا زال الضريح إلى اليوم . وكان سلاطين آل عثمان إلى سنين قريبة قبل اختفاء الإمبراطورية العثمانية ، يذهبون إلى ذلك المسجد قبل اعتلاء عرشهم ليتقلدوا فيه سيوفهم ، وإن ضريح أبى أيوب لأجمل من أى دار أو مسجد وقعت عليه عيناه فى بلاد العرب ، وإنه لأجمل من أى شىء رآه محمد خارج نطاق السموات السبع .

وهذا مثل واحد لمدى انتشار تعاليم محمد ، فأبو بكر وعمر وعلى ، هؤلاء الأعراب الذين لم يتثقفوا ، والذين فروا من خناجر قريش سيقررون فى زمن قصير مصاير الإمبراطوريات الشرقية القوية العظيمة ،

وستدفع سوريا ودولة الكلدانيين ، والدولة البيزنطية ومصر ومستعمّرات الروم والفرس الجزية إلى هؤلاء المغمورين المجهولين . وإن حكام هذه البلاد وقوادها ورهبانها سيتمسون رضاء هؤلاء الشعث ذوى الثياب البالية الذين يجلسون الآن شاكرين على حصير مضيفيهم المدنيين . وسيُطوى أتباع المسيح فى الشمال والغرب وعبدة النار من أتباع زرادشت فى الشرق والجنوب أمام مد الإسلام كما يُطوى الحصى على شاطىء البحر .

وستحل أسماء رعاة سابقين وتجار رحل وصيارفة محل أسر مالكة بقيت على الدهر من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى .

وقد قال أحد الذين يرقدون اليوم تحت التراب خارج دار أبى أيوب فى المدينة ، قال من قصر الإمارة بالبصرة مدينة العراق العظيمة بعد سنوات قليلة من الهجرة : « إنى لأذكر الوقت الذى كنا فيه سبعة مسلمين فى مكة مع النبى الكريم وقد كنت سابعهم ؛ وما كان لنا من طعام إلا ورق الشجر ؛ وقد تسلمت قطعة قماش فى هذه الأيام فقسمتها قسمين قسم استعملته وقسم دفعت به إلى سعد بن مالك ليلبسه : واليوم كل منا حاكم ولاية من الولايات .

كانت هذه الرحلة من مكة ، فى ظهر هذا اليوم من يوليو أطول رحلة قطعها حكام المستقبل وقواده وقضاته . إنهم لم يروا خصبا كما يرون الآن ، وإن السهل الخصب الذى تتوسطه المدينة كان شيئاً لا تصدقه عيون هؤلاء الذين اعتادت عيونهم الأراضى الماحلة التى تصقل صخورها الشمس الحامية . وإن خرير المياه التى تتدفق فى القنوات دواما ليظهر شيئاً غير محتمل لهؤلاء الذين عاشوا فى أماكن كل قطرة من الماء

فيها أثمن من الذهب . إنهم ليجدون تمراً يأكلون منه كما يشتهون ، وتينا وكمثرى ورمانا متوافرة توافر الحصى فى الصحراء ، فأحسوا كأن هذا تأييد لقصص محمد عن جنات النعيم .

ولكن على الرغم من أن أيام المدينة الأولى كانت أيام راحة وعبادة إلا أن عقل محمد كان يفكر ويدبر ، فإن الإسلام ليدفعه إلى العمل الآن كما كان يدفعه أيام الاضطهاد والتعذيب ، زيادة على ذلك فإن الإسلام قد أثبت وجوده ، فعليه الآن أن يثبت صلاحيته للذين اعتنقوه والذين كفروا به ، بل وعليه أن يبرهن على صلاحيته لأناس لم يسمعوا به أبدا .

وكان على محمد أن يجد له مسكنا ثابتاً قبل أن يبدأ هذا النشاط .

كانت تعاليم محمد منذ أن أمر بنشر رسالته منذ عشر سنوات تخضع للملابسات والظروف ، وكانت مجملة ، فكان جبريل يأتى بالأوامر والأحكام مجزأة ، وإن هذه الأوامر والأحكام لتبدأ الآن فى أن تأخذ شكلها النهائى . ما من أحد قد سمع كل ما أوحى إلى محمد إلا أبو بكر وعلى وزيد فى الغالب ، وإن أغلبية المؤمنين كانوا يعلمون الشىء القليل عن ماهية الإسلام ، وربما كان هناك بعض الغموض بالنسبة لمحمد نفسه ، ولكن ها هو ذا تتاح له الفرصة الآن التى قلما أتيحت لمنشئ الديانات ، فهو يستطيع أن يبرز تفاصيل أحكام دينه دون أن يعترضه معترض . إن هذا سبب حاجته إلى الدار والمسجد فورا ، ولما كان نشيطاً كما أنه كان متحمساً فقد عرف أن أضمن طريق لإنجاز الأعمال هو أن تقوم بها بنفسك .

اختارت الناقة الأريبة موقع المسجد الذى سيشع الإسلام منه حتى

يغمر العالمين ، فكانت الخطوة الثانية أن يشيد هذا المسجد ، فتناول محمد مايستطيع تناوله من اللبن ثم أكل تمراً حتى امتلأ ، وطرح بالنوم عنه التعب ثم ابتدأ فى العمل .

مهدت الأرض لتشييد أول مسجد إسلامى فى خلال الأربع والعشرين ساعة التى أعقبت وصول المهاجرين إلى المدينة ، وكان استقبالهم غاية فى الحماسة حتى إنه لم يفطن أحد إلى أن المكان الذى اختارته القصواء لتنيخ به جسمها المكدود كان مقبرة ، ولم يهتم أحد بذلك فإن المدفونين بها إن هم إلا وثنيون ، فأخرجت جثثهم وعظامهم وألقيت بعيداً لتتجمع يوم الحساب . وقطع النخيل الذى كان يظلل القبور ، وسويت الأرض ووضع الأساس ، وقام محمد بنصيبه فى جميع هذه الأعمال كما قام بنصيبه فى البناء ، وقد كان يعاونه المدنيون والمكيون على السواء .

وقد آخى محمد بين المهاجرين والمدنيين لإيجاد نظام تعاونى عملى ، فأطلق على المدنيين اسم الأنصار وعلى المكيين اسم المهاجرين ، فلم يأو الأنصار المهاجرين ويطعموهم فقط ، ولكنهم قاسموهم كل ما يملكون ، وقد اعتبر رباط هذه المؤاخاة رباط قرابة ودم ، حتى إذا ما مات أحد الأنصار كانت تركته تقسم بين أقاربه الحقيقيين وبين من آخاهم من المكيين . لقد كانت فكرة رائعة نتج عنها عاطفة تآلف لا تقدر . . ما أفضلها من أساس للعقيدة الجديدة .

كان هذا التآلف والتآخى ضرورياً ، فإنه إذا كان بنو الخزرج قد دعوا محمداً إلى المدينة فإن هناك من لم يدعه إليها ، وزيادة على دلك كان هناك قبائل اليهود وقبيلة الخزرج ، وكان هناك أيضاً عبدالله بن أبى ذلك

الرجل المتعب ، ولم يفكر ابن أبى ولا حلفاؤه فى هذه اللحظة فى محمد كثيراً ، ولم يهتموا بما كان يجرى فى الجانب الآخر من الواحة ، وقد كان ذلك من سوء حظهم كما ظهر فيما بعد ، وكان فى ذات الوقت من حسن حظ محمد .

كان المسجد الأول بسيطاً غاية البساطة فى تصميمه ، فكانت جدرانه من اللبن قامت على قاعدة من الحجارة ، وكان سقفه من الجريد ، وجعلت عمده من جذوع النخل التى كانت بالمقبرة ، وقد طين المسجد من الداخل ولم يكن به زخارف ولا منبر ، فكان محمد يخطب الناس من نفس الارتفاع الذى يجلسون عليه ، وكان المسجد يضاء فى الليل بنيران شظايا الخشب ، وقد وضعت مصابيح زيتية صغيرة بدلا منها فيما بعد ، ولكن ظل البناء دون تغير حتى خلافه عمر ، بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، لما قام بتوسيع المسجد .

ويشترك المسجد الحالى والمسجد الأثرى فى الأساس فحسب ، وقد تعاقبت خمسة مساجد على الموقع القديم ، وإن آخر مسجد ، وهو القائم بالمدينة اليوم ، يرجع إلى القرن الخامس عشر ، وهو مزخرف وله خمس مآذن وقبة خضراء عليها كرة ذهبية وهلال . وتحت هذه القبة ترقد رفات الرسول . وما عدا هذا فليس هناك ما يذكر بمحمد ، فإن كل شىء فيه أو خارجه مما كان يمقته محمد .

كانت حياة محمد بسيطة كحياة السيد المسيح ، فجميع الزخارف والنقوش الداخلية للكنائس العديدة ولبعض المساجد اليوم من عمل الخلف الذين لا يستطيعون أن يعقلوا أن مؤسسى الديانتين العظيمتين كانا

بفضلاتِ البنايات المتواضعة ، وإن الشيء الوحيد الذى يذكر المسلمين بهذا البناء الذى يصلون فيه فى القرن العشرين هو اسمه ، مسجد النبي .

وقد بنى محمد دوره ودور أسرته وألحقها بالمسجد ، وهذه الدور عبارة عن صف من الأكواخ المتواضعة يفصل بعضها عن بعض سعف النخل الملتصق بعضه إلى بعض بالطين ، وما كانت هذه الدور مؤثثة أو مفروشة ، فكان محمد ينام على حصير ويقوم بأعمال المنزل بنفسه . فكان يخيط ملابسه ، ويخصف نعليه .

من المسلم به أن حياة التقشف صفة تميز بها رجال الدين ، ولكن إذا تدبرنا ذلك الأمر لوجدنا أن محمداً لم يكن على أية حال رجل الدين التقليدى ، فقد نشأ فى بيئة تتمتع بمباهج الطبقة الوسطى ، وكان من أثرياء مكة فى أيام زواجه الأول ، وبرغم ذلك لما وجد نفسه فى المدينة ، وكان كل فرد بها على استعداد أن يمنحه أفضل ما يملك ، وحتى بعد غزواته وقد تدفقت الأموال والغنائم إلى خزانة الدولة ، بقى على زهده وتقشفه .

كان طعام محمد الأساسى الثريد والتمر واللبن ، وكان يتناول أحياناً تربية ضأن وخضر ، وربما بعض العسل ، وكان غالباً ما يقصر طعامه على التمر واللبن ، وأيًّا كان الطعام فقد كان يتناوله على حصير فوق الأرض ، وكانت ثيابه بسيطة كطعامه ، فكان يرتدى فوق جسمه مباشرة قميصاً له أكمام من الصوف الخشن أو القطن ، وفوقه بردة ، وفوق رأسه عمامة ضخمة لفت باعتناء ، وفى قدميه نعال من جلد ، وكان يبدو فى أخريات أيامه فى حرير من الدمستق وعباءة مطرزة ، وكان ذلك نادراً ، لأنه كان يكره ارتداء الثياب الفاخرة ، وقد نهى أتباعه عنها ، وقد أهدى إليه نجاشى

الحبشة مرة سراويل وزوجاً من الأحذية الطويلة ، فلم يدر محمد ما يفعل بالسراويل ولم يستعملها أبداً ، وكان يلبس الحذاء بين وقت وآخر ولكنه آلم قدميه .

وقد ترجع طريقة حياته هذه إلى غريزته البدوية ، فإن ذكرياته الأولى كانت عن حياة الصحراء المتقشفة وقد تبعتها تجارب التجوال فى قوافل التجارة . ومما يؤكد غريزة رجل الصحراء الإسراف النسبي فى اقتناء الخيول ، ولقد كان لمحمد جياد قليلة ، ويرجع ذلك إلى أن الجواد كان أقل استعمالا فى ذلك الأوان عن استعماله فى الأزمان المقبلة إذ يخرج المسلمون للفتوح البعيدة ، وكان محمد يمتطى إبل السباق والبغال . وكان يملك من الإبل ثلاثاً منها القصواء المعروفة ، ومن البغال اثنتين . واحدة بيضاء والأخرى رمادية ، وكان يطلق عليهما دُلدُل والشهباء ، وكان يملك إلى جوار ذلك قطيعاً من الإبل والنوق وقطعاناً من الغنم والمعز . وإنها لعقلية بدوية فقط تلك التى تحرم على نفسها الملبس والمآكل وترف النفس ، ثم تبسط يدها فى اقتناء الماشية .

وعلى أية حال فمهما كان سبب سلوك محمد هذه الطريقة من العيش فقد جعل من الواضح من بادىء الأمر أن الإسلام ، نظرياً وعملياً ، يقوم على البساطة ، وكان دائما يؤكد هذه الحقيقة ، فكان يحض أتباعه دواما على أن يجعلوا هذه الفكرة حاضرة أبداً فى أذهانهم ، ولقد نفذ أغلبهم وصيته واستمروا عليها مدة طويلة بعد موت رائدهم .

ففى خلافة عمر ، فى أثناء معركة من معارك سورية ، دخل خالد قائد المسلمين على ماهان قائد جيوش الروم فى سورية ليحاوره ، والتقى القائدان

فى خيمة ، وقد كان ماهان ورجاله فى ثياب فاخرة ، متقلدين سيوفاً تتلألأ الجواهر فيها ، جالسين على مقاعد موشاة وثيرة ، وكان خالد لابساً ثياب الحرب التى يرتديها البدوى المحارب ، ثياباً خشنة بسيطة ، إن هى إلا صدرية ودرقة ، وكان خنجره إلى جانبه ، وفى يده حربته ، فما كان هناك مايميزه عن أى ضابط من أتباعه ، والظاهر أن خالداً ورجاله لم يلحظوا المقاعد التى صفت لهم . فإنهم بعد أن حيوا المسيحيين ، جلسوا على الأرض ، فلما سألهم ماهان : لم فعلوا ذلك ، قرأ خالد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » إن بساط الله أشهر من فرشكم .

وضرب خالد وأتباعه المتقشفون فى اليوم التالى جيوش ماهان أعظم ضربة تلقتها جيوش الإمبراطورية ، وبعدها انطلقوا قدما ووضعوا يدهم على بيت المقدس .

كانت دعوة الناس إلى الصلاة بعد أن بنى محمد المسجد فى المدينة من أول المشاكل التى واجهته . فلم تكن هناك حاجة قبل الآن لدعوة المسلمين إلى الصلاة ، بل كان الأمر على النقيض ، فقد كانت اجتماعات المسلمين تجرى خفية ، وكانت الحيطة تتخذ لإخفاء مكان الاجتماع للصلاة ، ولكن كل هذا قد تبدل الآن فإنه بين أناس يودون تلقى تعاليم دينهم .

يدعو اليهود أتباعهم إلى المعبد بدق الطبول ، ويقرع المسيحيون النواقيس ، وإن محمداً ليرى هذه العادات جامدة تقصر عن تأدية أغراضها المقدسة ، وإنه ليحس أن فى مقدور الصوت الإنسانى أن يعبر عن العاطفة التى تلائم مهابة المناسبة .

لم يكن لهذا النداء صيغة نهائية فى بادىء الأمر ، فقد كان النداء

« الصلاة جامعة » كافياً للفت نظر المؤمن . وبعد مدة رأى محمد حاجته إلى شيء أكثر تأثيراً ، وهناك أقوال كثيرة عن كيفية وصوله إلى صيغة الأذان الأخيرة ولا أهمية لهذا ، وليس هناك ما يمنع من أن محمداً قد وضع النداء بنفسه ، فإنه بسيط وموزون ويترنم به المؤذنون من مآذن مساجد العالم أجمع خمس مرات فى اليوم ، وإنه ليحمل رسالة تهز القلوب الآن ودواماً ، رسالة تهز الرجال أيًّا كانت عقيدتهم . وصيغة الأذان هى :

الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله

حى على الصلاة

حى على الفلاح

الله أكبر

لا إله إلا الله .

ويتبع الترغيب التالى صلاة الفجر :

الصلاة خير من النوم .

فلما أخذ الأذان شكله النهائى ، كان من الواجب اختيار المؤذن . ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت موظفون للمساجد ، ولو أن محمداً كان يدعو الناس للصلاة فلم يكن من واجبه أن يقوم بذلك دواما ، فمن الواجب أن يكون المؤذن جهورى الصوت ليسمعه كل من فى المدينة ، وعليه أن يكرس وقته ليقوم بهذا العمل ، فوقع الاختيار النهائى على العبد بلال بن رباح .

كان هذا الرجل العظيم الذى يبدو كأنه قد قدّ من الكهرمان من أوائل معتنقى الإسلام ، وكان عبداً لأمية بن خلف ، وكان أمية وثنياً متعصباً فكان ممن يعذبون المسلمين ، فلما اكتشف أن بلالاً اعتنق الإسلام فعل كل ما فى طوقه ليعيده إلى الوثنية : وثبت بلال على دينه فعذبه ولكن لم يجد تعذيبه ، فخرج أمية بالعبد الأسود إلى الصحراء ونضا عنه ثيابه وتركه تحت أشعة شمس بلاد العرب المحرقه ووضع فوق صدره صخرة كتب عليها : « لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بالإسلام » واستمر بلال على مقاومته ، وأخذ يردد : « أحد . . أحد » وقد أشرف على الموت من حرارة الشمس والعطش ، وقد كان من المحتمل أن يموت من الجهد لو لم يقبل أبو بكر فيرفع عن صدره الصخرة ويطلقه ، ثم يدفع لأمية فيه ثمناً مرتفعاً وبذلك يدخل بلال فى خدمة أبى بكر .

هذا هو المخلوق المخلص المتعصب لدرجة عدم التعقل الذى سيقضى بقية حياته مردداً نفس النداء خمس مرات فى اليوم ، لقد كاد أن يكون شهيد الإسلام الأول ولكنه صار مؤذن الإسلام ، فراح يعتلى سطح المسجد فى الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء ويطلق الأذان فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ليدعو الناس إلى الصلاة ، ذلك الأذان الذى يستغله مؤلفو ومخرجو الروايات السينمائية ويضعونه فى رواياتهم عن الشرق دون تبديل ليعطوا الجو الشرقى دون أن يدروا عن الأذان شيئاً .

لم تنته حياة بلال فوق سطح مسجد المدينة ، فقد اعتزل الأذان بعد موت محمد ، وخرج فى جيوش الإسلام التى ابتدأت غزو الشام والعراق

وفلسطين ومصر ، وتقلد معظم المناصب ، وعين فى مناسبة من المناسبات رسولا ليفاوض ابن الإمبراطور قسطنطين فى قيصرية ، وكانت المرة الوحيدة التى أذن فيها بعد اعتزاله فى الموقع الذى سيقام فيه فيما بعد مسجد عمر ببيت المقدس بعد أن استولى خالد على المدينة . وقد مات فى دمشق حيث يوجد ضريحه الفخم إلى الآن .

ولما انتهى محمد من نُظم المسجد ، حول انتباهه لتنظيم أوامر الدين الجديد ، وكان واثقاً فى أن كل شيء فى جانبه إذا ما قبض على زمام الموقف بمهارة . كانت بلاد العرب فى القرن السابع فى حاجة إلى قائد ، وكانت الممتلكات العظيمة لمصر وسوريا وفارس واليونان قد خيم عليها الظلام ، وكانت روما آخذة فى الأفول . وكان يظهر أنه ليس هناك شعب مهيأ لاحتلال أماكن تلك الممالك العظيمة الغاربة ، ومن المحتمل أن محمدا لم يكن يعى تماما أنه قد يكون من نصيبه أن يحمل المشعل الذى سقط حديثاً من الرومان ، وقد تكون أفكاره عن الإمبراطوريات السابقة غير واضحة ، ولكنه عرف أن العرب بانقسامهم إلى قبائل مستقلة يتيحون فرصة طيبة لنشر الدين الجديد ، وعرف أنه لو عمل سريعاً لوجد فرصة طيبة لتوحيد كل هذه العشائر فى حكومة واحدة ، تخضع لحكمه .

كانت خطوته الأولى أن يقنع المؤمنين أن المسلمين إخوة ، وقد حقق هذا بمؤاخاته بين الأنصار والمهاجرين ، وقد أهاب بالمسلمين أن يتعاونوا على البر وأن يعاملوا بعضهم بعضاً بالحسنى .

وفى يوم مال بجسمه وأسند ظهره إلى جذع شجرة من قوائم المسجد

وقال برقة الأب الذى يحادث أبناءه : « من لا يعطف على مخلوقات الله وعلى عياله ، لا يعطف الله عليه . وأيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة » وتكلم عن قوة الحديد وقوة النار وقوة الماء ثم أضاف أن الصدقة أقوى من كل ذلك ، وقال إن الصدقة ليست مقصورة على العطاء فأن تلقى أخاك بوجه طلق صدقة ، ومنح كوب ماء صدقة ، وإعانة المسلم فى طريقه صدقة . وقد أكد لسامعيه أن أيما مال أو مكانة يعملها المرء لنفسه فى الدنيا لا تغنى عنه فى الآخرة شيئاً ، فالملك الحاسب لن يسأل عن القطعان أو الجنان أو الأموال ، بل عما خلفه الميت وراءه من إحسان .

وقرر أن صدقة الكلام لا تقل عن صدقة الأفعال : فالمجاملات اليومية لها أثر فعال فى تكوين المسلم الطيب ، فالسلام عند دخول منزل أو الخروج منه ، ورد السلام على الصديق والغريب ، وحسن الضيافة كل أولئك جزء من الإسلام .

وإن مما يؤثر فى الغريب اليوم أدب العربى الصميم ورقة قلبه وحسن ضيافته ، ولا يوجد جنس بشرى آخر يبلغ فى الكرم ما يبلغه العربى ، كرم يصدر عن نفس صادقة . لقد انقضى ثلاثة عشر قرناً منذ أعطى محمد دروس الأخلاق فى المدينة ، ولكن هذه الدروس لم تنس إلى الآن . إن العربى لازال يدافع عن ضيفه حتى آخر رمق فى حياته ، وإنه لا زال يقاسمه آخر تمرة من تمراته .

رعى محمد الجانب العملى من حياة أتباعه إلى وعظه الروحى ، فابتدأ فى وضع عادات ستصبح قوانين على الأيام : وضع قواعد للرى وحفظ

مواردُ المياه ، وأمر بزرع نخلة مكان كل نخلة تقطع ، ووضع نظماً للضرائب ، وقد ساعدته عقليته التجارية المدربة على قبولها نوعاً كما يقبلها نقداً ، ولم يكن ذلك مقصوراً على الحاصلات الزراعية ، فهاك مثلا شرطاً من شروط الضرائب : « دينـار على كل بالغ أو ما يقابله من الملابس » .

وقيل إنه كان يرتـكب أخطاء أحياناً ، وها هى حادثة تتعلق بإحدى هذه الأخطـاء المزعومة تقوم شاهداً على أن كتاب التراجم لا يتحرون الدقة عند ما ينسبون أشياء إلى محمد ، وإن هذه الحادثة تظهر فى كثير من التراجم التى كتبها كُتاب الغرب عن الرسول ، بينا أنها — كما هى العـادة — لا تضر محمداً أو الإسلام ، وإنما هى قطعة من غباء الكُتاب .

نخيل المدينة من أشهر نخيل بلاد العرب ، وهناك أكثر من مائة نوع منه ، فبعضه مشهور فى العالم أجمع لطيب رائحته ، وحلاوة تمره ، وصغر نواه ، ولا يمكن أن تطرح نخلة من تلقـاء نفسها إلا إذا لقحت صناعياً ، ففى ينـاير وفبراير يتسلق الأعراب قمة النخـل الأنثوى ويدخلون زهوراً مذكرة مقلوبة فى فتحة الزهرة المؤنثة ، وهم يرتلون تراتيـل خاصة ، ثم يربطونهـما معاً ، وقد قال بعض المؤرخين إن محمداً لم يسمع بهذا أبداً ، ولما سمع به أوقفه لسبب من الأسباب ، فكان نتيجة ذلك أن توقف نخل المدينة عن الإثمار كلية ، ومات نخل كثير .

ووفد على محمـد وفد من تجـار التمر البائسين وأكدوا له أنهم

سيقاتلون فى صفوف الإسلام ، ثم أردفوا أنهم لا يودون أن يموتوا جوعاً قبل ذلك .

وقرر المؤرخون أن محمداً استمع إلى شكايتهم ثم اعترف بخطئه دون خجل وقال : « إن أنا إلا بشر . إن أمرتكم أمراً فى الدين فخذوه ، وإن أمرتكم أمراً عن رأيي فما أنا إلا بشر » .

هذه صورة صغيرة لحياة العرب لاضرر لها ولكن لا أساس لها ، وإن الجزء الخاص بتلقيح النخل الصناعى لكما ذكر ، أما الجزء الخاص بمحمد فمفترى عليه ، وإن أى فرد يفكر فى الأمر قليلا ليصل إلى هذا . إن من كان طعامه الأساسى التمر ، وولد وشب بين تجار التمر وزارعيه ، لينبغى له أن يعرف عادات النخل التناسلية ، وهذه القصة يمكن تصديقها لو صدقنا كاتباً شرقياً يقرر أن فلاحاً فى ولاية تكساس يجهل الدورة الزراعية أو ما شابه ذلك .

كان على محمد أن يواجه المشاكل المادية كما يواجه المشاكل الروحية ، فقد كان جو مكة حاراً غاية فى الحرارة ، ولكنه كان صحياً نظراً لجفافه إذا ما قورن بجو المدينة ، فالمدينة فى مستوى أعلى ، وكانت تنعم بالماء والظل ، ولكنها تشقى بالتفاوت العظيم فى درجات الحرارة ، فابتدأ المهاجرون المكيون يتألمون ، فتفشت فيهم الحمى التى قد تكون برداً فى الرأس ، وما كان هذا معروفاً لرجال الصحراء ، أو أنفلونزا أو ملاريا ، فابتدأ التذمر ، ولكن محمداً قضى عليه ، فتذرع مرة أخرى بأخوة الإسلام وقرر ضرورة اجتماع رأى أصحاب الدين الجديد والحاجة إلى احتمال الشدائد وأهمية عدم إعطاء الأعداء أى فرصة لبذر بذور الشقاق ، ولقد

أبان لهم كل ذلك فى وضوح ، فقد كان يعلم أن مستقبله ومستقبل رجاله متوقف على هذا . لقد كانت شخصيته عظيمة وكان حماسه صادقاً حتى إنه قضى على كل تذمر فى زمن يسير .

ويبدو هذا العمل عظيما لمن لا يعرف العرب عن كثب ، ولكنه أعظم خطورة مما يظهر ، فالعرب فوضويون بطبعهم ، لا يخضعون لقانون ، فإذا ما اشتغل العربى أو حارب فإنما يفعل ذلك بدافع حماسه الشخصى ، ولا يتحلى العربى بروح الجماعة ، ولا يرى المرء أبداً أعرابياً أصيلا يمارس الألعاب الرياضية ، فالعرب أمهر الفرسان فى العالم ، ولكن فشلت كل المحاولات التى بذلت لتكوين فرق « البولو » منهم ، فالعربى وهو فوق جواد « البولو » وفى يده العصا والكرة لا يمكن إيقافه ، فركوبه وعينه يحل عنهما أى شىء غربى ، ولكنه لن يعاون أى لاعب آخر فى مشاركته فى الكرة .

وإن طريقة صهر محمد العرب فى فريق واحد لا يهزم لإحدى معجزاته العظمى ، وإن الفضل كل الفضل له ، فما انقضت سنون قليلة بعد موته حتى انقسم الإسلام إلى شيع ثم إلى أسرات مالكة متنافسة ، فراح المسلم يقتل المسلم بنفس الحماس الذى كان يقتل به المشرك .

وكان محمد مشغولا بأسرته إلى اشتغاله بالبناء والوعظ ورعاية الزراعة وبرد الرأس ، فقد كانت بنتان من بناته بعيداً عنه . فكانت رقية وزوجها عثمان هناك فى الحبشة ، وكانت زينب بمكة ، وقد رفض زوجها أبو العاص أن يعترف برسالة أبيها ومنع زوجته من أن تلحق بالمدينة ، وقد أقلق هذا الفراق محمداً وخاصة فى أمر زينب ، فقد تكون فى خطر ، وعلى كل

حال فما كان يعيش وحيداً ، فقد كانت تعيش معه زوجته السمينة سودة التى كانت ترعى البيت وابنتاه فاطمة وأم كلثوم ، وكانت عائشة زوجه الطفلة لا زالت فى كنف أمها وأبيها ، ولو أنها كانت فى العاشرة إلا أنها كانت نامية ذلك النمو السريع الذى تنموه نساء العرب ، والذى يسبب لهن الهرم فى أواخر السنين التى تعقب العشرين ، وقرر محمد الزواج بها لما اقترح عليه ذلك أبو بكر وزوجه .

وكان الزواج بسيطاً ككل شىء آخر فى حياة محمد ، فقد اغتسلت عائشة وارتدت رداء نظيفاً ، وأخذتها أمها أم رومان إلى مسكن محمد وكان جالساً ونفراً من أصحابه ، فوضعتها فى حجره وقالت له :

« هؤلاء أهلك ، فبارك الله لهن فيك ، وبارك الله لك فيهن » .

ولما انتهت من مقالتها انسحبت وانسحب الصحاب .

وقد شغلت مسألة زواج الرجل الذى كان فى سن الخمسين من الفتاة التى كانت فى العاشرة بعض مؤرخى محمد كما شغلهم الإسراء وحالة الصرع ، وكان المؤرخون ينظرون إلى كل حالة من وجهة نظر المجتمع الذى يعيشون فيه ، فلم ينظروا إلى هذا الزواج على أنه كان ولا زال عادة أسيوية ، ولم يفكروا فى أن هذه العادة لا زالت قائمة فى شرق أوروبا ، وكانت طبيعية فى أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة وإنها ليست غير عادية اليوم فى بعض المناطق الجبلية البعيدة فى الولايات المتحدة ، وبغض النظر عن العادة فإنهم لم ينظروا نظرة اعتبار إلى ظروف هذه الحالة الخاصة .

فهناك ، أول شىء ، أبو بكر أبو الزوجة ، وهو رجل أعمال مكى موسر ، قد ضحى بكل شىء فى سبيل قضية محمد ، وكان من المفهوم أنه

يبغى أن يرتبط ارتباطاً سياسياً دائماً بقائده الذى أعانه وساعده فى أحلك أيامه . وقد يكون هناك دوافع أخرى مادية أقل أهمية ، فإنه يؤمن بمحمد ويحترمه ويحبه ، فكان واثقاً من أن ابنته ستجد الرعاية الطيبة فى دار صديقه.

ويجب أن لا يهمل محمد نفسه ، ففى هذه اللحظة لم يكن فى حياته شيء مسل أو بهيج ، بل كانت حياته كداً ونصبا ، فكان يستحق بعض ما يثيره ، غير التعذيب والحكم عليه بالإعدام . وما كان له حتى نصيبه العادى من النساء ، فقد بقى حتى السابعة والعشرين عفيفاً كعائشة ، وختم هذا العفاف بالتزوج بأرمل تكبره بخمس عشرة سنة .

والنقطة الثالثة التى تنسى عادة والتى يجب لذلك تأكيدها ثانية هى أن عائشة على الرغم من أنها طفلة بالنسبة لسنها فإنها لم تكن طفلة لا حول لها تركت تحت رحمة شيخ هرم ، فلو أن هناك شابة عرفت ما هى مقبلة عليه لكانت عائشة بنت أبى بكر ذات العينين الواسعتين والقدمين الصغيرتين والشعر الجعد . فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى اللاحقة بالمسجد وراحت تديرها ، فعاملت سودة العجوز كما تعامل خادماً مكلفة بالقيام بجميع الأعمال ، ولما جاءت نساء أخريات إلى دور النبى كانت كلمة عائشة هى النافذة فى جميع الأعمال المنزلية . ولما هجر محمد نساءه لم تخفف عائشة من غلوائها ، فقد كانت تعلم أنه سيعود إليها دواماً ، ولقد فعلت أشياء فى دور النبى تخالف مبادىء الإسلام جميعاً ، وكان أبوها ينكر ما تفعله إنكاراً شديداً . وقد أثارت بعد موت النبى فتنة بين المسلمين عجز عن إثارة مثلها أى قرشى مكى ، فقد كانت ذات طبيعة نارية عنيدة أنانية لا تحمل مسئولية ، ولو لم تكن

مسلمة لكانت زينوبيا أو تيودورا أخرى ، ولقد نجت من الموت موتة عنيفة ، ويرجع ذلك إلى حظها وإلى ولاء صحابة زوجها . فعلى الرغم من اقتناعهم بأنها لا تستحق إلا حربة تنفذ إلى صدرها إلا أنهم ذبوا عنها إكراماً للصداقة القديمة . إنى لا أحس أى شفقة نحو عائشة ابنة العشر السنين وقد وضعت فى حجر زوجها الذى تجاوز الخمسين ، فقد كان رجلاً طيباً ، رجلاً رحيماً ، رجلاً أميناً ، لم تتعد حياته العاطفية حتى ذلك الوقت أكثر من حفل رسمى ، إنه ليستحق فتاة صغيرة صبوحاً ليعوض ما فاته ، وقد يكون حظه من ذلك الزواج عظيماً ، وإن ذلك يرجع إلى رغبة عائشة فى إسعاده .

إن اتصال محمد بعذراء لأول مرة قد سره ، فعزم على أن يتوسط فى زواج آخر وأن يرتبط فى نفس الوقت بأواصر عائلية أخرى ، فقد كانت ابنته فاطمة فى السادسة عشرة وإن هذه السن لأعرابية سن كبيرة ، وكان علىّ الذى يمثل الجيل الإسلامى المقبل فى الثانية والعشرين ، وكان أضأل من أغلب مواطنيه ، ربعة فى الرجال ، له رأس كبير وعينان واسعتان سوداوان ، وقد عوضته شجاعته وإخلاصه كل ما ينقصه من جمال ، وما كانت فاطمة نفسها ذات جمال ، ولكن كانت لها حرارة أمها وكثير من ذكاء أبيها وسحره ، فكان زواجهما أمراً طبيعياً ، وما ظن أحد أن هذا الزواج سيقود إلى هياج بين المسلمين بعد موت محمد كما قاد جحود هنرى الثامن للبابا إلى هياج بين المسيحيين . وما كان يظن أحد حتى محمد نفسه أن الإسلام قد يصبح قوة عالمية ، فكيف يظن أحد شيئاً كهذا ؟

لم يكن هناك فى هذه اللحظة ما يبرر تصور أن الإسلام قد يتعدى جيران المدينة . إن محمداً كان يبنى ويحصن ولكن مواد البناء لم تكن صالحة تماماً ، فقد كان فى أتباعه مخلصون متعصبون على استعداد للموت فى سبيله وكان فيهم كثيرون غير مقتنعين . وكان هناك آلاف من الأعراب المعادين له ، وآلاف أكثر ممن لم يسمعوا عنه ، ولكن فى خلال الاثنى عشر شهراً الأخيرة تبدل الحال كثيراً فى صالحه ، ولكن لا زال الإسلام مثلاً أعلى فى عقول جماعة من أصحابه ، فكان ارتباطه بالزواج بأسر أخرى عملاً سياسياً على جانب عظيم من الأهمية .

الفصل العاشر

الموقعة الأولى

(٦٢٣ — يناير سنة ٦٢٤ م)

إن خطبة محمد عن الصدقات، وتأسيسه بيتاً، وبناءه مسجداً أمدته براحة فى الضمير، وأمدته بأساس لإقامة ديانته، ولكنها لم تمده بالأمان، ولم تمده بما يعيش به، ولم تمده بسلطان إلا على المؤمنين المخلصين.

اضطهد وعذب لثلاث عشرة سنة، وكانت المكافأة الوحيدة على ذلك زيادة الاضطهاد والتعذيب، وإنه ليعلم حتى وهو فى المدينة أنها مسألة شهور قبل أن يتعقبه أعداؤه القدماء ثانية، لقد قرر فجأة بعد أن كان يدير خده الآخر لثلاث عشرة سنة ألا يقدم خده بعد الآن أبدا، لقد عزم على أن يرد العدوان بالعدوان.

إن نفيه وجوعه ليعود إلى قريش، وإن هذا لواضح وضوح النهار، وإنه من الواضح وضوح النهار أيضاً أن الطريقة الوحيدة لعلاج هذه الحالة هى أن يوقف القرشيين عند حدهم، لقد بدأوا بإشاحة وجوههم عن المسالمة، فلنر الآن ما هم فاعلون إزاء من يعلنهم بالعداء.

إن تنفيذ ذلك لميسور لمحمد، فالعرب زيادة على أنهم قوم عمليون، فإنهم منطقيون أيضاً، فإذا كان هناك سبب لفعل شىء فإنهم دائماً يرون ذلك السبب، وإن أتباع محمد الجدد وكثيراً من أتباعه القدامى

لا يستطيعون أن يروا أى سبب لنرك القرشيين يهددون حياة قائدهم ، ولا لتركهم يحاولون ذلك دون ان يحاولوا رد العدوان . وزيادة على ذلك فلم يكن هناك من داع للعيش على ما يسد الرمق والعمل للحصول على الكفاف بينا أن هناك أسلاباً وفيرة يمكن الحصول عليها من قوافل قريش لو خرجوا فى طلبها : وإن الحصول على هذه الأسلاب ، التى كانت مصدر عيش مشروع لأغلب العرب ، ليمكن أن يُربط بينها وبين الانتقام من رجال مكة الذين كانوا سبب متاعبهم كلها .

وعلى ذلك كان عند محمد روح الحق الذى ينقله إلى الوجه الآخر من سياسته ، وكانت الخامة المناسبة عنده ، فهؤلاء العرب ، البدو ورجال الواحات على السواء ، لم يكونوا غير مثقفين ، فقد كانوا مغرمين بالشعر والموسيقى كما كانوا مغرمين بالحرب والسلب ، ولم يحبوا العمل على أية صورة ، وإنهم ليتجنبونه إذا ما استطاعوا أن يكسبوا معاشهم عن أى طريق آخر ، فكان من الواضح لمحمد أن رجال السيف هؤلاء ليكوِّنون جنوداً يثيرون الإعجاب ويقنعون القرشيين أن محمداً على الرغم من أنه قد انهزم بالتعذيب فإنه على استعداد لأن يحمل القتال إلى معسكر أعدائه .

وهناك عوامل أخرى تدفع محمداً إلى البدء بالهجوم ، فقد كان عليه أن يعمل شيئاً لتكوين بيت المال ، ولم يكن يملك مالا ، وكذلك كان حال المهاجرين الموسرين ، فقد صادر المكيون أعمالهم وقطعانهم ودورهم . وكان على محمد أن يكافىء الناس وأن يطعمهم وأن يجد لهم عملا ليضمن انتشار الإسلام ، وليضمن رضا النـاس ، وإن الإغارة على الأعداء لتحل المعضلتين .

وقد اتبع لورنس العرب نفس الطريقة ليشعل نار الثورة فى الصحراء ، فقد عرف ألا فائدة ترجى من محادثة البدو عن المثل العليا ليطردوا « الأتراك الأعاجم » . إن رجال الصحراء هؤلاء لا يهمهم أن يكونوا تحت حكم الأتراك أو الفرنسيين أو الانجليز أو أىّ كان إذا كان لا بد أن يكونوا تحت سيطرة أجنبية ما داموا يحصلون على ما يأكلون ، ومعنى ذلك ما دام هناك من يسلبون ، فأمدهم لورنس بأفضل الأدوات لهذا الغرض ، وأصدر لهم التعليمات وأفضل طرق تنفيذها وكان الباقى سهلا ، فإن أحفاد المقاتلين من أجل محمد فعلوا فى الأتراك سنة ١٩١٦ ما فعله أجدادهم بالقرشيين سنة ٦٢٣ .

وكان القرشيون أنفسهم سبباً من الأسباب التى دفعت محمداً إلى الالتجاء للقوة ، فقد استمر عداء أبى جهل لمحمد فى درجة الغليان ، فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة باستمرار ، ويقاتل أى جماعة منعزلة يكمن لها ، وقد أغار على ضواحى المدينة وأتلف الزرع والحدائق ، فأظهر لمحمد أن شعوره لم يتبدل ، وأن هدفه لا زال قتله ، فلم يكن هناك إلا حل واحد من وجهة نظر الجانبين ، ألا هو القتال .

وما قر رأى محمد على هذا القرار حتى أقر مبدأ سيصبح عقيدة غير شرعية للمؤمنين ، فالجهاد ولو أنه ليس فرضاً دينياً فإنه سيقوم بما لا يقوم به شىء آخر فى سبيل حمل الإسلام إلى العالمين .

ولم يقدر محمد ، كما لم يقدر فى كل شىء فعله أو أمر به ، مدى الأثر البعيد الذى ستحدثه موافقته على اتباع هذا السبيل فى معاملته للكافرين ، فإنه لمن الجلى أنه لم ير تطبيق قانون السيف كسياسة فى المستقبل ، لأن

الدافع الأول لما هو مقبل عليه كان قبل كل شيء اليأس من قوم لم يطلب منهم إلا الإصغاء إليه ولم يتلق منهم إلا المهانة والاضطهاد . ويضاف إلى ذلك حاجته إلى كساء أنصاره وطعامهم وتسليحهم وإيجاد حلفاء جدد ، ولما كان محمد أعرابياً قد سافر كثيراً ورجال الصحراء فقد كان على ثقة من أن رجال القبائل قد يفهمون عقيدتهم أكثر لو أنهم علموا أنها تؤيد الحرب لجلب المغانم .

انتُقد محمد لهذا الجانب من تعاليمه ، فقد عنفه المؤرخون الذين تشبعت عقولهم بأنه « أفاق » كأنما كان أول من قضى بشريعة الحروب الدينية ، والظاهر أن هؤلاء الرجال قد نسوا أن الدين كان السبب الرئيسي أو السبب الثاني لنشوب أكثر الحروب منذ العصور المتناهية في القدم .

ولو أن محمداً قد قرأ « العهد القديم » لوجد أن موسى قد أشعل حرباً مقدسة منذ ألفي سنة قبل أن تبدأ حروبه وقريش ، ولو أنه استمر في القراءة لوجد أن قضاة وملوك بني إسرائيل لم يفعلوا إلا القليل بجوار قتالهم في سبيل عقيدتهم ، ولسمع عن مجازر تبدو قوائم ضحاياه بجوارها كضحايا الحوادث التي تقع في ميدان كرة القدم ، ولعلم أن العبرانيين القدماء قد وضعوا قوانين للحروب الدينية لا تشابهها قوانين قديمة ولا حديثة .

لم يكن محمد متعطشاً للدماء لمجرد التعطش للدماء ، فقد كان للأسير المشرك أن يختار بين أن يدفع الجزية أو يدخل في الإسلام ، وإن القرآن يقرر : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا

الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » ويقرر « لا إكراه فى الدين » .

فإذا ما اختار الأسير الإسلام ، أصبح له جميع الحقوق الروحية والدنيوية التى للمسلمين الآخرين ، وإن هذا الإجراء ولا شك فى صالح محمد ، ولم يعرف عن محمد ، لو استثنينا حادثة أو حادثتين ، أنه انتقم لنفسه من أعدائه المنهزمين .

ولو أنه جعل المثلة من تعاليمه لكان محافظاً على عادات زمنه ، وعلى ما كان عليه المسيحيون فى زمنه وبعد زمنه بكثير ، فإنه لما غزا الصليبيون الأرض المقدسة سنة ١٠٩٩ ، خلفوا وراءهم فى كل مكان الموت والدمار . بيد أنه لما رد صلاح الدين الصليبيين على أعقابهم لم يلجأ إلى وسائل الانتقام ، ولم يخرب المسلمون الممالك التى فتحوها ، كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون لهم من الممالك الأخرى ، فأينما وضعوا أرجلهم نشأ شىء جديد أسمى وأفضل مما كان قبلا ، لقد كانوا كالغيث الذى يخصب المكان الذى ينزل فيه ، وإن عصر الإحياء فى أوروبا ليرجع إلى أحفاد صحابة محمد الذين حملوا مشعل الثقافة بينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى ، لقد كان المجد الهندسى لدمشق وفاس وأشبيلية وغرناطة وقرطبة نتيجة غير مباشرة لما بدأه محمد عام ٦١٣ ميلادية .

وجد محمد ولا شك أن الحرب ضرورة ومجلبة للمغانم بعد ذلك ، ولكنه لم يكن أحد هؤلاء العرب المغيرين الذين كان حب الثأر طبيعة ثانية فيهم ، فلو أن قريشاً أعطته نصف فرصة لنشر دينه فى أمان لما طرأت فكرة الحرب على خاطره .

ولم يقاتل محمد أحداً حتى ذلك الوقت ، ولم يستعمل حتى يديه ، ولم يكن

له درأية (بالاستراتيجية) بفن الحرب أو بقيادة الرجال فى المعارك ،
وإن درايته الوحيدة بهذه الأشباء ترجع إلى أيام تصادم القبائل ، أيام
كان فى السادسة عشرة من عمره لما كان يحمل السهام لعمه ، ولم يكن له
جنود مدربون مجهزون بالعتاد ، وبالرغم من كل ذلك فقد كان يعلم أن
عليه أن يكون مستعداً للقتال إذا ما أراد أن يبقى على حياته وحياة دينه .
فلو أن قريشاً هاجمت المدينة وانتصرت لكان فى ذلك قضاء على الإسلام .
لذلك ابتدأ فى بعث السرايا فعلّمت الرجال الخروج للقتال كما عودتهم على
حمل الأسلحة ، وكانت هذه السرايا تحت إمارة حمزة وأبى عبيدة أحياناً ،
وأحياناً تحت إمرة محمد نفسه .

وإنه لمما يسترعى النظر أن محمداً على الرغم من جهله بالأمور الحربية
أظهر براعة فائقة وعبقرية عالية كقائد لكل غزوة أو مصادمة اشترك
فيها ، وكان باسلا أيضاً ، وعلى الرغم من سنه تقدم كان يحتمل المصاعب
التى يحتملها أصغر جنوده ، وإن ما قطعه محمد من مسافات شاسعة ،
وما قاتله فوق صحراوات بلاد العرب المحرقة لشاهد على أن قصص صرعه
مبالغ فيها على الأقل .

وعلى الرغم من السرايا والمصادمات مع العدو ، فإنه لم تقع موقعة
للثأر من قريش ، ولم تسقط فى أيدى المسلمين قافلة غنية . فكان محمد فى
حاجة إلى انتصار حاسم ليرفع من شأن المسلمين . وليملأ خزائنهم ، وكان
من الظاهر أن المكيين لا يبغون الدخول فى معركة فاصلة بعيداً عن
عاصمتهم ، ولم يكن محمد من القوة لينطلق بعيداً عن عاصمته ، فإذا لم يتمكن
من مفاجأة قريش فسيظل الموقف موقف انتظار وتريث . ولكى يتمكن

من ذلك كان عليه أن يلجأ إلى حيلة أخفاها عن المعجبين به ، وحكم بها على شانئيه .

ففي شهر رجب المحرم حيث كان من المسلم به بين العرب جميعاً تحريم الإغارة أو القتال ، بعث محمد عبد الله بن جحش من المدينة فى سرية مع ستة أو ثمانية رجال ، وكان الأمر الرسمى الذى صدر إليهم أن يرصدوا حول مكة والطائف ليروا ما يفعل الأعداء ، وكانت التعليمات السرية فى كتاب مختوم دفعه محمد إلى عبد الله بن جحش وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، فلما فض الكتاب وقرأه وجد أنه متروك له حرية أن يفعل ما تقتضيه الظروف .

أمدَّت محتويات هذا الكتاب عبد الله ببلاغ مدهش ألا وهو إمكان قتال أى قافلة لقريش يصادفها ، ولم يذكر فى الكتاب أن هذا الشهر حرام ، ولكن ماكان لعابد الأصنام السابق أن ينسى تقاليد شب عليها ، فأصدر عبد الله أوامره إلى أتباعه الذين رأوا أنها فرصة طيبة ليجمعوا أسلاباً دون أن يتعرضوا للمخاطرة ، وكان نتيجة هذا القرار أن وقعت قافلة عظيمة لقريش كانت تظن أنها آمنة فى الشهر الحرام غنيمة فى أيدى المسلمين .

كان الاستياء بسبب خرق هذا التقليد العتيق مخيفاً ، وكان الاعتراض حتى فى المدينة عظيماً حتى إن محمداً قال : إنه كان يعتقد أن عبد الله سيتريث قبل أن يبدأ فى العمل حتى ينقضى الشهر الحرام ، وقد رفض أن يستولى على نصيبه من الغنائم ليؤكد إنكاره للحادث .

ولن يعرف أحد حقيقة الأمر ، ولكن هناك أمرين :

الأول هو : هل كان محمد أمياً تماماً ؟ فإذا كان لا يستطيع أن يخط حتى أوامر قليلة فمن من أهله أو من صحابته يوثق به ليكتب هذا الأمر المشكوك فيه ؟ لو أن أبا بكر أو علياً أو حمزة كان يدرى ما كان فى ذهن محمد لاعترضوا على ذلك دون شك .

الثانى : أن رأى محمد عن الحرب كان سابقاً لأوانه ، فقد قال مرة : « الحرب خدعة » وقد قال مكيافيللى شيئاً كهذا بعده بتسعة قرون ، ونابليون بعده بألف ومائتى عام ، وقال بذلك اليابانيون من سنين قليلة مضت ، وقد كانوا جميعاً على صواب ، فإذا كانت الحرب وسيلة لغاية فلماذا نراوغ فى الوسائل ؟

وعلى كل حال لم يكن لمحمد فى ذلك الوقت شهرة مكيافيللى أو نابليون ، فلما هدأت الضجة الأولى فقد فعل شيئاً سيلجأ إليه كلما وجد حرجاً . إنه يوحى إليه ، وهذا الوحى يحمل إليه رأى الله فى الأمر الذى يقلق رسوله ، قال : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

وعلى الرغم من أن هذه الآيات قد برأت عبد الله بن جحش ، وأراحت ضمير محمد والمدنيين ، إلا أنها ما كانت ذات معنى للقرشيين ، فقد ضاقوا ، يوماً عن يوم ، بوقاحات مواطنيهم السابقين ، وابتدأت حمى الثأر ترتفع ، ولن يحتاج الأمر إلا إلى اليسير ليبعثوا حملة قد تؤدى إلى الحرب التى يبغيها محمد ليثبت وجوده . وقد وقع سريعاً هذا

الحادث اليسير الذى أدى إلى أبعد النتائج أثراً .

ففى أواخر سنة ٦٢٣ م علم محمد أن أبا سفيان سيمر بالقرب من المدينة فى طريق عودته من الشام بقافلة بها أكثر من ألف بعير ، يقوَّم ما فيها بعشرات الألوف من الدنانير ، فندب بين ٣٠٠ و ٤٠٠ رجل ، وكانت إبلهم سبعين بعيراً وبعض الجياد والبغال ، وقد قل عدد الرجال إلى ٣٠٠ رجل لما اكتشف أن بعضهم كانوا من غير المسلمين وما خرجوا إلا للسلب . لقد كانت قوة ضئيلة يرثى لها ، وكان أغلب رجالها لا تحميهم الدروع ، وكانوا يتعقبون بعيرهم ، وكان فرسان المسلمين الذين سيدوى صيتهم فارسين .

وعلم أبو سفيان عزم محمد ، فانحرف بقافلته عن الطريق الرئيسى ، واتجه صوب البحر الأحمر ، وتفادى بهذه المناورة كمين المدنيين ، وبعَّد ذلك مابينه وبينهم ، ولكى يضمن السلامة أوفد رسولا إلى مكة ليخبِر القوم أن محمداً قد عرض لقافلتهم .

وأخذ الرسول يعدو سريعاً ، وأخذت أقوال أبى سفيان له تتجسم فى مخيلته أثناء انطلاقه ، فما إن بلغ مكة حتى كان يهذى ، فألقى بنفسه من فوق جمله ، وانتصب أمام الكعبة فى وضع مؤثر ، ثم جدع أنفه وقطع أذنيه ، وهذا دليل مصيبة نازلة ، فاجتمع إليه أشراف القوم وقد تركوا أعمالهم ، فصاح الرجل والدم ينزف على ذقنه : « يا معشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه » .

وكان أثر هذا النبأ بالغًا غاية السرعة ، فما إن انقضت ساعة من الانذار حتى تجمع ألف مقاتل ، معهم سبعمائة بعير ، ومائة فرس ، يتحرقون إلى

الخروج للثأر لمن قيل إنهم قتلوا مع القافلة حتى لا يقولوا شيئاً عن سلب مابها من تجارة وفيرة . وكان أبو جهل على ما بلغ السبعين لا زال رجلا خفيفاً قوياً ، فكان أول من لبس عدة القتال ، وما كان يشك فى أنه خارج على الأقل ليتخلص من محمد ، ولم يأت ما يؤكد أن القافلة قد وقعت فى الأسر . ولكن ما كان هذا ليهمه ، فقد واتته فرصة للثأر وينبغى ألا تفوته . وصدر الأمر بالمسير قبل أن يسدل الليل ستوره .

تنتقل الأخبار بسرعة غامضة فى الصحراء ، فقد ترامى إلى محمد أن أبا سفيان قد أفلت بالقافلة ، وأن أبا جهل فى طريقه إليهم فى جيش كبير ، وعلى الرغم من عدم تكافؤ عدد القوتين ، فقد قرر محمد أن يخوض غمار القتال مخاطراً بمستقبله وسمعته ، بل وبحياته فى سبيل السيادة . وقد أظهر بعض رجاله رغم ذلك قلقاً .

كان عرب بلاد العرب قبل أيام الحروب الاسلامية المنظمة يحبون السلب ، ولم تكن فكرة القتل على الأخص محببة إليهم ، وكانوا يمقتون أن يُقتلوا أنفسهم ، ولكن محمداً رفع من روحهم وأكد لهم أن الله ناصرهم ، وكان لا زال هناك بعض من يظنون أنه من الأعقل الإبقاء على الرجال حتى يمكن الاستفادة منهم فى عمل أجدى نفعاً .

وسألوا محمدا : « وما جزاؤنا إذا استشهدنا » .

فقال محمد دون تردد : « الجنة ! قطرة دم يهراق فى سبيل الله ، ورباط ليلة خير من صيام وقيام شهرين . ومن قتل فى سبيل الله يكفر عنه خطاياه ويأتى يوم القيامة وجرحه يثعب ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، ومن فقد عضواً من أعضائه عوضه الله بأجنحة الملائكة » .

بدل هذا القول الحكيم أفكار أول جيش إسلامى منظم ، ففعل أقصى ما يتصوره العقل فى إظهار البطولة ، والغض من المتاعب ، بل والاستخفاف بالحياة نفسها ، كما لم يفعله أى أمريومى لقائد ، أو تدريب متواصل ، أو أى وعد بجزاء دنيوى ، فقد غرس هذا القول مثلا أعلى فى عقول عرب محمد ، وسيستمر هذا المثل دوامًا ماثلاً أمامهم ، فأصبحوا ينظرون إلى الموت نظرتهم إلى مخلصهم من آلام الدنيا وحزنها بدلا من أن يخافوه .

ولكن محمداً لم يقيد نفسه فى صباح يناير من سنة ٦٢٤ بوعد مقدس . كان يعرف أن الله معه ، ولكنه كان يعرف أيضاً أن العون أجدى لو كان هناك تعاون .

وكان المكان الذى تقرر الثبات فيه للقتال بوادى بدر ، وبدر سهل رملى يحده من الشمال والشرق تلال شديدة الانحدار ، ومن الغرب كثبان رملية ، ومن الجنوب منحدر صخرى منخفض ، وينساب فى الوادى جدول ماء من الشرق إلى الغرب ، وينقطع هذا الجدول هنا وهناك فيصبح آباراً فأحاطها المسافرون بسدود ، فصارت أحواضاً . فقرر محمد أن ينزل جيشه أدنى ماء من العدو ، فأصبح بذلك مسيطراً على موارد المياه ، وللمياه أهمية حيوية فى الصحراء فى السلم والحرب على السواء .

ومر النهار فى هدوء ، وعرف من بعض كشافة جيش مكة الذين وقعوا فى الأسر أن العدو قد نزل على بعد أميال ، وعرف عدته . فلم يفت هذا فى عضد محمد ، وقضى ليلته يصلى لربه فى العريش الذى بناه له أصحابه بالقرب من الماء .

فلما أشرقت الشمس على الصحراء الذهبية ، انساب جيش مكة الذى كان بقيادة أبى جهل فى الوادى وسوى صفوفه على بعد رمية قوس من جيش محمد . وكانت معارك العرب فى هذه الآيام تختلف عن الملاحم الدموية التى خاضها المسلمون لما غزوا العالم ، فقد كانت معارك صغيرة ، وكانت تعلن جهاراً ، وكانت أقرب إلى ما حدث فى حصار طروادة .

كانت المعارك تبدأ بأن يبرز من بين الصفوف أبطال صناديد يحطون من شأن عدوهم ، ويسردون فعال قوادهم ، ثم يطلب كل منهم آخر لنزاله ، ثم تبدأ الخطوة الثانية فى المعركة بابتداء النزال الفردى ، وتبدأ الخطوة الثالثة بالزحف العام ، واختلاط الجيشين وضرب كل عدوه . وقد اتبع هذا فى وادى بدر فقد برز عتبة ، حمى أبى سفيان ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد من صفوف قريش وعليهم الدروع ، وقد حملوا سيوفهم وراحوا يلعنون فى جنون المسلمين الذين كانوا يواجهونهم ، فخرج إليهم فتية من أبناء المدينة وأعلنوا استعدادهم لقتل الكفرة أو الاستشهاد والاستمتاع بجنات النعيم ، ولكن المكيين اعترضوا على ذلك لأنهم لم يقبلوا ويقطعوا كل ذلك الطريق ليغمسوا سيوفهم فى فتيان ما لهم بهم من حاجة ، إنهم يريدون رءوس أبناء عمومتهم طريدى مكة ، إذا ما قبلوا هذا التحدى .

ويجب ألا يغيب عن البال أن هذه المعركة كانت معركة ثأر ، وكانت شريعة السن بالسن مبجلة فى ذلك الأوان ، ولم ينتشر بعد المذهب السياسى للمعارك ، فإذا ما أخذ آخذ بثأره ، فإنه كان يترك باقى المعركة لتقرر مصيرها بنفسها ، أو ينخلى عنها وهى فى منتصفها .

فما إن انتهى القرشيون من تعييرهم حتى برز من صفوف المسلمين ، عليّ يتألق فى درعه وخوذته ، وتبعه عبيدة بن الحارث ابن عم لمحمد ، وحمزة وكان واضعاً ريشة نعامة فى قلنسوته ، وبذلك كان الصناديد الثلاثة من أقرب أقرباء محمد ، وإنهم لأكفاء لإطفاء عطش قريش إلى دماء الهاشميين .

كانت المبارزات الثلاث سريعة كما كانت قاتلة ، فلم يمهل حمزة شيبة ، ولا أمهل على الوليد أن قتلاهما ، وخلصت إلى عبيدة جراح قاتلة ولكن قبل أن يسقط أسرع حمزة وعلى لنجدته ، فأسرع حمزة إلى عتبة ، وأطاح رأسه بضربة من سيفه ، فلاقى فى ثلاث دقائق ثلاثة من أعظم محاربى مكة حتفهم ، وذهبوا ليجدوا حقيقة الجحيم التى توعدهم محمد بها .

خرج من لواء أبى جهل ثلاثة آخرون من المكيين وهم يصيحون صيحة الغضب ، وهاجموا صناديد المسلمين ، ولكنهم سقطوا مجدلين تحت سيوف الإسلام ، وقد لاقى ثلاثة آخرون نفس المصير ، وسيطرت فترة تردد على معسكر القرشيين ، فلم يفوتها محمد ، بل أمر جنوده بالزحف وبدء الهجوم العام .

وابتدأت الخطوة الثالثة للمعركة العربية ، وعلى الرغم من أن عدد القرشيين كان ثلاثة أضعاف عدد المسلمين إلا أن المسلمين كانوا الأعلين لبعد نظر محمد ، فقد كان الماء معهم ، بيد أن المكيين كانوا يحاربون تحت شمس صحراء بلاد العرب المحرقة دون أن يكون فى مقدورهم أن يرووا غلتهم إلا بالتقهقر إلى المؤخرة حيث متاعهم وإبلهم ، وإن القليلين الذين حاولوا الوصول إلى ماء بدر سقطوا صرعى تحت سهام المسلمين .

وراح محمد وأبو بكر يرقبان المعركة من فوق تل ، وكان حتى هذه

اللحظة التى بدأ الهجوم العام فيها هادئاً قابضاً على زمام نفسه ، ولكن مرت به حالة من التهيج جعلته يفقد وعيه ، فلما عاد إلى نفسه ، برقت عيناه غبطة ، وتناول حفنة من الحصباء واستقبل بها الأعداء ، وصاح : « شاهت الوجوه » .

وهنا امتطى فرسه ، ونادى حارسه ، ثم اندفع إلى المعركة يتبعه أبو بكر .

وإن الذين يعتقدون فى المعجزات يقولون إن شيئاً غير عادى قد وقع فى هذه اللحظة ، فإن جيشاً من الملائكة على رأسه جبريل قد استجاب لنداء محمد ، وشاركوا المسلمين فى قتالهم ، وندع هذا ليكون كما يكون ، فإن ما حدث كان عظيماً دون تدخل من الملائكة .

فما ألقى محمد الحصباء حتى هبت فجأة عاصفة من العواصف الشديدة التى تهب فى الصحراء وأقبلت الريح المحرقة من وراء محمد مباشرة ، وراحت تهب كنار كور فى عيون الأعداء ، لقد نال التعب والعطش من قريش ، ونال من روحهم المعنوية فتك المسلمين بهم ، فاتخذوا خطة الدفاع ، وقد زادت العاصفة فى إحجامهم ، وقد أربكهم دعاء محمد على الكافرين وصيحاته المدوية المحرضة للمؤمنين به الذين أصبحوا تواقين للثأر من أعدائهم ، ويرجع عدم تسليم العدو من فوره إلى أبى جهل .

لم يكن أبو جهل ليفكر فى التسليم ، فراح يصيح صيحات مدوية كما يفعل محمد ، وراح يلكز فرسه ليخوض معمعان المعركة ، فرآه قواد المسلمين فراحوا يقتربون منه ويضيقون عليه ، وقد كان محارباً يخشى بأسه على الرغم من سنه ، فقد قتل عدداً من مقاتليه وهو يطوح بسيفه

قبل أن يسقط عن راحلته ، فألقاه عبد الله بن مسعود على الأرض ووضع رجله على صدره ، ولم يمنع هذا الرجل الشيخ من أن يصب اللعنات على محمد وأشباهه ، ولم تتوقف لعناته حتى فصل عبد الله بن مسعود رأس أبى جهل عن جسده ، وحمل الرأس إلى محمد ، فنظر محمد إلى الرأس الملطخ بالدم فى غبطة ، وانسحب من المعركة ، وترجل عن فرسه وخر ساجداً .

وصاح : « الله الذى لا إله إلا هو ، الحمد لله الذى أخزى أبا جهل ، وسيخزى الله أعداءه » .

وانتشر خبر قتل سيد قريش سريعاً ، فدب الذعر فى الصفوف ، وفى دقائق معدودة كان القرشيون يلقون بأسلحتهم وأسيافهم ويفرون يطلبون النجاة ، وقد كان فرارهم سريعاً ، وكان الجهد قد نال من المسلمين حتى إن الكثيرين قد نجوا من الأسر .

وكان أمية بن خلف فى الأسرى ، ولم يكن بينه وبين أحد ضغينة ما إذا ما استثنينا عبده السابق بلالًا . هدأ المسلمون بعد أن كسبوا المعركة فراحو يتحدثون وجيرانهم السابقين ، ومرّ بهم بلال ، فما إن وقعت عينا بلال على معذبه الذى كان يخرجه إلى رمضاء مكة حتى ثار وصاح فى المحاربين الذين بان عليهم التعب : « رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا » وحاول بعض المسلمين أن يتوسطوا للسكى ، ولكن بلالا العبد العنيد رفض وقال : « لا » فهمس أحد الجنود فى أذن أمية : « انج بنفسك » فأسرع أمية يطلب النجاة ، واقتفى بلال أثره كالبرق الخاطف ، وكان السباق قصيراً ، فقد كان أمية فى متوسط العمر يميل إلى السمنة ، وكان بلال خفيفاً يعتلى سطح المسجد خمس مرات فى اليوم ليدعو الناس إلى

الصلاة ، فلما أمسك بلال به صاح من كان يعذبه صيحة منكرة . ثم حشرج حشرجة الموت لما طعنه بلال بسيفه . وسوى الحساب القديم ، وليتأكد بلال من تسويته حز مؤذن الإسلام الأول رأس سيده السابق ، وألقى به تحت أقدام سيده الجديد .

وكانت هذه إحدى تسويات الثأر الكثيرة فى ذلك اليوم ، وكانت آخرها . ونادى محمد رجاله وأمرهم أن يجمعوا الموتى فقد كان الجو حاراً وكان من الواجب دفنهم ، وكان بين القتلى ١٤ مسلماً فقط وسبعون مكياً ، وكان هناك أيضاً أربعه وسبعون أسيراً ، ورقد المسلمون الشهداء ليلحقوا بأرواحهم فى جنات النعيم ، وعومل المكيون كمشركين فدفع بهم إلى قليب لينتظروا عذاب الجحيم .

• وجاء أوان تقرير مصير الأسرى ، فكان عمر يرى ضرب رقابهم جميعاً ، وكان أبو بكر يحس قد أنه وقع تقتيل كثير فى ذلك اليوم ، وكان حمزة وعلى منهوكين فلم يهتما بالأمر ، فأقر محمد حكم أبى بكر ، ولم يُقتل بأمر النبي إلا أسيران ، أحدهما كان شاعراً يهجو محمداً طوال السنين التى كان يحاول فيها إثبات رسالته فى مكة ، والآخر كان رجلا قد هاجمه يوماً هجوم جبان لما كان يصلى خارج الكعبة .

وقد حلت مسألة الأسرى الآخرين بأن أطلق سراح فقرائهم ليعودوا إلى مكة بعد أن أقسموا ألا يحاربوا محمداً ثانية ، وقد دخل فى الإسلام بعض من أقسموا هذا القسم .

أما الأغنياء فقد خيروا بين الأسر أو الفدية ، وكان محمد وأصحابه يقدرون فدية كل أسير ، وكان العباس عم محمد من الذين ادعوا الفقر المدقع

وكان العباس نهازاً للفرص ، ويمتاز بروح الدعابة ، وإن الدارس لشخصيته ليجده دواماً فى أثناء المعركة الدائرة بين محمد وقريش مبتعداً مترقباً ، يوائم فعاله حسب مد الحوادث وجزرها . فقد صحب ابن أخيه لما قابل وفد المدينة ، وقال لهم إنه يعتمد عليهم فى حماية قريبه ، وإن هذا لم يمنعه من أن يحارب قريبه هذا لما واتت الفرصة ، ولم يمنعه من الاحتجاج على أن يعامل معاملة أسير عادى ، وقد ادعى الفقر لما حددت فديته .

وكان محمد يحب عمه ، وكان عدم استقراره يسليه ، فلما ابتدأ العباس يتحدث عن فقره ، عاد إليه محمد سريعاً وقال : « فأين المال الذى دفعته لأم الفضل ؟ »

وكان أبو العاص ، زوج ابنة محمد ، أسيراً آخر يهم محمداً أمره ، ولم يكن أبو العاص يحمل لحميه أية ضغينة ، ولكنه ما كان يعتقد بأنه رسول الله ، وقد ظلت هذه آراؤه حتى بعد الأسر ، وقد أطلق محمد سراحه دون فدية مقابل وعده ببعث زوجه إلى المدينة ، وقد وافق أبو العاص على ذلك ، فبعث محمد زيداً إلى مكة للعودة بزينب ، بينما بقى زوج ابنته معه كرهينة .

وقد عومل الأسرى الآخرون حسب دخولهم . وقد أثار تقسيم الغنائم والأسلاب من الأسلحة والإبل التى خلفها العد وعدة مساجلات ، وقد توجه محمد إلى ربه فأوحى إليه بطريقة لتنظيم الغنائم ، واستمرت هذه الطريقة طالما كانت جيوش المسلمين تغير على العالمين .

وهكذا انتهت أول معارك محمد الأرضية ، فكانت نصراً تاماً وتأييداً لمحمد كقائد ، كما أمدت الإسلام بالتألق الذى كان ينقصه حتى اليوم ،

وقد حرضت القبائل على اعتناق هذا الدين الذى يكافىء من يبقى على قيد الحياة مكافأة دنيوية ، ويكافىء الشهداء مكافأة روحية ، كما أرضت محمداً نفسه كل الرضى ، فقد أحس أكثر مما أحس فى أى وقت مضى أن ما يدافع عنه هو الحق ، وقد أحس أكثر من أى وقت مضى أن صبره خلال الأيام السود فى مكة كان صواباً .

وقد ظلت معركة بدر فى ذهن محمد كذكرى عظيمة ، فخص الثلاثمائة الذين قاتلوا القرشيين معه بمنزلة خاصة ، ففى خلال حياته ، وبعد موته بكثير ، كانت تقبل شفاعة أهل بدر فى تخفيف عقوبة أو مؤاخذة ، ولقد كانوا يستحقون ذلك فهم الذين صهروا الأسلحة التى ستحمل الإسلام إلى ممالك كثيرة فى العالم وهم الذين اختبروها ، وإنه فى خلال القرون القادمة سيسمع السوريون والفرس والمصريون والبربر والروم والأسبان والهنود والصينيون وأهل الملايو والروس والترك ذلك الهتاف الذى انطلق من حناجر الصناديد الثلاثمائة لما حملوا على ماء بدر :

الله أكبر . الله أكبر .

الفصل الحادى عشر

اليهـــود

(٦٢٤ م)

لم يسمع ناس كثيرون بغزوة بدر ، فليس هنالك من سبب يدفعهم إلى ذلك ، وما كانت هذه الغزوة فى نظر العسكرى اليوم وحتى فى نظر فارس واليونان والرومان أكثر من مناوشة حربية ، ولو كان هناك جرائد فى آسيا الصغرى فى القرن السابع لما كتبت الصحف انتصار محمد فى رأس الصحيفة ، وعلى الرغم من كل ذلك فإن أثرها فى التاريخ الإسلامى يساوى فى أهميته انتصار قسطنطين على ماكسنيتوس على جسر ملفيان أو هزيمة أتيلا فى شالون ، وما كان لقتلى قريش ولا للأسلاب والغنائم ولا لقتل أبى جهل أهمية وقتية فى ذاتها ، فما كان هناك دروس ستراتيجية أو تكتيكية ، وما كان هناك بطولة نادرة ، ولكن ما فعله الانتصار كان أكثر أهمية من أية مكاسب مادية : فقد سمح لمحمد أن يلتقط أنفاسه ، وأتاح له فرصة أن يقول : « لقد قلت ذلك ! » لا لتابعيه ومريديه فحسب ، بل ولنفسه أيضاً .

كان محمد فى حاجة إلى التعضيد ، وكان يحتاج إليه الآن أكثر من أى وقت مضى ، وأكثر من أى نبى آخر ، فقد مات عيسى وبولص فى وقت تعذيبهما ، فلم يبلغا تلك النقطة الحرجة حيث قد كسبا قضاياهما

جزئياً ، وكان عليهما أن يبرهنا على صدق رسالتهما . وما كان لهما مثل هذه الفترة التى لم يبلغا فيها الذروة كما حدث لمحمد عقب هجرته من مكة ، فلو أن محمداً لم ينتصر فى بدر ؛ أو لو أنه قد هزم فيها لكان من العسير عليه أن يستمر فى رسالته وقد علم أنه ما دام قد قلب المائدة على المتهكمين وجب عليه ألا يكتفى بذلك، فعليه أن يتابع نجاحه وأن يستمر فى سيره قدماً.

وقد عكر صفو لحظات الانتصار الأولى موت رقية ، فما أحست بالعافية مذ عودتها من هجرتها إلى الحبشة ، فقد كانت فى حالة من الضعف فى صبيحة يوم الغزوة ، حتى إن زوجها عثمان بقى بجوارها بدلا من الخروج مع الخارجين ، وقد فاضت روحها فى نفس الوقت الذى كانت فيه كتائب قريش تنهزم أمام الاكتساح الإسلامى .

كان أبناء خديجة شيئاً كثيراً بالنسبة لمحمد ، فكان يلاحظ فى كل علاقاته بهم حدب أبوى لا يتفق وتحرض على الحروب الدينية ، وكان موت رقية مبعث حزن ثقيل لأبيها ، ولكن خفف من وقعه وصول زيد بعد ذلك من مكة فى رفقة زينب ، وقد جاء زيد أيضاً بخبر سار ألا هو حزن الشيخ الشرير أبى لهب عم النبى لانتصار ابن أخيه حزناً قضى عليه بعد سماع النبأ بساعات قليلة .

وراح محمد يذكر الناس بلعنته التى لعنها أبا لهب فى أثناء أيام التعذيب الأولى ، وقد تمكن ثانية من أن يفخر باستجابة دعوته لما فتك أسد بعتبة ابن أبى لهب الذى طلق رقية وأكله أثناء كان يقود قافلة إلى سوريا .

وعلى ذلك ، لو استثننا موت رقية ، فإنه ليظهر أن كل شىء كان يعمل لصالح محمد ، فمعه جماعة من الصحابة راضية ، وقد ذاق طعم الأخذ

بالثأر اللذيذ ، بينما كانت سمعته عالية بين القبائل المحلية ، وكان اليهود القوم الوحيدين الذين لم يقدروه ، وكانوا فى الواقع يبذلون ما وسعهم البذل ليعارضوا نجاحه . فبدلا من أن يشيدوا بانتصاره راحوا يقللون من قيمته ، وقد فعلوا ذلك فى دورهم وفعلوه جهاراً ، وقد سخروا من الوحى ، واستفادوا من سماح محمد لأى إنسان بالدخول إلى المسجد فراحوا يسخرون من صلاته ، وقد اعترضوا على أصالة ما جاء به القرآن ، وجاءوا بالإنجيل ليثبتوا كيف أن القليل من أحكامه كان أصيلا ، وكتبوا هجاء فيه وفى المسلمين ، وذهب بعض صغار اليهود إلى إلقاء الحجارة عليه ، كما حاولوا اغتياله .

وعلى ذلك ، فقد أحس المسلمون أنهم يصبرون على الضيم فى المدينة . كان اليهود فى تلك الأيام ، وكما هم الآن ، يسيطرون على المصارف المحلية ويقرضون عملاءهم ، فلما تحسنت أحوال المهاجرين هبط عليهم اليهود وراحوا يبتزون ما عندهم ابتزازاً .

وقد يسأل سائل : ماكان يفعل اليهود فى هذه البقعة التى تبعد مئات الأميال عن وطنهم ، ولماذا كشفوا عن هذا المقت الخاص لمحمد والمسلمين؟ وإن الجواب لبسيط .

إن خلقاً كثيراً ليعتقدون أن طرد اليهود من فلسطين له علاقة ببريطانيا العظمى أو بابن السعود ، أو بأدولف هتلر . وهذا خطأ كله ، فقد كان اليهود منذ أزمان سحيقة عرضة دائماً للطرد من وطنهم الذى استولوا عليه أصلا بالقوة . ولنذكر بعض الذين طردوهم ، فهناك سرجون الثانى سنة ٧٢٢ ق . م ، وبختنصر سنة ٥٨٦ ق . م وبومباى سنة ٦٣ ق . م

وطيطس سنة ٧٠ ميلادية ، وطردهم هادريان طرداً نهائياً سنة ١٣٥ م ؛ ولا يوجد بفلسطين اليوم إلا ٦٥٠٫٠٠٠ من الخمسة عشر مليوناً المنتشرين فى العالم .

فكلما وقع اضطهاد لليهود ، رحل المضطهدون إلى ممالك أخرى ، وقد تغلغل كثير منهم فى جزيرة العرب ، فإنه بعد أن نهب طيطس بيت المقدس استولت ثلاث قبائل قوية على المدينة أو يثرب كما كانت تسمى ، هذه القبائل هى بنو قينقاع ، وبنو قريظة ، وبنو النضير ، وحولوها إلى معقل زراعى ، ومنذ ذلك الوقت شب النزاع واستمر بين اليهود والقبائل العربية المحلية التى صارت فيما بعد بنى الأوس وبنى الخزرج ، واستفحل القتال فى خلال السنوات السابقة للهجرة مباشرة ، وانتهى فى سنة ٦١٨ م بموقعة دامية فى مكان يعرف بالبواط . ثم قررت الأحزاب المقاتلة بعد ذلك أنه من الأحكم تناسى الاختلافات فى الرأى . وقد تقرر تبعًا لذلك تناسى المنافسات والثأر تحت إمرة زعيم عظيم . وكان عبد الله بن أبىّ العربى الرجل الذى انتخب لهذه المهمة . وكان صديقاً لليهود ، ولكن قبل أن يثبت التعيين ظهر محمد وأصحابه ذوو الثياب الرثة فبدلوا كل شىء .

لم يقدر عبد الله بادىء الأمر المنافسة التى تهدده ، فما كان يعتقد فى محمد وما كان يحترم أوامره ، وعلى ذلك لم يتردد فى أن يتكلم بما يخطر له . وكانت وجهة نظر محمد لا تختلف كثيراً عن ذلك ، فما كان يقدر عبد الله حق قدره ، وكان محمد يحب أن يعيش فى سلام مع جيرانه فما كان فى حالة الأخذ بالثأر بعد . وقد زال وهمه بعد انتصاره على المكيين بأسابيع قليلة فقط ، فقد كان يوماً على ظهر حماره يخترق الواحة . فرأى عبد الله

وجماعة من أصحابه جالسين فى ظل جدار من الطين ، فنزل محمد عن حماره وشارك الجمع مجلسهم ، فبعد أن تبادلوا التحية العادية ، ابتدأ محمد فى الحديث عن الإسلام ، وما كان عبد الله وأصحابه من المتعصبين الذين لا يضبطون عواطفهم كالقرشيين ، فإنهم قد استمعوا إليه فى لطف حتى انتهى من مقالته ، فقال عبدالله فى أدب ولكن فى غلظة : إن ما قاله محمد كان مسلياً ولكنه كان لسوء الحظ بعيداً عن الصدق ، وأضاف إلى ذلك أنه من الأفضل أن يستقر محمد فى جزئه من الواحة وأن يهتم بشئونه ، وقد أكد له أنه لو فعل ذلك لتفرغ باقى المدينة لأعمالهم .

انزعج محمد من هذه الظاهرة ، وربما قد غضب قليلا ، ولكنه لم يشأ أن يقطع الصلات باليهود الذين أغروا عبدالله على أن يتكلم بهذه الطريقة ، وقد عقد محمد معهم عهداً ينص بجوار أشياء أخرى على أن يتعاون المسلمون واليهود فى جميع الشئون المتعلقة بالمدينة ، وقد نص على أن يكونوا حلفاء فى وجه أى عدو مشترك دون أى التزامات متبادلة نحو الإسلام أو اليهودية ، وكان نص الشرط الأساسى فى الوثيقة :

« . . . وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المسلمين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، ويهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى ثعلبة وبنى الأوس ومواليهم وبطانتهم كبنى عوف سواء »

ولكن على الرغم من هذا الاذعان قد ظل محمد يقول إنه النبى الموعود لليهود ، بينما اليهود كانوا يؤكدون أنه ليس هو . إذ كيف يعترفون

أنهم كانوا على خطأ لما زعموا أن مخلصهم من بنى جنسهم ؟

إن الحكومة التى يعترف بها بنو إسرائيل حكومة إلهية ، ومعنى ذلك أنها حكومة يحكمها الرب نظرياً ، ومعناها عملياً أنها حكومة على رأسها فرد يمكنه أن يقنع رعاياه أنه المعبر المرسل عن إرادة الله ، وما كان اليهود ليحسوا أن أى أعرابى يمكن أن يكون ذلك الترجمان .

وقد أدت مقاومة اليهود العنيدة هذه ، ولو أنها منطقية ، ورفض عبد الله بن أبىّ المهادنة ، وذم المسلمين ، والوقاحة العامة فى معاملتهم ، إلى معركة مكشوفة بين المدينة الجديدة والمدينة القديمة .

وكان تغيير القبلة أول مظهر رسمى للشقاق ، والقبلة هى تجويف فى الجدار أو عقد يشير إلى الاتجاه الذى يولى المسلمون وجوههم شطره فى صلاتهم ، وهى أول ضرورة هندسية لكل مسجد أو بيت إسلامى . وإن البدو هم المسلمون الذين لا قبلة لديهم ، وهؤلاء لهم قدرة عجيبة على التوجه إلى المكان الذى كانت تشير إليه القبلة لو كانت لديهم قبلة .

وفى مرة من المرات ، لما فقدتُ فى الصحراء فى ليالٍ تلبدت سماؤها بالغيوم ، وعرفت اتجاه معسكرى بالبوصلة ، ولكن لم يكن لدىّ دليل آخر للتأكد من صحة الاتجاه ، وجدت أعرابياً وطلبت منه الوقوف فى اتجاه صلاته ، ولما كان مسكنى نحو الشرق فقد تمكنت بهذا الإرشاد من أن أمتطى راحلتى وانطلقت آمنا حتى بلغت خيمتى .

كانت قبلة محمد نحو الشمال شطر بيت المقدس حتى اختلف واليهود ، ولم يكن هذا التوجه لإرضاء اليهود كما ذكر أحياناً ، فقد كان بيت المقدس قبلة المصلين فى أيام التعذيب بمكة ، كان بيت المقدس قبلة

المسلمين لأن محمداً كان يعتقد أنه مركز جميع الديانات التي جاءت بالتوحيد ، ولأنه مدينة العالم المقدسة ، فلما رأى الفعال التي تجرى في القسم العبرى من الجزيرة ، انتهى بعد تردد إلى أن اليهود لا يبغون مهادنته ، فقرر أن الوقت قد حان لإجراء تبديل .

وفى صبيحة يوم من أيام نوفمبر سنة ٦٢٣ م ، بعد أن صلى محمد ركعتين شطر بيت المقدس ، ولما كان فى منتصف صلاته ، بدل اتجاهه صوب الجنوب ، فاتجه المصلون حيث اتجه ، فأصبحت مكة وكعبة إبراهيم وإسماعيل مرة أخرى حرم هؤلاء العرب المهاجرين ومضيفيهم من أهل المدينة ، ومن ذلك اليوم أصبحت كل قبلة من مراكش إلى منغوليا مارة بطريق جزيرة العرب والهند والملايو والجزر الهندية تشير إلى مكة ، وإن كل مسلم فى نيويورك أو فى زنزبار أو سيراليون أو لندن لييمم وجهه شطر البلدة الحرام بصحراء بلاد العرب خمس مرات فى اليوم ، وإنها لفكرة رائعة .

ولم يخطر على بال أى زعيم دينى آخر أن يوحد قومه بمثل هذه الطريقة ، فالصلاة ليست مقيدة بمثل هذا فى أى ديانة أخرى ، ويمكن القول ، دون مبالغة ، أن هناك مسلمين فى أى ساعة من ساعات النهار فى أى مكان ما يوجهون أفكارهم وعيونهم قبل ذلك الحرم المقدس المعرض للشمس فى الصحراء الجرداء .

وهناك ناس كثيرون ، وعلى الأخص رجال المسارح ، يتصورون أن للشرق دلالة دينية عند المسلمين ، فالشرق فى نفسه ليس له أى دلالة دينية ، والأمر يتوقف على موقع المكان الذى فيه المسلم بالنسبة لمكة ،

فإذا ما كان من رجال البدو فإنه يصلى ووجهه نحو الشرق ، وإذا ما كان باريسياً فالجنوب الشرقى هو الاتجاه لصلاته ، أما إذا كان من سكان جزر الملاديف فى المحيط الهندى فاتجاه قبلته هو الشمال الغربى ، وقبلة البنجابى غرباً ، ويختلف الاتجاه حتى فى مكة نفسها ، فالحجيج يتجه جميعه نحو الكعبة ، وفى ذلك اليوم من شهر نوفمبر يمم المصلون قبل الجنوب .

انتشر نبأ نبذ محمد فكرة التفاهم الدينى واليهود رسمياً انتشاراً سريعاً ، وكان الجو متوتراً ، فكان محمد ورجاله فى كفة ، وعبد الله بن أبىّ فى الكفة الأخرى ، ولم تطل فترة انتظار الفعال ، فقد كان اليهود البادئين بالعدوان وكان المسلمون البادئين بالأخذ بالثأر .

كرهت امرأة تسمى عصماء بنت مروان الإسلام ، ومحمدا على الأخص ، فقد كانت تعتبره مقلقاً للسلام ، وكانت موهوبة فى الشعر فكتبت هجاء قاذعًا فى نبى الإسلام وفى هؤلاء الذين يعتقدون فيه ، ولما كان الساميون يحفظون الشعر فى يسر ، فراحت كلمات عصماء تتردد فى فترة قصيرة فى شوارع المدينة وحدائقها ، فغضب المسلمون الذين كانوا فى حالة لا تسمح بالسخرية منهم ، فسر ذلك عصماء وأصدقاءها ، وتكرر الهجاء وأصبح هجاء شخصياً ، وراح أعداء محمد ينتظرون كل يوم شعراً جديداً يقدح فى هؤلاءِ المتعصبين شاربى الألبان ، وقد غاب عنهم أن شاربى الألبان هؤلاء قد يصبحون أيضاً ممن يسيلون الدماء ، ولم يمض عليهم طويل وقت حتى تيقنوا ذلك .

ففى ليلة من الليالى ، لما انتهت عصماءُ من هجائها الشعرى اليومى ، ونامت على حصيرها ، زحف رجل مسلم يدعى عمير إلى دارها ، وقد

كان أعمى ، فكان لذلك من الميسور عليه أن يتحرك فى الظلام ، فلما بلغ عصماء وجد أن ابنها بين يديها ، فنحاه عنها ثم وضع سيفه فى صدر المرأة النائمة فى قسوة حتى ألصقها بالأرض ، فلما سمع محمد بما فعله عمير ذهب إلى المسجد ، وخاطب المصلين وهو يشير إلى عمير : « من سره أن ينظر إلى رجل نصر الله ورسوله فلينظر إلى هذا » .

ولقد وضحت بجلاء السياسة التى ستتبع نحو اليهود ، وقد انتظر المسلمون فقط أن يبدأ أعداؤهم الزحف الثانى ، وقد جاء سريعاً .

وكان هناك رجل هرم يدعى أبو عفك ، وكان يقرض الشعر أيضاً ، وكان هدفه محمداً ، وقد كلفته هذه السقطة حياته ، وما كان عند محمد القدرة التى يمتاز بها العرب فى سهولة قرض الشعر ، وكان الشعر يضايقه حتى إذا لم يكن هجوا فيه ، وقد قال على طريقة هنرى الثانى ملك انجلترا : « من لى بأبى عفك » .

لم يكن هناك فرسان نرمنديون ليدنسوا كنيسة كانتربرى بدماء رئيس الأساقفة ، بل كان هناك أعراب لا يقلون عنهم جرأة ليدفعوا بأسيافهم فى صدر الشاعر الهرم .

لقد زادت هذه الاعتداءات فى حقد عبد الله بن أبىّ وأعوانه على المسلمين ، وأضافت خوفاً إلى عداوة اليهود ، ولكنها لم تبدل من اتجاههم أو من معارضتهم لمحمد .

خرق بنو قينقاع الذين كانوا ينزلون فى معقل خارج المدينة المعاهدة المبرمة بينهم وبين المسلمين بطريقة ما ، فدعا محمد رؤساءهم وقال لهم جزاء لما فعلوا ، إما أن يقبلوه كنبيهم أو يتحملوا نتائج أعمالهم . فاستخف

اليهود بوعيده وقالوا : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنّا نحن الناس».

أخذ محمد بهذا التحدى فلم يعمل فى الحال ، ورأى أنه من الأفضل أن يتريث حتى يعتدى اليهود اعتداء آخر قبل أن يضربهم ضربته .

ولم يأبه اليهود مرة أخرى بوعيده ، فقد كانت امرأة من العرب جالسة فى حانوت رجل من بنى قينقاع تنتظر من يتقدم ليلبي طلبها ، فجاء يهودى طائش من خلفها فى غفلة منها فأنبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، ولما كان نساء العرب فى ذلك الوقت ، وكما هو حالهن الآن لا يلبسن سراويل تحت ثيابهن الساترة الفضفاضة ، فإنها لما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فارتدت إلى حانوت اليهودى وقد علا وجهها حمرة الخجل ، وفى نفس الوقت سحب مسلم كان حاضراً سيفه وعلا به يهودياً من الساخرين وقتله ، وقبل أن يتمكن من قتل آخر ، كان قد قتل .

لم يتردد محمد بعد ذلك ، فقد جمع رجاله تحت الراية البيضاء التى حاربوا تحتها يوم بدر ، وانطلق إلى معقل اليهود ، فانسحب بنو قينقاع إلى معاقلهم وأغلقوا الأبواب ، فحاصرهم محمد ليقضي عليهم جوعاً ، وقد استغرق الحصار أسبوعين ، سلم بعدها اليهود ، فأخرجهم محمد وقد كانوا حوالى أربعمائة رجلٍ وقد أوثق أيديهم خلف ظهورهم ، وبنفس الإلهام الذى ألهم إيليا أن يذبح الأربعمائة وخمسين راهباً من بال عند نهر كيشون حوالى سنة ٩٠٠ قبل الميلاد ، أمر أن تطاح رءوس الأسرى جميعاً ، ولكن فاته إنفاذ ذلك .

لقد سمع عبد الله بن أبيّ بما حدث فأسرع إلى حيث كان محمد وتدخل لصالح اليهود ولقد كان قويًّا فلم يشأ محمد أن يتحداه علناً ، فأنقذ حياة المحكوم عليهم بالموت ، ولكن كان على بنى قينقاع أن يجلوا عن المدينة ، فخرجوا من دورهم وراحوا يضربون فى الصحراء ، وأخيراً هاجروا إلى سوريا . وقد صادر محمد ورجاله جميع ممتلكاتهم ، وكان فى سهم محمد من الغنائم أسياف قديمة ، وقوس عظيمة ، ودرع فضية أهداها شاول إلى داود حين خرج لقتال جالوت .

ولكن بينما كان من الواضح لأبسط يهودى عقلا أن محمداً كان فى حالة لا يتحمل معها أى وقاحة أخرى ، ظهر شاعر حاول أن ينجح فيما أخفق فيه سابقاه القتيلان ، وكان اسم هذا الهجاء كعب بن الأشرف .

وقد أضاف كعب إلى دفعته حماقة ، فلم يكتف بأن يذهب إلى مكة ليحرض قريشاً الحانقة ، ولكنه عاد إلى المدينة ليفخر بما فعل ، وكان محمد فى المسجد لما سمع أن الرجل قد عاد كرة أخرى إلى الواحة ، فأضاف إلى صلاته دون أن يحرك ساكناً : « من لكعب بن الأشرف فإنه آذى الله ورسوله » .

ولم ينقض كثير وقت قبل أن يعزم جماعة من شباب المسلمين على إنفاذ مشيئة الله ، فقد تمكنوا من استدراج الشاعر المخبول خارج داره بعد مناورات بارعة رغم تحذير عروسه إياه النزول ، لقد كان الوقت ليلا . وبعد أن بعدوا به عن الطرق المطروقة بحجة أنهم من المتآمرين على محمد ، وثبوا عليه وقتلوه ثم حملوا الرأس المقطوع إلى محمد الذى تسلمه بالتهانى الحارة .

وفى اليوم الثانى ، أعلن محمد أنه يبيح للمسلم أن يقتل اليهودى الذى يقابله ، وقد وافق من كانوا فى المسجد على هذا القرار ، فلم يجرؤ اليهود بعدها على أن يغادروا باب دورهم بعد مغيب الشمس ، وأخيراً وفد على محمد وفد يسأله سبب هذا الاضطهاد والعلاج الممكن لهذه الحالة .

أوضح لهم محمد أن اليهود قد جلبوا هذا لأنفسهم ، فقد كان شعرهم ونقدهم ، وهزؤهم وقذفهم الحجارة تعديا ، وإن كل ما فعله رجاله هو أخذهم بثأرهم ، فلو أنهم ، بالرغم من ذلك ، على استعداد لأن يخضعوا لميثاقهم فإنه على استعداد لتركهم وشأنهم ، فوقعت معاهدة جديدة ، وساد السلام مؤقتاً بين المسلمين واليهود .

• وفى خلال المدة التى كان محمد يفض فيها المنازعات الداخلية التى استغرقت معظم سنة ٦٢٤ م كان هناك مهام أخرى خارج المدينة ، فإن هزيمة بدر كادت تأتى على عقل أبى سفيان ، فقد نذر ألا يحلق شعره أو يتطيب أو يقرب النساء حتى يثأر من محمد ، وقد بدأ بالإغارة على المدينة وقطع النخيل وإحراق الزرع ، وقتل أى مسلم يصادفه ، ولكن على الرغم من أن المغيرين كانوا فى عدة حسنة ، وكانوا على رواحل ، ويتحركون فى عدد وفير إلا أنه كان من الظاهر أنهم كانوا يتجنبون ملاقاة أتباع محمد فى موقعة مكشوفة ، وكلما بلغ محمد أنباء هذه الغارات كان يمتطى راحلته وينطلق ليرد هذا الهجوم ، وكان ينطلق فى نفس اللحظة التى يسمع فيها أن العدو فى أرباض المدينة ، فكان الأعداء يفرون إلى مكة ، وكانوا يفرون فى بعض الأوقات سريعا ، حتى إنهم

كانوا يتركون بعض الغنائم الضئيلة كالإبل لتقع فى أيدى المسلمين .

ووجد أبو سفيان أخيراً أنه من الآمن له أن يبتعد عن عش النسر ، فشجع ذلك محمداً وأمر رجاله أن يطوفوا باستمرار فى طرق القوافل الرئيسية حتى لم يعد فى مقدور المكيين إرسال تجارتهم إلى أسواق سوريا والشمال ، فابتدأ الميزان التجارى فى الهبوط المخيف حتى إن أبا سفيان قرر أن يغامر مرة أخرى ، فإذا لم يفعل فإن مصير مكة الخراب ، فجمع قافلة من أعظم القوافل التى خرجت من البلد الحرام ، وقادها فى طريق قاحل لا ماء فيه ، ولكن قلم مخابرات محمد الذكى بعث بالخبر إلى الرئاسة .

وفى هذه المرة ، بعث محمد زيد بن حارثة فى سرية قوامها مائة راكب ، فأغذ زيد فى السير حتى لحق بالقافلة فتفرقت فى دقائق ، وفر القرشيون الذين لم يقتلوا ، وقاد زيد إلى المدينة أعظم غنيمة حصل عليها المسلمون حتى ذلك اليوم ، لقد كان بها ١٠٠٫٠٠٠ قطعة من الذهب إلى قضبان الفضة والطنافس النفيسة والإبل . فأصبح محمد غنياً لأول مرة منذ الهجرة ، وقد رقى زيداً فأصبح قائداً ، وكافأ كل فرد رأى أنه يستحق المكافأة بما هو أهله ، وكان القرشيون فقط فى يأس ، وباتوا ينظرون إلى أصنامهم فى حزن ، وراحوا يفكرون فى كيفية التخلص من قصاص الشيطان هذا الذى قد يحول مكة إلى بلدة لا وزن لها .

وبينما كان محمد لا يفكر فى شىء من هذا للبلد الحرام ، وكان كل ما هنالك عراك بينه وبين بعض سكانه ، جعل من الواضح أن الفعال العنيفة ، كالتى أتاها زيد ، هى قاعدة المستقبل ، ولو أنه لم يعلن ذلك .

إلا أن ذلك كل ما كان يستطيع أن يفعله فى ذلك الوقت ، فلم يكن قويا بعد ليقوم بهجوم عام ، وكان له مشاكل عائلية تشغله .

فقدت حفصة بنت عمر زوجها فى بدر ، وماتت رقية زوج عثمان فى نفس الوقت ، وفكر عمر فى أن عثمان قد يجد فى حفصة عزاء ، ولكن عثمان ما كان يظن ذلك فقد سمع بطبعها المستقل وخلقها الحاد ، فرفض عرض عمر فى أدب ، فذهب عمر بعد ذلك إلى أبى بكر بنفس العرض ، فرفض الشرف لنفس السبب الذى رفضه عثمان .

فتملك عمر الغضب ، وكان سريع الغضب كابنته ، واندفع كالعاصفة إلى حجرة محمد ، وتوعد هذين المغرورين اللذين ترفعا أن يكونا زوجاً لابنتـه .

هدأ محمد من ثورة صديقه بكلمات ملطفة وقال : لعلها محفوظة لمن هو أفضل منهما . ثم أضاف : « يا عمر سأتزوجها » وقد فعل ذلك وخطب ابنته أم كلثوم فى نفس الوقت لعثمان .

وعلى ذلك أصبح محمد فى ظهيرة يوم زوج ابنة عمر وحمى عثمان . وإن هذه الروابط الجديدة والروابط التى بينه وبين أبى بكر وعلى ربطت قواد الإسلام بأوثق رباط .

وكانت عائشة أقل الناس احتفالا بهذه الروابط العائلية ، فما كانت هذه الروابط السياسية أو العائلية لتحمل من وجهة نظرها إلا معنى واحداً هو حمل عبء منافسة لها فى دور النبى .

وكانت حفصة فى العشرين ، وكانت جميلة كما كانت ذات مزاج حاد ، وكانت عائشة فى الثانية عشرة ، ولكن كان لها عقل من هن أكبر منها ،

وكانت حادة الذكاء جداً ومرحة ، فقدرت حفصة سريعاً ، فكانت تحصى طباعها وتستغلها أسوأ استغلال ، فتظهرها لمحمد كلما سنحت فرصة ، وفى أسابيع قليلة اقتنعت عائشة أنه إذا تركت مسألة العلاقة الزوجية بين محمد وعروسه الجديدة جانباً ، فإن زوجها لا زال قريباً منها كما كان قبل زواجه . وما كانت عائشة لتخشى أن تفوقها أخرى فى مسألة مشاركة محمد فراشه إلا من حيث الجدة .

فلما عرفت عائشة هذا ، صادقت حفصة ، فصارتا صديقتين حميمتين، وكان على محمد أن يتدخل مراراً كلما تمادتا فى استغلال شبابهما الدافق للنيل من سودة العجوز الغبية البليدة .

وعرفت حفصة فى التاريخ بأنها الحافظة لأول نسخة خطية للقرآن ، فقد اقترح عمر بعد موت زوجها أن تجمع نسخة أصلية من القرآن قبل أن ينسى ما قاله محمد أو ذكره ، فنفذ أبو بكر هذا الاقتراح وأودع المصحف عند حفصة ، ولا يعرف سبب عدم إعطاء المصحف لابنته ، ولعله كان يعرف طبيعتها المتقلبة ، وعلى ذلك أصبحت حفصة مسئولة عن عمل عاش ثلاثة عشر قرناً .

وقليل من الناس ، حتى بين المسلمين ، من يستطيع أن يذكر أسماء أزواج النبى سريعاً ، وعلى الرغم من ذلك فإن كلاً منهن إلا سودة وزينب بنت خزامة قد لعبت أدواراً تختلف أهمية فى تكوين الإسلام .

الفصل الثاني عشر

الغزوة الثانيـــة

(سنة ٦٢٥ م)

انقضى عام كامل على غزوة بدر لما قر رأى المكيين على أن الطريق الوحيد لاسترداد سمعتهم هو الدفاع عن هذه السمعة ، وكانت تسيطر عليهم فكرة عدم إمكان مجىء خير من قبل محمد ، فلقد ابتدأوا باحتقاره ، ثم كرهوه ، وإنهم الآن ليهابونه ، وإذا ما ساد الخوف فى مكة فقدت الحياة بهجتها وبهرجها ، وإن المكيين ليحبون البهرجة ، وإنهم ليعشقون المرح ، فلو شاءوا التمتع بهما فعليهم أن يقضوا على مصادر الخوف .

جمع أبو سفيان لهـذا ، فى شهر ينـاير سنة ٦٢٥ م ، جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل ، وكان أغلبهم دارعين وكان منهم مائتا فارس ، وكان الفرسان تحت إمرة خالد بن الوليد ، قائد فرسان الإسـلام الفذ فى المستقبل ، وقد استجاب للنداء للانضواء تحت السلاح كل القرشيين المعروفين ، وقد استقر رأى خمس عشرة امرأة من المتعطشات إلى الدماء على الخروج مع الجيش للأخذ بالثأر ، وكانت على رأسهن هند المعروفة زوجة أبى سفيان وبنت عتبة الذى قتله حمزة فى بدر .

كانت هند امرأة ملاحة شهوانية ، ذكية فى غير رحمة ، وإن هذه الحملة على محمد لترجع إلى جهودها ، فقد رفضت أن يمسها زوجها أو أى

من عشاقها حتى تثأر لموت أبيها ، وقد عملت دائبة على تعيير القرشيين بهزيمة بدر ، وقد وعدت عبداً حبشياً يدعى وحشيًّا أن تعتقه إذا ما قتل حمزة ، وكان ماهراً فى رمى الحربة .

وكانت النسوة الأخريات متعطشات إلى الدماء مثلها ، فكن يخطرن ويرقصن بين المقاتلين ، لما تركوا مكة ، ويرتلن التراتيل لصنم من أصنام الكعبة ، كانوا قد حملوه معهم على ظهر بعير .

لم يكن هناك ما يعوق تحرك قريش هذه المرة ، فلم يكن هناك قافلة ليحموها ، ولا مقصد يبغون الوصول إليه قبل أن يخيم ظلام الليل ، وكانوا يسيرون لغرض واحد هو العثور على محمد والقضاء عليه ، ولما كانوا متفوقين فى العدد والعدة ، فقد كان فى استطاعتهم أن يحاربوا أينما وحيثما يحلو لهم ، وقد اتبعوا الطريق الرئيسى للقوافل الذى يقود مباشرة إلى المدينة ، وقد قادهم هذا الطريق إلى الأبواء حيث دفنت آمنة أم محمد ، وقد حاولت هند نبش قبرها ، وبعثرة عظامها ، ولكن أبا سفيان منعها ، وقال لها إن آمنة قد ماتت قبل أن يكون هناك أية فكرة عن الإسلام ، وإنها ليست مسئولة بأية حال عن جرائم ابنها .

وعلى الرغم من أن قريشاً لم تخف خروجها فإنه من الظاهر أن قلم مخابرات محمد قد أخفق هذه المرة ، فإنه لم يسمع عن خطط أبى سفيان حتى كان فى طريقه فعلا إلى المدينة ، وإن البلاغ قد جاءه من مكة نفسها ، فإن العباس الذى افتدى فى بدر ، أتيحت له فرصٌ كثيرة لما كان منتظراً فى المدينة ليرى حماس المسلمين الدينى ، فقويت عنده فكرته الأصلية من أن ابن أخيه قد يصبح فى يوم من الأيام شخصية بارزة ، وإنه لم يعتنق

الإسلام بعد ، ولم يستقر بالمدينة ، ولكنه لم ينضم إلى أى ناحية لما تحدث المكيون فى أمر إرسال هذا الجيش تحت قيادة أبى سفيان ، فلما رأى أن قريشاً قد تجمعت وتأهبت للخروج بعث رسولا على بعير سريع ليحذر ابن أخيه. ووجد الرسول محمداً فى حدائق قباء ، وقد أدهشته الأنباء، فعاد من فوره إلى المدينة وجمع أبا بكر وعمر وعثمان وحمزة وعليا ، ونادى عبد الله بن أبىّ أيضاً ، وما كانا قد تصادقا ، وكان كل منهما يستاء من الآخر. ولما كانت المدينة مهددة بهجوم عدو خارجى ، فقد رأى محمد فى هذه الحالة استدعاء قائد المعسكر الآخر فى المدينة إلى مجلسه الحربى .

قرر الرجال المسنون ، وفيهم محمد ، أن الشىء الوحيد المعقول الذى يقومون به أمام قوة هائلة كهذه هو انتظارها خلف أسوار المدينة ، وكان على وحمزة ضد هذه الخطة ، فلما سمع شباب القوم بما هنالك أيدوا رأى شباب المجلس الحربى أيضاً ، وإن كثيراً منهم قد حارب فى بدر ، وكان بعضهم مع زيد أثناء غارته المربحة على قافلة قريش ، ولم يجد أحد منهم فى القتال فى كلتا الملحمتين إقداماً على خطر ، بل وجدوا القتال مجلباً للمغانم .

وقالوا : « لو قعدنا خلف هذه الأسوار ، ورمينا العدو الذى قطع كل هذه الطريق لقتالنا بالحجارة ، لأصبحنا سخرية العرب جميعاً »

كان حماس الشباب عظيماً ، حتى إن محمداً نبذ رأيه الصائب ، وقرر سلوك السبيل التى كان يعرف أنها سبيل التهور ، وقد أعلن قراره فى المسجد بعد صلاة الجمعة ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ثم انسحب إلى داره وقضى وعائشة بعد ظهر يومه .

وفى ذلك الوقت كان أبو بكر وعمر يجهزان جيش المدينة ، وكان عدة هذا الجيش ألف رجل تقريباً وكان منهم مائتا دارع فقط ، وكان هناك فرسان كما كان فى الغزوة الأولى . وما كانت هذه القوة لتقف أمام قوة مكة المجهزة تجهيزاً حسناً ، ولكن نفذ السهم ، ولم يلتفت محمد إلى اعتراض أو آخر يقول إنه كان من الأفضل انتظار العدو فى المدينة ، وتولى القيادة .

كان محمد مهيباً لما خرج من دوره ، وراح يعرض الرجال الذين كانوا ينتظرون فى رحبة المسجد ، فقد ظاهر بين درعين ، وتدلى سيف إلى جانبه من منطقة من أدم ، وتقلد القوس وأخذ قناته بيده ، ولبس لأمته ، ولف حولها عمامته السوداء ، وتمت عدته بأن ألقى الترس فى ظهره ، ولما اطمأن إلى أن كلا فى مكانه ، دفع برايته البيضاء إلى مصعب بن عمير وامتطى فرساً من الفرسين ، ثم قاد رجاله مرة أخرى خارج المدينة ليثبتوا أن ربهم أعلى من أصنام الكعبة .

وكان بين الألف مقاتل هؤلاء ثلاثمائة من اليهود وغير المسلمين تحت إمرة عبدالله ابن أبيّ ، فلما خرجوا من المدينة ، توقف محمد وقال إنه لا يود فى جيشه من لم يعتنق الإسلام « فإنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك » فساء ذلك عبد الله بن أبى ، وقبل أن تبدأ المعركة عاد بحلفائه إلى المدينة ، وبذلك أصبح جيش محمد سبعمائة مقاتل ، فصار أقل من ربع قوة قريش .

وكان المكان الذى قرر محمد لقاء المكيين عنده عند قدم جبل أحد ، وجبل أحد أهمية تاريخية ففيه دفن هارون ، وفى أعلى قنته مقبرة حجرية

تضم الرجل الذى لولاه لما تمكن موسى الألثغ من تهديد فرعون أبداً .

وأحد مكان رهيب ، ويتفق والتصادم الدموى الذى سيقع عنده ، وإنه ليس فى الواقع جبلا ، ولكنه صخرة عظيمة ناتئة فى الصحراء ، لا عشب فيها ، ولا يقطنها حيوان ، ولا يسمع هناك تغريد طيور ، وإن علامة الحياة الوحيدة هى بعض الزواحف القليلة ذات الظهور الشائكة ، وكان أحد منعزلاً ، يكاد يحترق ، وهو يحملق فى الفضاء الذى ستهجم منه قريش .

وجعل محمد يصف رجاله فوق الأرض المرتفعة ، وقد أمده هذا بميزة طفيفة فى الدفاع ضد قوة العدو المتفوقة فى العدد ، وقد حمى سفح الجبل المنحدر ظهره . وصف حملة السيوف بحيث كان كتف كل منهم فى كتف أخيه بحيث يقابلون هجوم قريش كالبنيان المرصوص ، ووضع رماته على شعب فى الجبل خلف الخطوط الرئيسية قليلا ، وقد أمرهم مشدداً ألا يبرحوا مكانهم إلا بأمره ، وألا يفارقوا مكانهم مهما كانت الظروف ، وأن يحموا جناح المسلمين ، وقد أكد لهم محمد ذلك ، فقد كان يعلم مقدار تعرضه للخطر لعدم وجود فرسان معه ، فقد كان يحس خطر خالد وفرسانه المنقضين .

لقد كان على يقين من أن قوة جيوشه المعنوية أعظم من قوة قريش المعنوية فلو أن أوامره نفذت ، لأمكنه أن يكافىء العوامل الأخرى المضادة له .

وبينما كان محمد منهمكا فى صف جنوده ، ظهر القرشيون فى السهل المنبسط تحت التل ، وصار الجيشان الآن وجها لوجه ، وابتدأت أول خطوة فى المعركة العربية .

أخذت نساء قريش يحمسن المكيين ، وكن يضربن على الدفوف ، ويقذفن سبابهن على المسلمين ، وكانت هند على رأسهن تنشد وترقص حول الصنم المحمول على بعير .

كان طلحة حامل لواء المشركين ، أول من برز للنزال ، فما خرج من صفوف أبي سفيان حتى خرج له على من صفوف محمد ، وتقابل الرجلان فى المنطقة الحرام ، وابتدأ النزال دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، وما كان لطلحة فرصة ، فإن سيف على تألق فى شمس الصباح ، وطار رأس حامل اللواء عن كتفه ، وراح يتدحرج على الرمال . فصاح محمد : « الله أكبر » .

فردد المسلمون الذين كانوا يرقبون النزال فى اهتمام : « الله أكبر ! الله أكبر ! »

وقفز عثمان أخو طلحة من صفوف المكيين ، وانطلق ليهاجم حمزة الذى كان عظيما فى لأمته المزينة بريشة النعام التى كان يضعها يوم بدر ، وتألق سيف المسلم مرة أخرى ، وبقيت جثة مكية تترنح مرة أخرى فى ضوء الشمس قبل أن تنهار على الأرض ، فصاح حمزة : « أنا ابن ساقى الحجيج ، أنا ابن عبد المطلب » .

وخرج مرة أخرى رجال من أسرة طلحة لينتقموا لأقاربهم ، وكان حمزة أو على يطيح برءوسهم فى كل مرة .

ابتدأت رائحة الدم تتبخر فى الصحراء المحرقة . فتحرك المسلمون فى صفوفهم ، فقد كان انتصار صناديدهم يدل على أنهم سينتصرون كما انتصروا فى بدر ، فلم يتردد محمد فى أن يقحمهم فى المعركة ، فاندفعوا من فوق موقعهم

المرتفع وهم يصيحون : « أمت . أمت » وككبش هائل راحوا ينطحون القرشيين فى عنف ، فترنح خط القرشيين ، وابتـدأ فى التداعى ، وبدا كأن التفوق فى العدد والعدة لا فائدة منه أمام هذه الروح المتعصبة ، وقد حاول خالد أن يستغل فرسانه دون جدوى ، فكان فى كل مرة يحاول أن يتحرك فيها ، يبعث رماة محمد المهرة الموت إلى فرسانه ، فبدا كأن المعركة قد انتهت وكسبت ، ولكنها لم تكن قد انتهت وكان الانتصار بعيداً .

وفى سنين قليلة لن يتوفر للجيوش الإسلامية القيادة الحسنة فقط ، بل ستمتاز الجيوش بالطاعة العظمى التى يعتمد عليها فى جميع الأحوال . فإذا ما صدر أمر فإنه ليطاع فوراً ، وفى سنة ٦٢٥ لم تكن هذه الروح قد تكونت ، فقد كان العرب يقاتلون للأخذ بالثأر حيناً وللسلب عموماً ، وقد كانوا يقومون بذلك من أزمان سحيقة متناهية فى القدم ، وما كانت التعليمات المخالفة لذلك وما كانت بعض الأوامر العسكرية لتغير منهم .

لقد استغل محمد طبيعة الأرض ليتغلب على قلة عدد أنصاره وقلة عدتهم ، وسرعة انتقال عدوه ، فلو أنه تمكن من المحافظة على تنظيمه لكان من المحتمل أن يحصل على انتصار آخر ، ويرجع حرمانه من جنى هذا الانتصار إلى سلوك رجاله الذين لم يطيعوه .

ولما تمكن المسلمون من دق أسفين فى قلب جيوش قريش ، ابتدأ جناحا قريش فى الانكماش ، وكان يلوح أن حمزة وعلياً وسيفيهما البتارين يجولان فى كل مكان ، فانسحب العدو حتى تجاوز مضرب خيامه ، وكان فى هذا إغراء شديد للمسلمين الذين تشبعت عقولهم بالسلب ، فابتدأوا فى سلب الخيام بدلا من اغتنام الفرصة واقتفاء أثر الأعداء ، ورأى الرماة

من مرتفعهم ما يجرى هناك ، فبدا كأن المعركة قد انتهت وأن إخوانهم سيجمعون كل المتاع ، فلم يستطيعوا أن يصدقوا أن محمداً قد عنى كل أمر أصدره ، وحتى لو كان قد عنى ذلك فإنهم لا يستطيعون اتباع ما أمر به ، فإن المنظر الذى كان أمامهم لا يمكن لأى أعرابى أن يقاوم إغراءه فراحوا يهرولون إلى الغنائم دون أن يلتفتوا خلفهم لفتة ، وشاركوا السالبين وأنفاسهم مبهورة .

لم يتدرب خالد التدريب العسكرى ، ولكن كانت له غريزة القيادة كمحمد ، وكان زيادة على ذلك فارساً جريئاً مندفعاً يقبض على سيفه ورمحه بنفس المهارة التى يقبض بها على الجيوش ، فكان فى أثناء المعركة يرقب الرماة ، فكان يقترب منهم كلما تهاونوا فى إطلاق سهامهم ، والآن وقد تركوا مكانهم فكشفوا جناح المسلمين لم يتردد ، فأدار فرسانه ، وانطلق على رأسهم واندفع فى صفوف العدو المبعثرة . كانت المفاجأة بغتة كما كانت عنيفة ، فتبدل فى دقيقتين مجرى المعركة ، فأصبح المسلمون ضحايا تئن وقد مزقتها رماح خالد بعد أن كانت عصبة تقوم بالسلب فى سرور .

ذهبت محاولات على وعمر لجمع شمل القوات المبعثرة أدراج الرياح ، وذهبت محاولات محمد وأبى بكر لتشجيعهم بالابتهال إلى الله سدى ، فقد أصبح المسلمون هدف الفرسان من ناحية ، وهدف المشاة الذين عادوا إلى المعركة ليثخنوهم جراحاً من الناحية الأخرى ، فما كانوا يفكرون إلا فى الخروج من هذا الجحيم ، حتى أصوات قوادهم قد خمدت بعد قليل .

انتظر وحشىّ أجير هند سنوح الفرصة ليقضى على حمزة وليكسب حريته . ففى نفس الوقت الذى اندفع فيه خالد إلى المعركة كان حمزة

ينازل مكياً يدعى سباعًا ، وكانت أمه ختانة بمكة ، فقال له : « يا سباع ، يابن أم أنمار مقطعة البظور » ثم طوح سيفه مرتين وترك سباعًا صريعًا فى الصحراء ، وما كان رأسه قد فصل عن جسمه ، فمال حمزة ليتم ذلك ، فما فعل ذلك حتى رفع وحشىّ الذى كان يقترب من حمزة على قدر ما يستطيع منذ ابتداء المعركة حربته ، ثم هزها ثم أطلقها فى الهواء فوقعت فى ثنية حمزة تحت الدرع ، فندرته حتى خرجت من بين رجليه ، فترنح ثم سقط ، وحاول أن ينهض ولكن دم حياته كان يتدفق فى الصحراء ، وبعد قليل رقد ساكناً ، فاقترب وحشىّ من الجثة باحتراس لما تيقن أن المحارب العظيم قد مات ، وأخذ حربته ، ثم ذهب ليخبر هندا .

وجدها تحمس رجالها الذين كانوا يحولون انتصار المسلمين إلى هرج ، فما إن رأت وحشيا حتى عرفت ما جاء من أجله ، فانتشر على وجهها الجميل دلائل البشر ، فقبضت على ذراع العبد ليقودها إلى حيث يرقد النبيل حمزة بدرعه المتألق ، وريشة النعام المضرجة بالدماء ، وصرخت صرخات فرح ثم انحنت على الجثة وراحت تمزقها وتجدع اذنيه وأنفه وتسمل عينيه ، ثم بقرت بطنه ، وجذبت كبده التى كانت لا تزال دفيئة ، وجعلت تلوكها بأسنانها . رأت بعض النسوة ما كانت تفعله هند ، فلما اختفى من بقى على قيد الحياة من المسلمين ابتدأن فى التمثيل بالموتى وجعلن لأنفسهن من الآذان والأنوف والأصابع قلائد وأقراطاً .

وفى ذلك الوقت ابتدأ مأزق محمد يصبح حرجاً ، فقد تفرق معظم رجاله أمام هجوم خالد وفرسانه ، ولم يثبت إلا عمر وعلى وأبو بكر وآخرون حول قائدهم الذى كان يقاتل لإنقاذ حياته ودفاعاً عن قضيته ،

فراح يطلق سهامه حتى كسرت قوسه ، وتمكن أحد رجال الأعداء من بلوغ الصخرة التى كانت على سفح احد ، والتى كان محمد متحصناً فيها ، وقبل أن يتمكن من قتله ، سحب محمد رمحاً من أحد حراسه وطعن مهاجمه فى عنقه ، واندفع قرشيون آخرون صوب محمد ، لقد كانوا متعطشين إلى دمه ، وكانوا على استعداد لأن يموتوا مائة مرة فى سبيل قتله ، وما كان لشىء أن يوقفهم لولا سيوف عمر وعلى البتارة ، وامتلأ الجو بالسهام والحجارة والحراب ، فأصيب محمد ، فكلمت شفته وشج فى وجهه شجاً شديداً ، حتى إن حلقتين من المغفر الذى يستر به وجهه دخلتا فى وجنته وأصيبت رباعيته .

وتمكن ابن قمئة ، أحد المكيين الذين يمقتون الإسلام والذى قتل مصعباً حامل لواء المسلمين ، من أن ينسل خلف على وعمر وهجم على محمد وقد شهر سيفه ، فبدا كأن المثل الإسلامية العليا على وشك الانتهاء ، ولكن طلحة بن عبيد الله أحد المسلمين الأوائل وزوج بنت أبى بكر ألقى بنفسه بسرعة البرق أمام محمد وتلقى الضربة عنه ، وقد صدم محمداً فى اندفاعه فألقاه فاقد الوعى ، وكان ابن قمئة مأخوذاً حتى إنه لم يتمكن من التأكد مما حدث ، فجعل ينحدر سريعاً من فوق التل وهو يصيح أنه قتل محمداً . ومن الغريب أن هذا البلاغ قد أنقذ هزيمة المسلمين من أن تتحول إلى كارثة ، فإنه أوقف لبرهة محاولات المسلمين للقيام بهجوم مضاد كما أوقف العدو عن العمل .

وكما حدث فى بدر ، وفى جميع المعارك العربية فى تلك الأيام ، كانت العداوات تنتهى عند الأخذ بالثأر ، فما خرج أبو سفيان من مكة فى الأصل

إلا ليثأر من محمد ، وليرضى شهوة زوجته بأن ترى حمزة قتيلا ، فلما تحقق هذان الغرضان فقد بطل الدافع للقتال ، لذلك دعا رجاله الذين كانوا يطاردون أفراد المسلمين وجمعهم حول لوائه .

كان محمد قد فقد وعيه فقط ، فساعد طلحة على الرغم من جرحه أبا بكر وعمر على حمل قائدهم إلى شعب فى الصخور حيث اختبأ كثير من رجالهم ، فلما رأوا أن محمداً حى قويت روحهم التى تضعضعت . وإن قليلا من التشجيع ليدفعهم إلى الخروج لاستئناف قتالهم ، ولكن محمداً أبقاهم ، فقدكان قريباً من الموت فى الساعة المنصرمة ، وإنه لا يرى أى فائدة من الدنو منه ثانية ، زيادة على ذلك فلم يعد معه جيش ، وكان عليه أن يجمع شارد لبه قبل أن يقرر الخطوة التالية التى يخطوها ، وكان أول ما كان عليه أن يفعله أن ينزع حلقتى المغفر اللتين دخلتا فى وجنته ، فجاء على بماء فى درقته وابتدأت العملية المؤلمة ، وتعذر إخراج الحلقتين فنزعهما أبو عبيدة بأسنانه من وجه النبى .

فلما انتهت العملية الجراحية وضمدت جراح النبى ، لبس لأمه أخرى وألقى نظرة على ما كان يجرى فى مكان المعركة ، فوجد أبا سفيان ورجاله يفحصون جثث القتلى من المسلمين فى اهتمام ليتأكدوا ممن قتل من أعدائهم القدامى ، وقد بانت عليهم خيبة الأمل ، فإنهم لم يجدوا أحداً من أصحاب النبى إذا استثنينا حمزة ومصعب بن عمير ، ولم يجدوا لمحمد أثراً.

ورفع أبو سفيان بصره إلى جوانب أحد المتألقة . فرأى جموع الرجال خارج الشعب فصاح :

ــ أفى القوم محمد ؟ أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ أفى القوم عمر ؟

فقال النبى لرجاله : لا تجيبوه ، فلما لم يتلق أبو سفيان جواباً قال :

— إن هؤلاء قتلوا ، لو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يستطع عمر العظيم أن يبلع مثل هـذه الإهانة ، فلم يلتفت إلى إشارة محمد له بالسكوت ، فهب واقفاً وصاح :

— كذبت يا عدو الله ، أبقى الله عليك ما يخزيك .

فشد ذلك من أزر المسلمين ، وتأهبوا ، ولـكن لم يقبل قائد القرشيين هذا التحدى بين دهشة الجميع ، فبدلا من أن يأمر رجاله بالهجوم قال :

— يوم بيوم بدر . اعل هبل . لنا العزى ولا عزى لكم .

فأجابه عمر :

— الله مولانا ولا مولى لكم .

فأجابه أبو سفيان :

— إن موعدكم بدر العام المقبل .

وقبل عمر التحدى فقال :

— نعم بيننا وبينكم موعد .

وجمع أبو سفيان رجاله بعد ذلك وقادهم فى الاتجاه المضاد شطر مكة .

فما إن غاب آخر مكى عن عينيه ، حتى هبط محمد ورجاله فى احتراس إلى السهل ، فقد يكون انسحاب القرشيين خدعة ، ولـكن محمداً كان يتحرق إلى معرفة من قتل من رجاله فى سبيل عقيدته ، ولقـد دمعت عيناه لرؤية حمزة الحبيب ومصعب الباسل وآخرين كثيرين ، فأمر بعدم مس أى من الجثث أو نقلها ، بل يجب أن يرقدوا حيث سقطوا لتبقى مقابر الشهداء إلى الأبد شاهداً على وفائهم .

ويمكن رؤية هذه المقابر إلى الآن ، وهى أكثر من سبعين ، فى نفس المكان الذى سقط فيه رجال محمد تحت طعنات رماح القرشيين وضربات سيوفهم من ألف وثلاثمائة وعشرين سنة مضت ، وما هى بالقبور الكاملة ، إن هى إلا أكوام صغيرة من الحجارة الحمراء وبعض قطع من الرخام لتدل على مواضع رءوس الموتى البواسل وأقدامهم ، وينفرد حمزة بضريح فخم وهو مسجد أيضاً ، شيد من الصخر المنحوت ، وله مئذنة وقبة يرقد تحتها حمزة تحت كتلة من البازلت الأسود ، وبالقرب منه مقبرة عبد الله بن جحش قائد السرية التى هاجمت القافلة المكية فى الأشهر الحرم بعد وصول محمد إلى المدينة بقليل .

ولما انتهى قبر القتلى عسكر محمد فى مكان المعركة ، وانضم أغلب الذين بقوا على قيد الحياة إلى قائدهم ، وخرج عدد من الرجال والنساء ، وكانت فاطمة منهن من المدينة ليتثبتوا مما إذا كانت إشاعة قتل محمد صحيحة ، وقد اطمأنت نفوسهم لما وجدا محمداً حياً ، وقد أمرهم ألا يظهروا غبطتهم حتى يتحققوا مما تفكر فيه قريش ، فإنه كان يظن أن أبا سفيان قد يعيد تنظيم قوته ليهاجم المدينة ويستولى عليها ، فلو أنه قد فعل ذلك ، لما كان هناك ما يوقفه إلا الله .

وعلى كل ، فإن أبا سفيان لم يهجم ، فما كان هناك شقاق بين المكيين والمدنيين ، فإن شعور الحقد والكراهية كان مركزاً فى محمد وأقربائه الذين أساءوا إلى اسم مكة الطيب . لقد نالوا حمزة وفى المرة القادمة قد ينالون محمداً أو عمر أو أبا بكر ، زيادة على ذلك فما كانوا يحبون التوغل فى واحة قد يحاطون فيها فيقطع مابينهم وبين قاعدتهم ، وأضف إلى ذلك

أنهم كانوا مكدودين ، لذلك حملوا جمالهم وانطلقوا يخبون إلى البلد الحرام .

وقاد محمد الناجين من قوته الصغيرة ، فى نفس الوقت ، إلى المدينة ، فوجدها ترتج بعويل النساء اللائى فقدن الأزواج أو الأبناء أو الآباء أو الإخوان فى المعركة ، فلم ينهاهن محمد . واتجه إلى دوره مباشرة حيث تنتظره عائشة وحفصة وسودة فى قلق . فغسلن جروحه فى رفق ، وأحضرن له طعاماً وثياباً نظيفة ، وتكلم محمد قليلا فقد كان تعباً يعانى الآلام ، ولكنه لم يفقد شجاعته ، واستيقظ بعد ساعات عقب نوم عميق وقد تجددت قدرته وشدت عزيمته ، فبعث إلى بلال وأمره أن يجمع الناس فى المسجد .

فلما اجتمع الجميع وانتهت الصلاة ، أخبرهم أنه خارج لمطاردة قريش ، وجمع الرجال الذين حاربوا فى أحد وكان فى طريقه ليترك الواحة قبل أن يفيق الناس من دهشتهم .

ولحق المسلمون بالمكيين عند ما أرخى ليل اليوم الثانى سدوله ، فأمر محمد بالوقوف وعسكر بمن معه ، فلما لف الظلام كل شىء أمر رجاله أن يوقدوا مئات النيران على طول الربوة المشرفة على عسكر الأعداء ، فكان تأثيرها كما كان يأمل . فقد اعتقد أبو سفيان أن محمداً جاءه بمدد جديد من المدينة وأنه أقبل ليثأر لأحد ، فجمع خيامه وانطلق إلى الجنوب ولم يحس أمنا حتى بلغ مكة وكان آمنا خلف جدرانها .

وما إن اقتنع محمد أن خدعته الحربية قد أفلحت حتى قفل راجعاً إلى المدينة لينبئ رجاله أن قريشاً ما كانت فى الحقيقة أشجع مما كانت فى بدر .

وكان هذا العمل من أعظم الأعمال التي قام محمد بها في حياته ، فإنه ليدل على نظر ثاقب عجيب في معرفة البشر ومعاملتهم .

كسر محمد في أحد . وما كان هذا نتيجة خطئه ، بل كان نتيجة عدم إطاعة رجاله الأوامر . وعلى كل حال فقد هزم ، فنالت الهزيمة من سمعته كمبعوث الله ، فلو أنه اعترف بالهزيمة لانخفضت سمعته أكثر من ذلك . لذلك لم يعترف بالهزيمة ، فبدلا من أن يترك رجاله لنسائهم ليعتنين بهم ، وليحدثوهن عن القتال ، جمعهم . كان جريحاً ومنهوكاً ، وكان في السادسة والخمسين من عمره ، ولكنه امتطى فرسه وانطلق كأنما يقتفي أثر عدو قد تفرق وفقد روحه المعنوية . إن هذا عمل استراتيجيّ من الطراز الأول ، وعمل نفساني هائل ، وكان فوق كل ما يفكر فيه أي قائد لإحياء الروح المعنوية في رجال قد تحطموا تحطيماً .

ولم يجنح إلى الراحة لما بلغ المدينة ، بل على العكس ، اتخذ موقف القائد الزاجر ، فبعد أن أم الناس في صلاة شكر ، اعتلى المنبر وابتدأ في الخطابة .

أخبر المصلين أن غزوة أحد انتهت إلى ما انتهت إليه لأن رجاله لم يتعودوا بعد طاعته ، فلو أنهم قدروا أن أوامره يوحى بها إليه ، لنفذوها ولكان النصر لهم كما كان لهم في بدر ، وصمت قليلا ثم أضاف قولاً من أهم الأقوال التي قالها لأتباعه . فقد قال لهم إنه مهما كانت المعاونة التي يمدها الله بهم ، فإن محمداً إن هو إلا بشر مثلهم . وقد اختاره الله ليكون لسانه ، ولكن هذا لن يجعله مقدساً أو خالداً . وقد طلب منهم أن يتثبتوا من ذلك ، لأنه لاحظ في مكان المعركة ذعراً لما انتشرت إشاعة موته ،

وإن هذا ينبغى ألا يكون . فإن مات فلن يؤثر ذلك فى العقيدة ، فإنه سيموت عاجلاً أو آجلاً ، فما يتبع ذلك ؟ هل يعتقد هؤلاء الرجال والنساء أن الله قد وعد المؤمنين بجنات النعيم ما دام قائدهم على قيد الحياة فقط ؟ بالطبع لا . وإن هذا مذكور فى السورة الثالثة : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين »

فلما انتهت الخطبة ، ترك محمد المنبر ، وسار على مهل بين صفوف أتباعه الصامتين . لقد كانوا منذ سنة مضت فرحين بما غنموا ، وكانوا اليوم أكثر هدوءاً ، ولكنهم قد يكونون أكثر غبطة لعلمهم أنهم مع رجل لن يتخلى عنهم أبداً سواء أكانت هناك أسلاب أم لم تكن .

الفصل الثالث عشر

متاعب سياسية وعائلية فى المدينة

(٦٢٥ — ٦٢٦ م)

استعاد محمد الكثير من هيبته التى فقدها فى أحد باقتفاء أثر قريش ، وبقوله الصريح الذى أعلنه بعد المعركة ، وقد استعاد هيبته بين المسلمين ، ولكنه سقط من عين عبد الله بن أبى واليهود وغير المسلمين النازلين بالمدينة ، وقد فقد أيضاً احترام القبائل البدوية التى كانت ترعى بالقرب من المدينة ، فقرر أن يعكس هذا سريعاً ، فقد كان يعلم أن الوقت الذى يُظهر فيه المرء قوته هو الوقت الذى يكون فيه ضعيفاً .

ففى أثناء قتال أُحد انتهز الحرث أحد رجال محمد فرصة الالتحام العام ليثأر لدم قديم ، فقتل واحداً من معسكره ، وقد لاحظ بعضهم ذلك وأبلغه لمحمد ، فلم يتخذ محمد أى إجراء سريع ، ولكن لما هدأ كل شىء ، ركب إلى قباء حيث يقطن الحرث ، وأقبل الحرث ليقدم احترامه لقائده دون أن يخامره شك ، ففاجأه محمد باتهامه بالقتل ، فلما اعترف الحرث أمر بإطاحة رأسه فوراً .

وقد يبدو هذا أمراً تافهاً فى زحمة ما هو حادث من عظيم الفعال ، ولكن كان هذا هاماً . فالقائد الحق ينبغى أن يكون عدلا ، غير متحيز ، قويا . لقد كان لمحمد أتباع قليلون وهو فى حاجة شديدة إلى كل منهم ،

وبالرغم من ذلك لم يسمح لأى منهم أن يعتقد أنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يحلو لهم ما داموا ينتمون إلى صفوف الإسلام .

وقد اتبع جميع القواد العظام هذا المبدأ ، فهانيبال ويوليوس قيصر ونابليون وولنجتون قد مثلوا بضباط ورجال ارتكبوا أقل الهفوات فى تنفيذ الأوامر فى زمن الحرب . وقد حافظ المسلمون على هذا فى غزواتهم المظفرة ، ويرجع نجاحهم فى كثير إلى هذا .

وقد حافظ محمد فى ذلك الوقت العصيب على هذا المبدأ ، ولما قتل رجل من رجاله اثنين من أنصار الإسلام خطأ ، دفعت الدية فوراً .

وبهذه اللفتات دل محمد على أنه لا زال يعتبر نفسه رسول الله مهما كان شعور أى فرد آخر عما حدث فى أحد ، فقد كان ينفذ أوامر السماء ، ولن تبدل هزيمته قليلا أو كثيراً فى برنامجه ، فبينا قبل أغلب المدنيين هذا ، فقد حسب كثير من القبائل المجاورة أن الفرصة طيبة ليزعزعوا مركز ذلك الرجل الذى كون نفسه .

بعث سكان عضل والقارة ، وهما قريتان قريبتان من المدينه ، نفراً يطلبون أن يبعث فيهم من يفقههم فى الدين ، فبعث محمد معهم رجالا عزلًا دون أن يخامره شك ، وفى الطريق هاجمهم مضيفوهم وغدروا بهم ، فمن لم يقتل أخذ أسيراً ، ولما رفض الأسرى أن يرتدوا عن دينهم بعث بهم إلى مكة حيث قتلتهم قريش .

وفى نفس الشهر تم عمل مماثل من أعمال الخيانة ، فقد أبدى زعيم قبيلة أخرى رغبته فى أن يبعث محمد رجالا من أصحابه إلى قبيلته ليشرحوا لهم أوامر الإسلام ، فأرسل محمد فى هذه المرة رهطاً أكبر وكان مسلحاً ،

ولكن وقع هؤلاء النفر فى كمين قبيلة أخرى غير القبيلة التى بعثوا لها ، وقد قتلوا عن آخرهم ولم ينج منهم إلا رجل واحد فر ليحمل الخبر إلى المدينة .

حزن محمد وغضب ، وقد حاول من لم ير الأمور كما يراها أن يصبره ، ولكنه وقف فى المسجد وراح ينفس عن حزنه بلعن القتلة : « اللهم ، بحق عظمتك ، اشدد وطأتك على بنى رعل وبنى ذكوان وبنى لحيان واجعلها سنين كسنى يوسف ، فقد عصوا الله ورسوله » .

وكان يدعو على القتلة شهراً متتابعاً خمس مرات فى اليوم ، ثم خرج ورجاله إلى الصحراء ليبرهن أنه يستطيع أن يضرب كما يستطيع أن يصيح فلم يسغ رجال القبائل هذا ، ونادراً ما قابلوه فى معركة مكشوفة ، وقد كانوا يتقهقرون عادة على عجل حتى إنهم كانوا يتركون دوابهم خلفهم ، وقد كان محمد يستولى عليها ويعود إلى المدينة ، مبرهناً مرة أخرى على نظريته بأن الهجوم يثمر حتى ولو كان غير مضمون .

وكان له أعداء أخر غير قريش والبدو ، فقد حسب اليهود أن هزيمة أحد فرصة تهيئ لهم الوقوف أمام محمد وجهاً لوجه وتجعلهم ينحدونه على قيادة المدينة ، ولكن محمداً تعقبهم بنفس السرعة والحيوية التى تعقب بها البدو .

كانت قبيلة بنى النضير أكثر القبيلتين اليهوديتين القاطنتين المدينه لعوا ، وقد شك محمد فى أنهم يتآمرون على حياته ، فلم يحقق الأمر ولم يفاوضهم ، بل بعث إليهم رسولا يحمل هذا الأمر الواضح غاية الوضوح : « إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى . (لقد نقضتم

العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى) [1] . لقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » .

فزع اليهود وسخطوا . فما تلقوا إنذاراً كهذا طوال مئات السنين التى قضوها فى هذه البقاع ، وما كانوا يدرون ما يفعلون ، ثم ظهر فى ذلك الوقت عبد الله بن أبى . ذلك المشاغب المنافق ، فأخبرهم أن يبقوا حيث هم ، فلو شاء محمد أن يخرجهم فليعمل على إخراجهم ، وأكد لهم أنه لو حاول محمد أن ينفذ وعيده فإنه سيقف إلى جانبهم ، فتشجع اليهود وتحدوا محمداً ، وكان هذا كل ما يبغيه ، فما انقضت ساعات قليلة على رفض إنذاره حتى كان خارج المعقل الذى شيده بنو النضير فى ضواحى المدينة ، وقد كان رجاله معه ويتقدم فى وسطهم على وقد حمل لواء الإسلام الذى تمزق فى المعركة .

دافع اليهود عن أنفسهم دفاعاً طيباً ، وصدوا هجوم المسلمين الأول ، ولكنهم لم يكونوا مستعدين لحصار طويل الأمد ، فإذا لم يقدم عبد الله لنجدتهم فسيموتون جوعاً ، وهذا ما حدث فعلا .

إن كل ما يبغيه عبد الله هو جلب المتاعب لمحمد ، فإذا ما أثارها ضده قعد فى عقر داره ، وحتى بنى قريظة القبيلة اليهودية الأخرى بالمدينة لم تجد من المناسب أن تتدخل ، فلما قطع محمد جميع نخيل بنى النضير وأتلف حدائقهم ، لم يجدوا إلا التسليم .

وحدثت هجرة يهودية مرة أخرى ، وكانت هجرة منظمة ، فكما أن كثيراً من المهاجرين قد انطلقوا بعيداً حتى أذرعات بالشام فإن كثيراً

(١) لم تذكر فى الأصل الانجليزى .

منهم قد انضموا إلى جماعة من اليهود قاطنة خيبر وكانت على مسافة لا تزيد عن مائة ميل من المدينة ، وقد اكتشفوا فيما بعد أنهم قد ارتكبوا خطأ .

أصبح لمحمد الآن سياسة ثابتة قبل اليهود . فإذا لم يحافظوا على السلام ويعترفوا بسلطانه فإنه لايرغب فى وجود أى منهم فى أى مكان قريب منه ، فإنه لايستطيع أن يدع أعداء متأهبين عند بابه الخلفى ، فإنه ليحس أنه آمن كلما غادرت قبيلة يهودية المدينة ، وما كانت خيبر فى حسابه بعد ، ولا كانت بنو قريظة ، ولكنهما عما قريب ستدخلان فى حسابه .

وبينما كان يقوم بهذا التنظيف الداخلى ، فإنه لم ينس تحدى أبى سفيان له يوم أحد ودعوته له لملاقاته فى بدر مرة أخرى . وقد حافظ محمد على وعده ولم يفعل أبو سفيان .

كان هذا العام جدبا ، وكان المكيون فى حال سيئة ، وما كان أبو سفيان فى مركز يسمح له بقيادة جيش بعيداً عن قواعده وإطعامه ، وقد أطلق إشاعة بأنه يجهز جيشاً عظيما ، وقد ذهب إلى حد استعراض قواته خارج أسوار مكة ، وكانت ألفين وخمسمائة رجل ، ولكنه لم يجازف بالتوغل أكثر من أميال قليلة فى الصحراء ، ولقد أمل فى أن ذكرى أحد الماثلة فى الأذهان ستدفع بالمسلمين إلى البقاء خلف حوائطهم .

كادت الخدعة أن تنجح ، فما كان المسلمون فى حالة تسمح لهم بارتكاب حماقة مرة أخرى ، ولكن محمداً يزدرى مثل هذا الجبن ، فإنه لا زال يعتقد فى تغطية الضعف بإظهار القوة ، وقد أمر الرجال القادرين ، دون مناقشة ، بالتجمع ، فاجتمع ألف وخمسمائة من الأعراب المسلحين ، وكانت هذه القوة أكبر قوة اجتمعت للمسلمين حتى اليوم ، فهى تبلغ خمسة

أضعاف قوة المعركة الأولى وضعفى قوة المعركة الثانية ، وأحس محمد طمأنينة ، وامتطى ناقته ، وقاد جيشه من المدينة وانطلق إلى بدر ، وكان بها سوق ، فلما لم يجد المسلمون من يحاربونهم ، اتجروا فى بدر فربحت تجارتهم .

وبعد أن أقام المسلمون ببدر ثمانية أيام متتابعة ولم يظهر أبو سفيان عاد محمد ورجاله إلى المدينة ، وقد ارتفعت روحهم المعنوية ارتفاعاً يقرب مما كانت عليه عقب انتصارهم العظيم . ولم ينسوا أن يذكروا كيف نكث القرشيون بعهدهم فلم يقبلوا للمعركة الثانية .

ساء ذلك القرشيين ، فراحوا يقولون ويعيدون ، ولكنهم ركزوا قولهم فى الوعيد بأحد أخرى قريبة ، فلم يقلق هذا محمداً ، فإن كل يوم ليجلب له مؤمنين جدداً ، وإن كل يوم ليجعله أكثر ثقة بنفسه وبأتباعه ، فابتدأ بالقيام بالإصلاحات وتشريع القوانين التى كانت فى ذهنه من مدة .

إن فرسانه من الأشياء التى كان من الضرورى إعادة تنظيمها ، فإن الذهاب إلى المعركة بفرسين فقط ليس أمراً مشيناً فحسب ، ولكنه قد وضع المسلمين فى أحرج المواقف ، لذلك أنشأ محمد مراكز لإكثار نسل الخيول ، وقد منع توليد البغال حتى يتسنى له الحصول على أقصى ما يمكن من الجياد . ومن هذه النواة تكونت فرق فرسان المسلمين المعروفة ، هذه الفرق المسلحة تسليحاً خفيفاً ، والتى تتحرك سريعاً ، والتى ستحمل الفناء إلى الكتائب الرومانية واليونانية والتى ستصبح خطراً على فرسان المعابد المثقلين بالدروع .

والتفت محمد إلى الأمور المدنيـة بعد أن أدخل تحسينات على أداته الحربيـة . فكما أن عيوب الركبان قد ظهرت خلال التطبيق العملى ، فكذلك قد ظهرت أمور جديدة تتصل بنشـأة هذه الدولة الجديدة ، وكان قانون التوريث الإسلامى من هذه الأمور . فقد قتل سعد بن الربيع أحد المسلمين المقـاتلين فى أحد ، وترك أرملة وابنتين ، وتبعاً للعوائد السائدة فى ذلك الوقت ورث أخوه كل ما ترك ، ولم يكن للأرمل ما يقيم أودها ، ولم يفكر أحد فى أن حالتهـا شاذة أو غير عادلة ، وكانت تعـلم مقدار ما يحسه محمد نحو الرجال الذين يقضون فى سبيل الإسلام ، فعملت على أن تجمع نقوداً قليلة ثم أولمت وليمة دعت إليهـا الرسول ، فلما قدم التمر ، واضطجع الضيوف على الطافس ، شكت إلى ضيفهـا الكريم حالها ، فأثر الموضوع فى محمد مباشرة وسأل المرأة أن تأتيه مرة أخرى ، وسيعطيها الحكم فى ذلك .

وهبط عليه الوحى بعـد ذلك وأمره أن يسأل أخا سعد بن الربيع أن يعيـد ثلثى الميراث إلى الابنتين ، وثمنه للأرمل ، وكان هـذا أساس قانون التوريث الذى حرم أن يرث فرد واحد كل ما يتركه الميت ، أو أن يترك فرد من الأسرة معوزاً ، وإن قوانين التوريث مفصلة فى السورة الرابعة ، وقد اتبعها المسلمون منذ ذلك الوقت .

وحول محمد انتباهه إلى مشكلة الرق ، فما كان فى مقدوره أن يحرم الرق كلية ، وكان حاله فى ذلك كحاله فى مسألة تعـدد الزوجات ، ولكنه خفف قوانين الرق ، وعمل على تشجيـع فك الرقاب ، وإن ما أمر به هو تحرير جميع من اعتنقوا الإسلام ، وقد أضاف إلى ذلك الأمر أنه لا زحمة

تصم العبد المحرر . وفى الحقيقة فإن العبد المحرر فى الإسلام له جميع الفرص التى للرجل أو المرأة التى ولدت حرة . وقد أوصى بالعبيد الذين بقوا فى الرق قال : « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه من طعامه ، وليلبسه من لباسه ، ولا يكلفه ما يغلبه ، وإن كلفه ما يغلبه فليعنه » .

ولم يتناول محمد الخمر أبداً ، ولا فى ليلة عرسه لما تزوج من خديجة ، ولم يقرب المسكرات ، فعلى ذلك لم يتردد فى تحريم الخمر بين العرب المسلمين وغير المسلمين ، وقد لاقى من حمزة عنتاً عقب بدر بقليل فقد تناول كثيراً من الخمر ، وكان بين المقاتلين فى أحد سكارى ، وحتى فى القرآن تركت المسألة مفتوحة فقد جاء فى السورة الثانية آية (٢١٩) « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » .

فلما اكتشف محمد بعد ذلك أن العرب قوم لا يضبطون عواطفهم فيتبعون من الأمر أوسطه ، ولما تكرر من المسلمين الخطأ فى الصلاة بسبب سكرهم فقد نزل الوحى محرماً الخمر وقد جاء فى الآية (٩١) من السورة الخامسة : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »

وإن نسبة المسلمين اليوم ، الذين يتناولون الخمور ، والذين يعيشون فى أقطار إسلامية قليلة ، وحتى هؤلاء الذين يتناولون الخمور وهم فى بلاد الغربة يكفون عنها حالما يعودون إلى أوطانهم .

وفى هذا الوقت أيضاً ، قرر محمد نظاماً معتدلاً لحجاب المرأة ، فصار حجاب المرأة المتزوجة أو التى على وشك الزواج عادة شرقية لمدة طويلة . وقد كان الحجاب معروفاً فى اليونان ، ولكن بينا كانت المرأة اليهودية متحجبة كانت المرأة العربية سافرة ، وكان تشريع محمد للحجاب أو اقتباسه لأسباب شخصية . فقد كان مقبلاً على سن الشيخوخة . وكانت سن معظم أزواجه أصغر من نصف سنه . وقد كن جذابات جميلات تتدفق الدماء الحارة فيهن . لهن غرائز النساء الناميات . وكان كثير من الزوار يفدون باستمرار لزيارة محمد ، فكان يفد بعضهم بظلاماتهم ، ويفد بعضهم للاستفسار عن بعض المشاكل الدينية . أو الدنيوية ، ويفد الكثيرون لتقديم فروض الاحترام لسيدهم ، وكان هناك من يتعللون بأسباب تافهة ليلقوا نظرة على زوجات الرسول الشابات ، فلم يغب عن نظر محمد شىء من هذا ، ولكن كان من الصعب إبعاد هؤلاء الزوار عن دور النبى دون تعاليم مانعة ، فالتجأ كما اعتاد أن يلتجىء فى لحظات الضرورة إلى ربه . فأوحى إليه بما ورد فى السورة ٣٣ الآية ٥٣ : « يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناهُ . ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولامستأنسين لحديث . إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق . وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب » .

وعلى ذلك كان الحجاب أول حاجز بين الرجال والنساء ، وقرر محمد بعد ذلك أنه على جميع المسلمات أن يبدين من أنفسهن أقل ما يمكن إذا ما غادرن بيوتهن ، وقد جاء فى السورة ٣٣ آية ٥٩ : « يا أيها النبى قل

لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما »

فصارت الجلابيب الدثار الذى تلتف فيه نساء المسلمين عند خروجهن ، ولكن كان هذا بعد أيام الإسلام الأولى بمدة طويلة ، وإن عزل النساء التام فى حريم أمر حديث نسبياً ، وما كانت هذه العادة عادة عربية فى الأصل أبداً .

وإن النساء اللاتى لم يطبقن تعاليم الرسول هذه أبداً هن نساء البدو ، فإنهن لم يحجبن أنفسهن أبداً ، وعلى الرغم من ذلك فإن من النادر أن يقابل إنسان بدوية وجهاً لوجه ، فإن لهن قدرة عجيبة على الإفلات من نظر أى رجل لا يمت لهن بقرابة ، أو يتسترن بجزء من جلابيبهن .

وعلى كل حال فما كان أزواج محمد من البدو ، ولكن كن حضريات ، يتمتعن ببهجة الحياة التى يتمتع بها مثيلاتهن ومن كن فى سنهن ، وكان عددهن آخذاً فى الزيادة .

تبع زواج محمد من حفصة زواج آخر ، وكان زواجا شكلياً أكثر من أى شىء آخر ، فقد كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث ، ابن عم لمحمد ، كان قد سقط فى بدر ، وكان اسمها زينب بنت خزيمة ، وكانت متوسطة العمر طيبة خيرة ، وما ضمها محمد إلى نسائه إلا بدافع من الشفقة ، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبداً ، وقد ماتت بعد زواجها بثمانية أشهر .

وكان الزواج التالى زيجة تختلف كل الاختلاف عن الزيجة السابقة ، وقد سبب للسابقتين من أزواج النبى قلقاً ، فقد كانت الزوجة الجديدة جميلة وكانت أبية النفس ، عريقة المنبت ، وقد لعب زوجها فى أحد دوراً

عظيما ، وقد جرح فى أحد ، وقد اعتنت أم سلمة بزوجها كل الاعتناء عقب الغزوة ، ولكنه مات ، وكان محمد متعلقاً بهذا الرجل ، وقد أقلقه موته ، وكذلك كانت زوجه ، فقد كانت تحب زوجها فأقسمت ألا تتزوج من أحد بعده ، ولكن أبا سلمة أحلها من هذا القسم وهو على فراش الموت .

ولن تعدم من كانت فى مثل رقة أم سلمة من يتقدم لطلبها ، فقد تقدم أبو بكر ثم عمر يطلبان يدها بعد مدة من وفاة زوجها ، ولكنها رفضت ، وترك محمد بعض الوقت يمر ثم قدم نفسه لها فرفضت أم سلمة ثانية هذا العرض ، وكان لها أعذار كثيرة لرفض هذا الشرف ؛ فقد اعتذرت بأنها تخطت الشباب وبكثرة العيال ، وبأنها غيور لا تطيق مشاركة .

وقد رد محمد على الاعتراض الأول بأن أشار بأنه أسن كثيراً من أم سلمة ، وأما بالنسبة للعيال فإنه ليسره أن يصبح أباً لهم ، وأما الغيرة فستخمد بالصلاة وبعون الله ، وبعد أخذ ورد طويلين قبلت أم سلمة الزواج وكان فى مارس سنة ٦٢٦ م بعد زواجه من زينب بنت خزيمة بشهر واحد .

وكان لهذا الزواج رد فعل سيء فى نفس عائشة وحفصة ، واستقبلتا الزوجة الجديدة بما هو واجب من المجاملة ، ولكنهما أظهرتا أنه كان من الأسعد لهما لو أنهما بقيتا بدونها . وقد أسرت عائشة لحفصة بأنها قد أحست بجرح فى نفسها ، فقد سمعت بحسن أم سلمة ولكنها وجدتها أجمل مما يقول الناس ، وقد طيبت حفصة خاطر صديقتها بأن قالت : وإن كان

جمال أم سلمة واضحاً فإن كبرها واضح أيضاً . وإن الجمال ليذبل سريعاً فى هذه السن ، ونصحت عائشة بأن تبقى غيرتها لمن تستحقه .

وقد سر أم سلمة أن ترى تأثير دخولها إلى دور النبى فى المفضلة من أزواجه ، ولم تفعل شيئاً لتقاومه ، وقد انكشف الموقف بعد ذلك عن حرب مستترة بين المرأتين ، وإن هذه الحرب التى ابتدأت كحرب منزلية قد امتدت حتى صارت من العوامل السياسية التى لا زالت آثارها باقية فى العالم الإسلامى حتى اليوم .

وجدت أم سلمة تواد عائشة وحفصة فصادقت فاطمة بنت محمد وزوجة على ، وما كانت عائشة ولا حفصة ليربطهما بفاطمة صالح مشترك ، وكانت فاطمة عاطلة من الجمال ، لا شخصية قوية لها ، وكان ذكاؤها فوق متوسط ذكاء المرأة العربية ، وكانت أصغر من أم سلمة ، ولكنها أحست نحوها تقارباً أكثر مما أحست نحو باقى الأسرة ، وعلى ذلك بذرت بذور منافسة عائلية لا هوادة فيها ، بوقوف زوجتين فى معسكر وزوجة وابنة فى معسكر آخر يتنافسن فى إرضاء رجل واحد .

وعلى الرغم من أنه لا عائشة ولا حفصة كانت لتقدر هذا إلا أنهما كانتا تمثلان خليفة المسلمين المنتخب أو خليفة المسلمين المعين ، فأبو بكر أبو عائشة سيصبح الخليفة الأول . وعمر أبو حفصة سيصبح الخليفة الثانى .

وكانت فاطمة تمثل الخليفة الطبيعى أو الخليفة الوراثى ، فقد صار علىّ الخليفة الرابع ، وكان أبناؤه فقط سبط الرسول الذكور ، وعلى ذلك فإن أم مسلمة وزوجات النبى الأخريات اللاتى انضممن لأسباب

شخصية قبل كل شيء إلى الحزب المعـادى لعائشة سيكن الداعيات إلى ما سيعرف يوماً ما بالفاطميين والشيعة ، والفـاطميون دولة حاكمة ، والشيعة مذهب دينى يعتقد معتنقوه أن ميراث محمـد الروحى يجب أن يؤول إلى على وورثته .

وأصبح الذين انضموا إلى عائشة أسلاف الأمويين والسنيين . والأمويون دولة حاكمة ، والسنيون مذهب دينى . وهم يقررون أن الخليفة لا ينبغى أن يكون من أسرة محمد .

ولم يتعد الأمر فى هذا الأوان أكثر من غيرة مغضوضة من جانب عائشة ، وحقد من جانب أم سلمة ، وكانت قدرتها على إغاظة ابنتى الرجلين القويين أبى بكر وعمر ، واكتساب مرضاة الرسول مرضيـة كل الرضى . وإن الشيء الوحيد الذى لم تحسب له حساباً هو يقظة زوجها .

وإن السيدة التالية التى صادفت فى نفس محمـد هوى . قد أحدثت رجة فى دور النبى أكبر مما أحدثته أم سلمة .

وقد كانت فى الواقع صدمة لكل إنسان ، وقد أصبحت هدفاً للنقد وموضوعاً للتندر خارج دائرة الأسرة ، وكان اسمها زينب ، وما كانت تتصل بزينب الأخرى التى كانت ترقد رقدتها الأخيرة بأى سبب .

وكانت زينب هذه حفيدة عبد المطلب وابنة عمة محمد . وقد هاجرت إلى المدينة قبل محمـد بقليل ، ولكنها لسبب من الأسباب لم تتزوج على الرغم من أنها قد اقتربت من الثلاثين ، وقد زوجها محمـد عقب الهجرة بقليل من صديقه وعبده المحرر زيد بن حارثة ، وكان زيد قبيح المنظر وكان قصيراً أقنى الأنف ، غير مثقف ، ولو نحينا أمانته للإسلام وسيده

وشجاعته الشخصية العظيمة ، لما كان له إلا القليل ليقدمه إلى سيدة جذابة أرستقراطية كزينب . وقد قبلت زينبُ الزواج بسبب إصرار محمد ، ولكنها لم تُحب زيداً أبداً ، وما كان زيد نفسه رجلا يفهم الناس . فلم يكن يدرى كيف يعامل زوجه المدللة .

وفى يوم من الأيام ذهب محمد ليزور زيداً ، فلما لم يجبه أحد طرق الباب ونادى ، ثم دخل بيت زيد ، حيث اطلع على زينب الفاتنة ، وكانت نصف عارية ، فأثر هذا فى عواطفه حتى قال : « سبحان مقلب القلوب » ثم هرول خارجا فى ارتباك .

رأت زينب نظرة محمد فى عينيها ، وقد سمعت ماقال ولاحظت كيف نطق بما قال ، فقدرت ماسيقود إليه هذا القول ، فلما عاد زوجها إلى البيت أنبأته بما حدث ، فما تركت تفصيلا ، وأضافت تفاصيل قليلة من عندها ، وإن أول شىء فكر فيه زيد بعد أن انتهت من سرد قصتها كان سيده الحبيب ، فانطلق إلى محمد رأساً وعرض عليه أن يطلق زوجه ، فأثرت تضحية زيد بنفسه فى محمد ، فأخبره أن يعود إلى زينب وألا يفكر فى ذلك ثانية .

وكان لزينب أفكار أخر . فكانت تعرف ما يحسه محمد نحو النساء ، وكانت متيقنة من إحساسه نحوها ، وكانت قد ضاقت ذرعاً بزيد ، وكانت ترغب فى أن تعيش كما يؤهلها كرم مولدها ، فابتدأت بجعل حياة زيد جحيما . فطلقها ليفر من الاضطهاد المنظم .

وانتظر محمد حتى انقضت الفترة المقررة بين الطلاق والزواج ، ثم ضم زينب إلى زوجاته فابتدأت المتاعب . وكانت الشابتان مثيرتيها . وقد

نَفَتَا أن للغيرة أى دخل فى هـذا ، فراحتا تذيعان فيما حولها أن هـذا الرباط رباط فسق ، فإن زيداً ابن محمد ، وإن الزواج من زوجته لينافى جميع الشرائع فى العالم ، وإنها لفضيحة ، وإن شيئاً هكذا لا يمكن أن يحتمل !

وما كان زيد ابنا لمحمـد ، ولقـد تبناه فصار وريث محمـد فى نفس الوقت الذى تحرر فيه ، وما كانت هناك رابطة دم . وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا يدعونه بابن محمد ، وما كان كثير من المسلمين يدرون كيف صار ابنه . فلمـا رفعت عائشة وحفصة صوتيهما بالاحتجاج احتج المجتمعون فى المسجد للصلاة ، فأصبح محمد فى مأزق ، ولـكن جاءه الوحى سريعاً ، ولم يدع الوحى أى شك فى التفريق بين الابن المتبنى ، والابن المولود . وقد قرر زيادة على ذلك بأن أرملة الابن المتبنى أو مطلقتـه لا تدخل فيمن حرم الزواج بهن .

واغتاظت الشابتان ، وقالت عائشه لزوجها : « ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك » ولـكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، فقد كانت زينب فرحة ، وقد قالت لـكل من قابلته إن الله تدخل لصالحها وقد زوجها بنفسه ، وقد ضحكت عائشة وكذلك فعلت حفصة ، ولـكن قد قضى تماما على كل ما أثارتاه .

وإن هذا الزواج من زينب قد مكن الغربيين وعلى الأخص أولئك الذين يعتقدون أن محمداً لا يصلح لشىء طيب من أن يقولوا : « لقد قلنا لـكم ذلك ! فما الذى تنتظرونه غير ذلك من هذا المخادع الـكبير » .

وإن هؤلاء الرجال ، على كل حال ، لينظرون إلى الأمر من زاويته الخطأ ، فإنهم لا ينقلون أنفسهم إلى مجتمع ذلك الوقت أو حتى إلى المجتمع

الشرقى ، فإن للعرب اليوم ، وإن للرجال العظام أمثال ابن السعود ، وللحكام أمثال سلطان مراكش أن يعيدوا قصة زينب مرات عديدة فى حياتهم التى يحيونها فى القرن العشرين هذا ، فلو أن عائشة لم تضع النقط فوق الحروف لكان من المحتمل أن لا يقول أحد شيئاً عن ذلك فى المدينة عام ٦٢٦ .

كانت العلاقة الجنسية شغل العرب الشاغل فى ذلك الوقت ، كما هى اليوم إلى حد ما ، وما كان التحدث فيها محرماً كما هو حادث بين كثير من الغربيين ، وكانوا ينظرون إليها كعامل من عوامل السرور والطرب والإلهام ، ويعتبرونها شيئاً عادياً .

وإنه لما يذهل العرب نفاق الغربيين العجيب فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية ، فإنهم ليرون أن رجال القارة الأوربية والقارة الأمريكية ونساءهما لا يختلفون عنهم فى شىء ، فإن لهم نفس شعورهم ولكنهم ينظرون إلى جميع الأمور المتعلقة بالعواطف الجسدية المزدوجة للذكر والأنثى كنظرهم إلى رذيلة كشرب الخمر سراً ، ولذلك يبدو لكثير ممن كتبوا عن محمد أن ارتباط محمد بزينب ، ومحمد بعائشة ، ومحمد بجويرية بنت الحارث وقد أسرت فى غارة ولم تدفع ديتها وقد أصبحت زوجة محمد الثامنة بعد زينب ، شيئاً غير عادى ، ولكنه ليس بشىء غير عادى إذا قورن بعادات زواج الحكام الآخرين فى هذا الجزء من العالم كسليمان وداود ، فلم يكن لمحمد حريم كبير كحريم سليمان أبداً . وإن قصة زينب أكثر بساطة ولا ريب من قصة بتشيبا أو أحينوم زوجة أبيجيال التى أعجب داود بها فى ليلة عرسه .

وينبغى ألا ينظر إلى حياة محمد الزوجية من وجهة النظر الغربية ،

وألاَّ تقاس بالشرائع المسيحية ، فإن هؤلاء الرجال والنساء ماكانوا غربيين وما كانوا مسيحيين ، فقد كانوا يعيشون فى زمن وفى قطر لا يُعرف فيه إلا أقيستهم الأخلاقية فحسب ، وحتى إذا كان ذلك فليس هناك من سبب لاعتبار الأحكام الأوربية والأمريكية أعظم من الأحكام العربية ، إن عند رجال الغرب الشيء الكثير الذى يعطونه لأهل الشرق ، وإنهم فى احتياج إلى أخذ الشيء الكثير أيضاً . وإلى أن يستطيعوا أن يبرهنوا على أن طريقة عيشهم أعلى خلقياً من أى شعب آخر ، فإن عليهم أن يحتفظوا بحكمهم على العقائد والطوائف والبلاد الأخرى .

الفصل الرابع عشر

حصار المدينة

(٦٢٧ م)

كانت حياة محمد فى المدينة مزدحمة بالنساء ، وعلى الرغم من ذلك فما كان لهن من تأثير فى حياته الروحية أو الرسمية : لأنه على الرغم من أن عائشة كانت تضجره أحياناً ، وتسره أحياناً ، وتروح عنه أحياناً ، فما كان لها من قول فى سياساته الإدارية أو فى تكوين الدين الجديد ، وما كان لذلك الزواج الوبائى عام ٦٢٦ و ٦٢٧ من أثر فى محمد ، فما أصبح طوع بنان أفكار النساء ، وما جعله ليناً ، ففى اللحظة التى كان يحتاج إليه فيها نجده هناك ليقود ولينظم وليشجع .

وبلغ محمد فى عام ٦٢٧ أن المكيين يتأهبون للقتال ثانية ، فقد فاتهم موعد بدر ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم قد نسوا قتالهم ومحمد ، ففى خلال الشتاء السابق كان أبو سفيان يجمع قوة هائلة ، قوية القوة الكافية لتنال النصر ، وقد تعاهد وعرب غطفان الأقوياء ، وهم قبيلة حربية لها خطرها فى صحراء بلاد العرب ، وقد وجد معاونين فى هؤلاء الرجال من بنى النضير الذين نزلوا خيبر ، وقد جلب هؤلاء بدورهم يهوداً آخرين ليساعدوا فى خلاص البلاد من هذا النبى البغيض ، وصائد اليهود ، وقد انضم إلى جيش قريش كثير من قبائل البدو الذين أغار عليهم المسلمون ، فلما استعرض

أبو سفيان جنوده خارج مكة وجدهم عشرة آلاف مقاتل . وكان لـكل رجل تقريباً راحلته ، وكان الفرسان ثلاثمائة . وكان هناك قليلون لم يرتدوا دروعهم ، فلما مر خلال الصفوف المتألقة أحس فخاراً وثقة . وبدا كأنما محق المسلمين إن هو إلا رهن لقائهم فى المعركة ، وإن هذا ما تجنب محمد وقوعه .

زاد جيشه إلى ثلاثة آلاف مقاتل . ولـكنهم ما كانوا مسلحين تسليحاً جيداً ، وكان فرسانه غير مدربين وما كانوا يتجاوزون الخمسين . إن وجود خمسين فارساً ليعد تقدماً واسعاً بالنسبة لفارسين ولـكنهم ما كانوا كافيين ، وكان هناك عدم كفاية فى الرواحل لنقل جميع الجيوش . ويضاف إلى هذه النقائص عبد الله بن أبىّ الذى كان متأهباً ليطعن المسلمين من خلف إذا ما سارت الأمور سيراً سيئاً بالنسبة إليهم ، ولا يمكن أن يقال شيئاً عن المسألة المشكوك فيها ، وهى ما إذا كان اليهود الدين بقوا فى المدينة سيحافظون على معاهدتهم وينضمون إلى محمد ، وكان هناك أيضاً الروح المعنوية للرجال الذين لا زالوا يذكرون الهزيمة التى أصابتهم فى أحد . لقد كان من الغباء من كل الوجوه الخروج لقتال قوة مثل هذه القوة المتفوقة تفوقاً هائلا والمجهزة أفضل تجهيز . إن الواجب هو الدفاع عن المدينة ، وما كان هذا الأمر سهلا .

كانت دور المدينة الخارجية ملتصقة بعضها ببعض إلى مسافه طويلة فكانت تكون سوراً منيعاً ، وكانت الحدود الشمالية يحرسها حائط جرف منحدر ، وكانت بنو قريظه وهى آخر قبيلة يهودية باقية بالمدينة تقوم بحراسه مؤخرة محمد ، فإنهم ينزلون فى حصن منيع ينبغى دكه قبل

أن يستطيع عدو اجتيازه ، ترى هل يقومون بحمايته ؟ ما كان محمد يدرى ، ولكن كان من الواجب أن يتبع ذلك وأن يدعهم يعتقدون أنه يعتمد عليهم ، وكانت المعضلة المباشرة هى جنوب المدينة المكشوف والجنوب الشرقى وهو الجانب الذى تنطلق فيه الطرق إلى حدائق الواحة ، ومن الممكن اختراق هذا الجزء من المدينة بهجوم شديد فتنهار التحصينات الأخرى .

وكان سلمان الفارسى أول من فكر فى إيجاد حل لهذه النقطة العويصة التى أعيت العرب . كان سلمان عبداً مسيحياً ، وقد جاء به إلى المدينة يهودى ، وقد حرره اعتناقه الإسلام من العبودية وجعله من أنصار محمد ، فلما سنحت الفرصة التى تمكنه من إظهار امتنانه لما فعله الإسلام له ، فإنه لم يتردد بل تقدم بخطته ، فقد اكتسب فى بلاده وفى العراق تجربة فى الحصار الحربى ، فكان الأمر بسيطاً بالنسبة إليه أن يقترح حفر خندق عميق واسع ، بطول الجهة المفتوحة من المدينة .

ويبدو هذا رأيا بسيطا ورأيا فى مقدور أى فرد أن يقترحه ، ولكنه كان جديداً على العرب الذين كانوا يقاتلون دائماً يداً ليد ، وإنها لطريقة غير مألوفة لإعلان الحرب ، حتى إن أعوان محمد اعتبروا هذا الأمر ضرباً من الجبن ، ولكن محمداً ما كان لينظر نظرة اعتبار إلى فلسفة الأخلاق فى أمر الدفاع عن مدينته ، إنه ليود الدفاع عنها بأفضل طريقة فعالة ، وإن هذه الطريقة ليبدو أنها الطريقة الوحيدة فى هذه الظروف فاتبعها .

لم يكن هناك فسحة من الوقت ، فقد سار إليهم القرشيون ، وبينا

كان حجم جيشهم يعوق سرعتهم ، فإن الدفاع عن المدينة ينبغى أن يتم فى خلال أيام . وما كان هناك أدوات للحفر وما كان هناك مهندسون ولا حتى عمال تعودوا أن يقوموا بمثل هذا العمل ، وما كان هناك إلا سلمان الذى يعرف طريقة حفر الخنادق ، فابتدأ يعمل .

ابتدأ العمل بمعاونة محمد ، فبينا كان سلمان يصدر تعاليمه ، ويقدم نصائحه ويصحح أخطاء العاملين ، راح محمد يضرب الأرض فى حماس ويحفر ويحمل التراب على عاتقه ، وراح يشجع رجاله بكلمات ويرتجز لهم شعراً ، وقد كان لهم قدوة وقد تعرى حتى وسطه ، وتهدل شعره على منكبيه ، واسترسلت لحيته على صدره ، وابتدأ يظهر بالتدريج خندق عميق واسع لدرجة أنه كان من المتعذر على فرس أن تتخطاه أمام الجهة المفتوحة من المدينة ، فلما ظهرت طلائع أبى سفيان فى التلال المجاورة ، كان الخندق قد تم حفره .

تسلح محمد وأعوانه ، واصطف الثلاثة آلاف مسلم فى أماكنهم خلف الخندق ، ووضعت فصيلة الفرسان التى تكونت حديثاً فى الوسط كاحتياطى للطوارىء ، وقبل أن يلوح الأعداء فى السهل الممتد أمام المدينة بوقت طويل ، كان المدافعون على أهبة القتال .

ما كان القرشيون قد سمعوا بهذه الطريقة من طرق الدفاع كما كان حال المسلمين من أسبوع مضى ، فتقدموا صفاً ظانين أنهم سيسحقون جيش المدينة الذى كان من الواضح لهم أنه ليس كفئاً لجيشهم . ولقد كانت دهشتهم عظيمة لما وجدوا أنفسهم أمام هذا الخندق ، وقد راح رماة محمد يطلقون عليهم من خلفه سهامهم القاتلة ، فانسحبوا سريعاً ،

وراحوا يسوون صفوفهم على مسافة آمنة من القسي .

واستمر الجيشان يرقب كل منهما الآخر لأيام قليلة ، وراح القرشيون يسخرون من المسلمين لإعلانهم الحرب بهذه الطريقة ، فأجابهم المسلمون بإطلاق السهام ، وقذف الحجارة عليهم ، ولم يتبادل الجيشان الضربات الحقيقية .

وأصبح أبو سفيان الذى كان يأمل فى هزيمة محمد فى يوم واحد ثم يعود إلى مكة فى عشرة أيام نافد الصبر ، فقد وعد حلفاءه بالغنائم السريعة السهلة ، وكان يعلم أن وقوفه هذا دون عمل سيجلب له اللوم ، وإنه ليستطيع أن يحس عدم رضا حلفائه ، فلو أنه أخفق فى إتمام ما جاء له فإن ذلك الجزء من الجيش الذى جاء معه للأسلاب سيعود إلى مراعيه وسينسى القتال ومحمداً .

ولما كان الخندق منيعاً ، فقد راح يفكر فى مهاجمة نقطة أخرى ، وكان معقل اليهود فى المؤخرة أضعف نقطة فى دفاع محمد ، فلو أن بنى قريظة قبلوا الانضمام إلى قريش لفقد الخندق قيمته .

لم يكن اليهود فى أول الأمر يميلون إلى سماع اقتراح أبى سفيان ، ولكنهم جازفوا بعد قليل وقبلوا أن يخونوا المسلمين لما تلوح لهم الفرصة ، ولم يمض طويل وقت حتى وصلت هذه الأنباء إلى محمد ، فعلم فوراً مقدار الموضع الحرج الذى سبضعه فيه وجيشه عمل الخيانة هذا ؛ فجمع أعوانه وأطلعهم على الموقف ، فلما لم يتقدم أحد منهم باقتراح عملى استمر محمد فى الحديث .

قال لهم : إن الغطفانيين هم أهم حلفاء فى الجيش المكى ، وعلى ذلك

فعلى المسلمين أن يحاولوا أن يرشوهم ليبعدوهم عن أبى سفيان بأن يقطعوهم ثلث ثمار المدينة ، وقابل القوم هذه الخطة بالصمت ، فقد كانت هذه أول مرة لا يقدم فيها محمد وسائل عدائية حماسية فى معالجة الموقف ، وكان سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس بالمدينة أول من تكلم قال :

— يا رسول الله أمر تحبه فنصنعه أم شىء أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؟

فأجاب محمد الذى كان يعلم أن خطته ضعيفة :

— لو أمرنى الله ما شاورتكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما .

فهز سعد رأسه وقال :

— يا رسول الله ، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم (غطفان) على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نقطعهم من أموالنا ! ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فلم يعترض أحد سعدا ، فغُض النظر عن الخطة ، وقال سعد : إن خيانة بنى قريظة إن هى إلا بلاغ فقط ، فإنه وقبيلته كانوا يشاركون هؤلاء اليهود لسنين طويلة دون أن تقوم بينهم متاعب ، ورأى أنه من الأوفق أن يعلم ما يدور فى رءوس يهود بنى قريظة قبل أن يقدم المسلمون

على أى عمل آخر ، فانسل من المجلس الحربى ، وانطلق ليرى حلفاءه ، ونادى على رؤسائهم وراح يحادثهم حديث ود وصداقة ، فأخبرهم ما جاء من أجله ، فأكدت له إجاباتهم كل ما خافه محمد ، فإنهم لم يتركوا أى شك عن إحساسهم نحو عهدهم ، وإن لم يعطوا سعداً رداً مباشراً عن سؤاله ، فقالوا :

من رسول الله !! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد .

وعاد سعد إلى مكان محمد وهو يتساءل هل كانت سخريته من اقتراح رشوة غطفان عملاً ماهراً ، فإن ما قاله اليهود كان بعيداً عن الإخلاص كما كان ائتماراً على الدولة ، ولكن ما كان هذا ليحسن الأمر للمسلمين ، وعلى كل حال فما كان أمامه فسحة من الوقت ليفكر فى هذا ، فإنه قد وجد خطوط القتال تتأجج حماسا .

لقد أمر أبو سفيان بهجوم عام على الخندق ، فاقتحم الخندق من مكان منه ضيق ثلاثة فوارس من قريش ، هم عكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن عبد ود وهو عم لخديجة ، ونوفل وكان قائد القافلة الشهيرة التى هاجمها ابن جحش فى الشهر الحرام قبل غزوة بدر ، وقد تبعهم آخرون قليلون ، فكانت لحظه حرجة لمحمد ورجاله ، قد تقود إلى الهزيمة ، ولكن قبل أن ينتشر الذعر فى الصفوف خرج على ونفر من المسلمين فأخذوا على المهاجمين الثغرة التى اقتحموا منها خيلهم ، فوجدوا أنفسهم قد سقطوا فى الفخ . واندفع محمد ليقوى النقطة الخطرة ، وساد سكون فى كلا الجانبين لبرهة قصيرة تم قطعه عمرو ورفاقه ، فقد طلبوا أن ينهوا الأمر بالنزال الفردى .

فبرز على فورا لنزال عمرو ، فلما رأى المقاتل المحنك من برز له ضحك ، فقد كان يعرف عليًّا مذ كان طفلا ، وإنه لا زال يعتبره غلاما ، ولكن عليا لم تداخله رهبة بل هجم على المكى الذى كان قد ترجل ووقف ينتظر، وكان نحيا فى درعه ، وكانت لحيته البيضاء مسترسلة على درعه ، وكان على الرغم من تقدم سنه مبارزاً لا يشق له غبار . وما احتاج على إلى وقت طويل ليعرف هذا ، فمهما كانت ضرباته قوية ، ومهما كان سريعا خفيف الحركة فما كان يدانى عمراً أبدا . وقد بدا كأنه من الواجب أن يهزم ، وقد تقهقر ليتقى الضربات التى كانت تنزل عليه فى سرعة سهام الضوء ، وبدا كأنما نهاية أسد بلاد العرب قد حانت ، وفى اللحظة الحاسمة التى ما كان على يفعل فيها أكثر من الدفاع عن جلده حسب عمرو أن هناك من يهاجمه من خلفه ، فأدار رأسه ، وما استغرق ذلك ثانية . ولكنها كانت كافية لعلى فقد اندفع إلى الأمام ، فأصبح فى منخفض . وبضربة خاطفة من سيفه ، أطاح رجل عمرو ، فوقف القرشى المحترم لحظة وهو يترنح على قدم واحدة ، يسب عليًّا وأسرته . ثم تناول العضو المبتور . وألقى به على علىّ بكل قوته ، وكان هذا آخر حركة أتاها . وكاد على يصرع . ولكنه أفاق فى لحظة . وأغمد سيفه فى جسم عمرو .

وكانت هناك مبارزات أخرى دائرة فى نفس الوقت . فجرح سعد بن معاذ ، وسقط نوفل فى الخندق وهو يحاول الانسحاب ، وتعقبه الزبير ابن أخى خديجة . وأطاح برأسه ، وألقى عكرمة رمحه منهزماً ، وقتل آخرون وفر بعضهم ، وعلى ذلك فقد كان فى هذا التصادم الفردى فى معركة المدينة نصر للمسلمين .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا لم يفت فى عضد أبى سفيان ، فإذا كان الخندق قد اجتازه قليلون ، فإن الكثيرين يستطيعون اقتحامه ، فاستمر من ذلك الوقت يشن الغارة على خطوط المسلمين ليل نهار . فكان رهط من الفرسان يهاجمون النقطة الضيقه من الخندق أحياناً ، وكان الرماة يزحمون تحت جنح الليل إلى المعسكر الآخر أحياناً ، يسددون سهامهم إلى العدو ثم ينسحبون قبل أن يتمكن العدو من مقابلة العدوان بالعدوان : وكان القتال يستمر فى بعض النقط دون توقف ، فلم يكن هناك وقت للمدافعين للصلاة ، فضايق ذلك محمداً ، وكلما سنحت له الفرصة كان يجمع أكبر عدد يمكن جمعه من أعوانه ثم يصلى لربه خلف خطوط القتال ، وحتى فى هذه الحالة فقد كان يصلى صلاة خفيفة ، وهو ساهر يرقب العدو ، وابتدأ الجهد يعمل عمله ، وبدأت علامات الإنهاك تظهر فى الجيش ، وبدا كأن ما تبغى جميع الجيوش المتحالفة عمله أن تحافظ على هذه النكنبكات المزعجة حتى يصبح المسلمون متعبين لدرجة لا تمكنهم من القتال . وكان يقلق القواد أيضاً خطر اليهود الزاحف من الخلف ، ولم تتحرك بنو قريظة حتى الآن . فقد كانوا ينتظرون سنوح لحظة ملائمة حتى يشتركوا فى المعركة دون أن يتحملوا خسائر جسيمة ، وإن هذا الحرص هو الذى أنقذ محمداً .

لقد كان من الميسور على الجواسيس أن يتجولوا هنا وهناك دون أن ينيروا شكوكاً ، فقد كان رجال المعسكرين من منطقه واحدة أصلاً ، وما كان لكلا المعسكرين لبس خاص مميز ، وكانوا جميعاً يتكلمون لغة واحدة . فقرر محمد ان يستفيد من هذا ، فبعث رجالاً دون أن يستشير

أعوانه ليحركوا ريبة بنى قريظة وجنود أبى سفيان ، وقد كانت طريقة تنفيذ ذلك بسيطة كما كانت فعالة .

أنذرت بنو قريظة بأنه من الأفضل أن يستيقنوا من أن أبا سفيان عازم على أن ينصفهم ، فإنهم إذا لم يأخذوا حذرهم فإنهم قد يجدون أنفسهم يقاتلون المسلمين وحدهم بينما ينصرف المكيون . وقال الجاسوس: إن من الحكمة ألا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم .

وقد قيل لأبى سفيان وقواده كذلك : إن بنى قريظة لا تفكر فى خيانة محمد ، فإذا ما صدرت الأوامر إليهم بالتحرك لقتال المسلمين ، فإنهم سيجدون الوسيلة التى يتهربون بها من التنفيذ ، وسيطلبون رهائن . وعاد الجواسيس إلى معسكر محمد بعد أن بذروا بذور الشك ليرقبوا ثمارها .

وقرر أبو سفيان القيام بهجومه الكبير فى يوم السبت ، وعلى ذلك فلما أرسل إلى بنى قريظة يطلب منها عونه جاءه الجواب بأنهم لا يستطيعون القتال يوم السبت ، وقد قالوا للرسول : إن على قريش أن يقدموا لهم رهائن من المكيين قبل أن يقلبوا ظهر المجن لحليفهم السابق .

كان أثر هذا البلاغ النهائى على أبى سفيان كأنما صب عليه ماء بارد ، فأمر بإيقاف الهجوم العنيف واتخذ الاحتياطات ليحمى مؤخرته وجناحيه من أى هجوم مفاجىء يقوم به اليهود ، وقد قال لرجاله إن الأمر سيحتاج إلى وقت أطول مما كان يظن لضطر المدينة إلى التسليم ، فانتقل اليأس من جانب المسلمين إلى قريش .

وانقلب الجو ضد المكيين مما سبب فى زيادة متاعبهم . فإن الشتاء فى الصحراء يكون برداً قارصاً ويكون هذا خاصة فى الأماكن المرتفعة

عن سطح البحر كالمدينة . فنموت المراعى خلال يناير وفبراير، ويرحل البدو إلى الجهات الأكثر دفئاً فى بلاد العرب . وقد وجد المهاجرون أنه من الصعب أن يتأقلموا ، وإن وجدوا الدور وضيافة مضيفيهم ، بيد أن المكيين كانوا يعسكرون فى الخلاء ، فابتدأوا يقاسون من الجو ، فأصابهم برد ، وماتت دوابهم ، وما حدث شىء يؤملهم فى الحصول على الأسلاب الموعودة ، ثم ابتدأت السماء تمطر .

كان مطراً غزيراً بارداً ، وكان من نوع المطر الذى يعمل المعجزات للمراعى ، ويجلب الشقاء للإنسان والحيوان الذى يعيش تحته ولو للفترة القصيرة التى يدومها ، وكان المطر مصحوباً بريح عاصف ، كان يشتد هبوبها يوماً عن يوم ، ثم صارت ريحاً صرصراً عاتية ، فكانت تصفر خلال الشجيرات وتولول بين أشجار النخيل الباسقة ، ثم راحت تثنى جزوعها كأنما كانت من الخيزران ، فثبتت قريش أوتاد خيامهم ثم احتشدوا داخلها ، فأطفأ البلل نارهم ، وأفسد الماء طعامهم ، وراحوا يرتجفون من البرد المرير . لقد كانت حالة جسمانية لا يتحملها عربى طويلا ، فكان جيش أبى سفيان ينسى مهمته العظيمة ويتوارى فى ظلام الصحراء كلما اقتلعت الزوبعة خيمة وأطارتها مسببة جفول الدواب .

وذهبت العاصفة بهم : لأنه لما أقبل الصباح أرسلت الشمس أشعتها إلى الواحة والفضاء من سماء صافية زرقاء ، فاستنشق المسلمون الهواء الدفء ، وتنفسوا الصعداء ، وتحولت طمأنينتهم إلى دهشة ثم إلى عجب لما نظروا إلى الجانب الآخر من الخندق ، فما وجدوا من الآلاف الذين كانوا يقاتلونهم ورواحلهم وأفراسهم وحميرهم وبغالهم إلا خياماً قليلة ملقاة

على الأرض وبعض الحيوانات النافقة ، ويبدو لمرة أخرى كأنما معجزة أنقذت قضية المسلمين .

وفى لحظة ارتفع الأذان على أصوات العجب ، فيمموا جميعاً صوب مكة ، وهتف الجيش كله فى صوت واحد : « الله أكبر » .

وهبطت الأيدى التى ارتفعت إلى الآذان ثم تبعوا رئيسهم ونبيهم فى صلاة الصبح وراحوا يقرأون : «سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » .

وراحوا يقومون بحركات الصلاة ، فكانت أصواتهم ترتفع وتنخفض حتى إذا ما سلموا : « السلام عليكم ورحمة الله » انتهت الصلاة ، فقام الرجال فى بطء ، والتقطوا أسلحتهم ، ثم انطلقوا إلى دورهم .

وما ابتدأوا فى وضع عدة القتال حتى سمع صوت بلال يجلجل خلال سعف النخيل الذى كان يداعبه النسيم ، وما كان نداء عادياً ، بل كان نداء تجميع (الصلاة جامعة) ، فظن الجنود لتوهم أن أبا سفيان قد خدعهم ، فأسرعوا إلى المسجد وقد حملوا سيوفهم ورماحهم .

ووجدوا هناك محمداً وقواده لازالوا فى عدة القتال ، وكان على بجوارهم ، وكان فى عدة القتال الكاملة أيضاً ، وكان حاملا راية الإسلام ، وكانت الخيل هناك أيضاً متأهبة للانطلاق ، فلما التأم جمع الجنود ، أمر محمد بالسير ، وركب على رأس جيشه وسار ليقودهم إلى الطريق ، فلم يعد إلى الخندق ، بل انطلق إلى معقل بنى قريظة .

فما إن رأى اليهود المسلمين حتى علموا سبب قدومهم ، فأسرعوا بإغلاق أبواب حصونهم وابتدأ حصار آخر ، وظهر أن اليهود لم يكن

عندهم المؤونة الكافية فى حصونهم كما كان شأنهم فى الحالات السابقة، فقد ابتدأوا يتضورون جوعاً قبل مضى طويل وقت، وبعد مدة كان هناك وفد عند محمد يستمع إلى شروطه.

وابتدأ محمد فى عرض شروطه بعد أن أشار إلى أن بنى قريظة قد فجروا فى عهدهم وسلموه للعدو، وأن هذه ليست حالة خيانة فحسب، بل تآمر على الدولة، فلم يضع عليهم جزية، ولم يوجه إليهم اتهامات، ولم يوقع عليهم جزاء من أى نوع، بل طلب منهم أن يدعوا دينهم وأن يقبلوه زعيماً لهم، فرفض اليهود ذلك وانسحب الوفد خلف أسوار الحصن، واستمر الحصار.

ما كان أمام اليهود فى النهاية إلا أن يسلموا أو يموتوا جوعا، فقالوا إنهم يقبلون أى شروط أخرى ما عدا الإسلام، وطلبوا محايداً ليحكم فى قضيتهم. التمسوا زعيماً من زعماء حلفائهم القدامى الأوس، ليكون قاضياً عدلا، فوافق محمد على ذلك وسألهم أن يعينوا واحداً بالذات، فطلب اليهود سعد بن معاذ دون تردد.

لم يكن سعد فى الجيش، فقد منعه الجرح الذى أصابه فى الخندق من الخروج، وبقى فى داره، لقد كان يتألم ألماً شديدا، وما كان يستطيع السير، فلما بعث محمد فى طلبه لينطق بحكمه، حملوه على حمار وضعوا فوقه وسائد، فلم تحسن الرحلة المتعبه من أخلاقه وروحه، فما بلغ حصن بنى قريظة حتى كان يحس إحساس كراهة لهؤلاء الناس الذين تسببوا عن طريق غير مباشر فى جرحه.

كان الوقت ليلا، وكانت ظلال النخيل تمتد كثعابين طويلة ملتوية

فوق الفضاء المكشوف أمام الحصن ، وكان ضوء ذهبي يغطى حوائط الدور ، ويتألق فى دروع المسلمين المقاتلين الذين كانوا ينتظرون فى صفوف مصفوفة ، وكان محمد واقفاً أمامهم فى درعه ولأمته ، وسيفه يتدلى إلى جانبه ، ووقف خلفه بقليل أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وخلفهم القواد الآخرون . وكان أمامهم أكداس من الأسلحة والطنافس والسلع المنزلية التى جاء بها اليهود من دورهم ووضعوها أمام الغزاة . وكان اليهود إلى اليمين وإلى الشمال ، فكان الرجال وقد شدت أيديهم وثاقا خلف ظهورهم فى ناحية ، وكان الأطفال والنساء فى ناحية . لم يتكلم الرجال فقد كانوا يعلمون أن محمداً لا يرحم إذا ما أغضب ، فقد اقترفوا جريمة الخيانة فى زمن الحرب . وما كان هناك إلا خيط واه من الأمل فى التسامح . وإن الفرصة الوحيدة فى أن يتذكر سعد بن معاذ المشاركة السابقة . ولم تهدأ النساء فقد كن يبكين فى مراره أزواجهن وإخوانهن وأبناءهن وآباءهن الذين فصلهم سيف المسلمين عنهن .

عاون المسلمون سعداً فى النزول عن حماره ، وحمل إلى حيث كان محمد ينتظره ، فسلم عليه ثم نظر إلى اليهود ، لقد كانت آخر مرة رآهم فيها يوم شتموه وقالوا له من رسول الله هذا ولم يطيعوه ، لقد سخروا منه لما أكد لهم أنه يعمل لسلامتهم . وانتظر لحظة ثم قال :

— عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت ؟

فأحنى اليهود رءوسهم موافقة .

وتريث سعد ثانية ، ثم قال بين دهشة المسلمين وذهول اليهود :

— فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتغنم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

وسرت غمغمة عدم تصديق بين صفوف المسلمين تبعتها صيحات رعب من اليهود ، فركعوا وراحوا يلتمسون الرحمة ، فناحوا وبكوا ومزقوا شعورهم ، ولكن لم يستمع إليهم أحد ، وأصدر محمد أوامر قليلة صارمة ، فسحب الأطفال والنساء إلى ناحية واقتيد الرجال إلى ناحية أخرى .

وحمل الرجال سعداً ثانية ووضعوه فوق حماره فانطلق إلى داره .

وابتدأ الرجال المسلمون ثانية فى الحفر فى أثناء الليل ، وما كان هذا الخندق عميقاً ولا طويلا كذلك الذى حفر أمام المدينة ، ولكنه سيشهد قتلى أكثر مما شهد خندق المدينة ، وابتدأ تنفيذ حكم الإعدام عند شروق الشمس ، فقد جلس محمد وحوله أعوانه حيث يستطيع أن يشاهد المذبحة ، وقد تولى على والزبير القتل ، فكان ستة من اليهود يسحبون فى وقت واحد من المكان الذى أمضوا الليل فيه ، فكانوا يركعون أمام الخندق فتطاح رءوسهم وتدفع جثثهم إلى القبر الفاغر فاه ، واستمرت عملية إطاحة الرءوس النهار جميعه حتى عبق الجو برائحة الدم ، ولما غاصت الشمس فى الغرب وهب النسيم من الواحة كان القتل مستمراً ولم يتوقف لما خيم الظلام ، فكانت سيوف المسلمين تتألق فى ضياء المشاعل فتطيح برءوس يهود آخرين ، وأخيراً لما اختفى آخر يهودى فى الخندق ، عاد محمد إلى مساكنه وأخذ معه يهودية حسناء تدعى ريحانة ، وقد مات جميع أقاربها الذكور فى ذلك اليوم ، وقد تصور محمد أنها ستجد

الراحة فى التزوج به ، ولكنها رفضت هذا ، وقد رفضت اعتناق الإسلام أيضا ، فصارت جارية الرسول ومحظيته ولكنها لم تعش طويلا ، ولعلها لم تنس مذبحة الثمانمائة يهودى أبداً ، وقد قالت عائشة وقد كانت حاضرة إن ما رأته فى ذلك اليوم لم يفارقها بعد ذلك .

وتبع القصاص من نطق بهذا الحكم ، فقد كان ركوب الحمار لسعد شيئاً متعباً ، فنفر جرحه ثانية وتسمم دمه ، فمات سعد فى نفس الوقت الذى مات فيه آخر يهودى ، وكانت آخر كلماته تشهد بإيمانه بالإسلام : « السلام عليكم يارسول الله ، أشهد أنك رسول الله حقاً ! »

وإن إبادة اليهود جملة موضوع جدال بين الذين يعتقدون فى محمد والذين لا يؤمنون به ، وإن ما يمكن قوله هو أنه لما يصبح الناس متعصبين للدين يصيرون متعصبين فيحبون أن يقتلوا الذين يختلفون معهم فى أمور عقائدهم ، وهم يقتلون عادة فى قسوة وجملة .

فبعد مولد سليمان حوالى ١٠٣٥ قبل المسيح هزم داود الأمونيين وسلب مدينة ربّة ، وإننا لنجد فى التوراة ، صموئيل الثانى ، الإصحاح الثانى عشر ، « وأخرج (داود) الشعب الذى فيها ، ووضعهم تحت مناشير ، ونوارج حديد ، وفئوس حديد ، وأمرهم فى أتون الآجر .

وإن شاول أيضاً أرسل إلى نوب ، مدينة الرهبان ، قبل ذلك بسنين قليلة ، لأسباب شخصية لا دينية ، من يضرب بحد السيف كلا من الرجال والنساء والولدان » .

وفى الحقيقة ، إذا ما فكر يهود المدينة فى الأمر لعلموا أن محمداً ما فعل شيئاً أكثر أو أقل من تنفيذ التعليمات التى وضعها قومهم

فى الإصحاح العشرين من سفر تثنية الاشتراع :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً ، فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك » .

ما كان محمد أكثر أو أقل قسوة من أى زعيم دينى فى التاريخ ، فقد كان عليهم أن يجعلوا الناس يحسون سلطانهم ، ويجب ألا يغيب عن البال كيف كان من الضرورى بالنسبة له أن لا يدع أى شك يخامر الناس فى سلطانه هذا .

وقف محمد وحده فى بلاد العرب ، وهى بلاد مساحتها ثلث مساحة الولايات المتحدة ، يقطنها حوالى ٥ ملايين نسمة ، وما كانت ممتلكاته أوسع بكثير من (السنترال بارك) وكانت وسيلة تنفيذ رغباته ثلاثة آلاف مقاتل مجهزين أسوأ تجهيز ، فلو أنه أظهر ضعفاً ، أو سمح بوقوع خيانات دون أن يوقع الجزاء الرادع ، لما عاش الإسلام أبداً . لقد كانت مذبحة اليهود هذه شديدة ولكنها ليست الأولى فى التاريخ ، وإنها لعدل فى نظر المسلمين ، ومن ذلك الوقت أصبحت القبائل العربية واليهود يفكرون مرتين قبل أن يتحدوا ذلك الرجل الذى صمم على أن يسير فى طريقه .

الفصل الخامس عشر

قلادة عائشة « حديث الإفك »

(عام ٦٢٧ م)

للنساء العربيات ضلع كبيرة فى شئون البيت على عكس الاعتقاد السائد ، فقد يتصور المرء أنهن إن هن إلا متاع لأزواجهن لحبسهن فى الحريم أو لعزلهن فى خيامهن ، ومن المحتمل أن الرجال يتصورون ذلك ، ولكن لما كان الأمر يتعلق بالنساء فالرجال مخطئون كالعادة .

فالنساء العربيات ، على الرغم من أنهن لا يتمتعن بالحرية النسوية كأخواتهن الغربيات ، وعلى الرغم من أن فرص إثارة الغيرة ، والهروب وارتداء الثياب المثيرة لا تتاح لهن ، فإنهن يحكمن أزواجهن ويستولين عليهم ، ويخدعنهم بطريقة لبست أقل من السحر .

والعرب يهتمون بسيدات النقاب ، ويحافظون على شعورهن أكثر من أغلبية الغربيين ، فمن الواجب أن يكونوا أكثر تعقلا فى مراقبة قطيع نسائهن .

ولا يستثنى محمد من ذلك ، فقد كانت له غريزته الأسرية ، وأظهر أعظم الحدب على أزواجه اللاتى يقطن أكواخاً حول المسجد .

وكان يعلن أن النساء أنصاف الرجال التوائم ويقول « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى منها آخر » .

ولم يُسجل أبداً ما إذا كان أزواج المدينة قد استغللن محمداً وخدعنه ، وقد افتريت حادثة واحدة ، ولما كانت عائشة هى موضوع الافتراء ، فقد كان الشك يحتمل الوجهين . فقد كان فى رأس هذه الفتاة من الأفكار أكثر مما فى رأس ألف نابه ، وكان لها قدرة الحصول على ما تبغى ، فقد كانت متمتعة بكل ما يخلب الألباب ، وكانت غانية أيضاً ، ففى زمن الحادث الذى نحن بصدده لم تكن تقدر زينب أو أم سلمة حق قدرهما ، ولطبيعتها المستقلة وطفولتها كانت قادرة على إتيان أى شىء دون تحمل مسئوليته . وهاك ما حدث .

كان محمد يأخذ دائماً معه زوجة أو زوجتين إذا ماقام برحلة أو خرج فى إغارة ، وكن يرحلن فى هودج فوقه مظلة مشدودة على إطار من الأغصان ، وكان الهودج يشد إلى سنام البعير ، فكان النازل فيه يختفى عن الأنظار كلية ، فكان من المحال معرفة ما إذا كان فى الهودج أحد أو كان فارغا ، ما لم ترفع المظلة .

كان محمد قد أتم غزوته القصاصية الناجحة ضد قبيلة بنى المصطلق ، حيث تزوج من جويرية زوجه الثامنة، وكان فى طريق عودته إلى المدينة بجنده وبعيره وغنائمه ، وكانت المرحلة الأخيرة لبلوغ المدينة طويلة ، فكان على المسلمين أن يحملوا خيامهم فى الفجر . فلما استيقظت عائشة خرجت إلى الخلاء لبعض حاجتها . فلما عادت كانت خيمتها قد رفعت ، وكان جملها منتظراً . فلما همت بدخول هودجها اكتشفت أن قلادتها قد انسلت من عنقها ، فعادت أدراجها دون أن تخطر أحداً للبحث عنها ، وكان من الصعب رؤية قلادة منسلة فى عماية الصبح بين الحصى والأعشاب

ولاح نور الصباح قبل أن تعثر عليها ، ثم نبتتها حول عنقها وعادت لتلحق بالقافلة ، ولكن لم تجد هناك قافلة ، وكانت نيران العسكر هي الدليل على أن أناساً كانوا هناك . لقد حسب المكلفون بنقل عائشة أن السيدة في هودجها فشدوه إلى بعيره ، فقد كانت عائشة صغيرة خفيفة جداً حتى إنه ما كان أحد ليلحظ وجودها في الهودج من غيابها ، فلما تحرك الركب ، انطلق الرجال وهم يقودون بعيراً غير محمل .

وقفت عائشة لحظة تحدق في فضاء الصحراء العريض ، وقد انسحب الفجر ليفسح لحرارة الصباح ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية إلى الفضاء الصخرى ، فلم تجد أثراً لقومها أو قافلتها ، فهزت منكبيها وجلست ، فما كان يجدى الذعر ، وما كان هناك من فائدة في محاولتها اللحاق بقافلتها ؛ وإنه لمن الأفضل أن تبقى في المكان الذى رؤيت فيه آخر مرة . وإنها لتأمل أن يعود القوم إليها إذا ما افتقدوها فلم يجدوها في الهودج . فلما ارتفعت حرارة النهار استولى عليها خمول ، فالتفت في جلبابها ، واستظلت تحت شجرة ثم نامت ، فلما استيقظت كانت الشمس مرتفعة في السماء ولم تكن وحيدة .

كان ينظر إليها من فوق هجين مرتفع شاب وسيم ، ففركت عائشة عينيها ، فابتسم الشاب ، ثم أناخ بعيره وقال إنه صفوان بن المعطل ، ولم تقدم عائشة نفسها له ، تبعاً لما قالته عائشة لما روت القصة ، وكان صفوان يعرفها بالنظر فقد خاطبها بعائشة بنت أبى بكر .

سألها صفوان : ما تفعله بجلوسها منفردة في وسط صحراء العرب ؟ فشرحت له عائشة الأمر ، فضحك صفوان ثم عرض عليها بعيره ليقودها

إلى المدينة ، فقبلت عائشة ، فساعدها صفوان على الركوب ثم انطلقا .

وفى نفس الوقت استمرت قافلة المسلمين فى طريقها دون أن يفطن أحد إلى أن عائشة ليست فيها ، ولم يكتشف اختفاؤها قبل أن يناخ الجمل بالهودج الفارغ أمام مساكن النبى ، ثم ابتدأت الدهشة .

إن قواد الجمل الذين كانوا مقتنعين بأنهم رحلوا من المعسكر بعائشة قد عزوا اختفاءها إلى الجن ، وكان هذا هو الشرح الوحيد المقبول مادام أنهم لم يقفوا فى الطريق أبداً ، وما كان محمد ليوافق على خرافات كهذه ، فراح ينظم جماعة للخروج للبحث عنها لما أقبل بعير من طرقات المدينة الضيقة يقوده شاب وسيم جميل ، وكانت عائشة جالسة على ظهر البعير حلوة كالفجر ، وأنيخ البعير أمام مدخل دارها ، فنزلت عائشة ، وابتسمت لصفوان ودلفت إلى الدار دون أن تحس أنها عرضة للانتقاد كأنما اعتادت السفر فى الصحراء مع شبان أغراب .

وكان محمد مسروراً برؤية زوجه الأثيرة عنده سالمة ، فرحب بها ، ولما كان الأمر يتعلق به فقد انتهت الحادثة ، وكان من الواجب أن تنتهى مالم يتدخل فى الأمر عبد الله بن أبىّ .

لم يقل لى أحد من أصدقائى العرب كيف كان يبدو عبد الله بن أبىّ ، ولم يوصف فى أى كتاب من الكتب التى قرأتها ، ولكن من الواجب أن يكون شخصية غير محببة ، شخصية خائنة شريرة ، فظة جبانة ، ويلوح أن يكون له خصال مُفيستوفيلز وياجو ويورياهيب والشخصيات الشريرة الأخرى المعروفة فى تاريخ القصص . ويلوح أن أمنية حياته كانت مضايقة محمد ، فما إن سمع بعودة عائشة منفردة إلى المدينة حتى راح

يوسع الأرض إذاعة ، فقال دون أن يحاول معرفة الظروف الملابسة للحادث ، إن صفوان عشيق عائشة ، وأضاف إلى ذلك أنه لا يلوم عائشة ، وإن الشيء الوحيد الذى كان يدهشه هو إخلاص هذه الفتاة الفاتنة التى كانت فى السادسة عشرة ، هذه المدة الطويلة لهذا الشيخ المرتجف الذى يقرب من الستين ، فإذا كان الجميع لا يوافقون ، فالجميع منافقون .

ولم يشارك عبد الله فى فريته إلا القليلون ، منهم حمنة أخت زينب بنت جحش ، وكانت زينب تعتقد أن الله نفسه زوجها من محمد فكانت تحس أنه من الواجب أن تحتل مكان عائشة الأثيرة عنده ، ولقد فشلت حتى ذلك الوقت فى أن تنال بغيتها ، وقد هيأت لها هذه الفضيحة المفتراة فرصة ، وما كانت تود أن تضر عائشة ، وما كانت تعتقد فى حديث الإفك ، كما أشارت إلى ذلك فيما بعد ، ولكن لما كان عبد الله يذكى نار الشائعات وكانت حمنة متأهبة لنشرها ، فإنها تركت الأمور تجرى فى أعنتها ، وانتشر اللغط فى دور النبى ، وانتشر اللغط فى الخارج ، فكان لكل إنسان فى المدينة روايته عن مسألة عائشة وصفوان ، وما كان يتأخر عن سردها وزيادة على ذلك ، وكما هى العادة فقد كان الزوج آخر من عرف ، فلما بلغه الخبر لم يكن يدرى ما يفعل .

إن محمداً يحب عائشة ، وإنه ليحبها كما أحب خديجة ، ولكن بطريقة أخرى ، فإنه أحبها أكثر مما أحب أية امرأة أخرى كانت فى حياته ، وما كان يستطيع أن يصدق أن هذه الفتاة الصغيرة التى كانت له دائماً صديقة كما كانت حبيبة ، قادرة على أن تخونه متعمدة ، وإن ما بلغه قد أزعجه حتى إنه لم يقدر على أن يتهم عائشة مباشرة ، ولكنه أعرض عنها .

وقد لاحظت عائشة التى كانت تحب محمداً أيضاً حباً جماً إعراضه عنها ، ولكنها لم تفطن إلى السبب فوراً ، ولما فطنت امتلأت حنقاً ، فأقسمت وهى تذرف الدمع السخين أنها بريئة ، واندفعت إلى بيت أبويها ، راحت أمها وأختها تواسيانها ، وقالتا لها لتخففا عنها لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها ، فلو أنها انتظرت دون محاولة مقابلة المثل بالمثل لعاد كل شىء إلى أصله . ولم يقل أبو بكر شيئاً ، ولم يفاتحه النبي فى شىء ، فأغلق بابه عليه وراح يقرأ القرآن ، ولم يستشر محمد عمر[1] ، ومن المحتمل أنه فكر فى صرامته فخشى أن ينصح بالطلاق ، وعلى كل حال فقد أفضى إلى على بالأمر .

لم يكن على رجل نساء ، وكان محارباً مسلماً لا يعتقد فى جميع هؤلاء النسوة اللاتى يخلطن حياتهن بحياة قائده الأعلى ، وكان يعكس كره فاطمة لزوجة أبيها الشابة ، فأجاب على استشارة محمد بأن جميع النساء سواء ، وأن عائشة لا تختلف عن الأخريات ، وقد بلغ هذا القول عائشة فلم تنسه أبداً ، فلما بويع لعلىّ بالخلافة بعد ثلاثين سنة عارضته بشدة حتى إنها أثارت حرباً أهلية دموية بين المسلمين ، ولا زال ترجيع هذه الملاحظة والغضبة التى أثارتها فى عائشة ظاهرة حتى اليوم فى بعض الشقاق الإسلامى .

وفى هذا الوقت كان صفوان يطوف بالمدينة ويقسم أنه لم يكن بينه وبين عائشة أدنى شىء ، وأنه لم يرها أبداً إلا فى هذه المناسبة فى الصحراء ، وكان هدف غضبه الرئيسى حسان بن ثابت ، شاعر النبي الذى ندين له

---

(١) استشار محمد (ص) عمر رضى الله عنه فقال له : «من زوجها لك يا رسول الله ؟» قال : «الله تعالى» قال . «أفتظن أن الله دلس عليك فيها ، سبحانك هذا بهتان عظيم» .

كثيراً بالأدب المعاصر لهذه الحقبة ، وكان حسان صديقاً شخصياً لمحمد ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم إغراء نظم بعض الشعر اللاذع عن الحادثة ، وقد كلفه ذلك أن ضربه صفوان ، والظاهر أنه كان يستحق ذلك ، وفى الحقيقة ماكان أحد بقادر على أن يقاوم إغراء تحليل القصة ثم إعادة سردها ، فقد احتلت مكانة أعظم من المجادلات السياسية الإسلامية .

وعرف محمد أخيراً أنه الوحيد الذى يلام ، فإن الفضيحة ستستمر ما دام مترددا ، فإن من واجبه أن يحكم ببراءة عائشة أو إدانتها ، فقام بعمل حاسم كما هى عادته فى المعارك .

ففى الاجتماع التالى للصلاة ، قام فى الناس يخطبهم فقال : « يأيها الناس . ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهن غير الحق ! والله ماعلمت منهن إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ماعلمت منه إلا خيراً ».

ولما انتهى من ذلك ذهب إلى عائشة ، فوجدها مع والديها وقد جلسا بجوارها على حصير ، فقال :

— يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله ، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقولون ، فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده .

وانتظرت عائشة لحظة لعل أبويها يجيبان رسول الله عنها ، ولكنهما ظلا صامتين فانفجرت وأخبرت محمداً أنه ليس هناك ما تعترف به ، فقد كانت تعرف ذلك أكثر من أى فرد آخر . فكانت تتكلم فى قوة وفى حدة ، ثم انفجرت باكية .

استمع محمد إليها ولكنه لم يفعل شيئاً ليهون على زوجه المنتحبة ،

وحدق فيها فاحصاً ثم ابتدأ يتنهد ، وأغلقت عيناه بعد قليل ، ثم تمدد على الحصير ، فسجاه أبو بكر بثوبه ، وراح فى غيبوبة مدة ، فتوقفت عائشة عن البكاء ، وراحت ترقب محمداً الذى كان يتنفس تنفساً عميقاً فى قلق ، وفجأة ألقى محمد بالثوب عنه وانتصب واقفاً ، وكانت عيناه تشعان سروراً فقال :

أبشرى يا عائشة ؛ قد أنزل الله براءتك .

وخرج من الدار فى خطى سريعة واسعة ، ورقف أمام المسجد وقرأ الآيات التى أوحيت إليه : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون » .

واستمر فى التلاوة لدقائق قليلة مبيناً أحكام الزنا ، وهذه الأحكام مفصلة فى السورة الرابعة والخامسة من القرآن .

فلما انتهى أمر بتنفيذ العقوبة التى شرعها الآن فى حسان وحمنة ومسطح وكان صديقاً لأبى بكر ، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ، ولم يحمل أحد منهم حقداً بسبب ذلك ، ولم يتبدل إخلاص حسان لمحمد ، وقد وضع شعراً بعد ذلك يمتدح فيه فضائل عائشة .

وقد تجاهل محمد عبد الله بن أبىّ الذى كان السبب الحقيقى لكل هذه المتاعب فما كان مسلماً ، وعلى ذلك لم يكن خاضعاً للأحكام الإسلامية ، وزيادة على ذلك ، وعلى الرغم من نمو قوة محمد ، فإنه لم يشعر بعد بقدرته على عداء هذا الشخص البغيض عداء مكشوفا ، ومات عبد الله قبله ، وكان فى موته كما كان فى حياته شوكة فى جنب محمد .

وإن السؤال الذى يظهر أنه لم يجد الجواب العملى المعقول بعد هو ماإذا كانت عائشة بريئة أو غير بريئة. كانت حمنة تصر دائماً على أن مقابلة عائشة لصفوان كانت مدبرة، فلعلها كانت تتألم من « الثمانين جلدة »، وحتى لو كان الأمر كذلك فإن فى رواية عائشة نقطاً ضعيفة. كيف تنطلق عائشة دون أن تخبر أحداً وهى تعلم أن القافلة وشيكة الرحيل ثم تضيع وقتاً طويلا فى البحث عن قلادتها؟ إن عنصر الوقت هنا هام.

إن المعسكر العربى يحتاج إلى وقت لرفعه وعلى الأخص معسكراً كبيراً كمعسكر قوة مغيرة، وحتى إذا ما سارت المجموعة الرئيسية من الجمال فى طريقها فهناك المتخلفون، وقلما يتحرك قطار الإبل سريعاً، فإنه ليقطع ميلين فى الساعة، وعلى ذلك فمعنى عودة عائشة إلى المعسكر ولم تجد أثراً للقافلة، ولا أثراً للمتخلفين، ولا أثراً لمئات الرجال والدواب فى بلاد مكشوفة حتى الأفق، معنى ذلك أن عائشة قد استغرقت ساعتين على الأقل فى البحث عن قلادتها، ولقد نامت بعد ذلك كما قالت، فلنفرض أن غفوتها لم تزد عن ساعة حيث ظهر صفوان بعد ثلاث ساعات من مسيرة محمد وجنوده، فكيف عرف صفوان عائشة بالنظر، وعلى الأخص حسب ماجاء فى قوله فى المدينة بعد ذلك، أنه لم تقع عيناه عليها من قبل؟ إن رواية عائشة إما أنها بسيطة وصادقة حتى إنها لتبدو غير محتملة، وإما أن صفوان والقلادة شيء واحد ونفس الشيء.

وهناك بعض الاعتراضات على هذا الفرض الأخير، فإذا كان صفوان وعائشة عاشقين فهل كانا يبلغان المدينة معاً ويعرضان مسألتهما فى الطرقات؟ وهلا كان صفوان يركب بعيره السريع لينذر القافلة بأن عائشة ليست

فيها ؟ إن الأمر جميعه غير واضح ، وإننا لن نعرف الصواب أبداً [١] ، وكما كان صديق مدنى يقول عند ما كنا نناقش البراهين التى تؤيد وتدحض الوسائل الإسلامية المعارضة للوسائل المسيحية فى تناول المرأة ، « فهناك ثلاثة أشياء لايراها إلاالله وحده هى أثر السمك فى الماء ، وأثر الطير فى الهواء وأثر الرجل فى المرأة » .

وكانت عائشة تقول بعد ذلك بسنين ، إن صفوان قد ظهر أنه كان حصوراً لا يأتى النساء ، أفهذه ملاحظة شريكة بريئة أم شريكة مذنبة؟[٢] أم هذه روح دعابة طروب ؟

وقد فقدت منها قلادتها فى مناسبة أخرى فأوقفت جيش محمد جميعه وجعلت الجنود يبحثون عنها حتى وجدوها .

ويقال إن هذا اللهو قد تسبب فى رخصة استعمال الرمل فى الاغتسال بدل الماء ، لأن الجيش قد أمضى وقتاً طويلا فى البحث عن هذه الحلية حتى حان أوان الصلاة قبل أن يصل الجيش إلى الآبار التى سينزل عندها ، وكان محمد يهتم بالوضوء ، وينبغى أن يسبق الوضوء كل صلاة من الصلوات الخمس ، فكان لذلك يحمل معه ماء أكثر من الضرورى ، فلماضيع جيش المسلمين ساعات كثيرة فى البحث عن القلادة[٣] ، نفد الماء فاستعمل محمد الرمل فى التيمم ، فأصبح أغلب العرب الرحل يغتسلون بالرمل كثيراً ، فسواء

---

(١) قال السير وليم موير تعليقاً على هذا الحادث : « إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد فى دحض أية شبهة أثيرت حولها » .

(٢) قد شكته زوجته إلى النبى . وقد ذكرت له ذلك ، ولاغرابة ولا تهمة فى أن علمت عائشة بذلك.

(٣) يلاحظ أن الجيش قد استغرق ساعات فى البحث عن القلادة ، فلا غرابة فى أن تستغرق عائشة ساعتين كما يقول المؤلف فى البحث عن قلادتها التى كانت سبب حديث الافك .

أكانت القلادة هى التى جاءت بهذا أم لم تكن ، فإن هذا التشريع جعل العرب من أكثر الناس اغتسالا فى العالم ، فبينا الأجناس الأخرى يهيمون قذرين إذا ما ابتعدوا عن الماء فإن العرب يستمرون فى المحافظة على نظافتهم .

وإن الوحى الخاص بعقوبة رمى المحصنات والزناة جعل محمداً يشرع قوانين أخرى تتعلق بالزواج والطلاق .

كان زواج العربى قبل الإسلام وسيلة لنسل الأولاد ، فما لم يكن هناك رجال ليحافظوا على الأنعام فإن القبيلة البدوية كانت عرضة للانقراض ، وما كان للنساء وزن فى هذه الطوائف الضاربة فى الصحراء ، وكان فى مقدور الرجل أن يحصل على أى عدد من الأزواج يستطيع أن يعولهن ، وكان الابن الأكبر يرث نساء أبيه كما يرث الأنعام والخيام ، وعلى ذلك كان زواج الابن من زوجات أبيه ليس أمراً قانونياً فقط بل إجبارياً أيضاً .

كانت الخلاعة فى مكة تماثل عربدة السدوميين والعموريين ، فما كانوا يعتبرون الدعارة مما يخدش الشرف .

وقد بدل محمد كل ذلك تدريجاً : فقد ناصر زواج الصالحين للزواج جسمانياً دون النظر إلى المكانة الاجتماعية أو الثروة ، وقد نادى بأن الزواج أساس المجتمع ، وقد أقام الحد على الزنا والفجور وكل ما يضعف البيت .

وقد جاء فى القرآن :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل

بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وقال لقومه وهو يعظهم : « إن الله يحب أن تعاملوا أزواجكم بالحسنى فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم إلى نسائكم » .

وقد شرع إن إقامة مراسم الزواج ليست ضرورة دينية ، وإننا لنرى هنا أيضاً تأثير الصحراء فى شرائع المسلمين الأولين ، فليس فى مقدور البدو أن يجدوا مأذوناً حالما يودون الزواج أو مسجداً ليقيموا مراسم الزواج فيه ، لذلك غض الطرف عن ضرورة وجود وسيط أو مكان مقدس لارتباط الرجل بالمرأة برباط الزواج ، وإن كل ما يحتاج إليه الأمر هو كتابة عقد بين طرفى الزواج ، يذكر فى هذا العقد كل شيء : صداق الرجل ، وصداق المرأة ، وما الذى يفعل بالصداق فى حالة الطلاق ، وإن هذه القوانين جعلت للمرأة مقاماً أسمى منه فى أى بلد غربى فى ذلك الوقت ، وإن المسلم اليوم ليس له سلطان على ممتلكات زوجه ، بعكس الزوج فى كثير من الجماعات الأوربية ، فإن الإسلام قد منح المرأة الحرية والاستقلال عن زوجها فى التمتع بحقوق ما تملك منذ ألف وثلاثمائة سنة .

وإننا لنقرأ فى القرآن : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » .

ونقرأ فى نفس السورة : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » .

وبينما قد حرم محمد على رجاله الزواج من عابدات الأصنام ، فإنه لم يعترض على زواجهم من اليهوديات والمسيحيات ، وقد أكد ذلك فى القرآن بقوله :

« اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان . . . »

وقد وضح أن المسلم لا ينبغى أن يجمع فى نفس الوقت بين أكثر من أربع زوجات ، ويرجع تجاوزه هذا الحد إلى رغبته فى أن ينجب ولداً وإلى دوافع سياسية [1] ، وكانت عائشة هى البكر الوحيدة التى تزوجها محمد ، وكانت الأخريات مطلقات أو أرامل ، وكان منهن خمس دميمات .

وقد وضع محمد قوانين محكمة للطلاق ، ولم يفعل فى هذا أكثر مما فعل فى تعدد الزوجات ، ولكنه كان يعرف أنه شىء من الأشياء التى لا يمكن تجنبها ، وقد حتم ضرورة معاملة المطلقة معاملة عادلة :

ففى السورة الثانية من القرآن نجد :

« الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً . . . »

فكلما قرأ الإنسان هذا ، والتشريعات الأخرى الكثيرة المماثلة التى

(١) يرجع سبب تجاوز النبى هذا الحد إلى أن الآية القرآنية التى حددت عدد الزوجات بأربع قد نزلت بعد زواج النبى بزوجاته جميعاً ، وسمح له باستبقاء زوجاته كلهن . « يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن . . . »

نشرها محمد أثناء حياته ازداد الإنسان عجباً من عدم نصفة شانئيه ، ويلوح أنهم يتلذذون من تجريح الشئون النسوية الإسلامية بخلاعة ، ومن عرضها لنساء العالم الأخريات فى امتهان وسخرية ، وما كان محمد فظاً مع النساء على الرغم من أنهن أضجرنه كثيراً ، لأنه على الرغم من غيرة نسائه وعلى الرغم من لهو عائشة ، ومشا كل الفتيات الأخريات ، فإن محمداً قد تمتع بالنساء من جميع الوجوه ، فقد أحبهن جسمانياً ولكنهن كن يثرن اهتمامه أيضاً ، وكان يحترم مداركهن . وإن آخر شيء كان يوده لهن هو أن يرتددن إلى حالة الرق التى كن يعشنها لسنين قليلة خلت . وقد كان صارماً مع النساء فى حالة واحدة فقط فإنه لم يفسدهن أبداً ، فقد كانت نساؤه يعشن فى تقشف كما يعيش أتباعه .

ولو أنه كان يعتنى بنفسه عناية فائقة ، فقد كان يكتحل ويتطيب ويخضب شعره لما ابتدأ يتحول إلى اللون الرمادى ، وكان يعتنى بيديه وقدميه ، إلا أن أكله وشربه ومعيشته كانت فى غاية البساطة ، وما كانت أكلته الرئيسية لتختلف كثيراً عن التمر والخبز واللبن واللحم أحياناً ، وكان القثاء يقدم له فى المواسم ، وكان محمد يفضل ماء المطر على أى ماء آخر ، وكان يسره أن يقاسم الآخرين طعامه وما كان يحب البصل والثوم ، وقد رفض أن يأكل ضب الصحراء الكبير ، ويعتبره البدو من الأطعمة الشهية ، وقد يرجع هذا إلى الطيرة من أن بعص أبناء اسرائيل قد تحولوا إلى ضباب ، وكان يتناول طعامه على السفر وكما هى عادة العرب حتى اليوم ، فإنه كان يتناول كل شيء بيده ، وقبل الأكل كان يحمد الله ويقول : اللهم بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيراً منه » وإذا كان اللبن ضمن

الطعام كان يقول : « اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزى من الطعام والشراب إلا اللبن » ، وكان يقول للآخرين : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها »

ولا تعود هذه العوائد الاقتصادية إلى امتهان محمد للتغذية الطيبة ، بل بالعكس فإنه كان يحبها ، وقد كانت عائشة تقول : « كان النبي يحب ثلاثاً : النساء ، والطيب ، والطعام » ويرجع زهده فى الطعام إلى عدم وجود الطعام وإلى إعطائه الآخرين ، وإلى التصدق به حتى لما كانت الغنائم تفد كل أسبوع . ولما أصبح المسلمون موسرين فإن صدقاته كانت تأتى على كل شيء حتى لم يكن له ما يبقيه ، وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه .

وبينا كان يهتم بهذه الشئون المنزلية والقانونية ، كان يعمل على تنشئة الأنعام ، فكانت له راحلتان سريعتان بجوار النياق الحلوب . إحداهما القصواء المعروفة التى حملته من مكة إلى المدينة ، وكانت له ناقة أخرى أسرع منها تعرف بالعضبة ، واهتم أيضاً بالبغال والحمير ، وبالخيول بعد أن تصرم بعض الوقت ، وقد أجرى بعض هذه الخيول فى سباق مع بعض فرسانه وكان هو الذى يمتطيها دائما . وإن سباق العرب طويل ويجرى على أرض خشنة ، وقد كان كل يبذل ما وسعه البذل ليفوز ، وقد كان محمد يفوز دائماً . وقد كان فى السابعة والخمسين ، ولكنه كان يعرف فى الخيول أكثر مما يعرف كثير من جنوده .

وكان يملك واحات عديدة ، إحداها قد صادرها من بنى النضير ، وثانية تركها له يهودى يدعى مقريش ، وما أسلم الرجل أبداً ولكنه كان يعجب بمحمد فشاء أن يقدم له بعض دلائل تقديره ، فلما مات دفنه محمد خارج مقابر المسلمين مباشرة .

وبقيت مساكن محمد متواضعة ، فوسعت الدور الصغيرة القريبة من المسجد لتأوى الأسرة المتزايدة ، فكانت الدور تقسم إلى غرف بسعف النخيل ثم تطلى بالطين ، وكانت الستاتر المسدلة على الأبواب من الصوف الأسود ، وفى داخل الغرف أبسطة وبعض وسائد قليلة محشوة بألياف ، وكانت الحوائط عارية وما كان هناك مفارش ، وعند ما يشتد البرد كان سكان هذه الغرف يغطون أنفسهم ببساط آخر أو ببردة .

ويظهر « ترف » محمد الشخصى الوحيد فى امتلاكه قدحاً من بللور به زخارف من فضة ، وطستا من نحاس ، ومشطا من عاج .

وكان عنده بعض الموالى الذين كانوا يعاونون نساءه اللاتى كن يقمن بأغلب شئون البيت . وكان له كاتم سر خاص هو زيد بن ثابت ، ففى أثناء أيام المدينة الأولى كان يستعمل اليهود للقيام بأعماله الكتابية ، ولكن لما اتسعت شقة الخلاف بينهم وبينه أحل محلهم هذا العربى المتقف ، وإن زيداً هو الذى جمع القرآن من الرقاع والعسب وكتب المصحف كما هو فى أيدينا اليوم .

من الصعب على من لم يعش بين العرب أن يوائم بين هذه الحياة الفاسية والصورة المتخيلة للحريم ، وينبغى ألا يغيب عن البال أن

هؤلاء الناس كانوا رجال صحراء ، وأن رجال الصحراء لا يشبهون أى أقوام آخرين فى العالم .

والطعام عند البدوى ليس مسألة وجبات منتظمة ، فالبدوى الحقيق يتناول وجبة واحدة فى اليوم هى وجبة المساء التى يتناولها قبل أن يذهب لينام ، وكمية وجبته تتوقف على ما إذا كانت السنة سنة رخاء ، وهى سنة هطول الأمطار . فإن وفرة الأعشاب لنفيد البهائم والأنعام وطيور الصيد وحيواناته ، وعلى الرغم من ذلك فإن اللحوم من الترف ولا تقدم كل يوم ، فالضاربون فى فيافى العرب يأكلون ليعيشوا .

وإن العرب المقيمين ، والمدنيين — وهم سكان الواحات — لأيسر حالا ، فإنهم ليمكنهم أن يتناولوا التمر والخضراوات مع خبزهم الدائم ، ولكنهم يعتمدون على البدو أيضاً للحصول على رغد أكثر من هذا ، أى أنهم يعتمدون على المطر الذى يمكن البدو من امتلاك أغنام وأصواف يبيعونها ثم ينفقون ثمنها فى الواحة .

إن مجتمع البادية لا يشترك فى أى شىء مع أى مجتمع فى مكان آخر ، وقد تتشابه طريقة معيشة الناس فى بلاد العرب وفى ليبيا والصحراء ، وإنها لتتشابه ولن تتبدل إلا إذا ما اخترع مخترع مطراً صناعياً .

وعلى ذلك فما كانت هؤلاء الفتيات الجميلات اللائى يكوِّن حريم محمد ، ولا هؤلاء الرجال العظام أمثال أبى بكر وعمر ، ولا هؤلاء الجنود بمجبرين على أن يحيوا حياة التقشف لأن قائداً متقشفاً أو مقتصداً فرضها عليهم ، ولكنهم كانوا يعيشون كما هى عادة رجال الصحراء ، لقد صار الله ربهم وسيقودهم الله إلى الوديان المزدهرة : وديان الدجلة والفرات والنيل

والوادى الكبير (فى أسبانيا)، ولكنه لن يبدل لهم صحراءهم، وإن خلفاء المستقبل القريب سيهيئون أنفسهم لهذه البقاع حيث المياه تتدفق والطعام وفير، وسيصبحون فى رغد وتترهل أبدانهم. ولكن شعبهم، شعبهم المسئول عن انتشار الإسلام سيستمر فى معيشته على حالة التقشف التى عاشها مؤسس دينهم.

إن حياة محمد لتبدو للمسلم الأمريكى أو الإنجليزى أو اليابانى حياة بدائية، حياة تقشف، ولا يمكنه تصورها، كما لا يمكن للمسيحى العادى أن يتصور حياة المسيح، ولكنها للعربى هى الحياة الوحيدة التى يعرفها.

الفصل السادس عشر

القـــرآن

ولو أن القرآن قد أشير إليه تلميحاً فى هذه الصفحات ، إلا أننا لم نتحدث عن جوهره ودوره فى الإسلام .

فالقرآن كتاب جليل يعكس صورة محمد ، بل إنه محمد فى الواقع ، وعلى الرغم من ذلك فهناك قليلون من غير المسلمين ودارسى الإسلام من عندهم أية فكرة عن ماهية القرآن ، فعلى الرغم من وجود تراجم له عديدة جيدة بالفرنسية والإنجليزية والألمانية فمن النادر أن تجد غربيًّا قد قرأه ، فقد سمعت بعضهم يتحدثون عنه على اعتبار أنه تاريخ محمد ، أو على أنه مجموعة من الحكم من نوع حكم كونفيوشيوس ، أو على أنه مجموعة قوانين محمد أو على أنه تأويل للكتاب المقدس ، والظاهر أنه حتى مؤرخى محمد قد تجنبوا التحليل أو الشرح المختصر لهذا العمل الذى عليه قام الإسلام جميعه .

وسأحاول أن أعرف ما يعرضه القرآن فعلا ، دون أن أفكر فى أن أضيف تعليقات جديدة على ما أوضحه العلماء الشرقيون .

وقرآن مشتقة من قرأ ، ولو أن الكتاب جميعه يسمى بالقرآن ، فإن كل وحى مستقل يحمل هذا العنوان .

ويتكون القرآن من ١١٤ سورة ، أطولها تتكون من ٢٤٦ آية ،

وأقصرها من ثلاث ، ولكل سورة عنوان مأخوذ من كلمة أو جملة قريبة من بداية السورة ، وليس من الضرورى أن يكون للعنوان أية علاقة بالموضوع .

فالسورة الثلاثون مثلا عنوانها « الروم » وتبدأ : « الٓمٓ . غلبت الروم فى أدنى الأرض » تشير إلى هزيمتهم أمام الفرس فى سنة ٦١٥ قبل الميلاد ثم بعد آيات قليلة من السورة تنسى الروم .

وإن السورة الثانية هى أطول وأشهر سورة فى القرآن وعنوانها « البقرة » ولكن ليس لها أية علاقة بهذا المخلوق ، ولم تذكر البقرة إلا مرة واحدة فيما يختص بتضحيتها كما أمر موسى فى سفر تثنية الاشتراع .

وتبدأ كل سورة بالبسملة ماعدا السورة التاسعة . وأحياناً تبدأ الآية بكلمة « قل » للتحريض ، وهذا ليدل على أن الله هو الموحى ، وينبغى ألا يغيب عن البال أنه من المفروض أن كل سطر من القرآن إن هو إلا رسالة سماوية نقلت من السماء إلى محمد ، فالسورة ال ١١٤ مثلا هى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس » .

وفى الفرص القليلة التى كان القرشيون يصغون فيها إلى محمد كانوا يقولون إن القرآن عمل رائع لا يمكن أن يكون من عنده ، فكان محمد يجيبهم بأنهم قد أصابوا وأخطأوا ، فإنه عمل رائع لا يمكن لإنسان أن يأتى بمثله وماهو إلا من عند الله .

وقد جاء فى السورة السادسة والعشرين ، الآيات (١٩٢ — ١٩٥) :

« وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين »

وقد نزل بهذا الوحى على محمد ملك من عند الله فى أوقات مختلفة فى مكة والمدينة ، وكان من الضرورى كتابة هذه الرسالات بعد نزولها ، لا على آلة كتابة أو فى ألواح بالطبع ، ولكن فى أى شىء فى متناول اليد ، وقد سجلت « الطبعة الأولى » من القرآن على ألواح عظام كتف الأغنام ، أو على أصداف المحار أو قطع من الخشب أو الحجارة أو قطع من الجلد ، وكانت بعض الكتابات فى سعف النخيل الرقيق ، وفى الرقاع ، وكأنما لم يكن يكفى أن طريقة تسجيل كلام الله هذه كانت طريقة كيفما اتفقت ، حتى أضيف إليها ارتباك آخر بإسقاط هذه القطع والرقاع فى صندوق دون ترقيمها أو تبويبها .

وقد أمر أبو بكر بإشارة من عمر ، زيد بن ثابت بجمع القرآن و « نشره » بطريقة يمكن بها قراءته بعد موت محمد بسنة ، فراح زيد يجمع القرآن من الرقاع ومن صدور الرجال .

فلما جمع زيد كل كلمة كتبها محمد أو أملاها أو حفظها لأصحابه ، نشرها دون أن يتبع أية طريقة ، فما كان يفعل إلا أن يخرج الرقاع من الصندوق كيفما اتفق ثم يكتب الوحى دون النظر إلى الترتيب الزمنى ، وعلى ذلك وضعت السور المدنية الأخيرة قبل السور المكية التى نزلت أولا ، وبعدت المواضيع التى كان من الواضح اتصالها بعضها ببعض . والظاهر أن الطريقة التى اتبعها زيد هى أن يضع السور الطويلة أولا والسور القصيرة فى آخر القرآن ، وإن المرء لغالباً ما يتصوره يقيسها بشريط

قياس كأنما ليدرجها كأنابيب الأرغول ، فلم ينظر إلى استمرار الموضوع ومطابقة الأسلوب الذى كان يرتقى كلما نضج محمد ، فكانت النتيجة عملا مرقعاً مفككا ولا يحمل أية فكرة عن تكون أية خطة فى رأس محمد أو عن الظروف التى كانت تحيط به وتؤثر فيه ، فكان الارتباك عاماً حتى إن فولتير قال بعد أن قرأ القرآن : « كتاب لا يمكن إدراكه يخالف عقولنا فى كل صفحة » .

وإن الحسنة الوحيدة فى طريقة زيد أنها كانت أمينة فوق الشبهات ، فلم يفعل شيئاً ليضيف فقرات أو يضع جمل ربط أو يحذف أو ينسخ تفاصيل تشين الإسلام ، لقد عمل بإخلاص لا يمكن تصوره حتى إنه لما انتهى من « نشر » القرآن ، كان الكتاب من عمل مؤلفه خالصاً ومؤلفه فقط .

وفى الواقع أن عدم التسلسل هذا فى قطعة أدبية ليس بدعا بين العرب ، فغالباً ما يسمع المرء شعراً أو حزباً من القرآن يقرأه مسلم دون أن يلقى كثير اهتمام إلى ما إذا كان ما يقرأه هو البداية أو النهاية .

وإن هذه الصحف المفككة التى كانت عند حفصة هى التى قررت القرآن الكريم ، وعلى الرغم من ذلك فلم يلتفت كثيراً إلى هذا ، وابتدأت الاختلافات تبدو فى طبعات القرآن التى انتشرت فى العالم الإسلامى الآخذ فى النمو .

وفى خلافة عثمان بلغت هذه الحالة درجة سيئة حتى إن حذيفة القائد الإسلامى الذى قادته غزواته إلى سوريا وأرمينيا والعراق أخبر عثمان أنه إذا لم يُعمل عمل حاسم فإن المسلمين سيختلفون فى كتابهم المقدس

كما اختلف المسيحيون ، فبعث عثمان من فوره إلى زيد وكلفه وثلاثة من علماء قريش بنسخ نسخة من القرآن من الصورة الأصلية المحفوظة فى صندوق حفصة ، وقد كتبت بلسان قريش ، ولهجة قريش هى أنقى لهجة فى بلاد العرب ، وكان لهذا أثر غير مقصود فى توحيد لغة العرب ، فاليوم نجد للعرب فى جميع أجزاء أمبراطوريتهم الواسعة ولكثير من المسلمين فى الأجزاء الأخرى من العالم لغة مشتركة حية يتفاهمون بها جميعاً ، ولا يملك هذا أى دين آخر .

ولما تمت هذه النسخة حُرِّق ما عداها ، وأرسلت إلى الآفاق مصاحف يعتمد عليها ، على ألا يضاف إليها أو ينسخ منها لفظة أو فقرة ، فاحترم الناس هذا الأمر ، وليس هناك أدنى شك فى أن القرآن الذى يقرأ اليوم أينما يكون المسلمون هو نفس المصحف الذى نسخ من مصحف حفصة ، ولا زال بعض المسلمين يجزمون بأن المصاحف التى بعث بها عثمان إلى الأمصار فى سنة ٢٥ هجرية بعد موت محمد بخمس عشرة سنة لا زالت موجودة ، وعلى الرغم من عدم وجود سبب لعدم حدوث هذا فإنى لم لم أقابل أعرابياً أبداً ممن رأى مثل هذه النسخة . وقد وضعت فهارس رسمية لنسخ القرآن الأولى حوالى القرن التاسع ، أى بعد موت محمد بمائتى سنة تقريباً ، وعلى كل حال فليس لهذا من أهمية حقيقية إلا بالنسبة لجامعى الكتب ، ولكن المهم هو أن القرآن هو العمل الوحيد الذى عاش أكثر من اثنى عشر قرناً دون أن يبدل فيه ، ولا يوجد شىء يمكن أن يقارن بهذا أدنى مقارنة لا فى الديانة اليهودية ، ولا فى الديانة المسيحية .

والشىء الوحيد الذى يؤخذ على هذا العمل الذى لم يتبدل هو حاجته

إلى الترتيب ، وعلى كل حال فقد عولج هذا النقص بعض العلاج ، فبينا هنـاك دلائل وصلت إلينا عن أقوال أتباع محمد بأنه كان يقصد ترتيب الوحى حسب الموضوع لا ترتيباً زمنياً ، فإن عدداً من العلماء الشرقيين والأوروبيين والأسويين قد نشروا ترجمات للقرآن فى لغـات عديدة ، وقد رتبت سوره الترتيب الصحيح ، أو الترتيب الذى تدل جميع الشواهد على أنه الترتيب الصواب ، وقد استدعى هذا القيام بعمل شاق عسير ، فليس فى القرآن جميعه ما يدل على الزمن أو يعـاون عملياً على الترتيب الزمنى ، فإن اسم محمد قد ذكر فى القرآن خمس مرات فقط ، ولم يشار إلى الزمن إلا فى مرتين . وإن ما هدى الباحثين إلى تاريخ السور هو نسقها ، فالسور الأولى يغلب عليها الإلهام الشعرى ، ففى السطور انفعال شديد ، وإبراز لجمال الطبيعة ، وإحساس باحث صادق عن الحقيقة ، ومؤكد للعقائد بطريقة كفيلة باجتذاب الأتباع . وتبرز الصور والألفـاظ المستعملة راعى الصحراء ، والمتأمل والشاعر والنبى .

ولمـا ابتدأ يصبح لمحمد سلطان ، أصبحت السور للنذير ، وهذه السور أكثر غلظة ، وأكثر اختصاصا بالعقائد ، فهى كلام مرسل ، كلام رجل يهدف إلى قلب العقـائد ، فلما تحسنت الأمور لصالح الإسـلام ، ازداد هذا فأصبح خطيب مكة مشرعا ومقـاتلا ، وحاكما بأمره ينـادى بالطاعة ، ففنى العنصر الشعرى فى الظلال ، وأصبحت هنـاك فقرات تتحدث عن : « ما وعد الله ورسوله » و « ما أعد الله ورسوله » . وفى الواقع لا يمـكن إقامة البرهان بوضوح على ارتقاء وتطور عقل التاجر الرحالة المرسل إلى عقل حاكم جزيرة العرب بأكثر من هذه السور المرتبة

ترتيباً زمنياً . وإن هذه السور المرتبة لتبطل ملاحظة فولتير عن الموضوع ، وتبطل ما قاله جوتة : « كلما اقتربنا منه (القرآن) تجدد امتعاضنا ، ثم يجذبنا بالتدريج ، ويثير فينا الدهشة ثم يدفعنا إلى الإعجاب به في النهاية » .

وينبغي أن لا يغيب عن بال أولئك الذين يجدون قراءة القرآن متعبة أنه لم يوضع ليقرأ ، ولكنه وضع ليرتل ويسمع ، وهناك دلائل على أن محمداً كان يعتمد على حالة الترتيل كثيرا ، فكان غالباً ما يقول : «إن من البيان لسحرا » وإن هذا هو الحال حتى اليوم ، فإن أطفال العرب ليحفظون القرآن عن ظهر قلب ، وإن كثيرين ليذكرونه ، وإن مدني صديق الصحراء يمكنه أن يستشهد بأي جزء من القرآن ، ولم يكن عندي الخبرة الكافية للتأكد من صحة ذلك ، وليس هناك من سبب يجعلني أعتقد بأن الكتاب جميعه ليس في رأسه . وقد سمعت المصلين في بعض الأحايين يردون الإمام إذا ما أخطأ في آية من الآيات .

يجب على المرء دائماً أن يقارن القطعة المكتوبة من القرآن بنقط خطبة ارتجالية مختزلة لخطيب عظيم ، فإن انفعالات الخطيب جميعا ، وسياق الحديث ، والسانحات ، لتفقد في السطور المكتوبة بالرصاص ، وإن القرآن ليقاسي كثيراً من الترجمة إذا لم يكن هناك تكافؤ في الأداتين ، فإنه ليعتمد في كثير على طريقة تعبيره بجوار طريقة إلقائه وموضوعه ، وإنه ليفقد كثيرا من جماله كما يفقد الكتاب المقدس اللاتيني كمال الجمال للإنجيل في اللغة الإنجليزية في العصر الإليزبيثي ، وإن القرآن ليفقد الوزن الموحى به إذا ما استبعد عن العربية كما تصبح أية ترجمة للتوراة — ما عدا ترجمة

الملك جيمس – تاريخاً مكرراً ومجموعة قوانين . وإنه لمن المستحيل أن ننقل ما ينقص القرآن فى الإنجليزية والفرنسية والألمانية لمن لم يسمع جلال الصوت الرنان الذى يرتل به العربى القرآن ، أو لمن لم يصغ إلى الأذان المجلجل من مئذنة مسجد . إنه كشيكسبير فى لسان أجنبى أو وجنر فى الإيطالية .

وإنها لمسألة رأى ، ما إذا كان الإنسان يستطيع أن يسمى سور القرآن شعراً ، فإنه قطعاً ليس شعراً كالقصيدة ، وهى أحسن مثل للنظم الجاهلى ويُستلزم فيها القافية كما فى اللغة الإيطالية .

والنصف الأول من السورة الحادية والثمانين المذكور بعد ، فيه ، فى الأصل العربى ، جلال يهز ، من الصعب أن يفوقه أى جزء فى إنجيل الملك جيمس :

« إذا الشمس كورت
وإذا النجوم انكدرت
وإذا العشار عطلت
وإذا الوحوش حشرت
وإذا البحار سجرت
وإذا النفوس زوجت
(وإذا الموءودة سئلت
بأى ذنب قتلت)[1]
وإذا الصحف نشرت

---

(١) سقطت فى الانجليزية .

وإذا السماء كشطت

وإذا الجحيم سعِّرت

وإذا الجنـة أزلفت

علمت نفس ما أحضرت »

وقد سميت هذه السورة مصادفة « بالتكوير » وقد أخذ الاسم من الكلمة الأخيرة من الآية الأولى .

ولم تمنع هذه الخواص الشعرية القرآن من أن يكون مجموعة قوانين دينية وأخلاقية ومدنية ؛ ومن أن يكون كتاب صلاة مشترك ، وقاصاً لحوادث دينية فى نفس الوقت ، وبه آيات خاصة بالاعتذارات الشخصية وبزجر المنافقين ، وباللعنات وبالايحاءات السامية بصفات الله . ولهـذا الكتاب جوهر خفى له تأثير عجيب على العرب ، فقد حول الرعاة والتجار والبدو البسطاء إلى مقاتلين ، وبناة إمبراطورية ، ومؤسسى مدن كبغداد وقرطبة ودلهى ، وإلى علماء وحكام ورياضيين . وإن هـذا الكتاب ولا شك لهو الذى عاون هؤلاء الرجال على أن يغزوا عالماً أوسع من العالم الذى سيطر عليـه الفرس والروم ، وقد فعلوا ذلك فى عشرات السنين بينا استغرق فى ذلك من سبقوهم قروناً . وبينـا أن الفينيقيين قد ذهبوا بعيداً عن أوطانهم وكونوا أنفسهم حيثما كانت التجارة ، وبينـا رحل اليهود بعيداً ولكن كمهاجرين مضطهـدين أو أسرى ، فإن هؤلاء العرب بقرآنهم قد أتوا إلى أفريقيا ثم إلى أوروبا كملوك .

لما حارب المسلمون المسلمين عام ٦٥٧ ميلادية أثر فتنـة صغيرة من فتن عائشة ، وكان معـاوية بن أبى سفيان يقود الجيش الشامى ، وكان

على وشك أن يهزم من جند العرب المقاتلين مع على ، فقد التجأ إلى القرآن الساحر . كان يبدو أن المعركة قد انتهت ، وكان الشاميون محجمين لما صدر إليهم الأمر برفع مصاحفهم على الرماح ، فما إن رأى جند على هذا حتى خفضوا أسلحتهم ، وانتهت المعركة بالتحكيم .

واليوم ، إذا لم يجد القاضى فى أكرا أو رباط فى القوانين التى وضعها محمد للعرب البدو نصاً يطبقه على القضية فإنه يضع القرآن على رأسه وبذلك يجلب الاحترام للحكم البشرى والقانون الموضوع .

وتخضع فعال سُبع سكان العالم إلى هذا الكتاب ، ولم يستطع أحد حتى الآن أن يسوق التفسير المقنع .

والقرآن يتحدى التحليل ، فلا يمكن تمييزه بطابع خاص واحد ، لأنه لا توجد سورة واحدة تحافظ على الطابع الواحد من بدايتها إلى نهايتها ، وكثير من القرآن غير أصيل ، فإنه ليستعير الأفكار من العهد القديم والعهد الجديد ، فإننا لنجد به « التكوين » وخطيئة آدم ، ونوح ، ودعاء إبراهيم ، وإسمعيل وإسحق ، ويعقوب ، وقد دوّن القرآن انتخاب اليهود كشعب الله المختار ، وبراءة موسى والأنبياء وكتّاب المزامير، وعلى الأخص داود وسليمان كقطع من التاريخ تنشر لأول مرة ، وإن محمداً لم يحذف حتى الوعد برجعة المسيح ، وقد اتفق القرآن والعهد الجديد على أن عيسى هو المسيح المنتظر ، وسلم بوجوده المعجز بقوله : « إنه نفخة من روح الله » وقد قبل القرآن زيادة على ذلك حمل مريم البتول ، ومولد يحى العجيب ودوره كمبشر بالمسيح . وقال كذلك

باضطهاد المسيح وتعذيبه وصلبه ، وقال محمد أخيراً برفع المسيح إلى السماء قبل موته ، وبما يقوم به هناك بين الله وخلقه [1] .

وبينا أن هناك آية واحدة فقط من الكتاب المقدس فى القرآن وهى « وسيرث الأرض عبادى الصالحون » ، المزامير ، إلا أن هناك آيات تتقارب كلماتها جداً من الكتاب المقدس .

وهاك بعض الأمثلة :

الكتاب المقدس : « وستعطى النفس بالنفس ، والسن بالسن ، والحروق بالحروق ، والجروح بالجروح »

القرآن : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص »

الكتاب المقدس : « من التراب أنتم ، وإلى التراب تعودون »

القرآن : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، (ومنها نخرجكم تارة أخرى [2]) »

وهناك ما يدل على أن محمداً وعيسى كانا يشتركان فى كثير فى حياتهما الأولى ، فبينا نجد المسيح يتكلم عن الأغنام الضالة والفرح بوجودها نجد محمداً يقارن رضا الله عن توبة الخطاء بسرور البدوى الذى يجد بعيره الشارد فى الصحراء .

وقد ظل أمرا غامضاً كيفية معرفة محمد بالتوراة والإنجيل ، كما سبق

(١) السورة الثالثة والرابعة .

(٢) لم تذكر هذه الآية فى الأصل الانجليزى .

أن أشرنا إلى ذلك ، وهناك هذه الترجمة التى تعزى إلى ورقة ، ولكن ليس هناك أقل شاهد على أن محمداً قد اطلع عليها ، وكان حديثه وورقة يتعلق بعموميات اللاهوت ، وإن السبب الأولى الذى يؤكد عدم اطلاعه عليها أن ورقة قد مات قبل أن يبدأ محمد فى تدوين ما أوحى به جبريل إليه ، وقبل آن يبدأ فى تنسيق القرآن بكثير . وإن أول طبعة عربية للعهد القديم قد نشرت بعد المسيح بتسعة قرون ، أى بعد موت محمد بما يقرب من ثلاثة قرون ، بينا أن أول طبعة رسمية عربية للعهد الجديد قد ظهرت بعد ذلك بقرنين . وللعرب ذاكرة واعية مدهشة ، فمن الممكن أن محمداً كان قادراً على أن يختزن فى عقله كل ما سمعه خلال رحلاته ، وإن هذا ليبدو عملاً خارقاً ، ولكن هذا هو التفسير الممكن الوحيد ، إلا إذا قبلنا صراحة أن القرآن وحى من السماء .

وإن الآيات التالية قد أخذت عن ترجمة ج . م . رودويل لهؤلاء الذين يتوقون إلى معرفة بعض الشيء عن تعابير القرآن ومواضيعه .

السورة التاسعة عشرة (وعنوان هذه السورة « مريم » وهى من السور التى لها علاقة بعنوانها ، فإن الموضوع له علاقة بمريم البتول)

« واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتَّخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سويّا ، قالت : إنى أعوذ بالرحمٰن منك إن كنت تقيّا ، قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيّا ، قالت : أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أَكُ بغيّا ، قال : كذلك قال ربك هو علىّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيًّا . فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّا ، فأجاءها المخاض

إلى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسيّا ، فناداها من تحتها ألّا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريّا ، وهُزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّا ، فكلى واشربى وقرّى عيناً فإما ترينّ من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أُكلم اليوم إنسيّا ، فأتت به قومَها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّا ، يأخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمّك بغيًّا ، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيّا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيّا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا ، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيّا ، والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا ، ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذى فيه يمترون » .

• السورة الثالثة (وعنوانها « آل عمران » وليس لها أية علاقة بعمران الذى كان محمد يعتقد أنه أبو مريم العذراء ، والآيات التالية تخاطب اليهود والمسيحيين) .

« يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ، هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيّا ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين»

السورة الثانية (هذه الآيات من سورة البقرة وهى تدل على عدم أهمية ما هو خارج نطاق الفرائض الدينية . وهى خاصة بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة) .

« ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

السورة السابعة (وعنوانها « الأعراف » وتتحدث بداية السورة عن طرد إبليس من الجنة وخطيئة آدم وحواء) .

« فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وُرى عنهما من سوءاتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما : إنى لكما لَمِنَ الناصحين ، فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون »

السورة الرابعة والعشرون (وعنوانها « النور » وإن الآيات الآتية لمحاولة لتبديل السجع العربى العظيم) .

« والذين كفروا بِرَبِّهِمْ أعمالهم كسراب بقيعة يحسَبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لُجِّىٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه

سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

وإن هذه المنتخبات القليلة لتعاون على إعطاء فكرة عن مدى التباين العظيم فى الموضوعات التى عالجها القرآن ، وإنها لتعطى فكرة عن نوع العقل الذى كان يتمتع به محمد ، وإنها لتجعل المرء يعجب كيف عرف كل هذا ، ومتى فكر فى كل هذا ، وأين تعلم نظم الشعر المرسل الرنان .

وقد شرحت فى هذا الكتاب نشأة محمد ، وبيئته وذكرياته ، واضطهاده فى أول أيامه : فما من شىء من هذا لينبىء عن مشرِّع القوانين والدين والأخلاق : أو مؤلف الأساطير القديمة والقصص : أو واضع كتاب صلاة ، وكل هذا فى أسلوب عربى رصين مكين . ربما كانت جميعها وحياً سماويًّا .

وكان محمد يقول إن هناك معجزات خارقة للطبيعة وإن القرآن معجزة فى نفسه . وربما كان على صواب ، فقد عاون كثيرون فى كتابة الكتاب المقدس وقد استغرق ذلك منهم قرونا . وقد كتب محمد القرآن بمفرده ، وقد استغرق ذلك منه ما يقرب من عشرين سنة .

وقد قال قائل لعائشة بعد موت محمد : « أخبريني عن خُلق رسول الله »

قالت : «أما تقرأ القرآن ؟ » قال : « بلى » .

قالت : « كان خلقه القرآن » .

إن دراسة القرآن ضرورية لتحليل شخصية محمد ، ولتقدير مدى عمله الباهر ، ولقياس قوة حسه .

الفصل السابع عشر

المعـــــاهدة

(٦٢٨ م)

انصرمت الآن ست سنوات على هجرة محمد من مكة ، فبعد أن كان منبوذاً لا وطن له ، يتساءل عما إذا كان سيعيش يومه ، فقد صار الآن فى مركز له أهميته فى بلاد العرب ، فأصبحت المدينة مدينته ، وراحت قبائل كثيرة ممن ترعى بالقرب من المدينـة تظهر الولاء له كحاكم لهم . وكانت هناك قبائل لا زالت محافظة على عادات العرب من النفور من الحكومة المركزية ، وكانت القبائل المعادية له قليلة ، وقد اتبع محمد إزاء هذه القبائل سياسة واحدة هى القوة ! . إن له الآن قوة صغيرة خفيفة الحركة تمتطى الإبل والخيول ، وقد كانت الجموع المعادية تعلم ذلك ، فكانت تشن عليه غاراتها ثم تلوذ بالفرار .

وقد وقعت غارتان من هـذه الغارات فى خريف عام ٦٢٧ ، وقد نالتا من سمعة محمد كثيراً ، ففى الغارة الأولى هاجم زعيم العرنيين المدينة وطوق قطيعاً من النوق الحلوب لمحمد ، وقتل الحراس ، وحمل النساء ، وعلى الرغم من أن محمداً قد بعث فى أثره ثلاثمائة فارس فإنهم لم ينجحوا إلا فى استرداد نصف الاسلاب فقط ، ولم يستطيعوا أن يثأروا من المغيرين ، وكانت زوجة أحد الحراس هى الوحيدة التى بقيت على قيـد

الحياة ، فقد فرت على بعير ، وعادت لتقص نبأ المغيرين ، فلما بلغت دارها كانت قد نذرت إن أنجتها الناقة لتنحرنها قرباناً لله ، فلما أخبرت النبي بنذرها قال : « بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ، ونجاك بها ثم تنحرينها » فلم تدر المرأة ما تقول ، وأُنقذت الناقة من النحر .

كان محمد يحب الحيوان ، وعلى الرغم من أنه أقر الأضحيات فى أوقات معينة ، لكنه لم يوافق أبداً على القتل حباً فى القتل ، وكان يزجر من يسىء إلى المخلوقات الحية . كانت الأضحية عادة قديمة متأصلة ، فكان من المحال نبذها فى الدين الجديد ، وعلى الرغم من ذلك فقد رفض محمد أن يكون منافقاً فيها ، فقد اشترط أن يضاف إلى البسملة المعتادة قبل أن يهم المرء بالذبح : « بسم الله ، الله أكبر » .

• وقد أمر بعدم الإساءة إلى حيواناته وإلى الحيوانات التى يستعملها ، وقضى بصعوبة على عادة ربط الجمل بقبر صاحبه الميت حتى يموت معه ، وقد حرم استعمال الطيور الحية غرضاً فى مباراة الرماية [1] ، وأوقف قص معارف الخيل وآذنابها فى هذا القطر الذى يغزر فيه الذباب [2] . وكان إذا ما رأى رجالا يحمّلون حميرهم أو بغالهم فوق طاقتهم كان يلقى القبض عليهم ، وكانت الكلاب هى الحيوانات الوحيدة التى لا يحبها ، ولعل مرجع ذلك أن كلاب الصحراء خطيرة متوحشة ، لا يرغب أحد فى استئناسها ، ولكنه لم ينكر مكانها فى الجنة مع الحيوانات الأخرى .

(١) « لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضا » حديث شريف .

(٢) « لا تقصوا نواصى الخيل ولا معارفها وأذنابها ، فإن أذنابها مذابها ، ومعارفها دفاؤها ، ونواصيها معقود فيها الخير » حديث شريف .

وقد قال مرة : غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء ، فغفر لها بذلك .

وقال : « إن لنا فى البهائم أجراً ، وفى كل ذات كبد رطبة أجراً »

وإن حياة الحيوان ، حسب ما ورد فى القرآن ، لتعدل فى نظر الله حياة الإنسان : « وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون »

وأينما يرى المرء مسلماً يستعمل حيواناً مريضاً ، فإن هذا المسلم يكون فى تسع مرات من عشر فى مجتمع يسيطر عليه الغربيون ، أى حيث يكون الإسلام قد غمر ، فإن العربى الأصيل ليعتنى بفرسه وجمله كما يعتنى بأسرته ، وقد يكون لهذا بعض الدوافع العملية ، ولكنه يعود فى الأصل إلى حالة فكرية ورثوها عن مؤسس الإسلام .

وقد شن الغطفانيون الذين شاركوا فى حصار المدينة الغارة الثانية التى كادت تزعزع سلطان محمد الآخذ فى النمو ، وقد أخذت مجموعة كبيرة من المسلمين على غرة منها فهزمت وقتلت ، وراح المسلمون يطاردون المغيرين فلم يتمكنوا إلا من استعادة الأغنام والخيام والسلع ، ولكن لم تقع بالعدو أية خسارة .

إن عادة إغارة القبائل على القبائل بين العرب عادة ابتدأت قبل محمد بكثير واستمرت بعده بكثير ، وإنها لمستمرة حتى اليوم ولا يوقفها إلا اعتداء من كافر أو عدو أجنبى ، فتتحد القبائل لملاقاة المغير ، فإذا ما تمكنوا من طرده ، عادوا سيرتهم الأولى من الإغارة بعضهم على

بعض . إنها حرفة غير مقبولة ، كما يسرق المرء من المرء ثيابه المغسولة ، ولكنها وسيلة من وسائل العيش عندهم .

وفى سبتمبر تصادمت مكة والمدينة مرة أخرى ، فقد أرسلت قريش قافلة غنية إلى سوريا ، وقد سارت القافلة فى حذاء شاطىء البحر ، وقد حسبت قريش أن محمداً مشغول بمشاكله المحلية . ولكن ترامى النبأ إلى محمد ، فانقضت سرية من سراياه السريعة على المكيين انقضاض النسر الكاسر ، وعادت بكثير من الفضة والإبل إلى المدينة . وكان بين الأسرى أبو العاص زوج بنت رسول الله .

وإننا لنذكر أن أبا العاص قد وقع فى الأسر فى بدر ، وأنه قد فك إساره على أن يعيد زوجه زينب إلى المدينة ، وقد جاء بها زيد ، ولكن قبل أن تغادر مكة ، أساء إليها بعض الذين أوترتهم الهزيمة ، وقد تسببت هذه الإساءة فى إجهاضها ، فما استعادت زينب صحتها بعدها أبداً ، وقد بقيت بعد ذلك فى كنف أبيها ، والآن وبعد ثلاث سنوات ونصف ، قد وقع أبو العاص أسيراً فى أيدى المسلمين ثانية .

وعلى الرغم من أن هذا الرجل لم يترك دينه ، فإن وشائجه العائلية لتجعله مسلماً ، فإنه زيادة على أنه زوج ابنة محمد ، فقد كانت خديجة عمته ، وقد ازدادت الأواصر بينه وبين هذه الأسرة بعد ذلك لما أصبحت ابنته زوجة على الثانية ، وأما مسألة اختلافه فى الدين فإنها مسألة من المسائل التى تقع فى العائلات ولا تبدل من إجلاله لعمه وحميه .

وفى الليلة التى دخل فيها المغيرون بالقافلة التى سلبوها ، فر أبو العاص ودخل على زينب ، فما كان هناك أسعد منها لما رأت زوجها ، ورحبت

بعودته إلى بيته ، وفى صبيحة اليوم الثانى ، أعلنت من فوق سطح دارها أنها أجارت الأسير ، وما كان محمد يعرف شيئاً قبل أن يسمع إجارة ابنته ، فعرض الأمر على المجتمعين فى المسجد دون تردد ، فاتفقوا جميعاً على أن يمنحوا أبا العاص حريته ، فأثر هذا العمل النبيل فى الشاب حتى إنه عاد إلى مكة ليصفى أعماله ثم قفل راجعاً إلى المدينة حيث اعتنق الإسلام، ولم تعش زينب طويلا ، وقد سبب موتها حزناً ثقيلا لأبيها وزوجها ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان محمد يجد راحة فى وجود قريب خديجة معه ، الذى أضاف إسلامه حلقة فى السلسلة التى كان يطوق بها قريشاً تدريجاً.

وقد سمعنا باهتمام محمد السياسى بالممالك الخارجة عن جزيرة العرب لأول مرة فى نهاية هذه السنة ، فقد أوفد محمد رسولاً إلى هرقل إمبراطور الروم يحمل تحيات النبى ، فلم يذهب إلى أبعد من سوريا حيث قابله حاكم الروم وجامله ورده بهدايا . وما كان الحاكم ليدرى من يمثل هذا الرسول ، ولم يتصور لحظة أن اليوم الذى يقوم فيه جلالته بإيفاد مفاوضين إلى هؤلاء العرب المجهولين ليس ببعيد ، ولكن إرسال الهدايا قد أرضت محمداً فقد أكدت له ما بلغه من شأن فى خلال السنوات الست الماضية .

ومن المحتمل أن معرفتـه لما كان يقوده قدره إليـه ، كانت مما جعله يعزم على إنفاذ ما كان يفكر فيه أحياناً ، ألا وهو فتح مكة .

كانت السنة السادسة للهجرة تقترب ، وكان يبدو أن احتمال كسب مكة بالاقناع احتمال ضئيل ، وقد وسَّع القتال والإغارة من الهوة بين المسلمين وقريش ، وكان أبو سفيان لايزال على عدائه الشديد لمحمد وقوانينه السماوية ، كما كان فى أيام الاضطهاد الأولى بمكة ، وكان يؤيده فى ذلك هند

وخالد وعكرمة وعمرو وجميع رؤساء قريش . كان أمامه ولا شك احتمال أن يضحى بكل شيء وأن يستولى على مكة عنوة ، ولكن على فرض نجاح هذا ، فإنه ليتعارض والرغبة فى عدم إباحة البلد الحرام ، ومن المحتمل أن هذا ما كان لينهى كل شيء .

إن الحل الآخر الوحيد هو أن يجنح للسلم ، ولكن كيف يفعل هذا بكياسة ؟ كيف ؟ لقد خطر على بال محمد فكرة رائعة ، لم لا يقود جنوده عزلا من السلاح ليحجوا إلى الكعبة ؟ فإذا ما نفذ هذا فى الأشهر الحرم فإنه ليضمن عدم مهاجمته ، وقد يكسب مكة دون إرغام أحد الطرفين على الإذعان والتسليم .

وما إن عزم محمد على هذا حتى أنبأ قواده به ، فقابلوا هذا النبأ بغبطة عظيمة ، وقد طلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه ، فأجابه قليل ، وأبطأ عليه كثير من الأعراب ، لقد كانوا يشاركون محمدا فى الغنائم ، ومن الواضح أن هذا الخروج لا غنائم وراءه .

وتم تجهيز كل شيء فى فبراير من عام ٦٢٨ ، وقد خرج ألف وخمسمائة حاج محرمين فى ثيابهم البيضاء متأهبين للحج فعسكروا وجمالهم خارج المدينة ، وقد كانوا عزلا فما كان معهم إلا قرب سيوفهم وأقواسهم وسهامهم ، وإن الإجراء الوحيد الذى اتخذه محمد لتأمين الناس هو أن بعث سرية من اثنى عشر فارساً ليستكشفوا له الطريق ولينذروه إذا ما وجدوا أى عدوان ، وما كانت عائشة ولا حفصة فى الخارجين ، وكانت أم سلمة هى الوحيدة التى رافقت الحجيج .

إنه لمشهد فخم ولا ريب أن ترى هذا الجيش من الرجال وقد

اصطفوا أمام نخيل المدينة الرفراف ، هؤلاء المكيون المهاجرون الذين تركوا كل شيء فى سبيل عقيدتهم ، وهؤلاء المدنيون الذين قاسوا كثيراً فى سبيل مثل أعلى . لقد جلسوا منتصبين فى ملابس الإحرام البيضاء ، صفاً خلف صف ، على إبلهم المرتفعة ، وما كان هناك درع أو خوذة تتألق فى الشمس ، وحتى السيوف القصيرة كانت مخبأة تحت آباط الرجال اليسرى ، وكان أمام الركب سبعون بدنة ، وقد ساقها محمد للنحر وقد جللها ثم أشعر[1] منها عدة فى الشق الأيمن وقلدهن نعلا نعلا ، وكان بينها جمل أبى سفيان ، الذى غنمه الرسول فى بدر ، دليل نخر .

وراح محمد يمر بين الصفوف وهو على ناقته القصواء التى جاءت به من مكة فى أيام الاضطهاد ، يوم كان رفيقه صديقاً واحداً شيخاً مخلصاً . كان هناك وجوه جديدة بين هذا الحشد ، ولكنّ هناك كثيرين أيضاً ممن يعودون إلى أشهر الإسلام الأولى : فهذا أبو بكر الصديق ، وعمر العظيم ، وعثمان الأريب ، وعلىّ أسد بلاد العرب ، وزيد وبلال ومن شهدوا بدراً وأحد والخندق ، وقد كان محمد ينظر إلى هؤلاء الرجال على الخصوص فى عطف ونخر ، فإنه بسببهم ليرى أمامه الآن الشاهد على أن دعوته لم تكن عبثاً .

وتمت المرحلة الأولى من الرحلة دون وقوع حادث ، فلما بلغوا ذا الحليفة نزلوا بها ، وبقوا بها مدة حتى تأهب الحجاج ، ثم ساروا فى الأرض الحرام المحيطة بمكة وهم ينادون بالتلبية : « لبيك اللهم لبيك ! »

فتلبد الجو الصافى عند ذلك ، فقد بلغ محمداً أن قريشاً قد سمعت

---

(١) الاشعار جرح لصفحة السنام ، والتقليد أن تقلد فى عنقها قطعة جلد ليعلم أنها هدى .

بمسيره فلم تصدق دعوة السلام التى أذاعها ، وحتى إذا كان محمد صادقاً فى دعواه أنه ماجاء إلا لزيارة البيت فإن أباسفيان لن يسمح له ولا لرجاله بالدخول إلى مكة مهما كانت الظروف ، وليؤكد ذلك فقد أرسل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل على رأس جيش من فرسان مكة وقد لبسوا السلاح للقتال .

فكر محمد سريعاً ، فما كان يميل إلى قتال قريش ، وما كان يميل إلى أن ينكص على عقبيه ، فانتظر حتى إذا ماخيم الظلام ، سلك برجاله طريقاً وعراً بين شعاب قاسية ، وظهر ثانية خلف خالد بمكان يعرف بالحديبية على مسيرة ثلاثة أميال من مكة ، وعسكر هناك . لم يكن هناك ماء كثير ، ولكن رجاله كانوا معتادين على القتال فطهروا بئراً من الآبار المنثورة فى تلك الأنحاء ، فما انتهوا من ذلك حتى راحوا ينتظرون ماتفعله قريش .

كان كل منهم متحفزاً ، مستعداً للقتال إذا ما ظهر جيش خالد ، ولكن خالداً انسحب لما اكتشف أن محمداً على مقربة من البلدة ، وساد الهدوء لمدة .

وقد جعل محمد رجاله يقولون للرعاة وللناس الذين أقبلوا إلى الحديبيه ليروا ما هنالك : إنه ماجاء إلا للحج فقط ، فلما ابتدأ القرشيون يحسون صدق هذه الدعوة ابتدأوا فى بعث رسل إلى محمد ليروا ما إذا كانت هناك أية أفكار أخرى فى رأسه ، فكان يؤكد لهم ميوله السلمية .

وقد حاول عروة زوج ابنة أبى سفيان أن يفحم محمداً ، فحاول أن يستثير غضب المسلمين فراح يسخر منهم وهم فى ملابس الإحرام ويؤكد لهم أن حماه لاينوى أن يسمح لهؤلاء الأوباش بالدخول إلى مكة ، ولقد

تهيج حتى إنه تناول لحية محمد[1] ، فندت صيحة غضب ، وامتدت مائة يد إلى الأسياف المخبأة تحت الثياب البيض ، فأطلق عروة لحية محمد ، وألقى سلام الوداع سريعاً ثم امتطى فرسه وعاد إلى مكة .

وأكد عروة ما أكده الرسل السابقون عن محمد الذى عظم مركزه أكثر مما يتصور فى تلك السنين القلائل . إن هذا الناصح الذى كانوا يسخرون منه كان يعامل كإمبراطور ، فإن له مجلساً وقال : « إنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وإنهم ليرون كل شيء يمس جسم محمد مقدساً » .

وسواء أكان هذا ما قاله عروة تماماً أم لم يكن ، فمن المؤكد أن هذا العمل بقى بين بعض أحفاد محمد ، فإن الماء الذى يستحم به أغا خان يحفظ ويعبأ فى زجاجات ويرسل به إلى المؤمنين فى جميع أنحاء المعمورة . وقد يستحم فى ريتس أو سان رجيس فى نيويورك أو فى مونت كارلو أو ريودى جانيرو فيحجز الماء ليتبرك به الأتباع كما كان يحدث لمحمد فى عام ٦٢٨ م .

وعلى كل حال فقد كان مثل هذا التوقير للبشر شيئاً جديداً بالنسبة لقريش ، فأثر فيهم تأثيراً عميقاً وإن لم يخضعوا له بعد ، وقد كانوا يرهبون قليلا ما قد يفعله محمد ، ولكنهم ما كانوا يودون أن ينال من كرامتهم على الأخص ، لقد أبقاهم محمد خارج المدينة ، وقد سخر منهم لما خرجوا لقتاله فى عشرة آلاف مقاتل ، فلن يكون من المقبول أن يسمحوا له

---

(١) هذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه خصوصاً عند الملاطفة .

بالدخول إلى مكة وأتباعه الذين كانوا جيشاً على الرغم من أنهم كانوا عزلا من السلاح.

وأُرسلت إلى معسكر المسلمين رسالة فحواها أن يرجع محمد عن مكة عامه هذا وأن يأتى فى العام المقبل للحج ، فأجاب محمد بأنه على استعداد لأن يناقش هذا، ولكنه يود تفاصيل أوفى، فلم يأت جواب هذا، وساد نوع من الضيق. كانت قريش تتناقش وتتباحث حول الكعبة، فكان فى كل مرة يعرض فيها عضو ميال إلى الحرب الخروج لقتال محمد وطرده، كانت نظرة إلى جانب التل حيث تتألق نيران عسكر المسلمين كافية لتعيد إليهم صوابهم. وأخيراً أقدم محمد على الخطوة التاليه.

دعا إليه عمر ليبلغ عنه قريشاً ، ولكن عمر أحجم، فإن مكة تعج بأعدائه، وما من أحد فيها إلا بينه وبينه تأر، وقد وافق محمد على ما قال ودعا إليه عثمان.

لم يعترض عثمان، فإنه لم يكن بمكة لسنين . وقد ابتدأت هجرته إلى الحبشة قبل أن تبدأ المتاعب الحقيقية، فلم يكن بينه وبين قريش حزازات دينية أو شخصية، وقد كان من أسرة أُميَّة، وعلى ذلك فقد كان هناك صلة قرابة بينه وبين أبى سفيان. فخرج عثمان فى رسالته إلى مكة، فقابل ابن عم له أجاره، وقد وجد أن القرشيين عازمون على معارضة دخول محمد البلد الحرام هذا العام، وقد كان عثمان مثلهم فى تصلبه وعناده، فاستغرقت المفاوضات أياماً وليالِيَ.

وابتدأ المسلمون يقلقون فى معسكرهم ، وراجت إشاعة أن عثمان قتل، فدعا محمد الحجاج إليه، ووقف تحت شجرة، فبايعوه على أن يثأروا

لعثمان إذا ما أصابه مكروه ، فوقف الألف والخمسمائة حاج أمام قائدهم ووضعوا أيديهم فى يده ، وأقسموا ، وقبل أن يقوم المسلمون بأى عمل ظهر عثمان ، لقد أخفق فى أن يبدل عقول قريش ، ولكنه أحضر معه رجلا أعطى له مجلس قريش السلطة فى أن يناقش شروط محمد لعقد معاهدة ، وكان هذا الرجل هو سهيل بن عمرو .

كان سهيل معروفاً فى أيام الاضطهاد الأولى بمكة ، فقد شارك الجموع المعادية للمسلمين لما ابتدأ التعذيب ، وقد أخذ أسيراً فى بدر ، وقد فر من الأسر ليقع فيه ثانية ، وإنه ليدين بحياته لمحمد الذى قيده فى داره حتى جاءت فديته ، وما كان كلا الرجلين ليحب الآخر ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان سهيل ذا تفويض مطلق ، وما يتفق عليه يصبح نافذاً معمولا به .

وبعد مباحثات طويلة ، وضعت شروط الصلح كالآتى :

يعود محمد وأصحابه إلى المدينة ، ويعودون فى السنة المقبلة على أن تترك لهم مكة ثلاثة أيام يطوفون فيها حول الكعبة ، وفى خلال هذه الفترة يخلى القرشيون البلد الحرام ويعسكرون خارجها ، وعلى الحجيج أن يكونوا عزلا من السلاح إلا من السيوف فى القرب ليحموا أنفسهم ، وقد تهادن المسلمون وقريش لعشر سنين من هذا التاريخ (مارس ٦٢٨) ، وفى خلال هذه المدة يسمح لقوافل المدينة ومكة أن تتحرك فى أراضى كل منهما فى سلام ، وأن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم .

كانت هذه هى الشروط الرئيسية فى المعاهدة ، فلما اتفق على التفاصيل الثانوية ، دعى على ليكتب ما اتفق عليه الطرفان ، وابتدأ محمد فى الإملاء فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : أمسك . فما سمع هذه الفاتحة ، وما كان يحبها ، فجعل محمد يغير فاتحة الصلح بعبارة : باسمك اللهم .

واستمر محمد فى الإملاء ثانية فقال : اكتب باسمك اللهم . هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

فهب سهيل منتصبا ، وكان غاضبا ، وكان متأثراً فما كان يصدق أن رجلا قد وضعت جائزة لمن يأتى برأسه من ست سنوات عنده ثقة بنفسه لأن يلقب نفسه هذا اللقب فى وثيقة رسمية ، وقد قال على الرغم من المسلمين الملتفين حوله ، وعلى الرغم من أن كلا منهم يحمل سيفه تحت ثياب الإحرام :

— لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فحدث نوع من الاستياء بين صفوف الحجاج ، ولم يلتفت محمد إلى هذا واستمر فى إملائه :

— هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

فلما انتهى على من الكتابة ، ولما حررت صورة ثانية من المعاهدة ، وقع المندوبان عليها ، ووقع بعدها الشهود أبو بكر وعمر وعثمان عن المسلمين ، وحويطب بن عبد العُزَّى ومكرز بن حفص عن قريش ، وأضيفت ملاحظة أن علياً قد كتب المعاهدة ، ووضعت الأختام على الوثيقة ، فسلم الأصل لمحمد وسلمت الصورة لسهيل ليحتفظ بها فى محفوظات مكة .

فلما تم هذا ، سلم سفير المكيين على المسلمين بطريقة العرب القديمة ثم انسحب إلى بلدتهم يحمل رغبات السلم التقليدية لأعداء الأمس ، بينما

كان المسلمون يردون على السفير تحيته ، كانوا يحسون قليلاً من الصفاء فى نفوسهم ، فقد كان أغلب الحجاج ، وعمر على الخصوص ، يحسون فى أعماقهم أن محمداً قد سلم للقرشيين بكل شىء ، فقد كان يبدو أنهم لا يمكنهم أن يصدقوا أنهم بعد أن قطعوا كل هذا الطريق وقائدهم الذى لم يخش أن يطارد عدواً هزمه ، أن يقفوا خارج مكة التى خرجوا ليطوفوا ببيتها ، وقد بدا أنهم لا يمكنهم أن يتصوروا أن محمداً يحط من قدر نفسه أمام رسول قريش لدرجة أن لا يدعو الله باسمه الصحيح ولا أن يستعمل لقبه لا لشىء إلا لأن الكافر قد طلب ذلك .

وقد ذهب عمر إلى أن يسأل النبى :

ـــ ألست برسول الله ؟

فأجاب النبى بأنه رسول الله دون أن يبدى استياء ، فلما أصر عمر على أن تسليمه للعدو اليوم يجعل من الصعب أن يبدو الأمر كذلك ، فأجابه محمد بأن الوقت سيثبت بأنه تصرف بحكمة .

لم يقتنع عمر ، فذهب إلى أبى بكر يستشيره ، فأكد أبو بكر الذى كان يعرف محمداً أكثر من أى شخص آخر أن الزمن سيظهر حكمته ، فابتدأ طبع عمر الحار يتحرك ، فترك أبا بكر وذهب ليرى ما يحس به المسلمون الآخرون ، فوجدهم مثله فى تفكيره ، لقد كان هناك علامات تمرد لأول مرة منذ جاء الإسلام إلى الوجود .

وأمر محمد الحجاج أن يحلقوا رءوسهم ، وأن ينحروا هديهم وأن يقوموا بمراسيم الحج التقليدية حيث هم ، فرفض الحجاج ذلك ، فأمرهم ثلاث مرات دون أن ينفذوا شيئا ، فأصبح الموقف من أسوأ المواقف

التي واجهت محمداً ، فانسحب إلى خيمته ليفكر فى الأمر . وهنا استغلت أم سلمة بداهة المرأة لتنقذ الموقف فقالت :

— يا رسول الله لا تلمهم فإنه قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح ، اخرج ولا تكلم أحداً منهم ، وانحر بدنك ، واحلق رأسك ، حيث يراك الناس .

رأى محمد ما فى هذه النصيحة من حكمة ، ففعل بها ، فارتدى ملابس إحرام نظيفة ، وخرج من خيمته إلى ضوء الشمس الأبيض فى الصحراء ، فحلق رأسه وقص أظافره وقد استقبل مكة التى كانت تتألق تحته .

ثم اتجه إلى حيث الهدى منتظر ، فاختار جمل أبى سفيان وأناخه ونحره بسيفه ، واستمر فى النحر والصلاة والسجود ، فى هدوء .

• راح الجنود يرقبون قائدهم من تحت شجرة فى ضيق ، ولعلهم فطنوا إلى أن فى ذلك نوعا من الحض ، ولكن لما استمر محمد فى إقامة المراسيم جميعها دون أن يهتم بهم أى اهتمام كأنما لم يكونوا هناك ، ذهب اختلافهم، فما إن انتهى محمد من صلاته ، ورفع صوته ليحمد الله على ما منحه من رحمات فى يومه هذا ، حتى استيقظ الرجال المضطجعون ، وتبع لحظة السكون الرهيب ، انطلاق صيحات من الأعماق ، وفى لحظة كان الجميع يحلقون رءوسهم ؛ كان كل منهم يحلق رأس أخيه فى عجلة حتى إن الكثيرين جرحوا جلد رءوسهم جروحًا بليغة ، وفى لحظات أخرى قليلة كان المعسكر يردد رغاء الإبل لما ينقض عليها المضحون بها ويقطعونها قطعاً قطعاً .

وراح محمد يرقب ما يحدث دون أن يشير إلى أى ذنب اقترفوه .

فلما تم كل شيء كان من اللازم أن يتم ، أمر برفع العسكر ، وامتطى القصواء ، وقاد الركب إلى المدينة ، ولم يتكلم وعمر ، فما كان عنده ما يقول له ، فقد كان يعلم أنه على صواب ، وقد كان يعلم أن هذه المعاهدة ستثبت ذلك .

وفى الحقيقة فإن هذه المعاهدة لتعتبر عمل محمد الفذ فى السياسة ، فقد كانت نصراً . فما من أحد إذا استثنينا أبا بكر[1] ، قد عاد كما عاد محمد بفكره القهقرى إلى وقت وقفت قريش فى وجهه ، وما من أحد سوى هذين الرجلين قد تذكر أيام الضرب والقذف بالحجارة ، والاختفاء فى الغار ، وما من أحد فكر فى يوم الالتجاء إلى شعب أبى طالب ، إن الفرق بين اليوم والأمس فرق معجز لا يمكن تصديقه . أن يرغب القرشيون أن يتعاهدوا ومحمداً ، وأن يعترفوا به كإنسان يستحق اهتمامهم وأن يعتبروه حاكما لجماعة عربية ، كل ذلك كان شيئاً خارجاً عن نطاق الظنون .

وما كان محمد ليهتم بالتفاصيل التافهة ، فقد كان كهنرى الرابع لما صار كاثوليكياً رومانياً لينقذ عرشه ، وقد قال عن عدم موافقة الهجنوت « إن باريس لتساوى كثيراً ! » فإذا كانت عقلية سهيل المحدودة لا يمكنها أن توافق على نعت من كان تاجراً رحالة بلقب نخم براق ، فليس لهذا من أهمية حقيقية ، وإذا كانت جملة إسلامية تتعلق بالله لا تسيغها أذن قرشية فإن هذا ليس من الأهمية بمكان لقطع المفاوضة .

ولكن ما كان هاما هو حرية الدخول إلى مكة . فقد عرف محمد أن

(١) ذكر المؤلف (سهيل) خطأ

اليوم الذى يضع فيه قدمه وأقدام رجاله فى البلد الحرام ينقضى عليه كبير وقت قبل أن يبقوا فيها دواماً .

ومن هذه اللحظة فسيكون المقرر لمن يتعبد فى الكعبة ولمن لا يتعبد فيها ، وسيقرر كيف ينبغى أن يوجه الخطاب إلى ربه ثم إليه .

وإن أول مارآه محمد فى هذه المعاهدة السلمية مع مكة هو ماتنتجه من أثر فى القبائل المحلية ، وقد كان على صواب فى هـذا أيضاً ، فبعد توقيع الوثيقة التى سببت استياء بين أتباعه بأيام ، كان الزعماء من كل حدب يأتون إليه ليقسموا يمين الولاء بين يديه .

ذهل عمر ، ففى أسبوع واحد من توقيع المعاهدة اعتنق الإسلام أكثر ممن اعتنقوه فى السنين الست السابقة .

• وقد أوحى إلى محمد مايثبت أنه اتبع الطريق الصواب ، حتى لا يكون هناك شك فى أذهان رجاله من أنه كان من الصواب الموافقة على شروط سهيل ، وإن هذا الوحى مدون فى السورة الثامنة والأربعين وعنوانها « الفتح » : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً »

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً »

ولكن حتى إذا لم تكن هذه المعاهدات المقدسة نصراً كافياً ، فإن شرط رد الذين يسلمون دون إذن وليهم إلى مكة قد وضع موضع الاختبار وقد نقضته قريش نفسها ، فقد فر أبو بصير وهو مكى شاب من أسرته ووفد على المدينة ليعتنق الإسلام ، فجاء فى عقبه مندوبان من قبل أبويه

يطلبان رده ، فلم يكن أمام محمد إلا أن يحترم كلمته ويقوم بتسليمه وإن كان هذا يتنافى وميله .

وفى الطريق غافل أبو بصير الحارسين ، فقتل أحدهما وأخذ الآخر معه إلى المدينة ، وطلع أمام محمد متوشحاً سيفه وكان يقطر دماً وقال له : « يا رسول الله ، وفت ذمتك وأدى الله عنك ، وأسلمتنى بيد القوم . وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى » فجلس محمد يفكر برهة ثم ابتسم وقال بحماس ولم يوجه حديثه إلى شخص معين : « ويل أمه مسعر حرب ! ألو كان معه رجال يتسللون إليه » .

وصرف أبا بصير ، ولم يحتج أبو بصير إلى دقائق كثيرة ليفطن إلى ما عناه محمد ، وكان هناك فى المدينة خمسة من أصدقائه المكيين ، فجمعهم وبعد مداولة قصيرة قادهم إلى الصحراء ، وفى أيام قلائل نزلوا على ساحل البحر على طريق قريش التى كانوا يأخذونها إلى الشام .

استؤنفت القوافل ثانية ، فالمسلمون والقرشيون فى سلام الآن ، وخرجت القطر الطويلة من الإبل والبغال من مكة محملة بالمتاجر الغالية ، ولاح أن أيام هاشم وعبد المطلب قد عادت ثانية ، ولكن ليس لوقت طويل ، فقد كان هناك أبو بصير ليقرر ذلك .

وقد سمع رجال آخرون ممن لا يستطيعون الفرار إلى المدينة بسبب المعاهدة بما يجرى هناك عند طريق البحر الأحمر ، فخرجوا ولحقوا بأبى بصير .

وبعد وقت قصير أصبح الخطر على القوافل المكية الضاربة فى هذا الطريق أعظم من أيام أن كانت الحرب سافرة بينهم وبين المدنيين ،

وما كان فى الإمكان لوم المدنيين أو قوادهم ، وإذا كان قد بلغهم أن محمداً ما سمع بعمل باهر من أعمال أبى بصير إلا وقد ابتسم فإن هـذا لا يمكن اعتباره خرقاً للمعاهدة .

وازداد الأمر سوءاً حتى إن قريشاً أوفدت مندوباً إلى محمد تسأله بأرحامها أن يعاونها ، فاعترض محمد وقال إن هذا ليس من عمله ، وراحت قريش ترجو وتتوسل . فلما تدخل محمد فى الأمر أخيراً اشترط سقوط شرط رد المسلمين من قريش إلى مكة إذا هم ذهبوا إلى محمـد بغير رأى مواليهم ، فوافق القرشيون على هذا ، فأثبت محمد أنه محنك أريب ، كما هو سياسى وقائد .

واستدعى محمد قطاع الطرق الذين أقلقوا قريشاً إلى المدينة فوراً ، فاستجابوا جميعاً للنداء إلا أبا بصير ، فإن الشاب الماهر قد جرح فى إحدى الإغارات ولم يندمل جرحه ، وقد سمع قبل أن يموت ثناء محمد عليه على ما أداه إلى الإسلام من خدمات ، وتبشيره بما للشهداء فى جنات النعيم .

وبينما كان محمد يأسف على فقد قائد شجاع ، إلا أنه كان يحس رضا بالموقف العام ، فإن كل شىء ليسير فى هدوء أكثر مما كان يظن ، ففى العام المقبل سيدخل مكة ليحدث أى شىء بعدها ، فإن أمامه فى الوقت الحاضر أشياء كثيرة عظيمة ينبغى أن يقوم بها ليدعم مغانمه الحديثة ، وكان أمامه أشياء صغيرة : حسابان أو ثلاثة ليصفيها مع هؤلاء الذين لم يكن عندهم بعد الذكاء ليروا أنه رسول الله .

الفصل الثامن عشر

السفـــارات

(٦٢٨ م)

لم يعش محمد ليرى عظمة الإمبراطورية الإسلامية ، ولم يكن عنده فى أثناء حياته أية أصول حقيقية تجعله يشعر بأنه ستكون هناك مثل هذه الإمبراطورية ، ولكنه كان يؤمن بها ، كان يؤمن بها بنفس الطريقة التى آمن بها بالوحى الذى يوحى إليه لما كان يتبعه أربعة فقط ، والآن وقد رأى إسلام الأفراد والقبائل الذى أعقب عودته من الحديبية ، فقد أصبح مقتنعاً بأن الوقت الذى سيتهيأ فيه العالم للإسلام ليس ببعيد ، ومن الحقيق أن هناك بعض جماعات محلية تعارض سلطانه ، ولكنه سيعاملها بلباقة ، وإن الذين يفكر فيهم الآن هم الشعوب الخارجة عن دولته . وكان يحس أن هذه الشعوب كانت فى حاجة إلى كلمة ترغيب فقط لتصبح مسلمة .

فاختار لذلك الرسل لتنطلق لتقدم ذلك الترغيب . وتروى بعض الأحاديث[1] أن سفراء محمد قد وجدوا أنهم قد منحوا هبة خارقة فى

(١) إن رسول الله (ص) خرج على أصحابه ذات غداة فقال لهم : إنى بعثت رحمة وكافة ، فأدوا عنى يرحمكم الله ولا تختلفوا على كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم . قالوا : يارسول الله وكيف اختلافهم ؟ قال : دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه فأما من قرب به فأحب وسلم ، وأما من بعد به فكره وأبى ، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عز وجل فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذى بعث إليهم ، فقال عيسى : هذا أمر قد عزم الله لكم عليه فامضوا .

اللغات بنفس الطريقة التى وجد بها رسل المسيح أنفسهم قادرين على التحدث بلغات كثيرة فى يوم العنصرة . وهذا ماقد حدث ، فإن محمداً قد اختار مندوبيه من بين من كانوا تجاراً رحّالا ، فإن هؤلاء الرجال قد كانوا فى الخارج ، فهم يعرفون عادات الغرباء فلن يصبحوا فى حيرة وارتباك فى بلاد الغربة ، كما قد يصبح أبو بكر وعمر إذا وجدا أنفسهما خارج أوضاع الصحراء التى ألفاها ، وإنهم ليمكنهم أن يفصحوا عما يجول فى أنفسهم للروم والفرس واليونان .

كان لمحمد ختم كبير من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » فأعطاه السفراء ، فكان كاعتماد لهم . وكان الختم فكرة بسيطة لا فن فيها ، وقد كان موضوع تسلية عظيمة لعبد الله بن أبى وأصحابه ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يصبح يعنى بعد ذلك أكثر مما يعنى النسر الرومانى .

وقد ذهب الرسول الأول إلى هرقل ، وقد أوقف فى بصرى وأخذ حاكم بصرى الرسالة وقدمها للامبراطور ، وقد اهتم هرقل بالختم الفضى ونادى المترجم ليترجم له الرسالة ، وكم كانت دهشته لما سمع بدعوة عربى لم يسمع به أبدا يدعوه إلى ترك عبادة المسيح ومريم واعتناق الدين الحق ، دين التوحيد ! فاحتفظ هرقل بالكتاب والختم حباً فى الاستطلاع ، ولم يتخذ أى إجراء آخر .

وذهب السفير الثانى إلى البلاط الفارسى وقد قتل كسرى ، قتله ابنه شيرويه وهو الذى استلم وثيقة محمد الغريبة ، وقد أثارت الرسالة الشاه فقد جاء فيها : من محمد بن عبد الله ، رسول الله ، إلى كسرى (كان يعتقد أنه لازال على قيد الحياة) عظيم الفرس . . » وقد أطار صواب

شيرويه جرأة عربى الصحراء هذا على وضع اسمه قبل اسم الشاه ، فمزق الرسالة وكتب إلى باذان وهو على اليمين :

« هناك فى المدينة مجنون من قريش يزعم أنه نبى ، فرده إلى عقله أو ابعث إلىّ برأسه »[1] .

فهز محمد كتفيه استهزاء لما بلغه هذا ، وكان كل ما قاله حين بلغه أن كسرى شق كتابه :

« مزق الله ملكه »

وقد تحققت النبوءة سريعا ، ففى أقل من عشرين سنة كانت فارس دولة ممزقة تحت حكم المسلمين ، وكان حاكمها أحد الرجال الذين دربهم « الرجل المجنون » .

وقابل زعيم بنى حنيفة ، وهى قبيلة مسيحية فى وسط جزيرة العرب الرسل بالترحاب وأعطاهم هدايا ، وأظهر أنه على استعداد للدخول فى الإسلام إذا كان له نصيب فى الحكم ، فأجاب محمد بأنه ما كان ليعطيه شق تمرة إذا سألها ، ولعنه النبى ، والظاهر أن لعنته كانت فعالة فما لبث الزعيم الطموح عاما بعد ذلك حتى مات .

وقد أمضى الرسل فى الحبشة وقتاً طيباً ، فقد صادق النجاشى المسلمين منذ أيام الوحى الأولى ، وقد وجدوا عنده ملجأ ، وكان هناك إلى الآن ستون مسلماً يعيشون فى بلاطه ، كان منهم جعفر بن أبى طالب وأخو على من أبيه ، وإن هذا لم يمنع محمداً من أن يرسل إلى النجاشى نفس

(١) كتب كسرى إلى باذان : « ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين ، فليأتيانى به »

الرسالة التى بعثها إلى الرومان والفرس ، وقد قيل إن النجاشى قد قبل الإسلام ، ولكن لا يوجد ما يثبت ذلك تاريخياً ، فبينا كان الأحباش يحترمون محمداً وما ينادى به أعمق الاحترام إلا أنهم كانوا مسيحيين نسطوريين ، وقد كانت عقائدهم الأساسية تختلف فى قليل عن عقائد المسلمين ، وإن الأحباش إلى الآن مسيحيون . وإن ما حدث بين المسلمين والأحباش كان صفاء ووداً كله .

وكان أمام السفير مهمة أخرى لمحمد فى الحبشة ، فقد كان هناك مسلمات عديدات يعشن فى أديس أبابا ، وكانت أم حبيبة بنت أبى سفيان من بينهن ، وكانت أرملة عبيد الله بن جحش ، وهو أحد المؤمنين الأولين وأحد المهاجرين الأولين من مكة . كانت أم عبيد الله أخت عبد المطلب ، وعلى ذلك فقد كان ابن عم لمحمد ، وكان أخا زينب الذى سبب طلاقها من زيد وزواجها من محمد تلك الضجة ، فإذا لم يكن فى كل هذا روابط عائلية كافية ، فإن محمداً قد شاء أن يضيف إلى ذلك رباطاً آخر بزواجه من قريبته الأرمل ، لقد كان يهدف إلى إذلال أبى سفيان فيقوى بذلك مركزه فى مكة ، وقد يفسخ أبو سفيان هذا الرباط ، ولكن ذلك يجعله يسلم بأن الخطيب المنبوذ زوج ابنته . وإن كل ما قاله أبو سفيان لما بلغه هذا الزواج : « ذلك الفحل لا يقرع أنفه » .

وقد سرت أم حبيبة لزواجها من محمد وقد خطب النجاشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما تم ذلك تأهب جعفر واللاجئون الآخرون لصحبة العروس إلى المدينة .

وأرسل رسول آخر إلى مصر وقد تسلم المقوقس الحاكم الرومانى

رسالة محمد فى احترام ، واستقبل الرسل بما يجب لهم من إكرام ، ولم يعتنق الإسلام ، وقبل أن يبدأ الرسل فى العودة بعث معهم بهدايا قيمة لزعيمهم ، كان من ضمنها حلى ، وتيل مصر ، وعسل وزبد ، وبغلة بيضاء وحمارة وفرس أصيلة ، وقد بعث مع هذه الهديا التقليدية بجاريتين أختين قبطيتين على جانب عظيم من الجمال هما مارية وسيرين .

ولم يذكر أكان المقوقس يعلم ميل محمد إلى النساء أم شاء أن يجعل هداياه متنوعة تنوعاً كبيراً ، ومهما كان الدافع له إلى هذا ، فما كان بمستطيع أن يختار هدية أفضل من هذه لتسر محمداً ولتسبب فتنة أعظم مما سببت فى داره ، فما إن وقعت عينا محمد على هذه الفتاة الجعدة الرائعة الحسن حتى مال إليها قلبه ، وكذلك أحبها حسان الشاعر ، فأبعد محمد منافسه الخطير سريعاً بأن منح صديقه سيرين أخت مارية .

ولم يتزوج محمد من مارية ، ولم يضمها إلى دوره كمحظية لسبب من الأسباب، هو أن وفودها سبب استياءً عظيماً . فإن نساء النبي من عائشة إلى زينب غضبن ، فكونَّ جبهة متينه ، وأصبح نساء النبي جميعاً ضد مارية فأصبحت حياتها لا تطاق . فنقلها محمد إلى العالية فى المدينة ، ولم يرض هذا نساء النبي أيضاً ، واستمرت نساء النبي فى بغض مارية وقد بلغ الأمر إلى حد أن هم النبي بطلاق نسائه جميعاً .

لم تكن مارية السبب الحقيقى فى هذه الأزمة ، ولكنها وصلت إلى دور النبى فى اللحظة التى بلغت فيها غيرة نساء النبي درجة العليان ، وقد خصص محمد لكل زوجة ليلة حتى يحفظ السلام بين زوجاته ، وكان إذا

خرج من المدينة يُقرع بين نسائه ، ولم يمنعه هذا من تفضيل عائشة دائماً ، وكانت تعلم ذلك فتستغله لصالحها .

كان المعسكران السياسيان لا زالا قائمين فى دور النبي ، فقد وقفت عائشة وحفصة وسودة معاً ضد الزوجات الأخريات ، وقد انضمت سودة إلى أقدم الزوجتين لأنهما قد تبعتاها أولا ، ولتحمى نفسها ثانية ، فقد كانت سائرة إلى الهرم ، ولم تكن جذابة فى يوم من الأيام ، فكانت تحس أنها فى مأمن من الطلاق ما دامت عائشة ظهيرة لها ، ولكى تضمن حماية عائشة فقد تنازلت عن ليلتها للزوجه الشابة المفضلة ، وعلى ذلك بقى مركز عائشه دون تبدل ، وكان هناك مواضيع قليلة لم يكن محمد مستعداً ليتناقش فيها معها ، وكانت خديجة أحد هذه المواضيع ، فإن محمداً ليضع خديجة دائماً فى مكانة خاصة تختلف عن مكانة هؤلاء الفتيات اللائى كن يجلبن السرور إليه ويسلينه ، ولكهن كن يضايقنه أيضاً ، فكان يهتم بأقاربها ويثير عائشة بقوله : إن خديجة خير نساء العالمين . وفى يوم من الأيام أقبلت هالة أخت خديجة لزيارة المدينه ، وكان صوتها يشبه صوت خديجه ، فلما سمع محمد صوتها فى فناء دوره كاد يغمى علبه ، فلما انصرفت قالت عائشة فى غيرة :

« ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدفين ، هلكت فى الدهر فد أبدلك الله خبراً منها »

فتغير وجه محمد ، فزجر عائشه فى شدة :

« والله ما أبدلى الله خيراً منها ، آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواسنى بما لها حين حرمنى الناس »

وكانت عائشة تفعل ما يحلو لها فى دور النبي ، إذا استثنينا مسألة خديجة ، ففى مرة من المرات فسخت زيجة من زيجات محمد قبل أن يدخل بها .

وإن السيدة التى فسخت خطبتها هى أسماء (بنت النعمان بن الأسود ابن شراحيل) أخت زعيم قبيلة ، وكان وطنها نجداً ، وقد بعث محمد حرساً خاصاً للوفود بها ، ولقد اكتشفت عائشة وحفصة أن هذه العروس التى سيتزوج منها الرسول لأسباب سياسية ضرورية كانت على جانب عظيم من الجمال ، فأحستا ضيقاً ، فعزمت عائشة على أن تتخلص منها ، فأشركت حفصة فى مؤامرتها .

طردتا الجوارى ، وقالتا إنه من الضرورى أن تزين زوجات النبي المفضلات العروس سليلة الملوك وأخت ذلك الزعيم العظيم ، فبينما كانتا تضعان الحناء فى أيدى العروس التى ما كانت لتشك فيهما ، وتعقصان شعرها وتطيبانها بالطيب لتعداها لبساط الزواج ، كانتا تتحدثان إليها حديث ود وصداقة ، فأخبرتاها فيما أخبرتاها أنها إذا ما قابلت قبلات محمد بقولها : « إنى أعوذ بالله منك ! » فإنه سيفكر فيها أكثر مما لو استسلمت مباشرة ، كما فعلت جميع النساء الأخريات اللائى شاركن محمداً فراشه . ففعلت المرأة المسكينة التى لم تر من قبل بيتاً ثائراً كهذا البيت ، ولم تر شابات مخبولات كهؤلاء الشابات ، ما قالتا لها ، وما كانت لتعرف أن هذا القول الذى اخترعته عائشة معناه أن المرأة التى تنطق به لا ترغب فى العلاقات الجسدية بينها وبين زوجها .

وما نطقت الزوجة بهذا الاعتراض حتى نكص محمد على عقبيه ،

وحسب أنه أخطأ السمع فاقترب منها ثانية ، فقابلته أسماء بنفس الكلام ، وراحت تكرر ما علمته لها عائشة فى إصرار ببغاء ، فانسحب محمد أخيراً وأعيدت أسماء إلى نجد فى اليوم التالى ، ولم تدر لذلك من سبب ، وراحت تتحدث فى السنوات التالية بأن رسول الإسلام كان فى حاجة إلى نخوة وشهامة .

ولما أصبح لعائشة منافسة ، كانت جارية قبطية ، وكانت جريمتها الأساسية أنها أجمل من أية أعرابية ، لم تستطع أن تكظم غيظها ، وكانت النساء الأخريات ينظرن إلى مارية بنفس النظرة ، وما كان لهن جرأة عائشة فى الكلام ، ولكنهن لم يكن قانعات خاضعات ، فأصبح جو الحريم مكهربا ، وقد حدث الانفجار فى اليوم الذى رأت حفصة فيه مارية ومحمداً فى دارها ، وقد ذاع النبأ فى ظرف خمس عشرة دقيقة من وقوع الحادث ، فصارت دور النبى مكان تآمر وثورة ، وقد ضاعت سدى محاولات محمد لتهدئة النساء المطعونات فى كرامتهن بالوعود والوعيد . وكان يبدو أنه ليس هناك من شىء ليهدىء من انفعالهن ، فقد كن كعصابة مخبولات ، وقد فقد فى النهاية أعصابه ، فأقسم ليعتزلهن شهرا ، ثم اعتزل فى مشربة قريبة من المسجد ، وقد كان لهذه الشدة من هذا الرجل الحليم دائما أثر ماء بارد صب على الحريم ، فانسحبت الزوجات إلى دورهن بعد أن راحت كل منهن تؤكد للأخرى أنه سيعود إلى دوره بعد أن يفكر فى الأمر ، ورحن ينتظرن فى قلق ولكن محمداً لم يعد ، إنه لم يعد فى هذه الليلة ولا فى اليوم الذى تلاها ولا فى الليلة التالية ، فابتدأت إشاعة أن النبى طلق نساءه تنتشر ، فماجت المدينة بعضها فى بعض ،

ولم يك هناك حركة كهذه مذ مسألة عائشة وقلادتها ، فهـذا يذهب بنبأ وذاك يأتى بنبأ .

وعنف كل من أبى بكر وعمر ابنته ، وجلسا فى دارهما وقـد خيم عليهما الحزن ، فإن تطليق عائشة وحفصـة ، زيادة عن أنه قد أساء إلى قائدهما ، فإنه قد يغير من مستقبلهما كله .

وأخيراً لمـا بقى محمد معتزلا لأكثر من ثلاثة أسابيع لم يطق عمر صبرا ، فدخل إلى المشربة وسأل محمـداً عما إذا كان قد طلق نساءه ، فلم يجبه محمد أولًا ، ولـكن بعد لحظة ، لما أظهر عمر ضجراً ، هز رأسه نفيا ، فأحس عمر راحة ، وخرج وأخبر الناس الذين غُصَّ المسجد بهم ، وكانوا ينتظرون الرأى الفصل أن رسول الله لم يطلق نسـاءه ، وقد أكد ذلك لأبى بكر أيضا .

وظهر محمد فى دوره فى نهاية الأسبوع الرابع من غيابه ، فاتجه إلى دار عائشة وجلس على حصيرها . فلم يبتسم ونظر إليهـا نظرة تقريع ، ولـكن عائشة ضحكت بدلا من أن تهتز تأثراً وقالت :

« يا رسول الله أما أقسمت ألا تدخل علينا شهراً .

وإنما أصبحت من تسع وعشرين أعدها لك عداً »

فضحك محمد أيضاً وأخذ عائشة بين ذراعيه وقال :

« الشهر تسع وعشرون ليله »[1] .

ولم يمنع هذا الصلح محمداً من مارية القبطية فقد أنزلها فى دوره فى المدينه وراح يزورها بانتظـام ، وقد ولدت له مارية بعد وصولها بسنه

(١) ذكر فى الأصل الانجليزى هذه العباره « هذا الشهر ثمانيه وعشرون يوما » .

ولداً سموه ابراهيم ، فكان محمد مسروراً حتى إنه لم يلحظ الوجوم الذى نشره النبأ على الحريم ، وعلى كل حال فقد مات الغلام قبل أن يتمكن من المشى ، فحزن عليه محمد ، وعلى الرغم من ذلك فقد أبقى مارية التى بقيت على قيد الحياة بعده خمس سنين .

وينبغى ألا يظن أن محمداً كان زوجاً يخضع لنسائه لأنهن كن يضجرنه كثيراً فى أوقات فراغه ، فإنه كان يعامل زوجاته بمهارة مقدراً الظروف ، وقد كان يعرف الشىء الكثير عن النساء حقاً ، وإن إحدى نصائحه فى هذا الموضوع العويص الذى حير الرجال على مر السنين لهى نهاية الحكمة ولتدل على فهم عميق ، وفى الحقيقة إنها لحكيمه حتى إن تطبيقها فى أية جماعة أو أية دولة ، وفى أى وقت قد يُجنب سوء الفهم الذى لا ينقطع بين النساء والرجال ؛ قال :

« استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها استمتعت وبها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها » .

ولم يكن كصديقه القديم أبى بكر الذى كان يقول ، على الرغم من أنه تزوج من أربع :

« النساء شر لا بد منه »

كان محمد متعدد الكفاءات فى الواقع ، فكان فى مقدوره أن يوجه عقله ونشاطه إلى أى شىء ، فقد كان يرسل السفراء إلى حكام العالم المتحضر بينما كان يكرس نفسه لحظية جعدة ويلقى بنفسه فى متاعب زوجات غيورات ، وكان فى نفس الوقت يكوّن جيشاً يستطيع أن

يتحرك سريعاً وأن يضرب فى قوة ، وكان يدرِّب ضباطاً احتياطيين ويبث فى الرجال إطاعة الأوامر ، ويقوم بتحسين أسلحته وأدواته .

لقد ترك الخطط الحربية التى كان يستعملها البدو المغيرون ظهرياً ، وقد وضع أداته الحربية موضع الاختبار فى أغسطس عام ٦٢٨ بأن قادها لغزو اليهود النازلين بخيبر الواقعة على جانب الطريق إلى سوريا .

إن هؤلاء اليهود الذين سيقاتلهم محمد كانوا رجال حرب ، فقد كانوا مقاتلين بجميع إخوانهم فى هذه المنطقة ، بحسب حسابهم . كانوا سلالة اليهود المقاتلين ، فكانوا يستطيعون أن يخوضوا غمار المعارك كما يخوضها العرب .

وكان لهذه الحملة ثلاثة أسباب :

السبب الأول أن محمداً لا يرغب فى وجود يهود فى جيرته . فانه ليبدو أنهم لم يتلقوا درساً على الرغم من التحذيرات المتعاقبة ، فما إن تلوح لهم بادرة حتى يبتدئوا فى جلب المتاعب إلى المسلمين ، وكانت هذه حالة بنى النضير على الخصوص ، فبعد أن سمح محمد لهم بترك المدينة دون أن يتعرض لهم أحد لم يفكروا فى شيء أفضل من محالفة قريش ، وقد نزل بعضهم فى خيبر .

والسبب الثانى أن محمداً شاء أن يعوض خيبة الأمل التى فرضها على أصحابه فى الحديبية .

وكان هناك سبب ثالث هو رغبته فى استخدام جيشه الجديد .

كانت خيبر دولة قائمة بنفسها ، فكما كان بها حدائق وزراعات ونخيل كان فى وسطها حصن رئيسى يتحدى حصارات كثيرة ، فكانت هذه

الغزوة من النوع الذى يستطيع محمد أن يرى منها ما إذا كان جيشه قد تدرب التدريب الذى يرجوه .

كانت قوة المسلمين تتكون من ألف وستمائة مقاتل مجهزين تجهيزاً حسناً ، منهم مائتا فارس ، وكان لكل مقاتل آخر راحلته السريعة ، وكانت صحابة محمد معه كالعادة ، فكان معه أبوبكر وعمر وعثمان وعلى وزيد أيضاً ، وخرجت قرعة أم سلمة ، فكانت مع الجيش مرة أخرى ، وكان هناك نساء أخريات أيضاً .

أخذ محمد معه نساء الجنود المقاتلين ليعتنين بالجرحى . ولعل هذا يحدث لأول مرة فى تاريخ الحروب . كانت النساء يصحبن الجيوش فى الغزوات كمحظيات أو ليحرضن الجنود كما فعلت هند وصويحباتها فى أحد، ولكن لم يفكر أحد قبل الآن أبداً فى أن يسند إلى النساء القيام بعملهن الصواب فى المعركة .

وقد حمل الجيش معه لأول مرة الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب — النسر الأسود — وكانت من بُرد لعائشة ، وقد صارت فى السنين التالية شعاراً من أعظم شعائر النصر للإسلام لما أصبحت راية خالد وفرسانه العرب الأمجاد .

وجاءه المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فرفض وقال : لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد ، فأما الغنيمه فلا .

إن المسافة بين خيبر والمدينة تزيد عن مائة ميل بقليل ، وقد يستغرق الجيش الذى يسير بالسرعة العادية خمسة أيام ليبلغها ، وكان محمد يعلم أن الطريقة الوحيدة التى يهزم بها هذا العدو المتحصن القوى

هى المفاجأة ، فقطع المسافة فى ثلاث مراحل شاقة ، فبلغ حصون الأعداء قبل فجر اليوم الرابع ، وما كان أحد ليشك أدنى شك فى وقوع هذا الهجوم الوشيك الحدوث ، وإن أول ما عرفه اليهود عنه هو رؤيتهم خوذات المسلمين ودروعهم التى كانت تعكس أشعة الشمس المشرقة ، فارتفعت صيحة ، وراحت تتردد من حديقة إلى حديقة ومن حقل إلى حقل ، وارتفعت من الحصن :

« محمد والخميس »[1]

وما انتشرت الصيحة حتى أسرع اليهود إلى الحصون والمدن .

كان محمد يعرف أنه فى هذه المناسبة ليست المسألة مسألة نصر تمثيلى أو مسألة حصار حتى يرغم الجوع المحاصرين على التسليم ، فإنه ليعلم أنه يقاتل زهرة اليهودية ، وإن الأمر ليحتاج إلى جميع مهارته فى الإدارة العسكرية وإلى شجاعة رجاله جميعاً حتى يتم الفتح .

وابتدأ الغزو بالاستيلاء على الحصون الصغيرة حصناً حصناً ، فلما تم له ذلك ، انطلق للهجوم على الحصن الرئيسى لخيبر ، وكان حصناً هائلا ، كانت حوائطه متينة وقد بنيت من الصخر الحى ، وقد حصنت جميع مداخله تحصيناً قوياً ، وكان على المتاريس حراس مجهزون تجهيزاً طيباً ، وعندهم الكثير من المؤن .

وجمع محمد رجاله قبل الهجوم وقال لهم قولوا :

« اللهم رب السموات[2] وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ،

(١) الخميس : الجيش العظيم قيل له الخميس لأنه خمسة أقسام : المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب

(٢) ذكر فى الأصل الطبرى : رب السموات السبع ، ورب الأرضين السبع ،

ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر مافيها . أقدموا باسم الله » .

فردد رجاله : « آمين ! آمين ! »

وابتدأ كل امرىء بعد برهة تفكر وتأمل أن يتأهب لعمل المعركة العبوس ، وقد وجد محمد بعد ذلك أن ما عزم على إتمامه كان أعظم مما قدر وقد زاد الطين بلة صعوبة تموين جيوشه .

إن العرب ما كانوا ليحملون طعاماً كثيراً معهم ، فإنهم يعتمدون على ضيافة أصدقائهم ، وعلى مايسلبونه من أعدائهم ، ولكن فى هذه الحالة كان أمام اليهود الوقت لإشعال النار فى زراعاتهم وفى سحب مواشيهم إلى المدينة بينما كان محمد يستولى على الحصون الخارجية ، ولم تكن أعمال الحصار الحربية مألوفة لهؤلاء البدو الذين اعتادوا على الغارات الصحراوية . وإن الخندق الذى حفروه للدفاع عن المدينة لم يعلمهم شيئاً عن مهاجمة الحصون ، وعلى كل حال كان يبدو أنه كان عند محمد معلومات أوحيت إليه عن أحوال لم يجربها كما لم يجربها رجاله ، فقد كان عنده عدد من المجانيق فصوبها جميعاً إلى الهدف ، وقد كان أكثرها أثراً القذائف التى كانت تنطلق من مجانيق كانت من جذوع النخيل ، فقد فتحت ثغرة صغيرة فى الحوائط .

وقد قاد أبو بكر هجومًا شديداً على هذه الثغرة ولكنه اضطر إلى الانسحاب ، وقد حاول عمر ذلك ، ولكنه بعد ما وصل إلى فم الثغرة اضطر إلى الانسحاب وقد فقد معظم رجاله ، وأخيراً هجم علىّ على الحصن وقد حمل الراية السوداء وراح يرتجز :

أنا الذى سمتنىَ أمى حيـدره ضرغام آجام وليث قسوره

كان علىّ نحيلا، وكان فى قميص قرمزى وقد لبس درعه المتألق، ودرعه الذى يحمى ظهره، وكان على رأسه هامة قد غطيت بطبقة من فضة، وفى يده اليمنى ذوالفقار سيف محمد وقد أعطاه له لما أعطاه الراية.

خرج صناديد يهود إلى على المرة بعد المرة، فكانوا يترنحون المرة بعد المرة، وقد طارت أطرافهم أو رءوسهم.

وبرز مرحب لعلى، وكان بطل يهود جميعاً، وكان مسلحاً تسليحاً يفوق تسليح جميع المحاربين، وقد كان لبس درعين، وتقلد بسيفين فى منطقة من ذهب، واعتم بعمامتين، ولبس فوقهما مغفراً وحجراً قد ثقبه قدر البيضة، ومعه رمح لسانه ثلاثة أسنان كان يقتل به عن يمين وعن شمال، وساد السكون على المعركة لحظة، وارتكز المقاتلون على أذرعتهم ليرقبوا المبارزة.

لم يهزم مرحب أبداً، مثل جالوت، وقد كان منظره يوقع الرعب فى منازليه قبل أن يقتربوا منه، وكان نصل رمحه يخلع قلوب أعظم المبارزين مهارة.

وقد هجم مرحب أولاً وقد صوب إلى على رمحه الثلاثى الشعب، فانسحب علىّ لحظة فما كان معتاداً على مثل هذا السلاح، ثم استعاد رباطة جأشه وراح يبارز اليهودى، وبمهارة وحذق تمكن من أن يطير رمح مرحب من يده، وقبل أن يتمكن مرحب من سحب سيف من سيوفه، كان سيف على شق المغفر والحجر الذى تحته والعمامتين وفلق هامته حتى إنها تهدلت على كتفيه.

فلما رأى اليهود قتل بطلهم انسحبوا إلى مدينتهم ، فأصدر محمد أمره بالهجوم العام ، فتدفق المسلمون ، وراح على يقود القتل والفتك وقد فقد ترسه فى أثناء مبارزته ، فاجتذب أحد أبواب الحصن وتترس به ، ولكنه أصبح فى غنى عنه الآن ، فإن المسلمين ليتدفقون من الثغرة تدفق تيار فيضان عارم ، والتجأ اليهود إلى دورهم ، فقتل الذين لم يسلموا للمسلمين .

وسلبت المدينة بعد ذلك ، وقد عذب المسلمون زعيم خيبر ثم قتلوه لما لم يعثروا على الكنز الذى كانوا يعتقدون وجوده ، وقد طرد باقى اليهود جميعاً من خيبر ما عدا صفية عروس زعيم القبيلة .

كانت صفية ابنة حاكم بنى قريظة وقد قتل فيمن قتل من اليهود بعد غزوة الخندق ، وقد كانت فتاة رائعة الحسن ، وكانت نهازة للفرص ، ففى اللحظة التى دخلت فيها على محمد ، جعلت من الواضح رغبتها فى مصادقته ، فألقى محمد الذى كان يحتاج إلى تشجيع طفيف من سيدة جميلة ، بردته عليها دليلا على أنها فى كنفه ، وبعد مدة قصيرة حجبها عن جنده فعلموا أن زوجة جديدة قد أضيفت إلى زوجات الرسول .

وقد ارتبطت مراسيم الزواج بولائم الابتهاج بالاستيلاء على خيبر ، فإن اليهود قد اختزنوا أشياء كثيرة طيبة فى المدينة لتعينهم على الحصار ، وقد تركت هذه الأشياء ليطعمها المسلمون الذين ماكان عندهم مؤونة كافية لبعض الوقت .

فلما انتهى الاحتفال ، أحضر محمد ناقته وأناخها لصفية ، ثم قدم لها ركبته لتركب ، وانطلق بها إلى خيمة العرس .

وسبّب قدوم صفية إلى دور النبي زوبعة أُخرى ، ولكن صفية كانت ماهرة كما كانت جميلة ، فعالجت الأمر في حذق وحزم ، فقد تمكنت سريعاً من أن تقدر التيارات المتعارضة في دور النبي ، فقررت أن تنضم إلى جانب عائشة وحفصة ، وعلى الرغم من ذلك فما كان الأمر سهلا ، فقد كان عليها أن تتحمل تعريض عائشة بأصلها على الرغم من أنها قد أسلمت ، وقد أحست عائشة تأنيباً لما ردت صفية على قول من أقوالها اللاذعة بقولها : «كيف أكون أقل منك وأخي هارون وعمي موسى وزوجي محمد ؟» ومن ذلك اليوم أصبحت صفية الرابعة في الحزب المضاد لعلي ، وقد لعبت بعد ذلك دوراً في سياسة المدينة والمسلمين ، فإنها لم تمت إلا بعد موت محمد بأربعين سنة .

وفي هذه اللحظة كان الوقت شهر عسل خارج خيبر انتهى تقريباً برزء وانطفاء جذوة الإسلام .

كان للرجل ذي الحربة المشعبة الأسنان الذي قتله عليّ أخت تدعى زينب ، ما كان بها تذبذب صفية ، فقد كانت تكره المسلمين وتمقت محمدا ، فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وصلتها وأعدتها لقواد المدينة ، وسمت الشاة قبل أن تقدمها ، وكان محمد يحب الشاة المشوية ، فمد يده في الوعاء وانتهس منها ، فلما ازدرد لقمة ، امتعض ثم لفظها وقال :

« إنها مسمومة » .

وكان أحد قواد محمد قد ازدرد كل ما في فيه ، فما انقضت دقائق حتى كان ممدداً على الأرض ، وقد مات بعد ساعة ، وقد قاسى محمد من الألم وتعب من السم لمدة طويلة ولكن ذلك لم يعيه .

فلما جيء بزينب أمام محمد ، سألها : لم فعلت ذلك ؟ فلم يكن جوابها مخلصاً ، ولكنه يدل على بديهة حاضرة ، قالت :

« قد بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان مَلِكا استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر » .

ويقول بعض المعاصرين إن زينب قتلت ، ويقول آخرون إن محمداً تركها ، وقد أثرت فيه إجابتها المتملقة .

لم يكن أمام محمد شيء ليفعله ، وقد خرجت خيبر من يد اليهود ، وقد استولى على غنائم هائلة من أنعام وأسلحة وبسط ، إلّا العودة إلى المدينة . لقد قسم أرض اليهود الخصبة فأصبح نصفها ملكا للمسلمين (كممتلكات التاج) يديره محمد ، وقسم النصف الآخر على الجنود الذين اشتركوا فى الحصار . وكانت خزائن الدولة مكدسة بالقطع الذهبية وكذلك الجبب الخاص ، وراح محمد يحصى ما كسبه بينما كان يقود رجاله إلى المدينة الهوينى ، لقد كان شيء فى صالحه ، فإذا كان سم هذه اليهودية لن ينهى حياته ، فإنه فى طريقه إلى تحقيق كل ما طمح إليه .

ولما لاحت له المدينة بنخيلها الذى بداعبه النسيم ، كانت تنتظره مفاجأة سارة فقد وصل إلى المدينة فى أثناء غيابه عنها ابن عمه جعفر والمهاجرون إلى الحبشة ، فما إن لاح الجيش لهم حتى اندفعوا لملاقاته ، لقد كان التقاء بهيجا .

إن آخر مرة رأى محمد فيها هؤلاء الناس ، كانت فى أيام مكة المظلمة ، يوم كانوا يتسللون فى جماعات للبحث عن مأوى ، وما كان أحد ليقدر على أن يرفع صوته ليتمنى التمنيات ، وما كان أحد ليفكر فى أنهم قد يرى

بعضهم بعضاً مرة أخرى ، فما أعظم الفرق الآن ، فقد كان السلام حاراً مشحوناً بالضحكات .

وانتظرت أم حبيبة فى دور النبي ، ولم تكن شابة ولا جذابة كمارية أو صفية ، وعلى ذلك فلم تكن سبباً فى متاعب مباشرة ، فقد كان كل امرىء يعلم أن اهتمام محمد بها لأسباب سياسية أكثر منه لأسباب جسمانية ، وقد انضمت إلى معسكر أم سلمة وزينب وفاطمة ، وقد صارت فى أثناء الاضطرابات السياسية التى أعقبت موت الرسول عدوة عائشة اللدود الخطيرة . والآن يسود الجيش الطمأنينة ، وينشر السلام جناحيه على دور الرسول . وقد أحس محمد راحة على الرغم من السم الذى دس إليه لما لم يثر نزول صفية وأم حبيبة فى دور النبي ثورة نسائه . إن كل ما ينتظره الآن هو ذلك اليوم العظيم لما يقود رجاله ثانية إلى وطنهم ، إلى البلده الحرام .

الفصل التاسع عشر

تنفيذ المعـــاهدة

(سنة ٦٢٩ م)

لم يملأ النجاح محمداً غروراً ، ولكن جعله أكثر ثقة ، فقد كان يفكر باستمرار فى عودته الأولى إلى مكة ، فكان يرى نفسه البطل الفاتح المقبل فى مجده ليبرهن على أن المكيين كانوا على خطأ بينما كان هو على صواب ، إن هذا الحلم سيتحقق يوماً ، ولكن ليس فى هذه السنة السابعة من الهجرة والسنة الستمائة والتاسعة والعشرين بعد ميلاد المسيح .

كان شتاء عام ٦٢٨ كله غزوات صغيرة متباينة تحت إمرة القائدين المبجلين أبى بكر وعمر . ولما أقبلت السنة الجديدة أعلن محمد أنه سيستعمل حقوقه المنصوص عنها فى صلح الحديبية وسيذهب للحج إلى مكة .

وفى فبراير من عام ٦٢٩ تجمع المسلمون مرة أخرى فى ملابس الإحرام البيضاء أمام واحة المدينة ، وكان هناك هؤلاء الجماعة الذين استولوا على خيبر وقد جاء آخرون كثيرون ليحلوا محل من سقط فيها وليزيدوا عدد الخارجين ، ولما راح على يحسب الحشد وجد أن هناك ألفى أعرابى يتوجهون جميعاً بأفكارهم إلى البلد الحرام ليصلوا بها ، وكان كل رجل منهم على ناقته ، بينما كان فى جانب الناس الهدى وقد قلدوها .

كان الحجاج عزلا من السلاح إلا من السيوف فى القرب ، نزولاً

على المعاهدة ، وقد اتخذت احتياطات أخرى ليتأكدوا من أن أبا سفيان لم يفعل ذلك إلا ليقود محمداً إلى مصيدة ، فقد خرج محمد بن مسلمة ، الذى اشترك فى جميع غزوات الإسلام ، على رأس الحجيج فى مائة فارس ليستكشف الطريق ، وكان فى المؤخرة احتياطى من الأسلحة والأقواس والسهام .

كان يبدو فى هذه المناسبة أن أبا سفيان يرغب فى أن يحافظ على ما اتفق عليه ، فجلت قريش عن مكة فى اللحظة التى أصبح محمد فيها على مرمى البصر ، وصعدت فى التلال التى تشرف على البلد الحرام وقد حملت مؤنها وبسطها وعسكرت ، وقد انسحب الذين يمقتون محمداً أشد المقت إلى مسافة حتى لا يروا تدنيس كعبتهم ، وتسلق الآخرون الصخور ليرقبوا المشهد

ودخلت كتيبة المسلمين فى بطء من الثنية التى تسير من الشمال إلى مكة ، وكانت القصواء تنطلق على رأسها فى رفق . فلم ينظر محمد الذى كثيراً ما خرج من هذه الطريق فى قوافل الشام إلى اليمين أو إلى الشمال ، وقد أحاط به كبار الصحابة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وزيد ، وسار بلال خلفهم بقليل . وأقبل الحجاج على رواحلهم صفاً صفاً . فما إن وقع بصرهم على الكعبة حتى ارتفعت أصواتهم بالتلبية :

« لبيك اللهم لبيك »

وتوقف الركب خارج بيت الله ، ولما تأهب الناس تكوّن الموكب فدخل الناس فى رفق إلى الحرم ، ثم استلم محمد الركن عند الحجر الأسود ، ثم ابتدأ يطوف سبعا حول الكعبة ، وهذا تقليد قديم لا يرجع إلى مكة

فقط ، ولكنه يعود إلى الديانات المتناهية فى القدم ، وإن الطواف حول النار المقدسة أو حوائط أريحا (Jericho) له أصول مشابهة ، وليس لهذا علاقة بالإسلام . وأخذ الحجاج يرددون : « لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده »

ولما انتهى الطواف بالكعبة ، انتقل محمد على رأس الحجيج إلى الصفا والمروة فركب بينهما سبعا وإن هذا الجزء من الحج لتذكرة بهرولة هاجر فى فزع بين هذين الموضعين لما كانت تبحث عن ماء لإسماعيل .

ونحر الهدى عند المروة وبعدها حلق الحجاج رءوسهم ، وبذلك أتموا مراسيم العمرة ولكن بقى الذين كانوا يقومون بالحراسة خشية الخيانة فصرفهم محمد فراحوا يطوفون ويسعون كما طاف وسعى إخوانهم

وعسكر الحجاج فى مكة فى هذه الليلة ، فلم يقولوا شيئاً كثيرا وقد اجتمع بعضهم إلى بعض .

إن المدن الشرقية لتعتمد كثيراً على سكانها لتمييز شخصيتها ، فإن للأسواق والحديث فوق الأسطح والمقاهى والموسيقى والغاديات والغادين والرائحات والرائحين والحمير والجمال والبغال والخيل دلالة أعظم لمدينة شرقية منها لجماعة انجليزية أو أمريكية لها نفس الطابع ، فإن وجود الشوارع الرئيسية مقفرة ووجود أماكن شرب الشاى خالية من زبائنها ، وعدم رؤية أحد يطل من النوافذ لن يهز الغربى أو يترك فيه أثرا ، ولكن غياب الحياة هذا بالنسبة للشرقى معناه وباء أو كارثة وطنية .

وزيادة على هذا الجو الباعث على الانقباض ، كان هناك ما يشغل كلا من الحجاج ، فإن الكثيرين من هؤلاء العرب قد عادوا إلى أوطانهم

بعد غربة دامت سبع سنين ، وقد فقدوا كل اتصال بأصحابهم وأقاربهم بسبب اختلافهم فى الدين ، وقد حاربوهم ولكنهم كانوا يأملون أن هذا الحج يمكن لهم الاتصال بالأحبة بعض التمكين ، ولكنه لم يسفر عن شيء من هذا ، فإن أبا سفيان قد فطن لهذا فلم يبعث جنوداً ليقفلوا الطريق أمام المسلمين ، ولكنه أعطبهم أكثر مما كان قد قاتلهم ، فما كان الحجاج بمستطيعين حتى أن يزوروا دورهم ، فإن الدور والنوافذ قد أغلقت وأقفلت ، وما كان خلفها إلا قليل من العجائز وما كانوا ليبارحوا الدور وعلى ذلك ، فقد احتشد الحجاج حول الكعبة وكانوا يأملون أن يفعل قائدهم شيئاً لينفس عن هذا التوتر البغيض .

لم يفعل محمد شيئاً بل تركهم ودخل فى جوف الكعبة ، وبقى هناك يتأمل . كان المكان لا يزال يغص بالأصنام ، ولكن ما كان يبدو أنه يراها ، فقد عاد بذهنه القهقرى إلى ما يعتبره شعاراً لدينه ، إلى بيت إبراهيم الذى أقامه لله ، ولم يحس ذلك الحنين إلى البيت الذى يحسه أصحابه ، فإنه لم يعرف أبداً حياة الدور كالمكيين الآخرين إذا استثنينا أيام زواجه الأولى من خديجة ، إنه كان دواماً فى الأسفار أو كان معرضاً للاضطهاد ، وإن ما تعنيه مكة إليه هو أنها القلب الذى اختارته السماء لعقيدة الإسلام .

ولما حان أوان صلاة الصبح ، خرج محمد من عزلته ، فنادى بلالا وأمره أن يعتلى سقف الكعبة ، فراح مؤذن الإسلام الأول يؤذن وقد وقف فى ضوء الشمس الأبيض الذى انتشر على الأرض وانعكس من التلال الصخرية ، فلما انساب الصوت فى وضوح يردد فى جنبات البلدة الساكنة : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » حرك ذلك الحجاج ، فراحت

الكلمات الدالة على وحدانية الله ورسالة محمد تردد فى حماس ، فانتشر الصوت فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وبلغ المكيين الذين كانوا فوق الصخور . كان ذلك شيئاً مؤثراً ، فخماً ، رائعاً . كان كل مكى فوق ذلك الصخر الشاهق المتألق ليعلم أن تحت أقدام ذلك العبد الأسود ٣٦٠ صنما جالسات متألهات ، وكانت بعيدة عن أبصارهم ، ولكن أحداً منهم لم يحتج على ذلك ، فما بعث أحدها الصواعق ، وما زلزل الأرض ، بل بقيت الكعبة كما هى ، بينما دنسها العبد الذى كان لسنين قليلة يحمل الماء كدابة من دواب الحمل .

أحس الحجاج راحة ، فاختفى الانقباض الذى كان مستولياً عليهم ، وانتشر فى الرجال — الذين كانوا فى حزن طوال الليل — حماس كهربى . فأحاطوا بالكعبة فى غبطة ، فلما وقف كل رجل من الألفين فى الصف أمَّهم محمد ، فأخذت آلاف الأصوات العميقة ترتل فى توافق ما علمهم قائدهم فى أيام الإسلام الأولى ، فراحوا يركعون ويسجدون فى خشوع حتى انتهت الصلاة ، وجلسوا فى سكون وتأمل لبرهة ، وكانت أفئدتهم منشرحة ، وقد ذابت خيبة أمل الليلة السابقة فى حقيقة أن لا شىء من دار أو صحاب أو أقارب ليهم ما داموا يدينون الدين الحق .

وقد بلغ هذا الانفعال المكيين بدرجة أقل ، فعبر كثير منهم عن إحساساته فى صراحة ، فأصبح أبو سفيان قلقاً ، فقد كان يخشى أن يحدث هذا ، فراح يرقب الوقت فى غيرة وحسد ، حتى إذا ما وافى اليوم الرابع للحج بعث سهيلاً وحويطباً اللذين وقعا المعاهدة ليطلبا من محمد الانصراف .

فاقترح محمد الذى كان يحس سلاماً مع العالم أن بقاءه مدة أخرى لن يسبب ضرراً ، فهز الرسولان رأسيهما نفياً ، فإن محمداً قد اتفق على أن يبقى ثلاثة أيام ، وقد انقضت هذه الأيام الثلاثة فمن الواجب أن ينصرف دون تأخير .

فهز محمد منكبيه ، وأصدر أوامره بترك مكة ، ولكنه كان متضايقاً ، إذ كان يأمل فى شىء من التساهل من قريش ، ولأنه كان هناك سبب آخر شخصى ، فقد كان على وشك الزواج لآخر مرة .

كانت زوجه الحادية عشرة ميمونة بنت الحارث ، وكانت أخت زوجة عمه العباس ، وخالة خالد بن الوليد (درتانيان)[1] قريش ، وكانت فى السادسة والعشرين ، وكانت أرملا ، وقد جعلت أمرها إلى العباس ، وكان لم يسلم بعد ، ولكنه كان على صلة بمحمد للأسباب العائلية ولانتهازه للفرص كما كان الأمر من قبل . وقد كانت الشابة جميلة وقد ارتبط محمد بالتزوج منها بروابط مكية كان فى حاجة إليها .

كان محمد يبغى أن تشترك قريش فى هذا الزواج ، ولكنه أساء الحكم على أخلاقهم ، فقد كان كل مايرغبون فيه أن يرحل من بين ظهرانيهم ، لذلك سار برجاله مسافة عشرة أميال من مكة إلى مكان يعرف بسرف ، وهناك بنى بميمونة .

وفد جاء مع ميمونة أختها سلمى أرملة حمزة ، وكانت قد بقيت بمكة وأختها عمارة البكر التى لم تتزوج بعد .

كانت عمارة صغيرة جذابة وقد لفتت أنظار كبار صحابة محمد ، وقد

(١) D'Artagnan أحد « الفرسان الثلاثة » لهيجو الكاتب الفرنسى .

شاء عليّ على الخصوص أن يتزوجها ولكن محمداً فكر وزوجها لجعفر ابن عمه الأكبر .

وعلى الرغم من أن ميمونة قد عاشت بعد محمد وزوجاته الثمان الأخريات إلا أنها لم تنزل منزلة عظيمة فى حياة زوجها ولم تقم بأى نصيب فى نشر الإسلام . وإن طلبها الوحيد الذى طلبته هو أن تدفن حيث بنى بها رسول الله ، وإن قبرها ليرى اليوم خارج سرف فى واد يعرف بوادى فاطمة .

كان الألفا حاج فى طريقهم إلى المدينة ، وكانوا لا يزالون يشعرون بأن الحج لم يكن ناجحاً على الرغم من لحظة الطمأنينة التى غشيتهم عقب الصلاة ، وكانوا لا يزالون يشعرون بأن محمداً لم يقابل قريشاً بالصلابة الكافية ، وكان محمد متيقناً من عكس ذلك ، ولقد برهن مرة أخرى على أنه كان على صواب .

كان الوقت صيفاً شديد الحرارة ، وقد خرج المدنيون إلى أعمالهم فى الفجر ليفروا من حرارة النهار اللافحة ، وقد أقبل من الجنوب رجلان على راحلتيهما وفى رفقتهما وفد صغير ، وقد كانوا مدججين بالسلاح وكانوا فى ثياب قريش ، فانزعج الفلاحون ، وقد زاد الفزع لما عرف أحد الفلاحين أن أحد الرجلين كان خالد بن الوليد ، وكان الرجل الثانى عمرو بن العاص ، فأرسلت الرسل إلى محمد لتحذيره من وفود أعداء المسلمين هؤلاء ، فاستمع محمد إليهم دون أن يبدى اهتماما ، وقد كان فى المسجد لما وصل إليه خالد وعمرو ورفاقهما ، فسلموا عليه وطلبوا منه أن يقبلهم فى دين الإسلام .

وقد أسلم من بعدهما عثمان بن طلحة .

أحس محمد راحة واطمئناناً ، فإن قائدى قريش اللذين حارباه فى جميع المعارك والمناوشات ، واللذين هزمته خططهما مرة ، قد أصبحا اليوم ضباطاً فى جيشه ، بينما كان عثمان بن طلحة حارس الكعبة دليلًا على أول انهزام هام للجماعات السياسية والدينية فى مكة .

وقد أسلم بإسلام هؤلاء القواد جماعات من قريش ، وقد أحس محمد مرة أخرى أن الوقت الذى يستطيع فيه أن ينسى المعاهدة وأن يعترف به الجميع ، ماعدا أباسفيان وبعض الشانئين من شيوخ مكة ، كان يقترب سريعاً.

وعلى الرغم من ذلك فما كان وقتاً هيناً ، فإنه قد قاسى فيه بعض كوارث ما كانت منتظرة قبل أن يضع خطته موضع التنفيذ ، وبدا كأنما كان الله يختبر رسوله حتى آخر لحظة .

انتهت مجموعة من الغارات على القبائل التى لم تعتنق الإسلام إلى نهاية غير موفقة أو نهاية لم يظفر فيها بشىء ، فبينا كانت هذه الغارات غارات عارضة فما كان لها من أهمية عظمى فى سياسة محمد العامة ، فلما قتل رسول من رسله فى مؤتة فى فلسطين ، قتله أحد [1] أمراء قيصر الشام ، عزم محمد على أن يثأر له .

وتقع مؤتة على مسافة مائة ميل جنوبى بيت المقدس على البحر الميت ، وقد كانت بعيدة عن دولة محمد أو عن دولة أى أعرابى ، وكان الرومان يسيطرون على هذه البقاع ، فكان يحافظ على السلام جنود رومان ، وجيوش من الأهلين تحت إمرة ضباط رومان ، فكان الجيش جيشا

(١) شرحبيل بن عمرو الغسانى .

محنكا ، مجهزاً لخوض غمار الحروب الحديثة ومعتاداً عليها ، فلم يعن هذا شيئاً لمحمد ، فقد كان واثقاً من جيوشه ، ولما لم يكن قد رأى إلا حروب الصحراء فقط فما كان بقادر على أن يتصور شيئاً آخر .

فأرسل ثلاثة آلاف مقاتل مسلمين على رواحلهم وبعث معهم فرسانا ، دون أن يتأهب أكثر مما يتأهب إذا ما كان خارجا لقتال اليهود فى خيبر أو قريش فى بدر ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب أو قتل فعبد الله بن رواحة على الناس ، وكان خالد يظهر لأول مرة فى صفوف المسلمين ، فلم يقترحه أحد لأن يكون قائداً احتياطيا .

وإن ثقة محمد بنفسه ، أو جهله أو براءته فى معالجة هذا الأمر لمن العسير مقارنتها بعقليته العملية المعتادة ، فقد كان يبعث حملة لقتال أشهر جنود الأرض ثم لا يولى القيادة عليًّا أو عمر أو حتى أبا بكر ، بل عبده السابق الذى مهما كانت شجاعته فإنه لم يتقلد مثل هذا المركز من قبل .

سمعت حكومة الرومان بالغزو المزعوم لأراضى الأمبراطورية ، فقررت أن تلقى على هذا المجنون من المدينة درساً ليبقى مهازله لصحراواته العربية ، فاستدعى الحرس المحلى ، وفى أيام قلائل كان تيودور أخو الأمبراطور على رأس جيش عظيم من مائتى ألف جندى مجهزين أحسن تجهيز ، متأهبين للقتال .

وفى ذلك الوقت كان زيد ورجاله الثلاثة آلاف ، ممتطين رواحلهم ، وفرسانه المائتان يغذون فى السير فى سرور إلى سوريا ، وقد حسبوا أنهم سيفجأون عدوهم ويأخذونه على غرة منه ثم يعودون بالأسلاب . وقد

صفوف المسلمين ، فراح يقاتل عن كل شبر من الأرض ، مستغلا كل ما فى صالحه حتى انسحب برجاله خارج ميدان القتال ، فلما سقط الليل ، كان خالد قائداً لجيش محطم منهوك ، ولكنه كان لا يزال جيشاً .

ففى الصباح أحس الجيش بالراحة ، فكان فى مقدوره أن يشن الهجوم على الأعداء ، فجعل هذا التظاهر بالهجوم الرومان يحسبون أن مدداً قد جاء ليشد أزر المسلمين ، فانسحبوا إلى أماكن أكثر ملاءمة لهم ليقابلوا هجوم العرب ، ولكن خالداً ما كان ليخاطر بمن استطاع القائد الموفق أن ينقذهم من الهزيمة الساحقة ، فراح يناوش الأعداء حتى خيم الظلام . ثم انسحب مسرعاً إلى المدينة ، ولو أنه لم يتمكن من أن يجد جسدى زيد وعبد الله ، إلا أنه وجد جسد جعفر فحمله معه فى عودته .

وسبقت أنباء الهزيمة عودة الجنود ، فقابلهم الناس خارج المدينة بالسباب ، وإن هذا لمثل آخر على أن العرب ما كانوا يعرفون إلا القليل عن العالم الخارجى ، وعلى مقدار ما كانوا يثقون فى كل ما يخبرهم محمد به : ما كانت عندهم أية فكرة عما كان عليه الرومان ، وما كانوا بقادرين على أن يجدوا أى سبب يدعو جيشهم لترك الرومان دون هزيمتهم ، وإن هذه الحالة لهى التى قادتهم من نصر إلى نصر ، فهم يرون أن المسلم أفضل من أى إنسان آخر ، فهو يعبد الإله الحق ، وهو تحت قيادة رسول هذا الإله نفسه ، وإنه ليضمن الجنة ، وإن مثل هذه الروح لتقود إلى إسقاط ما يتمتع به عدوهم من حسن السمعة من حسابهم ، وإنها لتجعل الموت فى المعركة شهادة لا سوء طالع .

سمع محمد السباب ، فأقبل وانضم سريعاً إلى جانب الجنود ، وراح

يهدىء من الثائرين ، وهنأ خالداً ، ثم أكد للضباط والرجال أنه ستتهيأ لهم فرص أخرى قريبة تعوضهم ما قد فقدوه من هيبة فى مؤتة .

وقد حزّ موت زيد وجعفر فى نفس محمد ، وقد سبب فقد زيد أحزاناً ثقيلة له ، فقد كان زيد صديقاً ورفيقاً خلال ثلاثين عاماً ، وقد كان من أوائل المؤمنين ، وكان بجواره فى أيام الظلام الأولى فى مكة ، وفى الأيام الصعبة الأولى فى المدينة ، وقد حارب فى كل معركة ، وقد ضحى بنفسه لدرجة أن أعطى زوجه لصديقه وسيده ، والآن مات زيد ، فذرفت عينا محمد الدمع .

وقد دفن جعفر فى احتفال عسكرى ، وسار الجيش كله فى جنازته ، وقد خطب محمد عليه فأكد للناس أن جعفراً فى الجنة ، وقد أنهى خطبته بمدح خالد وأطلق عليه « سيف الله المسلول » ، ومن ذلك الوقت عرف خالد بهذا اللقب ، وألقى الرعب فى القلوب ، وإنه على الرغم من أنه قد أحرز وفرسانه المنظمون المدربون انتصارات رائعة ، فمن المرجح أنه لم يتفوق على ما أتمه وحفنة من البدو غير مدربين ضد جنود قد فتحوا كل الدنيا المعروفة فى ذلك الوقت .

وقد تحرك محمد للغزو ثانية قبل أن يقلق الناس أو ينتقدوا هزيمته ، فإنه كما خرج فى إثر المكيين بعد هزيمة أحد ، فإنه خرج إلى مؤتة يتخذ خطة الهجوم .

أمَّر عمرو بن العاص على قوة من المقاتلين على رواحلهم ، وبعثه إلى حدود الشام ، وكان غرضه القبائل البدوية التى بلغ محمداً أنها تتأهب لقتال المسلمين مستفيدة من هزيمتهم فى مؤتة ، فأغذ عمرو فى السير فبلغ

حدود سورية فى عشرة أيام ، فبلغته الأنباء أن البدو متأهبون فى عدد عديد ومتجمعون لاختراق جزيرة العرب ، فاستولى على ناصية الأمور سريعاً ، وتجاهل بعض نصائح ضباطه الحماسية ، وبعث إلى محمد رسولاً يستمده ويقول له إنه إذا أمده فإنه ليستطيع أن يقابل جمع الأعداء الهائل ، وإنه إذا لم يمده فإنه سيفعل وجنوده مافى طاقتهم ، ولكن قد يقود ذلك إلى مؤتة أخرى .

فأمده محمد بأبى عبيدة فى جماعة من المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر ، وقد يدل إمداد محمد عمرا بهؤلاء الرجال ذوى الأسماء الضخمة على أنه ما كان ليثق فى عمرو ، ولكن قبل أن يبسط أحد قواد المدد رأيه فى هذا الموضوع ، قال عمرو إنما جئتم مدداً لى فأنا على قيادة الجيش ، وزيادة على ذلك فقد كان هذا من روح المسلمين الديمقراطية ، فما كان أحد منهم ليهتم بأن يتأمر عليهم هذا القرشى الذى أسلم أخيراً .

وشن عمرو هجومه فى صبيحة اليوم الثانى ، وما كان الأعداء ليعلموا بوصول المدد ، فرجحت كفة المسلمين وانهزم الأعداء ، فأرسل عمرو رسولا إلى محمد بالخبر السار، ولم يعد عمرو من فوره ، بل بقى يشن الغارات على حدود سوريا ويقوم بمناوشات ليرى العدو أنه إذا كانت مؤتة تعد نكسة فإنها لم تؤثر إلا تأثيراً طفيفاً فى قوة المسلمين ، فلما تحقق من أن الأعداء قد فهموا ذلك تماماً ، قفل راجعاً إلى المدينة .

وتبع ذلك خضوع قبائل جزيرة العرب خضوعاً تاماً ، فقد ظهر زعماء البدو الذين أقسموا على الموت قبل التسليم لمحمد فى المدينة ، وأقسموا على الخضوع والإذعان ، وقد كان استقبالهم ودياً ، وكان محمد

يصغى إلى شكاياتهم وشفاعاتهم فى صداقة وود . وأحس محمد فى نهاية عام ٦٢٩ أنه يستطيع أن يعتمد على أغلبية القبائل من حدود اليمن إلى حدود سورية ، فقرر أنه قد حان الحين لمؤاخذة أبى سفيان على سفاهاته . لقد تحمل هذه السفاهات لستة عشر عاماً ، وإنه لا يرى من سبب يضطره إلى احتمالها سبعة عشر عاماً ، وإن كل ما يوده ليفعل ذلك هو إيجاد المبرر المقبول لينقض المعاهدة ، وقد جاء المبرر من قريش نفسها .

الفصل العشرون

فشل سفارة أبى سفيان

(عام ٦٣٠)

فى يناير عام ٦٢٩ هاجمت بنو بكر حليفة قريش قبيلة أخرى كانت قد دخلت فى عقد محمد وسلبتها ، وكان بين السالبين عدد من قريش وكانوا متخفين ، فأسرع من بقوا على قيد الحياة بعد الإغارة إلى المدينة وطلبوا النصر على أعدائهم ، فأكد محمد لهم نصرهم وهو يبتسم ابتسامة سرور .

وبلغ ذلك مكة ، فعقد اجتماع فى دار الندوة بعد وصول النبأ بدقائق معدودة ، وكان اجتماعا قد توجس الشر فيه ، فما كان هناك خطب لحض المكيين على القتال ، وما كان هناك وعيد لمحمد ، وما كان هناك أى نوع من التظاهر بالشجاعة على الإطلاق ، فقد عرف القرشيون أنه إذا لم يفكر أحدهم فى فكرة رائعة وسريعة ، فإن مكة ستصبح قريباً مدينة غير مستقلة ، وما كان عند أحد منهم فكرة رائعة ، وما كان أحد بقادر على أن يفكر فى شيء يوقف محمداً إلا الطمع فى كريم خصاله ، وإن هذا آخر ما يتعلقون به ، ولكن ماذا هنالك أيضا ؟ إن الديبلوماسية لهى الوسيلة الوحيدة للنجاة ، ففى الجانب الآخر خالد وعمرو ومئات القبائل التى اعتنقت الإسلام .

لقد قرروا الطريقة التى يعالجون المعضلة بها ، وكان السؤال الثانى هو : من يبعثون إلى محمد ؟ كان جميع أعضاء الاجتماع دون استثناء يبغضون محمدا ، فقد كان سبب متاعبهم لما يقرب من عشرين سنة ، وقد حاولوا كل شىء لتحطيمه ، وقد فشل كل ما حاولوا ، فكان ذهابهم الآن إليه والاعتراف بأنه كان على صواب ، والتماس عفوه ، والالتجاء إلى أناته شيئاً مر المذاق ، وعسير الهضم ، ولكن ينبغى فعله ، وينبغى أن يفعله رَجُل يستطيع أن يقنع محمداً بإخلاص سفارته .

ودارت عيون أعضاء الندوة نحو أبى سفيان ، فاعترض أبو سفيان ، فكيف يفعل ذلك وهو عدو هذا النبى اللدود ، وكيف يحقر نفسه أمام هذا التاجر الباعث على الهزء والسخرية ؟ وكان كلما أخذ أبو سفيان فى الاعتراض ، أصر القرشيون على أنه الرجل الذى يذهب إلى المدينة . وبجانب ذلك كانت هناك أم حبيبة ، فإن أبا سفيان لم ير ابنته من مدة ، ولابد أنها تتوق إلى أبيها ، على الرغم من زواجها غير اللائق من محمد .

وأخيراً وافق أبو سفيان على سفارته المحطة من شأنه ، وخرج إلى المدينة ، فلما بلغها كانت تحقيرات أخرى تنتظره ، فقد رفض محمد مقابلته ، وقد علم أن قريشاً فى مركز سىء حتى إنها أوفدت قائدها كمندوب عنها .

فغضب أبو سفيان الذى شرب الهوان ، ولكن لم يلتفت إليه أحد ، فزار أبا بكر وعمر وعليا ، ولكنهم أغلظوا له جميعاً فى الرد . وذهب إلى فاطمة فلم تنفذ له طلبه ، ودخل على ابنته ، فطوت فراش النبى لأنها لم تحب أن يجلس عليه رجل مشرك نجس .

فلما رأى أن الجميع يعرضون عنه ولا يرغبون فى التحدث معه فى أى شيء ، ذهب أبو سفيان إلى صحن المسجد وقال :

« أيها الناس ، إنى أجرت بين الناس » .

فقال محمد :

« أنت تقول ذلك يا أبا سفيان »

فلما عاد أبو سفيان إلى مكة ثانية ، وأنبأ القوم نبأ رحلته إلى المدينة خلع الهلع قلوبهم ، ولكن على الرغم من ذلك فما كانوا يظنون أن المهلة التى ستنقضى قبل أن يضرب محمد ضربته مهلة صغيرة لا تخطر لهم على بال .

إنه ليجمع الآن قوة يمكن أن يطلق عليها اسم جيش بحق ، كانت تحت إمرة رجال دربهم بنفسه فى المعارك والغارات لست سنوات ، فإنهم ليعرفون طرقه فى الغزو ، وليثقون فيه ويثقون فى أنفسهم . لقد كانت الصفوف مكونة من بدو على رواحلهم ومن فرسان وقطاع الصحراء الذين كان القتال رياضة بالنسبة إليهم ، ولقد أصبحوا يخضعون للأوامر وقد نظمت غنائمهم وأسلابهم ، وقد أصبحوا الآن زيادة على صفاتهم الجسمانية الطبيعية مسلحين تسليحاً حسناً وفى عدة كاملة ، لقد كان محمد على رأس عشرة آلاف مقاتل مدربين وقد خرج للهجوم على مكة .

ولكن على الرغم من أن هذا الجيش كان أكبر جيش إسلامى دفع به إلى الميدان ، إلا أن محمداً ما كان يحب أن يتحمل خسائر ، فقد سار إلى مكة سراً ، وأغلقت جميع الطرق إلى مكة ، وأوقفت جميع تحركات البدو .

وراحت عيون محمد ترقب كل شيء ، وقد أحبطت المحاولة الوحيدة لإيفاد معلومات إلى العدو .

أحس حاطب أحد المسلمين الأوائل قلقاً على أسرته فى مكة ، فبعث أمة بكتاب إلى أهله يحذرهم ، وأحيط محمد بالأمر خبراً ، فقبض على المرأة وردت إلى المدينة ، وقد كاد حاطب يدفع حياته ثمن أثرته ، ولكن أبقى على حياته لأنه كان ممن شهد بدرا .

ابتدأ الجيش فى التحرك فى يناير عام ٦٣٠ ، وكان الزبير ومائتا فارس على رأس الجيش ، وكان محمد يقود الجيش جميعاً ، وقد كانت نسوة قليلات فى المؤخرة ، وكانت زينب وأم سلمة فيهن .

وعهد إلى عمر تنسيق السير فقاد الجيوش بمهارة فى مسالك غير مطروقة خلال التلال الصخرية ، وما كان ليسمح باستعمال الطبول أو الهتاف أو الصياح ، وفى منتصف الطريق بين المدينة ومكة جاء الكشافة بنبأ أن جماعة من الرجال والنساء كانوا مقبلين من اتجاه البلد الحرام ، وقد اتضح أن قائدهم كان العباس الذى لا يقهر ، فلم يفسر كيف علم بما كان يجرى ، ولكنه ظهر أمام محمد وسلم عليه كأنما كانت مقابلة محمد فى جيش من عشرة آلاف مقاتل يخترق صحراء بلاد العرب أمراً عادياً . وكانت أسرته فى رفقته ، وقد أنبأ ابن أخيه دون خجل بعد انقضاء يوم أنه قد عزم على اعتناق الإسلام ، واعتنق العباس وأهله الإسلام ، وقد قال محمد الذى كان يعرف أن عمه يسير مع المد دائماً ، إلا أنه كان صديقاً أبدا :

« هجرتك يا عم آخر هجرة ، كما أن نبوتى آخر نبوة » ، فهز العباس منكبيه ، وبعث بأهله إلى المدينة ، وانضم إلى جيش المسلمين .

وراح الجيش يقترب من مكة يوماً بعد يوم حتى عسكر فى مرالظهران على مرأى من قريش ، ومن ثم سمح عمر بإضاءة نيران العسكر . ورأى القرشيون التلال الشمالية وقد تألق فوقها فجأة آلاف المشاعل التى يندلع لهيبها الأحمر ، فاستولت عليهم دهشة ، فما كانوا يعلمون ما يخبئه محمد لهم ، وما استطاعوا أن يعتقدوا أن هذه نيران عسكر ، لقد كانت خدعة جعلتهم يظنون أن العسكر أكبر مما كان ، فخرج أبو سفيان وحكيم ابن أخت خديجة وبديل زعيم قبائل محلية قليلة بقيت مع قريش يتنطسون الأخبار.

وقبل أن يقتربوا من العسكر رأوا مخلوقاً أبيض كبيراً يلوح فى الظلام ، فراحوا يفكرون فيما يلجأون إليه ليدافعوا عن أنفسهم لما وقف المخلوق بجوارهم ، وكم كانت دهشتهم لما رأوا أنه العباس ، وكان العباس قد جلس على بغلة النبي البيضاء ، وخرج عليها لعله يجد أحداً ذاهباً إلى مكة ، يحمله إلى أهلها رسالة بقوة المسلمين وبأس جيوشهم حتى لا يندفعوا فى عمل قد يجر عليهم القتل والوبال . وانطلق إلى أبى سفيان ونصحه أن يأتى معه ويسلم لمحمد قبل طلوع النهار ، قبل ابتداء الهجوم على مكة .

فوافق أبو سفيان على ذلك ، وركب على عجز البغلة خلف العباس ، وانسحب المكيان الآخران ليخبرا قريشاً ماحدث .

لما كانت بغلة النبي المعروفة تخترق صفوف العسكر ، كان الجند على الجانبين يتطلعون إليها ، وكانوا يتركونها تمر بمن عليها ، حتى مرت بعمر .

فقال عمر : « أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد » .

وتأهب ليقطع عنقه ، فقال العباس سريعاً : إنه قد أجاره ، فاستدار عمر فى غضب ، واستمرت البغلة فى سيرها حتى بلغت خيمة محمد .

لم يفعل محمد شيئاً لما دخل عمه وسلم وأخبره بمن معه فى الخارج ، فلم يقدر على أن يعبر عن السرور الذى أدخله النبأ على قلبه ، فإنه لا يرد الإهانات التى ألحقها به أبو سفيان فحسب ، ولكن أصبحت وسيلة الاستيلاء على مكة دون إراقة دماء بين يديه ، وما كان محمد ليميل إلى الثأر من قريش ، وما كان يحب أن يؤذى قوماً آذوه واضطهدوه ، على الرغم من أنه ساق هذا الجيش اللجب الضخم ، وما كان يود أن يقتل الأخ أخاه والمرء أهله وذويه ، وإن كل ما قاله للعباس :

« اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به » .

فنفذ العباس هذا الأمر ، وأمضى الليل فى إقناع أبى سفيان أن موعد حكم محمد لمكة قد آن . ومثل العباس وأسيره أمام محمد عقب الفراغ من صلاة الصبح .

راح محمد ينظر إلى أبى سفيان لدقائق وهو ماثل أمامه ، وكان يبدو عليه التملق والغضب ، والذلة أيضاً ، ثم قال محمد :

« ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ! » .

فهز أبو سفيان رأسه موافقاً [1] .

« ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ! »

فتردد أبو سفيان ، ونظر حوله فى قلق ، وقال :

---

(١) قال أبو سفيان : « بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد » .

« أما والله هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ! »

فقال العباس :

« ويحك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله قبل أن . . . »

فأتم عمر الذى كان واقفاً متأهباً عند مدخل الخيمة :

« قبل أن يضرب عنقك » .

فلم ينتظر أبو سفيان طويلا ، فشهد شهادة الحق .

واستمر محمد صامتاً لدقائق قليلة ، فما كان بقادر على أن يصدق أن عدو المسلمين اللدود هذا قد اعترف به ، إنه قد فعل ذلك تحت تأثير الخوف حقاً ، ولكن قدرته على أن يدخل الرعب فى نفس هذا الشانىء القديم ، الذى حاول مراراً أن يقتله كانت عديمة الاحتمال فى الماضى ، وبعد لحظة قال :

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن »

فانسحب أبو سفيان ، فوجد العسكر يعج عجيجاً بالفرق والكتائب ، وكانت الشمس ترسل أشعتها فتنعكس على الخوذات اللامعة والدروع الصلبة ، وكانت مئات من رايات القبائل ترفرف ، وكانت الرواحل تئن ، والخيول تصهل وتضرب الأرض بحوافرها ، وما كان أبو سفيان قد رأى حشداً كهذا وجيشاً عظيماً كهذا ، ولما وقع بصره على كتيبة من الفرسان فى دروعهم السوداء ، وقد حملوا رماحهم الطويلة ، وقد جلسوا على خيولهم كتماثيل منحوتة ، التفت إلى العباس وقال :

« من هؤلاء ؟ »

فأجابه العباس : « هؤلاء حرس محمد وقد اختيروا من خيرة مقاتلى مكة والمدينة » .

لم ينتظر أبو سفيان ليسمع أكثر من هذا ، فاندفع إلى مكة من شط التل الصخرى ، وجمع مجلس الشورى فى دار الندوة وأخبرهم مارأى ، وقد أنذرهم أن المقاومة لا فائدة منها ، فلم يكن هناك إلا معارضة طفيفة ، فإن أغلب المكيين لا يودون مقاومة ، فقد ترك حج المسلمين فى العام الفائت أثراً فى نفوسهم ، ولقد سئموا القتال ، وكان كثير منهم قد ابتدأ يفكر فى أنهم قد أخطأوا فى حق محمد من بادىء الأمر ، فانسحب لذلك الرجال والنساء والأطفال إلى دورهم ، وأغلقوا أبوابهم ، ينتظرون دخول المسلمين المظفر .

وقد لبس محمد سلاحه فى نفس الوقت كأنما كان خارجاً إلى معركة ، وكان مرتدياً بردة وفوقها درعه ، وكانت لأمته على رأسه ، وقد لفها بعمامته السوداء ، وقد كان أعزل إلا من سيفه ، وامتطى راحلته القصواء التى أنيخت أمام خيمته ، وانطلق ليستعرض جيوشه . وقبل ابتداء السير دفع باللواء إلى علىّ الذى حمله بشجاعة يوم خيبر .

وعلى الرغم من أن أبا سفيان قد أعلن إسلامه ، فإن محمداً لم يثق به أكثر مما كان يثق به فى يوم أحد ، لذلك لم يشأ أن يعرض جيشه لأى حركة مفاجئة من جانب المكيين ، فأمر جيوشه بتطويق المدينة والدخول من أربع جهات مختلفة . كان خالد يقود من الجنوب قبائل البدو المتحالفة ، وجاء من الشمال جماعة أخرى من البدو ، وكانت هذه الجماعة على الإبل

بقيادة الزبير ، وجاء من الغرب المدنيون تحت إمرة سعد بن عبادة ، وجاء من الشرق أبو عبيدة على رأس المهاجرين ، وسار محمد وكبار الصحابة خلف هؤلاء ، وكان يحميهم عليّ على رأس الرماحة فى دروعهم السوداء ، الذين تركوا أبلغ الأثر فى أبى سفيان .

انطلقت الكتائب فى نظام تام من المعسكر ، واندفعت الصفوف فى بطء صوب المسالك المؤدية إلى البلد الحرام ، فلم تبد مقاومة فى أى مكان ، فبدا كأن النصر الذى لا يراق فيه دماء والذى كان محمد يرجوه على وشك أن يتم ، ولكن هوجمت قوة خالد دون سابق إنذار .

وجد سفيان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل أنه لكثير عليهم أن يجلسوا فى دورهم بينما يسلب هؤلاء الذين ينقضون المعاهدات بلدهم وحريتهم ، فلم يأبهوا بضخامة الجيش ، فقد كانوا مقاتلين ، وكانت غريزتهم القتال .

كان من سوء طالعهم أن يقاوموا صفوف خالد ، فقد كان من المحتمل أن يحصلوا على نجاح مؤقت لو أنهم قاوموا صفوف أى قائد آخر ، فما كان أمامهم فرصة أمام هذا القائد المقدام .

وأمطر القرشيون فرقة خالد بنبالهم ، فسحب فرسان خالد سيوفهم ، ثم مالوا على رقاب أفراسهم وهجموا على الأعداء ، وقد سقط مسلمان وثمانية وعشرون مكياً صرعى قبل أن يتمكن محمد من بعث رسول إلى خالد لمنع القتال وتجنبه .

وفى نفس الوقت الذى وقعت فيه هذه الحادثة التى لم تكن مرتقبة كان محمد يشرف على فتح مكة من مرتفع تحت المكان الذى قبر فيه

أبو طالب وخديجة بقليل ، وهنالك ضربت له قبة وبقى بها حتى تم فتح مكة .

وكان كل شيء لازال يبدو له بعيد التصديق ، فإنه ليستطيع أن يرى بيت عبد المطلب من مكانه ، حيث رتع به صبياً ، وإنه ليستطيع أن يرى دار أبى طالب حيث شب قوياً ، ودار خديجة حيث تمتع بالسعادة والهناءة ، وإنه ليرى المسالك التى طرقها شاباً ، والمكان الذى خرج منه فى أول قافلة مع الخارجين . وما كان بقادر أن يتذكر كم من المرات قطع هذا الطريق وهو عائد من سفرة تجارية ، أو كم من مرة مر بهذا المكان وهو فى طريقه ليتحنث فى غار حراء . والآن كل هذا أصبح له . إن سليل هاشم العظيم الذى اضمحلت أسرته حتى لم يعد بها أحد يذكر ، ليعيد إلى اسم الأسرة عظمته ، واليوم فهو ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم ، رسول الله حاكم مكة ! . . .

فما إن تحقق من أن المسلمين قد استولوا على البلد الحرام حتى بدل ثيابه ولبس ثياب الإحرام ثم اعتلى القصواء وانطلق إلى الكعبة ، وكرر شعائر السنة الماضية ، فاستلم الحجر الأسود ، وطاف سبعاً ، وبعد فترة سكون دعا من بقى من المسلمين الأوائل الذين صدقوه قبل الهجرة ، هؤلاء الرجال الذين وقفوا بجانبه فى أشد المواقف وأحلك الأيام وعرضوا حياتهم للمخاطر فى سبيل دينهم ، فإنه قد عزم على أن ينفذ ما كان قد احتل فكرة مذ أيام البعث الأولى ، إنه سيحطم أصنام الكعبة .

وأخرجت الأصنام التلاثمائة والستون من جوف الكعبة ، وحطمت واحداً واحداً حتى هبل العظيم وتمثالى إبرهيم وإسمعيل ، وكان كلما حُطم صنم قرأ محمد من السوره السابعة :

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » .

وخرج بعض المكيين من دورهم ليروا ما سينزل بهم لانتهاك حرمة أصنامهم ، فلما حطم آخر صنم ووطىء تحت الأقدام دون أن تنزل بهم قارعة من السماء ، نظر كل منهم إلى الآخر فى ارتياح ، فأسرعوا إلى جيرانهم الذين أغلقوا أبوابهم عليهم ، وأذاعوا النبأ العجيب ، وجاءوا بالذين فى شك من ذلك إلى ساحة الكعبة ليروا بأنفسهم ما حل بآلهتهم ، وقد أمر محمد بمحو الصور المرسومة على الكعبة أيضا .

فلما تم هذا ، نادى منادى رسول الله بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره . فلم يتردد المكيون فى إلقاء تماثيلهم من النوافذ بعد أن رأوا هزيمة الأصنام المنكرة فى الكعبة .

فلما تم ذلك ، دعا محمد عثمان بن طلحة وأعاد إليه مفاتيح الكعبة ، وبذلك أبقى له حراسة الكعبة ، وعين عمه الأريب على حراسة بئر زمزم المرة المذاق .

فقبل العباس ذلك دون تعليق ، وراح يعمل كأنما كان هو والإسلام شيئاً واحداً ونفس الشىء منذ بدايته ، ولم يقم هذا الهاز للفرص ذو العقلين بشىء جليل فى حياته إلا إذا حسبنا مهارته فى صداقة كلا طرفى الخصومة لمدة طويلة ، ولكن اسمه قد خلد إلى الأبد فى تاريخ الإسلام ، فقد كان الجد المباشر للخلفاء العباسيين الذين حكموا العرب ، وقد ازدهرت الحضارة والآداب فى أيامهم فبلغت أعلى مراتبها ، ولقد عاشت بغداد فى عصرها الذهبي الخرافى فى أيام هؤلاء العباسيين الذين سادوا بعد محمد بمائة سنة تقريباً حتى منتصف القرن الثالث عشر بعد الميلاد ، وكان

هارون الرشيد أحد سلالة العباس العريقة ، وكان العباس خبيثا ، ولكنه كان الرجل الوحيد الذى لم يفقد روح المرح أبداً فى أيام اضطرابات مكة .

ولما تم هذان التعيينان ، اعتلى بلال سطح الكعبة مرة ثانية ، وأذن ليدعو الناس للصلاة فانبعث الصوت مرة ثانية إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب ، فكانت الكلمات تتردد فى وضوح فوق أسطح مكة المنبسطة . ولما تم الأذان استقبل محمد الكعبة الطاهرة من الأوثان وابتدأ فى الصلاة ، واستقبل الكعبة أيضاً الجنود الذين كانوا قريبين ، وكذلك الجنود الذين كانوا فى الطرقات وفوق سفوح التلال ، لقد استقبل عشرة آلاف منهم القبلة وابتدأوا فى الصلاة مؤكدين أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وقد تبع ذلك فترة سكون لما ركب محمد إلى تل صغير ليس بعيداً من مكة ، حيث قبل بيعة الرجال والنساء . وكان أول من أسلم أبو قحافة أبو الصديق ، وقد جاء أبو بكر يقود أباه ، فلما رآه محمد قال : هلا تركت الشيخ بمكانه حتى أكون أنا آتيه فيه ! ولم يتوقف محمد عن أن يؤكد طوال البيعة أنه بشر كهؤلاء البشر الواقفين أمامه ، وأنه من أبوين قرشيين .

وقد عوقب عدد قليل جداً لأخطائهم السابقة ، ولم ينفذ القتل إلا فى أربعة فقط ، وقد كان وحشىّ الذى قتل حمزة فى أحد بين من أهدر دمهم ، ففر ، ولما رآه محمد بعد ذلك كان وحشىّ قد أسلم ، فأنقذ ذلك رأسه .

وكان إسلام هند أدهش إسلام ، فلم تتمكن من أن تفر من مكة ،

فتقدمت فى شجاعة إلى محمد ، فلما رآها تتطلع إليه بعينيها الجميلتين ، لم يتمكن من أن يخفى امتعاضه ، فتخلت عنها كبرياؤها ، فركعت عند أقدام محمد تلتمس العفو ، فأرضاه هذا التذلل العام من المرأة التى بذلت أكثر من أى شخص آخر ما فى وسعها لتلطيخه ، فصفح عن قاتلة حمزة وقبل إسلامها ، ولكن هند لم تؤمن أبداً . وكانت تمقت محمداً وتكرهه حتى ماتت .

وفر عكرمة بن أبى جهل ، فلما سمع بصفح محمد وعفوه عاد ، فقابل محمد عدوّه اللدود بالترحاب .

وكان هناك أسباب لذلك فإن اعتراف عكرمة بن أبى جهل بمحمد كرسول الله نصر يستحق العفو ، وكان محمد فى حاجة إلى ضباط من الطراز الأول فى جيشه الآخذ فى النمو ، وقد كان عكرمة من أفضل القواد فى جزيرة العرب ، وقد عقدت القيادة له عقب إسلامه بقليل ، فبرهن سريعاً على صدق نظر محمد ، فأصبح قائداً مقداما ، ومات فى سبيل الإسلام فى إحدى المعارك .

وقد أصبح جميع هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام أخيراً متعصبين له أكثر من إخوانهم الذين دخلوا فيه فى أيام التعذيب الأولى لما لم يكن هناك معارك ليخوضوا غمارها إلا معارك الدفاع عن أنفسهم .

وقد خرج خالد وعمر بعد تسليم مكة مباشرة وإسلام الناس ، لتحطيم الأصنام والأوثان فى القرى والواحات القريبة ، ولقد فعلا ذلك ، ولكن حينما كانا يجدان من يتردد فى اعتناق الإسلام ، كانا يقتلانه ، وقد أسرف فى ذلك خالد . وكان هذا يخالف جميع أوامر محمد ، فإنه أظهر حلماً وسعة صدر فى مكة ، فقد صفح عن الإهانات والامتهانات العديدة

التى نالته وتناساها ، إنه فعل كما فعل يوسف فى مصر . ولما سمع بالطريقة التى اتبعها خالد لنشر الإسلام ، رفع عينيه إلى السماء وقال :

« اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » .

وقد أكد ندامتـه عملياً بأن عزل خالداً ، ودفع الديات إلى أقارب الذين قتلوا .

ولما انتهت جميع الاحتفالات راح يفحص بنظره المدينة التى غمرها ضوء المساء الذهبى ، وقد وقف حوله المؤمنون الأوائل الذين كانوا معه منذ بدء الرسالة ، وقد بدا عليهم التبدل أيضاً ، فقد كانوا واقفين فى تراخ يتسامرون دون أن يبدو عليهم ذلك النشـاط الذى يبدو على هؤلاء الرجال الذين عليهم أن يكونوا واثقين دائماً من أن سيوفهم ليست معلقة فى أغمدتها ، ومد محمد ذراعيه نحو الشمس التى كانت تقبل سقوف البلدة الحرام وقال : « ما أطيبك من بلد وأحبـك إلى ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك » .

فلما سمع المـكيون ذلك ذرفت عيونهم بالدموع ، والتفت المدنيون بعضهم إلى بعض وقالوا فى حزن :

« أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها » .

فبلغ ذلك رسول الله ، فأسرع ليطمئن هؤلاء الذين آووه يوم لم يكن له أصحاب ، قال :

« كلا ، لا أفعل ذلك ، إنى عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

وقد نفذ وعده ، وقد عاد مرتين فقط إلى مكة قبل موته .

لقد أصبح الآن تعباً ، وإنه فى حاجة إلى أن يستريح ، وقد صار فى أيام قلائل من أقوى حكام جزيرة العرب ، فقد كان حاكماً دينياً وحاكماً دنيوياً ، وسيصبح الحاكم الوحيد المعترف به ، ومؤسس أمة وامبراطورية ودين قبل أن ينقضى الحول ، ولكن هذا لن يطربه بقدر ما أطربته فكرة أن الكعبة قلب العالم قد طهرت من أصنامها الذليلة ، فلو أنه مات هذه الليلة لاعتبر أن أهم جزء فى رسالته قد تم .

ولم يمت محمد هذه الليلة ، فقد بقى عليه أن يحيى مدة أخرى بسيطة ، ولكن أقصى ما بلغه من نجاح كان فى هذه الأمسية الذهبية لما أصبح كل شىء كد من أجله فى قبضة يده .

ومن النادر أن تجد رجالاً قد حققوا جميع مطامعهم فى حياتهم ، ومن الأندر أن نجد هؤلاء الذين حققوا أطماعهم دون أن تتبدل نظرتهم إلى قيم الأشياء ، ففى هذه الأمسية من يناير عام ٦٣٠ م ، وفى السنة الثامنة من الهجرة نام محمد على حصيره بنفس الطريقة التى نام بها لما خرج فى تجارة خديجة بنت خويلد .

الفصل الحادى والعشرون

صياغة جيش

(٦٣٠ — ٦٣١ م)

قد يظن أن ما تبع الاستيلاء على مكة لم يكن صعوداً وتألقاً بل كان تقهقراً ، وهـذا لم يكن ، بل على العكس ، فقـد استمر الصعود يتبعه صعود فى تتابع جسور فى حياة محمد المليئة بالروائع .

وعلى الرغم من أن أغلبية المـكيين قد دخلوا فى الإسلام ، فإن بعض القبائل العتيقة لم تدخل فيه ، فقد قبلوا أن يكون محمد قائدهم ، ولـكنهم لم يروا من الضرورى أن يعتنقوا ما يعتنق ، وما كان هذا ليتفق وما قرره محمد للبلدة الحرام أو لأية جماعة عربية ، فإنه لم يكن ليدعى السلطه الزمنية ولـكنه لم يكن ليحسن أنه بلغ رسالات ربه حتى يدخل جميع مواطنيه فى الإسلام . وقد كان فى طريقه ليعظ الناس لما أوقفته أنباء لم تكن متوقعة .

كان قواد المسلمين يعتقدون أن سقوط مكة سيكون حافزاً لجميع بلاد العرب الأخرى على التسليم دون قيد ولا شرط ، ولـكن حدث عكس ذلك .

فإن قبيلة هوازن العظيمة التى كانت ترعى حول الطائف حيث حاول محمد أن يلجأ إليها من الاضطهاد قبل الهجرة بسنتين ، وقد طردوه طرد كذاب أشر ، وإن رجال هـذه القبيلة متعجرفون وقد بذلوا دواماً كل

ما فى طاقتهم ليحافظوا على استقلال مناطقهم الجبلية ، فلما رأوا نصر محمد قرروا أن يهاجموه فى قسوة قبل أن يتمكن من بسط سلطانه على جزيرة العرب كلها ، ومعنى هذا سلب حريتهم ، فدعوا إلى السلاح حلفاءهم العديدين الذين يقطنون نفس الجبال ، وكان من هؤلاء بنو ساعدة الذين أمضى محمد طفولته بينهم ، فلما سمع محمد بهذه الثورة ، قرر أن يضرب سريعاً قبل أن يتحرك الأعداء إليه ، وقد كانت جميع الوسائل التى تمكنه من ذلك عنده ، وقد زاد جيشه بمن كانوا تحت إمرة أبى سفيان منذ فتح مكة ، فأصبح الآن اثنى عشر ألفاً ، فخرج على رأس هذه القوة ليقابل الجيوش المجيشة المتحالفة الخارجة من الطائف .

كانت هذه الجيوش تتحرك سريعاً ، وكانت فى عدد عديد ، وقد عزموا على الاستفادة من طبيعة البلاد الجبليه ، ليتجنبوا الفرسان وخبرة المسلمين العسكرية الهائلة .

وكان على الهاجمين أن يجتازوا مضيقاً ضيقاً ليصلوا إلى الوديان الخصيبة خلف جبال أوطاس حيث جمعت هذه القبائل الثائرة إبلهم وأغنامهم ، وكان اسم المضيق حنين ، وكان هذا المكان مظلماً موحشاً ، وكانت جوانبه شديدة الانحدار ، وكانت مساحته ضئيلة لا تسمح بتقدم جيش إلا إذا تقدم فى جماعات صغيرة ، وما كان هناك مجال للفرسان ليقوموا بحركاتهم إذا ما اشتركوا فى المعركة ، ولا يمكن استغلال الجمال أيضاً ، وكانت مقدمة المسلمين بقيادة خالد وكان يقود القبائل البدوية ، وجاء فى أعقاب هؤلاء الفرسان والمشاة والركبان ، وكان محمد على بغلته وحوله كبار الصحابة فى المؤخرة .

لم يركب محمد فى المؤخرة طلباً للسلامة ، فإنه ما كان يفكر فى شىء عارض كهذا ، فقد كان على ثقة اليوم كما كان على حذر قبل ذلك بأسابيع قليلة ، وما كان ليشك أدنى شك فى أن جيشه يستطيع أن يهزم أى عدو ، وقد نظر إلى الحملة جميعها على اعتبار أنها إغارة كبيرة تكسب جيوشه خبرة ، ويعود جنده منها بالغنائم والأسلاب ، وقد كان ضباطه ورجاله يشاركونه هذه الآراء ، فلما ألقى رجال هوازن الصخور من عَلٍ على المسلمين وأصلوهم وابلا من نبالهم ، ثم هجم عليهم الرجال بأسيافهم ، اختلط الحابل بالنابل فى ذلك المضيق المظلم .

وإنه لعجيب أن هذه الخطط قد هزمت جيشاً من الطراز الأول ، وإنه لأشد عجباً أن يسمح هذا الجيش الذى من الطراز الأول بأن يستدرج إلى مثل هذا الموقف ، وقد هزم رولاند بنفس هذه الطريقة عند رونسيسفيل ، وكذلك فيرس (Yerus) فى غابة تيوتوبرجير . وقد استعمل لورنس بلاد العرب هذه الخدعة الحربية بنجاح ضد جيوش الألمان والترك فى نفس هذا المكان حيث يرى الآن جنوده الذين كانوا يتألقون فى تقدمهم ، يفرون مذهولين ويمرون به كقطيع جفول ، فأصبح هذا الجيش الفخور الذى كان يتقدم عظيما نحو المضيق ، فى دقائق معدودة شرذمة من الرجال لا نظام لهم ، يفرون أمام هجوم رجال القبائل وكان يبدو أنهم يخرجون من الكهوف المظلمة . وقد راحت محاولات محمد لتجميع رجاله سدى ، فقد ابتدأ الذعر الذى هزم بعض الجيوش العظيمة يعمل عمله ، وقد كانت محاولة إيقاف الهزيمة كمحاولة صد موجة فى مدها .

فغضب محمد حتى إنه نادى صحابته الذين وقفوا بعيداً ليتبعوه إلى

الموت، فسحب سيفه، وامتطى بغلته، وانطلق صوب صفوف الأعداء المتحمسة التي ما كانت نفسها بمستطيعة أن تمر من الممر الضيق. وأسرع العباس خلف ابن أخيه، وأمسك بخطام بغلته، فنادى المسلمين: «يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، إن محمداً حي فهلموا، وكان صوت العباس جهورياً، فراح يكرر النداء حتى تجاوبت في كل جنبات الوادي أصداؤه، فثبت المسلمون، وكرر العباس النداء، فاستداروا ليواجهوا المضيق، فأحس الذين قاتلوا في خيبر ومؤتة خجلاً، فهجموا على الأعداء وراحوا يتصايحون من كل صوب:

«لبيك اللهم لبيك»

كان هجوم المسلمين دائماً واندفاعهم للموت في سبيل دينهم لا يقاوم، وكان هذا ما حدث في فبراير من عام ٦٢٩، فإن ما ابتدأ كذعر وفرار انقلب إلى معركة استماتة، وقد بذل رجال القبائل ما في طوقهم، ولكنهم اضطروا للتقهقر أمام هؤلاء المتعصبين المسلحين تسليحاً قوياً، والمنظمين الآن تنظيماً حسناً، وفروا بعد قليل مسرعين كما فر المسلمون.

كانت هزيمتهم تامة، فضغط عليهم محمد بجيشه فأخرجهم من المضيق إلى الوادي المنبسط، فحاولوا الثبات هنالك، ولكنهم أصبحوا تحت رحمة الفرسان الآن، فتحولت الهزيمة إلى مذبحة، وبعد قليل أطلق القليلون الذين بقوا على قيد الحياة سيقانهم للريح، ولكنهم أعيدوا بعد ذلك. فقد وقع عسكرهم في أيدي المسلمين، وقد استولى جنود محمد، زيادة عن الخسائر التي نزلت بعدوهم، على ستة آلاف من العجائز والصبيان، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وأربعين ألفاً من الشاة، وأربعة وعشرين

ألفاً من الإبل ، لقد كان أعظم انتصار انتصره محمد .

وامتنع عن أن يهنيء بالفتح ، فقد أحس ما أحسه بعد أحد ، وعرف أنه لولا صوت عمه الجهورى لانتهت حياته وحياة صحابته هذا اليوم فى المضيق ، وعرف ضعف الغرور الذى لا يغتفر ، فكتب فى السورة التاسعة عشرة :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . »

وكانت بين الأسرى امرأة عجوز التمست المثول بين يدى محمد ، فلما رأته خاطبته باسمه دون تكليف ، فدهش محمد ، فقدمت المرأة نفسها إليه وقالت إنها شيماء أخته من الرضاعة أيام كان يرضع فى بنى ساعدة ، فأدناها منه وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، فجلست بجواره كما كانت تجلس لما كانا صبيين فى خيمة الراعى ، وجاءت حليمة أيضاً بعد قليل إلى خيمة القائد ، وكانت قد أنهكتها السنون ، ولكنها راحت تخاطب ابنها من الرضاعة كما كانت تخاطبه من خمسين سنة خلت ، فعاملها محمد كما عامل شيماء ، وجلسوا ثلاثة على رداء واحد ، وراحوا يضحكون على ذكريات الطفولة التى كانت تذكرها حليمة .

إن مقابلة محمد لهؤلاء الذين يذكرونه بالماضى لم تمنع محمداً من أن يعامل القبائل التى كانت تحاول أن تنتقص من سلطانه فى شدة ، ولقد شاء أن يلقى درساً على أهل الطائف ، على الخصوص ، الذين أساءوا استقباله من عشر سنين ، وأحس أيضاً أنه إذا ما تمكن من هدم صنمهم

اللات لأمكنه أن يفض العرب الآخرين عن عبادة الأوثان .

ولكن رجال الطائف كانوا مقاتلين أقوياء ، فتحصنوا فى مدينتهم ، وقد كانوا مسلحين تسليحاً حسناً ، وكانت ميرتهم وذخيرتهم زاخرة ، وكان محمد مسلحاً تسليحاً طيباً مثلهم ، وقد حاول فى قتالهم جميع أنواع القتال ، واستعمل أسلحة جديدة للحصار وهجم عليهم بجميع جيوشه ، ولكن كل هذا كان نصيبه الفشل ، وكانت خسائره مروعة مفزعة ، فسقط بعض من أحسن قواده ، وفقد أبو سفيان عينه ، وأخيراً حرق لهم النخيل والكروم وقرر أنه من الأفضل رفع الحصار ، فسار بجيشه حتى نزل الجعرانة ، حيث قسم غنائم الغزوة ، وقد أعطى الذين دخلوا فى الإسلام حديثاً أكثر مما أعطى المسلمين الأوائل ، وقد كان كريماً مع أبى سفيان وعكرمة ، وأرسل إلى مالك زعيم قبائل الطائف من يبلغه : أنه إن أتاه مسلماً رد عليه أهله وماله ، فوافق مالك على هذا الاقتراح ، فقد كان يعلم أن المسألة مسألة وقت فقط قبل أن يضطر إلى التسليم اضطراراً ، ولم يستطع أن يقنع أتباعه أنه من العقل قبول هذا الاقتراح ، فخرج وحده وقد أرضى إقباله وحده على محمد إرضاء مؤقتاً .

فلم يرض شيء من هذا المسلمين الأوائل ، وقالوا :

— ألا ترون كيف يعطى الذين دخلوا فى الإسلام حديثا ولا يعطينا إلا نصيبنا عاريا .

وسمع محمد بذلك ، وكما هى عادته عزم على أن يستأصل التذمر من أساسه ، فجمع المهاجرين [1] والأنصار ، وقال :

(١) كان هذا الخطاب للأنصار فقط .

— أما والله لو شئتم لقلتم ولصَدقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّبا فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، أوجدتم يامعشر الأنصار فى العلالة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » .

لقد غاصت الكلمات الحارة المخلصة فى قلوب المؤمنين ، فقالوا دون تردد :

— رضينا برسول الله قسماً وحظا .

• كان محمد على صواب ولا شك ، فإن هذه القبائل التى اعتنقت الإسلام حديثا ما كان عندها إلا فكرة بسيطة عما يعنيه الإسلام ، وإن كل ما كان يؤثر فيهم هو القوة والأسلاب التى تأتى القوة بها . وقد اكتسبهم محمد إلى جانبه بإقناعهم أن الإسلام يحقق هذين العنصرين ، ويمكن أن يغرس الدين فى نفوسهم بعد ذلك .

ولما انتهت جميع هذه الأمور ، عاد محمد إلى مكة ليتم شعائر الحج التى قطعتها الغزوة ، فلما أتم ذلك قاد رجاله إلى المدينة .

ومر فى طريقه بالأبواء حيث قبرت أمه ، فأوقف الجيش ، وجلس برهة بجوار قبر آمنة ، لقد انقضت أربع وخمسون سنة منذ وقف وقد قبض على يد بركة بينا كان أهل القرية يجرفون الرمل والحصى على جسد أمه المدرج فى أكفانه ، ولكنه تذكر هذا المنظر ، وتذكر دموع الجارية

التى انهمرت ، وما كان فى ذلك الوقت ليعرف معنى الدموع ، وكان الموت غريباً عنه فى ذلك الوقت ، كما هو شىء مألوف عنده الآن ، وإنه ليرغب اليوم فى أن تكون أمه على قيد الحياة لتجد الخلاص فى الدين الجديد .

وعاد المسلمون إلى المدينة عودة الظافرين ، فإن مكة لم تسقط فى قبضة جيش المسلمين ، ولكنهم خاضوا غمار معركة حنين وانتصروا فيها . وأحست عائشة وحفصة راحة لما رأتا عودة زوجهما إلى البيت سالما ، وقد كانتا ولا شك تحسان غيرة من زينب وأم سلمة اللتين خرجتا مع الجيش ، ولكن حب الاستطلاع جعلهما تصغيان إلى الروايات الطويلة التى كانت الزوجتان اللتان صحبتا الجيش تقصانها ، وكان محمد أيضاً مغتبطاً لرؤية عائشة ، فبعد ساعات قليلة من وصوله ، كان يطوف على زوجاته طوافه اليومى .

وما كان شىء مما حدث فى الأشهر الماضية ليبدل من طريقة حياته ، لقد أصبح يملك مبالغ طائلة من الأموال ، ولقد ازداد مجداً وتألقا ، ولكن ما كان هذا ليبدل من الأمر شيئا ، فإنه ليعطى المال الفقراء ، وكان يحتفل بالمجد بنفس طعامه المتواضع البسيط ، فى نفس الدور البسيطة التى لا أثاث بها المحيطة بالمسجد . وظلت العلاقات الديمقراطية بين الملك غير المتوج وجنوده كما كانت عليه فى أيام الشدة والاضطهاد الأولى .

ومر ربيع عام ٦٢٠ وصدر صيف هذا العام فى تشريع القوانين ، واستقبال الوفود التى كانت تأتى إلى المدينة لاعتناق الإسلام ، وفى منتصف صيف هذا العام ، فى عشية عيد ميلاده الستين ، قام محمد بأقصى محنه جسدية فى حياته ، فقد قاد جيشا عظيما من الرجال والخيل والإبل

لقطع صحارى جزيرة بلاد العرب المحرقة ليبرهن لإمبراطور الروم أن أيام فتوحاته قد انتهت .

وكان السبب فى ذلك هو الآتى :

جعلت انتصارات محمد المتلاحقة ، وتوطيد سلطانه فى جزيرة العرب الإمبراطور هرقل يفكر فى أنه كان من الواجب أن يتبع مؤتة بإغارة على بلاد العرب ، وإنه ليرى أن الفرصة لم تضع بعد ، لذلك دعا القبائل السورية لتجتمع حول النسر الرومانى لتعاون على تحطيم الدكتاتور العربى .

كان أمام محمد طريقتان لمقابلة هذا التحدى : الطريقة الأولى أن يدع الرومان يتغلغلون فى صحراء بلاده ثم يقابلهم حيثما يحلو له ، والطريقة الثانية أن يهجم عليهم بنفسه ، وكانت الطريقة الأولى هى الأيسر والأسهل ، ولكنها قد تقود إلى فقد بعض القبائل التى حالفها حديثاً ، فاختار الطريقه الثانية ، وقد قوبل هذا الاختيار بمعارضة عامة .

وعلى الرغم من أن العرب قد ولدوا فى هذه البلاد القاحلة ، إلا أنهم لا يتحملون قيظ الشمس ، فإن أى أعرابى يستطيع أن يقود قطعانه إلى بلد ذى ربا وتلال فى منتصف الصيف كان يفعل ذلك ، وأما من لا يستطيعون الرحيل فإنهم ليمكثون فى الظل فى أى مأوى يجدونه فى أثناء النهار ، ويتركون مواشيهم ترعى على قدر المستطاع قبل شروق الشمس وبعد غروبها ، لذلك لم تجد فكرة الخروج فى عدة القتال فى تلك الفيافى القاحلة الماحلة التى تصهرها الشمس ، وقطع الطريق جميعه إلى سورية لمقابلة عدو هائل إلا قليلا من المؤيدين ، ولم يجد المسلم العادى لهذا معنى ، فرفضت الأغلبية المشاركة فى هذه المخاطرة البعيدة عن الرشاد ، فظهر

ثانية عبد الله بن أبىّ الذى أكل الحقد قلبه لانتصارات محمد المتلاحقة ، وراح يمر على المتذمرين ويفت فى عضدهم ، فأخذ يصور الصحراء فى منتصف الصيف فى صورة أبشع مما هى ، وكان يضيف إلى ذلك تأكيده هزيمة العرب التى تنتظرهم فى نهاية سيرهم المضنى الشاق ، وراح يقول إنه ما من عربى أصيل ، ما لم يكن مجنوناً ، ليقدم على مثل هذه المخاطرة .

لم يضطر محمد أحداً للخروج ، فإنه منذ أيام الغزوات الأولى ، لم يشجع أحداً على الخروج معه ما لم يكن متحمساً للخروج ، وكان يعلق على أقوال هؤلاء الذين جاءوا إليه يعتذرون فى سخرية جارحة .

وقال للذين اعتذروا بحرارة شمس جزيرة العرب فى الصيف :

— نار جهنم أشد حراً !

وعمل المؤمنون الأوائل بنفس الإخلاص والثقة التى كانت تغمرهم دواماً ، فجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وجاء عثمان بألف دينار ذهباً ، وجاء أبو بكر بأربعة آلاف درهم ، وعلم محمد أن هذا كل ما عند صديقه ولكنه أصر على تقديمها جميعاً [1] ، وحتى العباس جاء بمال كثير .

وأخيراً كان كل شىء معداً فلما ابتدأ ظل النخيل فى الامتداد ، بدأ محمد فى جمع رجاله ، وعلى الرغم من أن قبائل كثيرة تخلفت عن الخروج فقد خرج جيش جرار أكبر من أى جيش تحرك للمسلمين من قبل ، واصطفت الصفوف خارج الواحة ، فكان هناك ثلاثون ألفاً على رواحلهم ، وعشرة آلاف فارس ، وقطار كبير من الإبل يحمل حاجاتهم ،

(١) جاء أبو بكر بجميع ماله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

لقد كان الجيش جميعه يفوق الأربعين ألفاً ، وإن هذا ليبدو من الصعب تصديقه .

كان فى بدر ثلاثمائة من المؤمنين المتعصبين ما كانوا فى منعة من السلاح ، وكان فى أُحد سبعمائة ، وسار تحت راية الإسلام فى خيبر ، قبل خروج هذا الجيش بسنتين فقط ، ألف وستمائة .

وظهر عبد الله بن أُبىّ بنفاقه المعتاد فى صفوف الجيش ، وابتدأ وأصحابه فى الخروج مع الجيش كالعادة ، وقد تركوا الجيش بعد أن ترك المدينة وقفلوا عائدين كالعادة ، وفى هذه المرة أضاف عبد الله إلى انسحابه دناءة .

خلف محمد علياً على المدينة أثناء غيابه ، فلما عاد عبد الله إلى المدينة أوسع الأرض إشاعة أن محمداً خلف عليا لأنه يغار[1] منه ، فلما سمع علىّ هذا امتطى ناقته السريعة ، وانطلق فى أثر الجيش ، فطمأن محمد نائبه فى لباقة عظيمة ، وأقنعه أنه ما تركه على المدينة إلَّا رغبة فى أن يترك قائداً محنكاً عليها ليخمد أية ثورة تقوم القبائل بها فى أثناء غيابه . وعاد علىّ إلى المدينة وجاء بعبد الله من داره ، وأخبره أنه بينا أن محمداً كان يتجاوز عن سيئاته تجاوزا لا يمكن تعليله ، فإنه لن يتجاوز عنها ، فإذا لم يلزم عبد الله حدوده فى أثناء قيامه بالقيادة فإنه ليعرف ما سيحدث .

كان اختراق الجيش الإسلامى الصحراء قاسياً شديداً ، فما كان الجيش ليسير إلا بعد غروب الشمس ، ولكن ما كان هذا ليؤثر كثيراً ، فإن الخوذ والدروع كانت تتخلص فى الظلام من أشعة الشمس المباشرة ،

(١) قال المنافقون . ما خلفه إلا استثقالا له .

ولكن الليل ماكان طويلا الطول الكافى لتبريد الجو ، وكان الظل الوحيد فى أثناء النهار هو ظل الصخور التى كانت حارة حتى ما كان أحد يستطيع أن يمسها ، وكانت الأرض تلسع الأقدام كما يلسعها فحم محترق ، ومما زاد الطين بلة قلة الماء ، وجعلت الريح الساخنة الحياة لا تطاق ، وما قاسى أحد من الرجال ، ولا حتى البدو المسنين ، مثل هذه الحرارة القاسية وهذا الحرمان .

وقد فاق محمد نفسه ، فإنه كان أسوة حسنة ، وما كان بدوياً ، وما كان شاباً ، وما كان حتى فى منتصف العمر ، فإنه على الرغم من تحمله آلاف المسئوليات ، وزيادة على ما يقاسيه من متاعب جسمانية دائمة ، فإنه لم يضطرب أبداً . وفى أسبوع بلغ تبوك بقوة هائلة ومعداتها جميعاً ، وتقع تبوك على حدود الإمبراطورية الرومانية ، فلو أنه كان راعياً أو جمالا يقود قطيعه عبر الصحراء لكان عمله عملا رائعاً . إن قيادة أربعين ألفاً من الرجال والأنعام لتوازى سير سيروس Cyrus بعشرة آلاف من المرتزقة اليونان من بابل إلى البحر الأسود فى عام ١٤٠١ قبل الميلاد .

كانت تبوك واحة خصبة ، فجعلت الحدائق والنخيل والمياه الجارية المسلمين يفكرون فى الجنة ، وما كان هناك أى رومانى ليتلف الصورة المتخيلة ، فإن السكان قابلوهم بالترحاب ، فراح الجنود يعالجون أقدامهم المكدودة المجروحة .

ولما لم يكن هناك من يقاتلون فإن محمداً قد بعث كتائب خفيفة إلى المناطق المجاورة لإخضاع الزعماء المحليين ، فانضم المسيحيون واليهود وعبدة الأصنام إلى معسكر المسلمين دون تذمر ، وكانت الكتيبة الوحيدة

التى عادت ورماحها تقطر دما ، هى — كما لا بد قد فطنت — كتيبة خالد .

كان رجال خالد خمسمائة فارس من فرسان المسلمين الجدد ، وقد تحرك خالد سريعاً حتى إنه أسر زعيماً نصرانياً عظيماً اسمه أكيدر خارج أسوار مدينته ، وكان فى رحلة صيد ، وقد ظل خالد مخلصاً لمبادئه ، فقتل كل من ظنه أكيدر ، ولم يبق على حياته إلا بشرط أن يسلم دون قيد ، فقبل أكيدر ذلك ، وأخذه إلى محمد وساق أمامه ألفى بعير ، وثمانمائة شاة ، وذخائر عديدة ، وقد قابله محمد فى بشاشة وود ، وكانت المقابلة تختلف عما جعلته معاملة خالد يظن ، فترك المسيحية تطوعاً ودخل فى الإسلام .

وبقى محمد فى تبوك بعض شهور ، وكان فى ضيافة قبائل القطر جميعه ، فلما لم يظهر أى رومانى ، استشار رجاله المقربين فى أن يخرج فى أثرهم ، فعارض عمر ذلك وقال : يارسول الله ، إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً .

فتبع محمد رأى عمر ، ثم ابتدأ السير للعودة إلى المدينة فى ديسمبر وهو شهر بارد نسبياً .

كان استقبال المدنيين للجيش صاخباً ، فما إن رأوا النقع الذى يثيره الجيش القادم حتى تدفقوا من الواحة يهتفون ويغنون ويصفقون ، وعلى الرغم من ذلك فإن محمداً لم يتخذ هيئة البطل الفاتح ، فما التف الناس ببغلته حتى راح يحادث كلا باسمه ، وترك الأطفال يتعلقون فى ركابه ويركبون أمامه وخلفه ، لقد كان كأب أسرة عظيمة عاد من رحلة صيد .

وإن القوم الذين تخلفوا عن استقباله لهؤلاء الذين اعتذروا عن

الخروج بحرارة الجو ، فما كانوا يحسون خجلا فقط ، ولكنهم كانوا يحسون خيبة أمل ، فإن الجيش لم يتحمل إلا خسائر طفيفة وعاد بغنائم عظيمة .

وقد أعرض محمد أيضاً عن الذين قعدوا فى دورهم لا لشىء إلا طلباً للراحة ، فقد نهى عن مخاطبتهم ومنع أصحابه الأوائل من أن يتصلوا بهم ، لقد كان ذلك نوعاً من الحرمان العام منعهم من الذهاب إلى المسجد والمشاركة فى الحياة العامة . ولم ينظر إليهم على اعتبارهم جبناء فحسب ، ولكن حرمت عليهم الراحة الروحية ، فقد نزل الوحى يتبعه الوحى على الرسول فى شأن هؤلاء المنافقين ، وقد وصفوا وصفاً سيئاً فى القرآن ، وقد جاء فيهم : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون » وآيات أخرى كثيرة كهذه .

واستمر محمد فى تعذيبهم هذا شهراً ، ثم رفع عنهم الحرمان وعفا عن المذنبين . وقد عرف أنه لن يتخلف عن المعركة متخلف بعد الآن . وكان هناك سبب آخر لغبطته وسروره .

كأنما قرر الله أن عبد الله بن أبى قد ضايق محمداً مدة طويلة ، فمرض ذلك الرجل المتعب ومات عقب العودة من تبوك ، وقد زاره محمد مراراً ، وقد صلى عليه قبل أن يقبر ، فلما اعترض عمر المتعطش إلى الدماء دائماً على ذلك ، هز محمد كتفيه وقال :

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

وأمكن محمداً أن يقف موقفاً كريماً حيال موت عبد الله . وبموته

لم يكن له من ينافسه ، ففى أيام قليلة بعد قبر عبد الله ، اعترف المنشقون بالمدينة بأن محمداً قائدهم الأوحد .

وكان هناك بعد ذلك سبب آخر أرضاه ، فلو أن حصار الطائف قد رفع ، ولو أن قائدهم مالك قد انضم إلى المسلمين ، ولو أن السرايا المسلحة كانت تغير على ضواحيها ، فإن البلدة لم تسلم بعد ، وعلى الرغم من أن حدائقهم ونخيلهم قد حرقت ، وأن أغنامهم كانت تؤخذ كلما خرجت عن أسوار البلدة ، فإن السكان قد تحصنوا وأبقوا بها ، وأخيراً خرج وفد إلى المدينة وعرض تسليم البلدة . على أن يترك لهم صنمهم اللات ، فرفض محمد ذلك ، فسأل الرسل عما إذا كان صنمهم يترك لثلاث سنين أو لسنتين أو لسنة ؟

• فأبى محمد عليهم ماطلبوا أشد إباء .

فلم يكن أمام أهل الطائف ما يقولونه بعد ذلك ، فإن محمداً قد رفض ولن يبدل شيء من قراره ، فوافقوا على التسليم دون قيد قبل أن يغادروا المدينة ، فلم يثق محمد بهم فى شأن تحطيم اللات [1] لذلك وجه معهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة أحد المسلمين الأوائل ليرقبوا تنفيذ ذلك الشرط من شروط المعاهدة .

كان فى ايفاد قائد قريش هذا كمبعوث لتحطيم الأصنام إشارة بارعة ، فقد أصبح من الواضح ، دون دعاية وإعلان ، أن المرء وإن كان معادياً للإسلام فيما سلف ، إلا أنه يستطيع دائماً أن يكون الآلة المنفذة لإرادة الله . ولما رفع أبو سفيان معوله ، وضرب الطاغية فقد أعصابه ، فلم

(١) طلب الثقفيون ألا يكسروا اللات بأيديهم ، ووجه النبي معهم أبا سفيان والمغيرة .

يصب هدفه إما بسبب خوفه مما قد ينزل به الصنم ، أو بسبب رد الفعل الذى أحدثه رعب أهل الطائف فى نفسه ، فانبعثت هتافات السرور من عبدة الأصنام الذين كانوا ينتظرون . فخر أبو سفيان لوجهه[1] . كانت لحظة حرجة قد تقود أهل هوازن إلى تغيير فكرهم ، ولكن المغيرة كان مسلماً متعصباً . فتناول المعول وهدم اللات هدما . فلما أتم ذلك ، نادى أصحابه ، وامتطى ناقته ، وقد ترك النساء يبكين على ما بقى من حاميهم .

ولما استدار الحول ، آن أوان الحج إلى مكة ثانية . فلم يذهب محمد هذه المرة ، وبعث أبا بكر على الحج ، ثم أرسل عليا ، وقد فعل ذلك لغرض ، فإنه على الرغم من أن معظم المكيين والقبائل العربية قد اعتنقوا الإسلام ، فإنه لا زال هناك عدد من عبدة الأوثان يخرجون إلى الحج بحكم العادة ، لم يكن هناك أوثان لتعبد ، ولكن ذلك لن يمنع هؤلاء الرجال من القيام بشعائرهم الوثنية . ينبغى ملاحظة أنه بينما ديانة العرب قد بدلت إلا أن أغلب الشعائر العتيقة قد بقيت أو حورت لتلائم الطريقة الجديدة للتفكير . وإن محمداً لم يحتقر من قيمة الكعبة أبداً ، فإنه ليعتبرها بيت الله مذ أيام إبراهيم . لذلك قرر ضرورة اعتناق الوثنيين والمشركين لتعاليمه أو لا يقربوا مكة . فإنه لا يرغب فى الجمع بين عبادتين . ولا يرغب فى أن يتدخل بنفسه فى أمر صغير كهذا ، وهو فى الحقيقة أمر صغير إذا قورن بمركزه الحاضر . لذلك بقى فى المدينة وترك أعوانه يقومون بتنفيذ هذه التفاصيل .

(١) لم يتقدم أبو سفيان لهدم اللات بل هدم المغيرة لأنه كان من ثقيف . وذكر أن المغيرة تماه أن يسخر من القوم فصاح صيحة ورع لما هم بكسر اللات . ولما ارتج المكان بالصياح سروراً . ضحك منهم وحطمه تحطيما .

ولما أوفى الحج على نهايته ، جمع عليّ الناس ليقرأ عليهم قرار محمد الأخير القاضى بخزى جميع الكافرين :

من رفض دخول الإسلام من المشركين يقتل ، ولا يخشى اليهود والنصارى على حياتهم ، وإنهم إن دفعوا للمسلمين الجزية فليس هناك ما يخشونه ، ويسمح لهم بالاستمرار فى دينهم ، ولما انتهى على من خطبته (كان يتلو سورة التوبة) قال :

« أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، (ولا يطوف بالبيت عريان)[1] ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته » ثم أجل الناس أربعة أشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم .

• وتفرق الناس بعد أن أتم على خطبته ، فعادوا إلى بلادهم جماعات ووحدانا ، وراحوا يذيعون فى مسيرهم أن الإسلام قد صار دين بلاد العرب من الآن ، ومن نهاية هذه السنة التاسعة للهجرة والستمائة والواحد والثلاثين بعد المسيح ، لم يسمح لمن لا يؤمن برسالة محمد أن يطأ منطقة مكة المحرمة .

وإن هذا الأمر لا زال سائداً فى عام ١٩٤٦ ، بعد صدوره بثلاثة عشر قرناً وخمسة عشر عاماً .

(١) لم تذكر فى الأصل الانجليزى .

الفصل الثانى والعشرون

حجـــة الوداع

(عام ٦٣٢ م)

حافظ المسلمون ، ببعض استثناءات ، على أمر محمد الخاص بعطفهم على المسيحية ، وإن هذا على عكس ما يظنه الغربيون عموماً .

إن الأمريكى أو الأوروبى العادى الذى يحترف الدين يؤمن بأن أى دين خلاف المسيحية دين باطل ، وحتى فى حظيرة المسيحيـة ، فإن الطوائف المختلفة تعتقد كل منها أن الأخرى على ضلال ، فهناك قليل من التسامح بين الكنيسة والمعبد ، ولا تسامح بين الكاتدرائيـة والمسجد ، والأمر ليس كذلك فى الإسلام .

فبينـا دين الإسلام يحرم الوثنية دون قيد ، فإنه يعترف بالمسيحية دون تحفظ ، وقد كتب محمد فى السورة الثانية ثم فى السورة الخامسة :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . . . . . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

وقد قال محمد ، لمـا كان يتحدث عن الشروط التى يعيش بها اليهود والنصارى فى أرض إسلامية ، ليعتبروا جزءا من المجتمع :

« من يسىء إلى يهودى أو نصرانى كنت خصمه »

وقد أكد هذا التسامح بالنسبة للدين الذى يشابه دينه كثيراً ، وقد ضمن حرية العبادة للمسيحيين فى جميع المعاهدات التى عقدها معهم .

ولما أصبح عمر خليفة واستولى على بيت المقدس ، أصدر أوامر مشددة بعدم الإضرار بالمسيحيين أو بكنائسهم ؛ ولما غزا المسلمون إسبانيا فى القرن الثامن احترم المسلمون كل شىء مسيحى ، وقد استمر الحال على ذلك حتى زوال الحكم العربى من أوروبا فى القرن الخامس عشر ، ولم يستمر الحال على ذلك لما أصبح للمسيحيين اليد العليا ، فحل الاضطهاد الدينى محل التسامح الإسلامى .

قد توقف التسامح الفعال ، ولكن لا زالت جرثومته باقية ، وعلى الرغم من ذلك فما هناك من سبب يوجب بقاءها ، وعلى كل حال فإن الشقاق بين الإسلام والمسيحية فى الواقع شقاق بين ذوى القربى ، وهو ينشأ كما ينشأ أغلب الشقاق الذى من هذا النوع من سوء الفهم أصلا . ولن ننال شيئاً لو حاولنا النيل من محمد ، ولن نجنى شيئاً لو غضضنا الطرف عن القرآن واعتبرناه مجموعة متنافرة من التوافه ، ولكننا نجنى كثيراً لو درسنا الإسلام بإمعان ، وقد كتب أمير على ، ذلك العضو النابه بمجلس بلاط الملك جورج من سنين قليلة مضت :

« المسلم الحقيق مسيحى حقيق ، فإنه يؤمن برسالة عيسى ، ويحاول تطبيق ما جاء به ، فلماذا لا يكرّم المسيحى الحقيق المبشر الذى أتم عمل من سبقه من الرسل » . لم لا ؟ لماذا يصر الغربيون على أن عقائدهم أصدق من عقائد الأجناس الأخرى ؟ هنالك فى الواقع ٥٨٥ مليون مسيحى فى

العالم يقابلهم ٣٠٠ مليون مسلم ، ولكن من الـ ٥٨٥ مليون هؤلاء لا يوجد أكثر من ٧٠ فى المائة يحافظون على شعائر دينهم بانتظام بينما ٩٥ فى المائة من المسلمين يقومون بشعائر الإسلام كما وضعها محمد من ثلاثة عشر قرنا وثلاثة عشر عاما . لما كان على وشك الخروج ليحج حجة الوداع .

وقبل الخروج للحج استقبل وفوداً من حكام علموا أن محمداً الحاكم المطلق وإن لم يدخلوا جميعاً فى الإسلام ، وكان بين هؤلاء أحد حكام هرقل فى سوريا وملك عمان ، وقد فهم هؤلاء كما فهم آخرون أن بقاءهم آمنين فى بلاد العرب مرتبط بنيات محمد الطيبة .

وأُمر عليٌّ بالتوجه إلى اليمن فى طرف بلاد العرب الجنوبى ، وإقناع سكانها أن الأوان قد آن لئلا ينظروا إلى محمد ورجاله نظرتهم إلى تجار فحسب ، ولم يسبق أن عهد إلى على بمثل هذه الرسالة ، ولم ترق له الفكرة ، فإنه على استعداد لأن يقاتل أى قرشى أو رومانى ، ولكن الخطابة كانت تفزعه ، فأكد محمد لابن عمه أن الإلهام سيهبط عليه ، ووضع يده على فمه ، ويده الأخرى على قلبه ودعا له :

— اللهم احلل عقدة لسانه ، وثبت جنانه .

وأمده بثلاثمائة فارس مجهزين أحسن تجهيز ليشد من أزره .

لقد أثبت علىٌّ أنه خطيب غير حاذق على قدر ما كان جندياً باسلا ، فضحك أهل اليمن من كل ما قاله ، وألقى عليه بعضهم الحجارة ، فلما ابتدأوا يصوبون سهامهم إليه ، قرر أن العظات قد تكون أقوى من السيف ، ولكنهم لم يستمعوا إليه ولم يقبلوا الإسلام ، ففى دقائق قليلة

استبدل الكتاب بالرمح ، وقبل أن ينقضى النهار كان اليمنيون يأسفون على عدم تركهم عليًّا فى الاستمرار فى حديثه ، ولما بلغ المدينة كان يسوق أمامه أسرى وإبلاً وأنعاماً وأغناماً ، وأكد لمحمد أن اليمن صارت جزءا من الإسلام .

ووفدت الوفود من حضرموت ، وهى دولة أخرى جنوبية ، لاعتناق الإسلام ، وقد أرضى ذلك محمداً أكثر مما أرضته معاهدته مع عمان ، وإن أهل حضرموت من جنس غنى متحضر يعيش فى مدن فخمة تطل على خليج عدن ، وإن منازلهم يجب أن تكون أصل ناطحات السحاب الحديثة فى العالم ، وإن هندسة هذه المدن الآن ، ومن قرون قبل الآن أكثر شبهاً بهندسة نيويورك منها بالهندسة العربية .

• كان أهل حضرموت رحالة وتجاراً عظاماً ، وإن اعتناقهم الإسلام سيسبب انتشاره كما قدر محمد ، خارج جزيرة العرب ، وإن هؤلاء النازلين فى الدور المرتفعة قد حملوا الإسلام إلى الملايو وجاوة والفيلبين ، ومن المحتمل أن أهل مورو فى مندانا وقد أطلق عليهم هذا الاسم بسببهم ، فإن الاسبانيين الذين كانوا أول من وضع الفيلبين على الخريطة كانوا يعتبرون كل مسلم (مورو) وهذا الاسم مشتق من الاسم اللاتينى Maurus ، ومعناه مواطن من دولة المغرب فى شمال أفريقية ، فلما وجدوا أناساً لهم نفس الشعائر الدينية التى لمسلمى البحر الأبيض ، قرر الأسبان أنهم جاءوا من نفس المكان وسموهم مورو .

واستمر الحال على ذلك ، فبعثت القبائل والدول والإمارات مندوبيهم من الشمال والجنوب والشرق والغرب ليؤكدوا ولاءهم لرجل

الصحراء الغامض هذا ، وما من أحد قد وجد أنه من الغريب أن هـذا الفرد الذى ما كان إلا تاجراً رحالة ، والذى ما كان يتمتع بثقافة عقلية فذة ، وما كان مميزاً بأية ظاهرة من ظواهر القوة الخارجية ، يصبح فى هذا المركز الرفيع ، لقد نظر إلى الأمر على اعتبار أنه أمر مقدر نافذ فى ذلك الوقت واليوم ، وسيستمر الحال على ذلك ولاشك ، بحماس متزايد ، حتى نهاية العالم .

وما من يهودى أو بوذى أو مسيحى قد رأى دينه ينمو أمام عينيه بهذه السرعة المعجزة ، وما من قائد دينى آخر قد كوفىء كما كوفىء محمد فى حياته ، وإنه ليبدو كأنمـا شاء الله أن يؤكد أن محمداً آخر رسله ، وأن الإسلام آخر دينه ، ولو استثنينا برجهام يونج ، فما من أحد منذ وقت محمد قد حاول أن يأتى بشريعة جديدة ، وقد ظهر بعض الـكذابين فى بلاد العرب ، ولـكن أتباعهم كانوا محدودين وقد عاش سلطانهم فترة قصيرة .

وكان مسيلمة أحدهم ، وكان موهوباً فى الخطابة ، فجلبت له خطبه التى ادعى أنها نوحى إليـه بعض الأتباع ، وقد أضاف إلى أتباعه بعض من خدعهم بخدعه ، وقد كتب لنفسه قرآناً ، وما كان له من قيمة إلا أنه جعل روح الإنسان فى بطنه ! ، ولما أحس فى يوم من الأيام خطره بعث رسولا إلى محمد برسالة جاء فى بدايتها :

« من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ! أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأمر » .

وكان رد محمد قصيراً وحاداً :

« من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . أما بعد فإن الأرض لله

يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . »

وبذلك أهمل هذا الأمر ، فلم يقنط مسيلمة ، بل استمر فى وعظه ، وكثر أتباعه حتى صار خطراً على أبى بكر الخليفة الأول ، فبعث له خالداً فى جيش لقتاله ، وقد انهزم رجال مسيلمة بعد قتال شديد ، وقد قتله وحشى ، وقد أصبح مسلماً ، بنفس الحربة التى أردى بها حمزة قتيلاً يوم أحد .

وفى خلال السبعة القرون التالية فتح المسلمون البلدان وحملوا الإسلام إلى ممالك لم يسمع بها مؤسسه .

وقد ابتدأ محمد يحس الجهد اليوم ، وما كان يعلم يوم موته ، ولكنه ما كان يبغى أن يؤخذ على غرة ، لذلك تأهب لأن يتم مناسك الحج ، وإن هذه الحجة لهى الحجة الكبرى ، وما حج مثلها منذ الهجرة .

ففى أوائل مارس عام ٦٣٢ قاد رجاله الذين كانوا فى ملابس الإحرام ، وقد لبى نداءه أربعون ألفاً ، وقد كانت نساؤه التسع فى الركب فى هوادجهن ، وكان فى رفقته كل صحابته الأوائل إلا علياً فقد بعث إلى اليمن فى مهمة ، وقد بلغ علىّ مكة فى أوان الحج .

وتحرك الحجيج فى الصحراء فى يسر ، وما كان هناك من ضرورة بعث كشافة أمام الركب ، أو حمل أىّ سلاح ، فإن البلاد صارت لمئات الأميال بلاداً إسلامية ، وقد شيدت المساجد فى الأماكن التى كان البدو يعسكرون فيها ، وقد كان الرعاة القلائل الذين يمرون بصفوف المسلمين يدينون بدين الإسلام ، لقد كان هذا النصر العظيم نتيجة العمل المضنى والشجاعة الصائبة .

راحت القصواء التى حملته فى هجرته منذ تسع سنين تقطع الصحراء الهوينى كأنما كانت تحس خطر الدور الذى لعبته فى رواية الصحراء هذه .

وبلغ الحجيج سرف ، وتبعد عن مكة بأميال قليلة ، فى اليوم العاشر ، واستراح الحجيج بها واغتسلوا ، وفى صبيحة اليوم التالى كان الركب يطوى المنحدرات الصخرية للتلال العارية التى تحرس البلد الحرام . وما أرسلت الشمس أشعتها الأولى إلى الكعبة حتى دلف محمد من باب بنى شيبة الذى دخل منه فاتحاً فى الزيارة الأخيرة ، ولما أبصر البيت ، رفع يديه وقال :

« اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيما ومهابة وبراً ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيما وبراً »

وأحس أنه لا يقوى على الطواف على قدميه ، فطاف على راحلته القصواء .

وقام فى خلال الأيام التالية بشعائر حجة البلاغ ، وقد كان الناس يرقبونه ، وإنهم ليفعلون كل مافعله منذ ذلك اليوم . ولما أسرع محمد فى بعض الشعائر لبعض الأسباب التى لا يتحكم فيها ، وما كان لهذا أية علاقة بالدين ، فإنهم لاحظوا ذلك الإسراع وقد استمر حتى اليوم ! ولا يوجد شيء مكتوب فيما يختص بمناسك الحج ، وإن الذين حضروا ذلك اليوم وعوا كل شيء ، ثم نفذوه على مر السنين . ولما نجح السير ريتشارد بورتن فى عام ١٨٥٣ فى الإفلات من تحريم ذهاب غير المسلمين إلى مكة ، فإنه قام بنفس الشعائر التى قام بها محمد فى عام ٦٣٢ بما فى ذلك الهرولة غير المقصودة .

وإن أول شعائر الحج هي خروج الحجاج من مكة إلى منى ، وهناك تقام الصلوات العادية ويمضى الليل فى الخيام ، وفى صباح اليوم التالى ينطلق الحجيج ، وقد ازداد بحجاج مكة ، إلى جبل عرفات على بعد عشرة أميال من مكة .

وعرفات هو المكان الذى يقال إن آدم وحواء تقابلا عنده بعد انفصالهما الطويل نتيجة طردهما من الجنة . وما هو بجبل حقيقى ، إن هو إلا صخرة واسعة من الجرانيت على ارتفاع مائتى قدم كأنها حوض من الحصباء فى وسط التلال الأخرى ، وما كانت شديدة الانحدار ، لأن القصواء انطلقت بمحمد حتى قمتها . ومن مكانه أعلن الحشد المنتظر أن عرفة وواديها محاطّ مقدسة للحجيج ، ثم أدى الصلاة المعتادة وختمها بقوله :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

وإن هذه المرحلة من مراحل الحج استغرقت أكثر مما كان مقدراً لها ، ولم يبلغوا المنزل الثانى إلا متأخرين ، لذلك صلى الظهر ثم صلى العصر فجمعهما جمع تأخير ، ولم يفطن إلى أن يذكر لأصحابه أنه ما فعل ذلك إلا للظروف ، وقد كان من الممكن تلافى ذلك لو كان هناك فسحة من الوقت[1] . لذلك اعتبر الحجاج هذه العجلة ذات معنى غامض ، وعلى ذلك أصبحت من العادات غير المنطقية التى علق عليها السير ريتشارد بورتن بعد ذلك باثنى عشر قرناً .

---

(١) صلى الظهر والعصر بأذان واحد وقت الظهر — لا العصر كما تقول المؤلف — فالجمع بين الصلاتين للسفر لا للضرورة ولا للظروف .

وفى فجر اليوم التالى صلى عشرات الآلاف خلف محمد ثم قفل الركب عائداً إلى منًى ، وقد دعا محمد بالتلبية فى أثناء سيره :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة والشكر لك لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك » .

ولما اقترب محمد ورجاله من منى رموا الحصَى على صخرة تعرف بركن الشيطان ، ويقول الحديث إن إبراهيم قابل الشيطان فى هذه البقعة وطرده بالحصى .

وما انتهى الناس من رمى الجمرات حتى جىء بالهدْى فنحرت حتى سالت الدماء فى الوادى ، وانتهت مناسك الحج بحلق الشعر وقص الأظفار ، وقد أمر محمد بحرق الشعر والأظفار ، وعلى الرغم من ذلك حفظ شعر محمد ، وهناك اليوم مساجد فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وبها شعوة أو شعرتان يتبرك بها ، مخالفين بذلك جميع وصايا محمد فى هذا الموضوع ، ومن المفروض أن هذا الشعر من الذى حلق فى هذه الحجة .

ولما انهت هذه العادات المقدسة ، سمح للحجاج بارتداء ملابسهم العادية ، وقال على : إن الوقت قد حان للأكل والراحة ، فوزعت لحوم الأضحيات ، وقد نسى الناس فى يومين كل شىء ، ولكنهم كانوا ينسقون فى أذهانهم ما فعلوه فى الأسابيع السابقة ، وفى اليوم الثالث ركب محمد نافته ، ووقف فى منتصف وادى منًى ، وخطب خطبة الوداع :

« أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

« أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم

كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا .

« وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلَّغت .

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

« وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون .

« قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله .

« وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

« أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً . لكم عليهن ألا يُواطئن فراشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبيَّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرّح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله [1] .

« أيها الناس . اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ المسلم وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمُنَّ أنفسكم » .

ثم رفع صوته وقال :

« أتدرون أى يوم هذا ؟ وأى بلد هذا ؟ وأى شهر هذا ؟

(١) ذكر المؤلف بعد ذلك وصيه محمد بالرقيق ولكنى لم أعثر على ذلك فى خطبه الوداع .

فكان الناس يقولون :

« الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، ويوم الحج الأكبر .

فقال لهم :

« إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا . .

« فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

وصمت قليلا بينما كان الناس واقفين كأن على رأسهم الطير ، ولما كانت سنة المسلمين قمرية ، فإن ذلك يسبب اختلاف مواسم أعياد المسلمين على مدار السنين ، وقد أتم خطبته تبعاً لهذه الحقيقة فقال :

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً . ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

« فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله » .

وصمت ثانية ثم قال فى حرارة :

« اللهم هل بلغت ! »

فأجاب عشرات الآلاف من الحجاج فى صوت واحد ؛

« نعم . »

وقال :

« اللهم اشهد »

وانصرف الحجاج بعد ذلك، وراحوا يسيرون فى صمت فوق البقاع الحجرية صوب مكة ، التى تبعد خمسة أميال . وبقى محمد بعدهم ليستريح ويفكر ، ثم صحب صحابته وأزواجه وعاد إلى مكة أيضاً .

ذهب مباشرة إلى بئر زمزم وشرب قدحا من مائها المر ، ثم دخل فى جوف الكعبة حيث صلى وكان الجو حاراً فى جوف الكعبة فما كان بها تهوية ، فتركها وقد أحس ظمأ ، فوقف على أول باب مفتوح بلغه ، وطلب ماء ، ولم يكن هناك إلا ماء غمس التمر والعنب فيه قبل أن توزع على الحجيج ، فالتمس الفضل بن العباس من ابن عمه أن ينطلق معه إلى البيت حيث الماء النقى واللبن ، ولكن محمداً لم ينتظر ، وشرب الماء وقد عكره غبار التمر ، وقد لاحظ بعض الحجاج هذا ، وهناك كثير من الحجاج اليوم يرون أن شرب قدح من هذا السائل العكر جزء من مناسك الحج .

كان أمام حجاج المدينة ثلاثة أيام ليتأهبوا قبل العودة إلى وطنهم ، وكان الجو منعشاً ويختلف عما كان عليه فى وقت الزيارة السابقة ، فقابل الأقارب الأقارب ، وتلاقى الأصدقاء بالأصدقاء دون أن يرقبوا أسيافهم المخبأة ، واجتمعت الجماعات ، وابتدأت الأخوة التى تحدث محمد عنها تبرز . لقد كانت الاجتماعات أقل بهجة من أيام أبى لهب وأبى جهل ، ولكنها كانت أكثر مودة وإخلاصاً .

وكان محمد سعيداً ، وكان ذهنه صافياً، فقد أتم الحج ووضع فريضة يعلم أنها ستستمر ، ولكن على الرغم من أنه قد قام بجميع المناسك الدينية إلا أنه كان عليه فرض بود القيام به قبل أن يعود إلى المدينة راضياً كل الرضا .

لما انتهى من صلاة العشاء ، انفلت من الناس الذين كانوا يموجون في ساحة الكعبة موجاً ، وركب بغلته ثم انطلق من مكة من الطريق الشمالي ، فترك خلفه في دقائق قليلة طرقات البلدة الحرام الضيقة التي كان ينبعث منها ضحكات الناس في عيدهم ، وطوى الممر الذي كثيراً ما طواه لما كان تاجراً صغيراً عائداً في قوافل التجارة ، وبعد قليل أصبح في فضاء البلدة الفسيح ، فما كان بمستطيع أن يسمع شيئاً إلا صفير الريح ، وأدار بغلته بعد قليل ناحية الغرب ، وبعد مسافة قصيرة وجد نفسه عند حجرين خشنين يدلان على مكان رأس لقبر وقدمين ، فظل صامتاً قليلا وهو يتطلع إلى القبر ، ثم انطلق . لقد مات الشيخ أبو طالب دون أن يعتنق الإسلام ، فما كان ابن أخيه بمستطيع أن يفعل له شيئاً إلا أن يذكره بالخير ويرجو أن يجازى في الآخرة على رحمته وشفقته .

كانت الأرض تزداد صلابة كلما سار محمد ، فما كان هناك طريق ، وراحت البغلة تجفل في الظلام ، فقادها محمد حوالى ربع ميل بين الصخور والأعشاب حتى بلغ قبراً آخر ، وقد كان متواضعاً كقبر أبي طالب ، وكانت ثلاثة أحجار تحدده ، حجر عند الرأس وحجر عند الأقدام ، وحجر في الوسط ، فترجل محمد عن بغلته ، وجلس بجوار القبر ، فقد كانت زوجته خديجة الحبيبة ترقد تحت الثرى ، زوجته التي كانت أول من آمن به ، والمرأة الوحيدة التي أحبها حقاً .

فصلى في صمت ، ثم لف نفسه في بردته ، وبقي لا يتحرك ، وغرق في التفكير ، وبدا كأنما كان يستعرض حياته أمام عينيه .

رأى طفولته والبدو في الصحراء ، وشبابه في كنف عبد المطلب ثم

أبى طالب ، وأولى رحلاته البهيجة إلى الأقطار الأجنبية ، وأول معرفته بأن هناك أرضاً غير الصحراء ، وأن هناك ناساً غير قريش ، واليوم الذى لا ينسى ، يوم اختارته خديجة وأسندت إليه أمر قوافلها وأعمالها ، لقد كان هذا نهاية حياة محمد الطليقة ، وبعد ذلك ابتدأت الأفكار التى تراكمت فى رأسه فى خلال رحلاته تجد الوقت لتخرج وتتنفس — بعد أن تزوج ووجد الفراغ .

ورأى ثانية غار حراء ، وسمع كلمات جبريل التى أفزعته ، وأحس خديجة وهى تهدئ من روعه ، وأصغى إلى ورقة وعلى وأبى بكر وزيد وهم يشهدون بصدقه وثقتهم به ، وسمع سباب المكيين ، التى تبعها عزمهم على قتله حتى اضطر إلى الفرار بحياته ، وراحت مشاهد المدينة تتتابع أمام خياله ، فرأى المسجد الأول والبيت الأول وبدراً وأُحُداً والخندق وخيبر ، وأتباعه يتزايدون حتى رأى نفسه مرة أخرى فى مكة .

وأغلق محمد عينيه فقد لاح له نصره المبين فى سواد الليل وأحس أنه أسير ما فعله الله معه ، وما فعله الله لشعبه ؛ ولاح أن المشاهد التى كانت تتتابع فى مخيلته انتقلت إلى المستقبل ، وقد استمر النصر حيثما فكر : رأى كثيراً من الوجوه القديمة لما كان يرى الإسلام ينتشر إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب كما تنتشر أشعة الضوء العظيمة ، رأى أبا بكر الصديق ، وعمر وعثمان الصامت يحكمون مكانه الواحد بعد الآخر ، ورأى عليًّا المقدام وخالداً وعمرا . إن تعاليمه لتذهب أينما يذهبون حتى تعرف فارس ومصر والعراق اسمه ، ثم اختفت الوجوه القديمة وحل مكانها وجوه جديدة ، ولكنها جميعاً تتطلع إلى نفس الغرض . إن رايات الإسلام

لتتدفق ، وإنها لتعبر شمال أفريقية إلى الأطلنطى صوب الشمال ، ثم تخترق إسبانيا بعد ذلك ، ثم تخترق فرنسا ، وإنها لتنطلق أيضاً إلى الشرق فتعبر الخليج الفارسى إلى الهند والصين ، وسينتشر ماعلمه لشعبه هنا فى مكة فى الملايو وفى جزر الهند فى الشرق وفى غرب أفريقية .

وفتح محمد عينيه مدهوشاً ، فقد اعتاد أن يرى بالقرب منه المقاتلين فى خوذاتهم متجمعين حوله ، ولكنه كان وحيداً ، وكانت البغلة ناعسة على مسافة قريبة منه ، وكانت السماء سوداء يتلألأ فى رقعتها نجوم لا تحصى . وراح نسيم الصحراء يهب بين أحجار القبر ، فاطمأن محمد ولمس الأرض التى تضم خديجة فى رفق ، فإنه بفضلها قد حدث كل هذا ، وإنه بفضلها كان كل ما كان . وبقى محمد مدة طويلة لا يتحرك ، وما تحرك حتى كان على ثقة من أن هذه المرأة التى أحبها قد عرفت أنها كانت المرأة الوحيدة التى كانت تعينه دواماً على الرغم من أى مظهر من المظاهر التى تدل على نقيض ذلك .

الفصل الثالث والعشرون

موت محمـــد

(يونيه عام ٦٣٢ م)

يبدو أن الموت أيسر في الأجواء الحارة منه في الأجواء الباردة ، فسكرات الموت الهينة المألوفة في الصحراوات العربية نادرة في الأصقاع الشمالية .

فالعرب يموتون في هدوء دون إثارة متاعب ، فإنهم ليخبون كما تخبو النار ، وإنهم لا يقعدهم العجز أو الشيخوخة قبل مغادرتهم الحياة ، فهم لا يعرفون تلك العناية الاضطرارية بشيخ مريض مرتجف التي تعرفها الجماعات الغربية كل المعرفة ، فالعربي سواء أكان زعيم بدو أو تاجراً يقضي أيامه في رعاية أسرته وأصحابه .

والعربي لا يدل مظهره على سنه ، فقد يكون في الستين وقد يكون في الثمانين ، وما تبدلت طريقة معيشته إلا قليلا مذ كان شاباً ، وعلى ذلك فقد يحس في إحدى الأمسيات تعباً ، فيمكث في اليوم الثاني في الدار أو في الخيمة ، وقد يموت بعد ذلك بأسبوع ، وقد يقبر في خلال ساعات قليلة في مقابر الواحة أو تحت بعض الأحجار في الصحراء ، ويذكره كل الناس بخير ويتمنون له النعيم في الحياة الآخرة ، ولن يزفر أحد زفرة الاطمئنان الغربية المألوفة لما يروا نهاية مضايقة مريضهم الهرم .

وترجع هذه الحالة المعقولة ، وعدم إحداث لغط لامبرر له إلى عدم خوف المسلمين من الموت ، بل بالعكس فانهم ليعتبرونه تخلصهم من المتاعب الأرضية المعقدة ، وإنهم ليعكسون كلمات محمد هذه : « الدنيا سجن المؤمن » .

وبعد عودة محمد من الحج ، راح ينظم حملة على سورية ، فإنه لم يستطع أن يقبل هزيمة المسلمين فى مؤتة أبداً ، ولم يصفح عن الرومان الذين قتلوا صديقه زيداً ، فقرر أن الأوان قد آن ليثأر منهم .

ولكى يكون الانتقام أكثر روعة ، عيّن أسامة بن زيد قائداً على هذا الجيش ، وكان أسامة بن بركة (أم أيمن) مربية محمد السوداء التى كانت زوجة زيد الأولى ، ولقد كان غلاماً ماهراً وقد أثبت فى كل الظروف جدارته لثقة محمد به ، ولكنه كان فى العشرين . فلم تعجب المهاجرين فكرة قتال الروم الذين كانوا لازالوا أقوياء وعلى رأسهم صبى ليس له إلا خبرة حربية لاتذكر ، فلم تؤثر الاحتجاجات على محمد ولم تزحزحه عن موقفه ، فقد كان يربى فى نفوس تابعيه الصفات التى سادت بين المسلمين منذ ذلك الوقت ، ألا وهى أن السن والمستوى الاجتماعى ليس من الضرورى أن ينبتا أحسن القواد ، لقد كان يبذر فى نفوسهم رسالة الديمقراطية التى سيحملونها إلى العالمين ، ودعا أسامة إلى المسجد وسلمه راية الإسلام وأوصاه أن يعود بها مظفراً منتصراً ، فقبل أسامة الراية ، وأصبح القائد دون أى اعتراض .

وسار الجيش بعد ظهر ٢٧ مايو وعسكر تلك الليلة فى الجرف ، وكان الجرف قريباً من المدينة ، وقبل المناداة بالسير فى اليوم الثانى ، جاءت الأنباء بأن محمداً مريض .

لم يذكر أحد بالتحديد سبب مرض محمد القتال ، وإن أتباعه ليرجعونه إلى اللحم المسموم الذى قدم إليه فى خيبر ، ويبدو أن هذا غير صحيح ، فإن محاولة سمه وقعت منذ أربع سنوات أولا ، وثانياً فهو لم يزدرد أية قطعة من اللحم المسموم ، بل لفظها عند ما ذاقها ، وثالثاً فإن صحة محمد كانت قوية بعد ذلك ، فقد قاد تلك الحملة المرهقة المتعبة إلى تبوك ، وقد قام بغزو هوازن وحاصر الطائف ، وقد فتح مكة ، وما كان لرجل يأكله السم فى بطء أن يتحمل مثل هذه المتاعب .

ويظن البعض أن محمداً مات من الملاريا الخبيثة أو لعلها التيفويد ؟ وإن الأعراض التى بلغتنا هى :

كان يحس فى أثناء مرضه بحمى شديدة ، وكان يقاسى آلاماً معوية وآلاماً فى الظهر ، ولقد مرض سريعاً ومات سريعاً ، وقد ظهرت عليه الأعراض التى كانت تنتاب الملايين فى الشرق حتى ظهر التطعيم ضد الحمى المعوية ، وقد كان هناك جميع الظروف التى تجعله يصاب بمثل هذا المرض .

كان العرب يشربون أى ماء موجود نظراً لندرته فى الصحراء ، ويظهر أنه ما كان يضرهم فى تسع مرات من عشر ، ولقد رأينا كيف أطفأ محمد ظمأه فى مكة من إناء غسل فيه التمر ، وإننا لنعرف أنه كان يستعمل فى المدينة حوضاً مكشوفاً بالقرب من المسجد ليشرب الناس منه . وينبغى ألا يغرب عن بالنا أيضاً أن هذا الرجل الذى كان فى الثانية والستين قد تحمل فى هذه السنين ما لا يتحمله الرجل العادى ، فابتدأ جسمه الذى تحمل الاضطهاد والحرمان والذى لم ينل راحة أبداً ينهد .

وعلى كل حال ، وأيا كانت علة المرض ، فقد سار محمد فى الصباح بعد أن سلم الراية لأسامة وهو يحس صداعاً شديداً قاسياً وآلاماً داخلية محرقة ، وقد تبع ذلك دوخة ، ولكنه لم يدع أحداً يعرف ما يقاسيه من آلام مبرحة ، واستمر يضطلع بأعباء واجباته ويدور على زوجاته على الرغم من أنه كان يحس أن هذا هو بداية النهاية ، وقد ذهب إلى فاطمة وأسر لها أنه سيقبض فى مرضه هذا ، فلما بكت قال لها إنها أول أهله يلحقه .

وقد حدث هذا ، فإن فاطمة ماتت فعلا بعد موت أبيها بستة شهور .

وفى الليلة الثانية من مرضه ، ترك محمد حجرة ميمونة ، فقد كانت الليلة ليلتها ، وانسل من دوره فى المسجد وخرج ولم يستصحب معه إلا مولاه (أبا مويهبة) ثم ذهب إلى المقابر .

جلس برهة يفكر بين شواهد الرجال والنساء الذين ماتوا على الإسلام ، ثم قال يخاطب أهل المقابر :

« السلام عليكم يا أهل المقابر ! ليهنىء لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى .

والتفت إلى مولاه وقال :

« إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى ، فاخترت لقاء ربى والجنة » .

وقال مخاطباً أهل المقابر مرة أخرى :

« السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، إيانا وإياكم ما توعدون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، (اللهم اغفر لأهل البقيع) » .

ثم عاد إلى حجرة ميمونة ، وقد اشتد عليه المرض فى اليوم الثانى ، فزادت الحمى ، وجعل الألم يعض جوفه ، فقرر محمد أنه فى حاجة إلى تمريض ، وقد رأى أن ميمونة ليست الممرضة التى يرغب فيها ، إنه يود أن تمرضه عائشة ، وقد كان العباس موجوداً لما أفصح محمد عن رغبته ، وقد حاول أن يثنيه عن عزمه ، فقد كان من الواضح أن محمداً يموت ، فخطر على بال عمه أنه إذا فارق نبى الإسلام هذا العالم بين يدى أخت زوجه لأمكنه أن يستغل ذلك ، فإنه لم يعين بعد من يخلف محمداً ، وإن أية إشارة كتمضية آخر لحظات حياته مع قريبة للعباس ، الذى سيستغلها إلى أقصى حدودها ، يمكن تأويلها على أنها قصد من مقاصد محمد ، وعلى كل حال فلم يكن المرض قد بلغ بعد من محمد الدرجة التى لا تجاب فيها رغباته ، فقد ذهب إلى حجرة عائشة يعتمد فى مسيره على عمه وعلى علىّ .

كانت عائشة فى العشرين ، وإنها لم تمرض مريضاً من قبل ، ولم تكن قريبة من الموت ، ولكنها اضطلعت بالأمر حتى آخر أيام زوجها المحتضر ، وقد استعاد بعض قواه بسبب العطف الذى أظهرته له هذه الفتاه ، فلما سمع أن أسامة لم يخرج بعد إلى سورية وأن المهاجرين ينتقدون تعيينه ، ظهرت حماسته القديمة . فطلب ماء واستحم به ثم ارتدى ثيابه وخرج إلى المسجد .

كان المصلون مجتمعين كالعادة ، فأمهم ثم قال :

« لقد بلغنى أن أقواماً تكلموا فى إمارة أسامة . إن يطعنوا فى إمارته لقد طعنوا فى إمارة أبيه من قبله ، وإن كان أبوه لحقيقاً بالإمارة ، وإنه لحقيق بها ، وإنه لمن أحب الناس إلى بعده » .

وراح يجول بعينيه بين المصلين ، وكان لا زال لهما ذلك التعبير الآمر الذى لا يسمح بمناقشة أمرهما ، وقد كان أثر نظرته كما كان دائماً ، فلما إقتنع بأنه شرح وجهة نظره قال :

« إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » ، وكان أبو بكر هو الوحيد فى المسجد الذى فهم ما كان محمد يعنيه ، فامتلأت عيناه بالدموع لما كان يحاول أن يخفى بكاءه ، فالتفت محمد إلى صديقه القديم وقال : « إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه . وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وقال للمكيين الذين كانوا بين السامعين :

« يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » .

وبعد أن نصحهم نصائح أخرى غالية ، نزل عن المنبر ، وعاد إلى عائشة .

لقد أتعبه الخروج إلى المسجد والعودة منه ، فأمضى ليلة قلقة ، فلم يستطع أن يصلى بالناس فى الصباح ، فأمر أن يصلى أبو بكر بالناس ، وكان هذا هو كل ما فعله لتعيين خلفه ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان من الواضح أن هذا ما يرمى إليه ، فإنه فى حالة وجوده ما كان أحد غيره ليؤم الناس ، أما فى حالة عدم وجوده فإن أيًّا من الصحابة كان يقوم

بذلك ، وإنه اليوم ليستطيع أن يأمر عمر أو عثمان أو علياً لينوب عنه ، إن محمداً أشار بوضوح إلى أنه كان يعنى أن يكون الرجل الذى شاركه فى السراء والضراء مذ بدء الإسلام خليفة للمسلمين من بعده ، بأن اختار الصاحب الصديق ليؤم الناس وحده ، وباختياره عائشة لتمرضه ، ودارها لتكون دار مرضه .

واشتدت الحمى فى الأيام القليلة التالية على الرسول ، فلم يستطع أن يترك فراشه ، ولما اشتد به الأمر كان يدخل يده فى قدح فيه ماء ، وكان يدعو :

« اللهم أعنى على كربتى ، اللهم أعنى »

وقد كان يغيب عن وعيه بعض الأحايين ، ولكن ذهنه كان يسجل كل ما حوله غالباً ، وكان قليلا ما يشتكى ، وكان يعرف أصحابه لما يأتون لعيادته ، وقد أمر بالتصدق بكل ما عنده على المحتاجين فوراً ، ثم أحس تحسناً كاللهب الأخير للنار الموشكة على الهمود ، فأعادت إليه قوة عزيمته قوته التى لم تتخل عنه حتى الآن .

وجىء بماء وملابس نظيفة ، وبعد أن استحم خرج إلى المسجد متوكئاً على علىّ والعباس ، فبلغه لما كان أبو بكر يصلى بالناس ، فكاد الناس يفتنون به فرحاً ، وأحس أبو بكر ذلك فنكص عن مصلاه ليتخلى لمحمد عن مكانه ، فدفعه محمد فى ظهره وأمره أن يصلى بالناس ، فلما تمت الصلاة ، جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وقال مخاطباً الناس .

« بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم ؟ ألا وإنى لاحق بربى ، وإنكم لاحقون به . فأوصيكم

بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير ، فإن الله يقول : « والعصر إن الإنسان لفى خسر » ، وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عزوجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » .

ثم انتصب واقفاً على قدميه وقد بذل فى ذلك جهداً ، ورفع صوته حتى بلغ طبقته القديمة وقال :

« أنتم لاحقون بى ، ألا وإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده على غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى . يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم ، فإذا بر الناس برتهم أئمتهم ، وإذا فجر الناس عقوا أئمتهم . حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم » .

ووقف لحظة يتفرس فى وجوه الناس الذين غص المسجد بهم وقد علا وجوههم الحزن العميق ، ثم سار فى بطء متكئاً على علىّ بين الصفوف الصامتة وعاد إلى حجرة تمريضه . لقد ظهر للناس لآخر مرة ، وخطب خطبته الأخيرة .

واستلقى مرة ثانية فى فراشه عند عائشة ، وترك زوجته الشابة تخلع عنه ثيابه . وقد استراح لبرهة وهو يقبض على يد عائشة ، وزادت الحمى ولكنه لم يتأوه ولم يشتك ، وكان يبتسم لعائشة التى كانت تلطف حرارة وجهه بخرقة مبللة ، وراحت الكلمات تتحدر فى بطء :

« اللهم أعنى على سكرات الموت . . . يا جبريل ادن منى ، ادن منى » .

وكرر ذلك مراراً ، وبعد برهة صمت استعاد قوته ثانية .

ففتح عينيه وقال فى وضوح :

« اللهم اغفرلى ، واجعلنى فى الرفيق الأعلى .

وارتخت أعضاؤه ، وسقط رأسه فى حجر عائشة ، وفقدت اليد التى كانت قابضة عليها حرارتها ، وساد صمت قاتل لحظة ، ثم وضعت عائشة رأسه فى رفق على وسادة ، وأسبلت عليه ثيابه وأغلقت عينيه ، وتطلعت فى قلق وأمل إلى الوجه العزيز ، إن هدوء وجهه كان ينفى أية فكرة عن أن محمداً كان فى غيبوبة ، وإن الابتسامة الذابلة التى كانت ترسمها شفتا زوجها ما كان لها ارتباط بهذه الدنيا ، فأمسكت دموعها وقبلت جبين أول رجل عرفته والرجل الوحيد الذى تعلقت به وأحبته ، ثم انطلقت إلى الرحبة التى كانت نساؤه الأخريات ينتظرن فيها فى قلق وخوف .

وارتفع الصياح والعويل من دور النبى فانتشر فى الأحياء المجاورة للمسجد ، فبان الذهول والفزع فى وجوه الناس الذين رأوا قائدهم حياً فى الصباح ، ولم يصدق أحد حتى عمر أنه مات ، ووقف عمر أمام الحشد الذى تجمع أمام باب منازل الرسول ، وقال إن محمداً ذهب إلى ربه ووالله ليرجعن كما رجع موسى ، وراح يكرر قوله فى صوت عال وفى اقتناع متزايد .

لقد كان منظراً غير عادى ، وكانت حالة غير عادية ، فإنه بينا أن محمداً لم يقل إنه كان يختلف فى شىء عن أتباعه ، وبينا أنه أكد موته ، فإن الناس دون وعى منهم راحوا ينظرون إليه نظرتهم إلى أنه فوق البشر ، وأنهم قبلوا منه ما قاله لهم من ساعات قليلة قبل الآن فى المسجد على

اعتبار أنه مجرد وعظ ، وما كانوا يظنون أن سيدهم يفنى ويموت .

وكان هـذا طبيعياً ، فقد وجد هؤلاء المكيون والمدنيون أنفسهم قد رفعوا من حضيض الفقر والاضطهاد إلى مركز يعتبرون فيه فوق أية جماعة عربية أخرى . وفى الواقع لقد وقفت فى سبيلهم عقبات جمة ، ولكن محمداً تجاوز بهم جميع تلك العقبات بنجاح ، إنهم كانوا يحسون إحساساً صادقاً أنهم أينما قابلتهم مصاعب صغرت أو كبرت فما عليهم إلا أن ينطلقوا إلى محمد فتحل المشاكل والمصاعب . لقد كان يبدو أنه من الجنون أن يتصوروا أن هذا الرجل لن يكون معهم ليحميهم من عواصف الدنيا .

إن عمر نفسه كان ممن اعتنق الإسلام ، فإنه تبدل فى ساعة واحدة من أعظم المناهضين للإسلام إلى أعظم المتعصبين له ، وإنه أيضاً قد جعل محمداً فى مستوى أعلى من أى شخص آخر فى العالم ، لذلك قال عن نساء محمد إنهن مخلوقات مخبولات لا يدرين من زوجهن . وازداد الحال توتراً لما ظهر أبو بكر .

كان أبو بكر قد اطمأن على محمد لما ظهر فى المسجد فانطلق لزيارة إحدى زوجاته التى كانت تقضى الصيف فى ضاحية من ضواحى المدينة ، فإنه لما بلغه خبر موت محمد امتطى بغلته وقفل عائداً إلى المدينة ، وسار إلى الحجرة التى مات محمد فيها دون أن يلتفت إلى الحشد الذى التف به ، وراح يلقى عليه آلاف الأسئلة ، فألفى ابنته جالسة بجوار الجسد ، فلم يقل أبو بكر شيئاً لعائشة ، ولكنه أشار إليها أن ترفع البردة التى كانت تغطى الجسد المسجَّى ، فجعل ينظر فى حزن إلى ملامح صديقه الجميلة ،

ثم ركع بجواره وقبل جبينه وقال : « ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً ! »

ثم لمس الشعر الأسود الطويل الذى تهدل إلى الوراء من رأسه الطاهر وقال :

« بأبى أنت وأمى ! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً » .

ثم عاد وقبل جبين محمد ثانية ، وأعاد البردة ، وخرج على مهل إلى فناء الدار حيث كانت أزواج النبي يبكين .

وبلغت مسامعه الضجة التى كانت خارج الحيطان ، فأسرع إلى الناس ، وسمع عمر يجزم بأن محمداً فى غيبوبة ، وحاول أبو بكر أن يسكت عمر ، ولكن عمر أبى أن يسكت ، فقد كان فى ذهول ، واستمر أبو بكر مضطرباً برهة ، فقد كانت هذه أزمة لم ير أبداً مثلها ، ورفع يده أخيراً وابتدأ يتكلم ، فلما سمع الناس الصوت المألوف أنصتوا ، فقال فى وضوح : « قال الله تعالى لمحمد ، إنك ميت وإنهم ميتون ، وقال بعد غزوة أحد ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » .

وترك الكلمات تفعل أثرها ثم اختتمها فى تأكيد .

« من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » .

وتبع هذه الكلمات سكون عميق ، فإن أبا بكر قد تكلم بالبرهان ، فقد ذكر آيات من القرآن قد سمعها كل الناس من محمد ، فلم يكن هناك من شك فى إخلاص صديق قائدهم العظيم ، والتفتت بعض العيون إلى عمر

وكأنما تنتظر منه أن يعترض على هذا ، ولكنه وقف وحيداً وقد طأطأ رأسه ، فتملك اليأس الرجال والنساء الذين كانوا من برهة يثورون ويعترضون ، فعادوا إلى دورهم بقلوب ملأها الحزن ، وأصبح الميدان خارج المسجد خالياً بعد قليل إلا من عمر وأبى بكر ، فانطلقا فى طريقهما أيضاً وقد تملكهما الحزن ، وكانا لا يجدان الكلمات التى يتبادلانها فى تلك الساعة الفاجعة المحزنة .

وتملك أبو بكر أعصابه على الرغم من حزنه الشخصى فعلم أن الإسلام فى تلك اللحظة بات فى خطر ، فإن صدمة موت محمد كانت عظيمة ، ولا بد أن يكون رد الفعل أعظم ، فما لم يعين قائد فوراً ، فإن عناصر التنافس ستظهر ، وقد كان محقاً فى ظنه هذا .

اجتمع المدنيون بعد كلام أبى بكر وقرروا أنه إذا كان محمد قد مات حقاً فما هناك من سبب لبقائهم تحت حكم واحد من المهاجرين المكيين ، فإن الأوان قد آن وقد لاحت الفرصة ليصبحوا مستقلين ، وقد فطن أبو بكر إلى هذه الأفكار ، لذلك استدعى عمر من داره حيث بقى فريسة لأحزانه وانطلقا معاً إلى حيث سمعا باجتماع الأنصار ، وبلغ الرجلان المكان فى الوقت الذى كاد فيه سعد بن عبادة ينتخب رئيساً جديداً ، فتكلم أبو بكر وأيد كلامه بالحجج القوية كما كان يفعل محمد .

قال : إنه بينما يحترم المدنيين أشد الاحترام إلا أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، فلو أن الناس رغبوا فى أن يستمر الإسلام ، فعليهم أن يجعلوا هذا نصب أعينهم ، وصمت برهة حتى يقتنع الناس بذلك ، ثم قال إنه لا يطلب إلا تنفيذ هذا ، وإنه لذلك لا يرشح

نفسه ، وإنه لا يهمه من يخلف محمداً ما دام هذا الخليفة من قريش .

كان أبو بكر يتدفق فى حديثه دون أن يستغل موت محمد ، وقد وضع الأمر فى يد المدنيين ليقرروا ، فانتخبوه خليفة للمسلمين ، وتمت البيعة العامة فى المسجد فى اليوم الثانى ، فقد تقدم عمر وأوضح للناس أنه قال لهم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدها فى كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهده إليه رسول الله ، وقال لهم إن الله قد أبقى فيهم كتابه الذى به هدى رسوله ، فإن اعتصموا به هداهم الله . ثم ختم مقالته بقوله : « . . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه :

فقام الناس واحداً واحداً ، وبايعوا أبا بكر خليفة المسلمين الأول .

ولما انتهى ذلك ، قام أبو بكر واعتلى المنبر حيث لم يخطب منه إلا محمد من قبل ، لقد كانت أحرج لحظة فى تاريخ الإسلام ، بل كانت من أعظم اللحظات فى تاريخ العالم ، فلو أن أبا بكر فشل الآن فى المحافظة على سامعيه لعاد هذا الدين الذى بنى على فكرة إلى مثل ما كان عليه .

لم يكن لأبى بكر سحر صاحبه ، فقد كان شيخاً ليس بعيداً من الموت . لقد كان إيمانه الذى لا يتزعزع بهذا الدين وإخلاصه الذى لا شك فيه هما سر عظمته ، وإن هاتين الصفتين هما اللتان مكنتاه من الانتصار فى هذا الصباح المشهود ، فذكر ما كان فى ذهنه دون أن يحاول محاكاة بلاغة محمد ، فقال فى صدق :

« أيها الناس ، إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ،

والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء .

أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

وبينما كانت هذه الأشياء تجرى ، غسل جسد محمد ، وطيب بالمسك ، وكفن بثلاثة أثواب ، ثم وضع على سريره فى حجرة عائشة ، ودخل الناس جماعات ليلقوا نظرة وداع على قائدهم ، فكانت كل جماعة تقف لتتطلع إلى الوجه العزيز ثم ينطلق كل منهم حزيناً ، واستمر دخول الناس طول اليوم وقد تبع النساء الرجال ، وتبع النساء الصبيان والعبيد .

ولما حان أوان الدفن لم يدر أحد أين يدفنونه ، فأشار بعضهم بحفر القبر تحت المنبر فى المسجد ، وأشار آخرون أن أفضل مكان هو المكان الذى كان يؤم منه المصلين ، وقال قلائل لعله كان يود أن يرقد مع أتباعه المسلمين فى المقابر ، وحل أبو بكر المعضلة بقوله إنه سمع محمداً يقول : « ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض » ، ولما لم يكن هناك من يستطيع أن يعارض ذلك ، فقد اتفقوا على موقع القبر هذا .

لذلك حفرت حفرة عميقة فى حجرة عائشة ، وكان محمد مسجى فى بردة فوق أرضها ، فدلى على وأسامة والفضل الجسد المدرج فى أكفانه فى الحفرة فى رفق وبنيت لبنات فوقه ثم أهيل التراب والرمل .

وعلى ذلك ففى يوم الثلاثاء التاسع من يونيو عام ٦٣٢ ميلادية ،

فى السنة الحادية عشرة للهجرة ترك محمد ليستريح فى أمان لأول مرة خلال اثنتين وستين سنة عسيرة لحياته الصاخبة ، وإنه اليوم لا يزال راقداً فى نفس القبر ، الذى حجب عن أنظار الناس ، فإن مسجداً رائعاً أحاط الدور التى كانت فى يوم من الأيام منازل متواضعة لنساء النبى ، وقد شيدت قبة هائلة فوق الحجرة التى قبر فيها ، وإن الرجال والنساء ليفدون من جميع أنحاء العالم ليصلوا فى المكان الذى عاش فيه مؤسس دينهم ومات فيه ، وإنهم بفعلهم هذا يخالفون قول محمد المتكرر بأن قبره لا ينبغى أن يتخذ مكاناً للعبادة [1] ، وإنهم بذلك يعاونون على خلق خرافة أنه من زمرة القديسين والملائكة ، وإنهم بفعلهم هذا يسيئون إليه .

إن محمداً ينفرد فى تاريخ الديانات بأنه كان يوحى إليه جميع ما كان يفعله ، وما كان قديساً ولا ملكاً ، وما كانت له أية صفة من الصفات التى ليست للبشر ، وما كان له ما يميزه فى الحياة عن المسلمين الآخرين لو استثنينا شخصيته الفذة ، فما كان له اسم ذائع ، ولا مال ممدود ، وما كان يعيش عيشة تختلف عن سائر الناس ، وإن مسجده فى المدينة كمساجد دمشق وفاس ودلهى ، وهى من الأعمال الفنية كأية هندسة كنائسية فى العالم ، ولكنها لا تشترك فى شىء ومحمد بن عبد الله .

(١) قال صلى الله عليه وسلم : قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .

الفصل الرابع والعشرون

محمـــد فى قومه

إن النجاح الذى ازدحمت به أيام محمد الأخيرة على الأرض يجعل المرء ينسى الناحية المنزلية أو الناحية الأسرية فى قصته ، فالحركة التى بدأها ، والأثر الهائل لتعاليمه ، وانتشار الإسلام العالمى اليوم ، كل أولئك يعطى صورة أكثر وضوحاً عن هذا الرجل خلال حياته .

وقلما أفكر فى محمد كرسول الله الذى أصبح أتباعه سبع سكان الأرض ، وقلما أفكر فيه كملهم للجنود الذين امتدت فتوحاتهم امتداداً لم يتجاوزه إلا جيوش الإمبراطورية البريطانية ، وقلما أفكر فيه كمؤلف للقرآن ، ذلك الكتاب العجيب من الأحكام والدين والنظم ، ولكنى أفكر فيه كصبى فعل الخير لقومه ، وأفكر فيه أيضاً كشاب له مثل أعلى يضطهد ويعذب من أجله ، ثم يرغم أسرته على أن تعترف بأنه كان على صواب ، وإن مافعله محمد بالسيف ومن فوق منبره كان أقل خطورة من دحضه القول السائد بأن لا كرامة لنبى فى قومه ، فإنه قد بدل أفكار أهله ، ومن الواجب أن نذكر ذلك إذا ما شئنا أن نقدر قصة الصحراء الناجحة هذه حق قدرها .

وقعت الرواية جميعها ، إذا ما استثنينا حملتى سوريا ، فى منطقة لا تزيد عن ولاية كونيكتيكت Connecticut من الولايات المتحدة ، وما كان

الرجال الذين اشتركوا فيها عديدين ، وكانوا أقارب فى الغالب ، وكان الخلاف نتيجة حسد أو سوء فهم ، سوء فهم يمكن تبريره ، وإنه وإن كان قد قاد إلى أحاسيس مريرة قاسية فإن ذلك من سوء الحظ ، ولكنه كان جلياً واضحاً .

إننا قد نظرنا حتى الآن إلى كل ما حدث خلال تلك السنين العظام فى بداية القرن السابع من ناحية محمد ، ولكنّ هناك دائماً ناحيتين لكل مجادلة ، وإن ناحية قريش ومكة تستحق الاعتبار .

فهناك بلدة كوّنت نفسها من قرون لتكون من أعظم المراكز الدينية والتجارية فى بلاد العرب ، وقد وجد المكيون الرخاء بربطهم التجارة بالدين ، فكانوا يأكلون ما يشتهون ، ويشربون ما يحبون ، وينغمسون فى الحب ، وكوّنوا الثروات ، وتمتعوا بالحياة إلى أقصى غايات التمتع ، وازدهر كل ما باشروه ، فكان من الطبيعى أن يعزوا بعض تلك الخيرات إلى أصنام الكعبة ، وكان من الطبيعى بالنسبة لهم أن يروا ألا ضرورة لتبديل أو تغيير .

وكان رجال قريش أكثر الناس غنى ووجاهة فى المجتمع ، فكانوا يشغلون مراكز إدارية ودينية واجتماعية هامة فى البلدة ، وكانوا يسيطرون على جل المصارف والبيوتات التجارية ، وكانت مكة من أعظم بقاع تلك المنطقة حضارة على الرغم من موقعها المنعزل ، وجوها البغيض ، وكانت تتمتع بكل الترف ، فقد كانت الحرائر والأقمشة والجواهر والعطور ترد إليها ، فكان المكيون يحسون أنهم فى نعيم مقيم ، فما كانوا يرون من سبب لتبديد رخائهم .

ثم ظهر هناك رجل فى منتصف العمر ، له أفكار غريبة كل الغرابة ، وكان من أسرة طيبة تجرى فى عروقها دماء قريش . ولكنه ما كان من أمراء التجارة ، وكان فاشلا فى تلك الناحية ، فعلى الرغم من علاقات أسرته جميعاً فإنه ما فعل شيئاً يلفت النظر ، لقد ظل أميناً ولكنه كان أجيراً .

كان أول ما بزغ نجمه لما تزوج من أعظم وريثة فى مكة ، وكان السبب الثانى فى ارتفاع شأنه دفاعه عن النظم الجديدة التى ستبدل حياة الدعة والترف لتلك الجماعة الصحراوية ، وكان من أثر ذلك أن هبت الاعتراضات فى وجهه ، فكانت لينة هينة فى البداية ، ولكنها أخذت فى الشدة والعنف والنمو لما صار استفزاز محمد لهم شديداً ، فلما ابتدأ محمد فى دعوته أحس الأعمام وأبناء الأعمام وأبناء الأخوال والأقارب خزياً وعاراً ، ثم انتابهم الفزع بعد ذلك ، فلم يأبه محمد بهم واجتاز طريقهم ، وأخذ يسفه كل ما يجلب لهم اللذاذات والغنى جهاراً ، ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يسفه الآلهة التى تعاونهم على جلب تلك الحالة السعيدة . ما كان فى تلك الحركة شىء أهلى ، فقد كانت حركة شخصية ، وكانت محلية ، إنها كحرب الرقيق ، وحرب الوردتين .

كان المقاتلون فى غزوة بدر وأحد والخندق يعرف كل منهم الآخر ، فإن حمزة لما قتل سبّاع ، قبل أن يقتل لأنه قتل أبا هند زوج أبى سفيان ، كان يذكر أم ضحيته باسمها وكانت مقطعة بظور نساء مكة .

وبعد غزوة أحد ، دعا أبو سفيان محمداً لقتاله فى السنة المقبلة وفعل ذلك كما يفعل رئيس فريق كرة القدم لما يدعو الفريق المنازل لمباراة أخرى ، وحافظ محمد على موعده ولكن أبا سفيان نكص ولم يأت ،

وقد استفاد محمد أثناء حصار المدينة من علاقات القرابة بين المقاتلين ، فدب الشقاق فى صفوف الأعداء .

وظهر العنصر الشخصى لما عاد محمد إلى مكة لأول مرة ، فقد التمس المكيون منه أن يحفظ عليهم كرامتهم ، فقد ابتدأوا يعرفون أن قريبهم هذا رجل أعظم مما كانوا يقدرون ، ولكنهم يبغون أن يسلموا بكياسة ، وقد فهم محمد ذلك كل الفهم ، ففعل كل شىء ليجعل هذا التسليم هيناً سهلا .

ولما نشر السلام ألويته ، لم يكن هنالك أسعد من الرجل الذى كان خصمهم فى يوم من الأيام ، وما كان هناك شعور مقت بين محمد والمكيين كذلك الشعور الناشىء بين شعبين متحاربين ، وتنفس الجميع حمداً لانقضاء النزاع الذى كان ناشباً بين الأسرة .

وغالباً ما يبدو إسلام القبائل الخارجية كاليمن وعمان تدخلا منهم فى اختلاف الرأى هذا القائم بين الأقارب الأقربين .

وكانت المدينة بيتاً كبيراً أيضاً ، بيتاً كبيراً فى قرية صغيرة ، وعاون محمد فى بناء المسجد ، وشرع قوانين محلية ، ونظم الزواج ، وتزوج شخصياً ، وكانت دوره بما فيها من غيرة نسوية ودسائس ، وفضول المدن الصغيرة أمراً مألوفا كما هو مألوف فى مين ستريت Main Street ، وما كان هؤلاء الرجال الذين سيسيطر أحفادهم على رقعة كبيرة من العالم بأشخاص عظام ، وإنى لأستطيع أن أراهم جميعاً ، أن أراهم فى العرب الذين شاركتهم حياتى فى الصحراء :

أبو بكر الذى آمن بصديقه ، لأنه كان صديقه . آمن به ولو أنه لم يألف حياة التقشف هذه من قبل ، وإنى أفكر أحياناً فيما كان حاله

لو أنه أسنّ وهو من أصحاب الملايين فى مكة .

وعمر الجسيم الحانق المقاتل بغريزته وتدريبه ، وبشعاره الوحيد فى معاملة الكفار ، الإسلام أو القتل .

وعثمان ، وإن كان شخصية مشوشة ، فقد كان أقل إخلاصاً من أبى بكر، وأقل حباً للقتال من عمر، وأكثر سياسة من كل منهما ولاشك .

وعلىّ الجندى الأمين الباسل ! كان محمد بطله ، وكان القتال هوايته ، إنه رجل العسكر والقتال ، ولكنه ما كان يصلح للرئاسة ، وبالرغم من ذلك سيصبح فى يوم من الأيام خليفة ، كما سيصبح الثلاثة الآخرون خلفاء ، وسيحكم ممالك لم يسمع بها أبداً إلا من سنين قليلة مضت .

ولم يبد لى محمد قديساً كما يراه المعجبون به ، ولا دجالا كما يزعم محقروه ، وقد قالت عائشة عنه وكانت تعرفه حق المعرفة فما كانت مخدوعة فيه : «كان كيساً ونبيلا ، كانت تبرق أسارير وجهه غالباً ، ويبتسم كثيراً »[1] .

ويوضح هذا التحليل الجزئى نجاح محمد. فما من رجل لا يستطيع أن يضحك غالباً بقادر على أن يجتاز كل هذه المحن ، وما من رجل ليس له التأثير العام بقادر على أن يلهم مثل الصداقات المخلصة التى ألهمها ، أو مثل حب خديجة وعائشة وزوجاته الأخريات ، وماكان يجذب إليه الأطفال ، فقد كان يرى فى المسجد وبين يديه طفل وهو يحدّث الناس ، وكان كثيراً مايرى وهو يسير وقد وضع يده فى يد طفل .

قال محمد : « على العبد أن يسعى وعلى الله تحقيق المطالب » فما كان

(١) هذه الترجمة حرفية لحديث عائشة وليست النص .

يهمل أمر الله أبداً ، وما كان يسمح لمركزه أن يدير رأسه ، وسواء أقرأ الإنسان لكتاب من مناصرى محمد ، أو لكتاب من أعدائه ، فإنه ليجد أنهم جميعاً قد اتفقوا على أن البساطة الوقور كانت تعم حياته .

والبساطة المتناهية إحدى قوى الإسلام الأساسية ، وإنها لإحدى أسباب انتشاره الملحوظ .

لو أن القديس بطرس عاد إلى روما لامتلأ عجباً من الطقوس الفخمة وملابس الكهنوت المزركشة . والموسيقى الغريبة فى المعبد المقرونة باسمه ، ولن يعيد البخور والصور والرقى إلى ذهنه أى شىء من تعاليم سيده (المسيح) ، ولكن إذا ما عاد محمد إلى أى مسجد من المساجد المنتشرة بين لندن وزنزبار فإنه سيجد نفس الشعائر البسيطة التى كانت تقام فى مسجده فى المدينة الذى كان من الآجر وجذوع الشجر .

كان محمد بشراً ، فكان يقدر ضعف الآخرين ، ويفهم عواطفهم ، ويعرف أن للبساطة أثراً أفضل من التعقيد والالتواء ، وإن بعثات التبشير الإسلامية تختلف كل الاختلاف فى الدعوة للإسلام عن كل إرساليات التبشير للأجناس الأخرى . فإن المسلمين لايخرجون مجهزين لهذا الغرض بالذات ، فليس هناك « أوامر مقدسة » فى الإسلام . فالواعظ كالتاجر والإدارى ، ثم هناك الحلم والشفقة واحترام عادات الوطنيين ، والتسامح فى بعض المعتقدات التى لا ضرر منها .

وليس هناك أى عائق لونى للمسلم ، فلا يهم أكان المؤمن أبيض أو أسود أو أصفر ، فالجميع يعاملون على قدم المساواة .

وقضى محمد على فروق الطبقات واللون والأجناس .

والحج أعظم شاهد على ديمقراطية الإسلام ، فهناك يجتمع المسلمون الأوروبيون والآسيويون والأفريقيون ، والصعاليك والأمراء ، والتجار والمقاتلون فى نفس الإزار البسيط الذى كان محمد وأتباعه يرتدونه فى حجة الوداع عام ٦٣٢ ، إنهم جميعاً يتناولون نفس الطعام ، ويتقاسمون نفس الخيام ، ويعاملون دون تمييز سواء أجاءوا من مرافىء سيراليون أم من قصر نظام حيدر أباد ، إنهم جميعاً مسلمون ، إن هذا لهو الميزة الكافية ، ولهم فى مؤسس هذا الدين أسوة ، فقد حكم جزيرة العرب ، ولكن ماكان يجد مايضيره فى تناوله الطعام وعبداً من العبدان ، وفى مشاركته ابن السبيل تمرة من التمرات .

أكان فى مقدور رجل ، مالم يكن ملهماً ، أن يأتى إلى الوجود بمثل هذه الأخوة العالمية ؟ وهلا تنعكس سخرية معادى الإسلام عليهم ؟ وكيف يترك دجال عقيدة ازدهرت ونمت بعد موته ؟ إن عدد معتنقى الإسلام ليزيد اليوم بمقدار ربع مليون فى كل عام ! وهذا دون ضغط أو إرهاب لنشر رسالة الإسلام .

ولم يكن لمحمد بولص[1] ، وكان جنوده هم ناشرو الإسلام الأصليون ، وإنهم قد تركوا الإسلام ثابت الدعائم حيثما ذهبوا ، وإن هذا ليجعل المرء يتساءل عما كان يحدث لو أنه كان هناك إرساليات عربية عظيمة تبشر بالقرآن كإرساليات المسيحية الأولى . وماكان هناك دعاة عظام للإسلام بالمعنى المعروف ، فقدكان الناس الذين يتعاملون وهذا الدين

(١) يقصد المؤلف أن المسيح لم يتم رسالته وقد عمل بولص على نشر المسيحية ، أما محمد فقد أتم رسالته

يحبونه ، فكانوا يقبلونه ويدخلون فيه ، وفى الناحية الأخرى فإن الإسلام لم يبق فى دولة تختلف عن مكان مولده كل الاختلاف ، فقد حكم المسلمون إسبانيا حكما رائعاً خمسة قرون ، ولكن لما عاد الملوك المسيحيون ، وديوان التفتيش المقدس خبت عقيدة المسلمين وماتت ، وزيادة على ذلك فما كانت أوربا لتعتنق الإسلام لو أن شارل مارتل قد هزم فى تور ، فإن هذا الدين يوائم أناساً غيرّ معقدين ، أناساً أرواحهم قريبة من الطبيعة .

والعرب حقاً غير معقدين ، وكان محمد غير معقد ، والاعتراض بأنه عقد حياته بتزوجه من زوجات كثيرات اعتراض غير عادل ، فإنه كان يتبع عادة فقط ، ولا يمكن الحكم على دولة أو منطقة بدولة أخرى أو منطقة أخرى ، وهذا الحريم ، كباقى قصة محمد ، يتعلق بعادات الأسرة التى سادت كل شىء فى حياته .

ومن سوء حظ كثير من كتاب سير محمد أنهم يصدرون أحكامهم دون تردد ، ودون تقدير للظروف المشتركة . إن أغلبهم لا يعرفون شيئاً عن العرب ، وما ساكن الواحة أو البدوى أو شاحن الوسق فى بيروت إلا عربى آخر ، عربى قذر عادة .

إنه لمما يستحق الاهتمام أن نرى سيرة القديس بولص مكتوبة بقلم مسلم . إنها ولاشك ستكون أكثر تسامحاً من أغلبية مانشره المسيحيون عن محمد .

كان محمد يقول : « اللهم اغفر لنا خطايانا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين » .

كان الله ملاذه الوحيد من خطاياه ، ولم يتسامح أبداً فى النفاق ، فإنه

لما كان الرجال يأتون إليه ويقولون فى تفاخر : « أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً » ، « وأنا أصوم الدهر ولا أفطر » « وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً » فإنه كان يقول لهم : « أما والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وأجاب فى صراحة من سأله عما يحب من الدنيا : « إنما حُبب إلىّ من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني فى الصلاة » .

ولندع ذلك الرجل الأمين ، الذى كان يحافظ على روح المرح على الرغم مما يعانيه ، مستريحاً حتى ذلك اليوم الذى يعرف فيه قدر كل إنسان .

« يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

« لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير » .

خاتمـــة

بينا أن قصة محمد انتهت فى ذلك الصباح من يونية من عام ستمائة واثنين وثلاثين بعد موت المسيح إلا أن قصة الإسلام لم تنته ، فالشباب والشيوخ والنساء والرجال الذين اضطلعوا بأدوار رئيسية تحت إشراف قائدهم قد حملوا سننه حسب هديهم ، وإنى أقول « حسب هديهم » لأنه فى خلال السنوات التى قفَّت موت محمد مباشرة حل النزاع والفتن محل التوافق الذى كان طابع الأخوة الإسلامية خلال حياته ، وفى الواقع إنها لمعجزة أن ما جاء به محمد لم يمت بموته ، إن هذا لشاهد آخر على شخصية الرجل ، وعلى قوة الدين الذى أسسه .

أصبح أبو بكر — كما قلنا — خليفة للمسلمين ، ولم تتجاوز خلافته عامين ، ولكنهما كانا عامى تكتف وتكتل ، وفيهما خطا الإسلام الخطوات الأولى فى سبيل التوسع . كان الناس لا يزالون فى دهشتهم لأنه لم يعد لهم محمد ليعتمدوا عليه ، فقبلوا كل ما أمر به أبو بكر ، وأثبت كل من خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص فى ميدان القتال جدارتهما التى كانت مرتقبة فى القيادة ، فقد حملا فى خلافة أبى بكر راية الإسلام إلى العراق وسوريا ، وسقطت دمشق وسوريا ومعاقل رومانية أخرى أمام جيوشهما المظفرة .

ومرض أبو بكر فى عام ٦٣٤ م مرض الموت ، وعُزى مرضه إلى أسباب عدة كما حدث فى حالة محمد ، وكان مرضه يعود أكثر من أى شيء

آخر إلى التعب المضنى المتواصل كما هو الحال فى مرض محمد ، فمرّضت عائشة أباها كما مرضت زوجها ، وقد أحاطته بعنايتها وعطفها حتى آخر لحظاته .

ولكى يتجنب الوضع الخطر الذى ألفى الإسلام نفسه فيه عقب موت محمد ، اتخذ أبو بكر الحيطة وعين خليفته . وقد قبل الناس عمر خليفة عليهم ، فمات أبو بكر وقد اطمأن إلى هذا ودفن فى حجرة عائشة فى قبر بجوار قبر صديقه الذى قاسمه كل مخاطرة وحرمان ونصر منذ أيام الدعوة الأولى .

كان عمر فى الثالثة والخمسين لما أصبح خليفة المسلمين ، ولكن ما كان يبدو أن هذا عمره ، فطريقة حياته الخشنة حافظت على مظهره النبيل ورجولته ، ولم ينازعه أحد سلطانه ، حتى إن عائشة نفسها التى لم يتح لها حكم أبيها القصير الوقت لتكوّن لنفسها أى مركز رسمى فى المدينة رأت أنه من الآمن أن تتعاون والخليفة الجديد .

ولو أن عمر أظهر عدم رغبة فى أن يخلف أبا بكر ، إلا أنه ما قبض على زمام الحكم بيديه حتى لم يدعه يفلت من قبضته ، فأمر — وقد صار أمير المؤمنين — بالاستمرار فى السياسة المحافظة الأهلية التى بدأها أبو بكر . وقد شجع أيضاً انتشار الإسلام بالفتوحات . وابتدأت بناية الإمبراطورية الإسلامية الحقة فى خلال حكم عمر .

وانسابت الجيوش الإسلامية تحت إمرة خالد وعمرو كموجات مدٍّ عظيم ، فاجتاحت كل ما وقف فى سبيلها ، وتم فتح سوريا بين عام ٦٣٤ و ٦٤٤ م بانهزام الروم البيزنطيين انهزاماً نهائياً فى تبوك ، وحوصر

بيت المقدس وأنطاكية وقيصرية ووقعت فى أيدى المسلمين ، وأصبح ساحل آسيا الصغرى تحت حكم المدينة سريعاً ، وقد امتد هذا الحكم بعد قليل شمالا حتى جبال أرمينيا ، وشرقاً حتى أبعد حدود العراق . ثم أغار المسلمون على فارس فاجتاحوها واستولوا عليها ، وانطلق عمرو صوب الغرب فدخل مصر واستولى على منف والإسكندرية . وفى أشهر معدودات من دخول المسلمين أقسم شعب عريق آخر يمين الولاء لعرب الصحراء هؤلاء ، ودخل فى دينهم ، وقد اعتنق البابليون الإسلام أيضاً فى نفس الوقت .

ولكن على الرغم من هذه الانتصارات العظيمة على أغنى إمبراطوريات العالم فإن الخليفة بقى على تقشفه ، وأصر على أن يكون أتباعه مثله ، وقد عزل فى مرة من المرات خالداً لأنه اعتقد أنه صار مترفاً وأنه قد استغل الغنائم لنفسه ، ولكن لم يكن هذا صحيحاً . فعند موته فى عام ٦٤٠ م ظهر أن ما كان يملكه قائد فرسان المسلمين لم يكن إلا فرسه ودرعه . ولم ينس هؤلاء العرب أصلهم الصحراوى ولم يألفوا دعة أهل المدن إلا بعد انقضاء سنين طويلة .

وفى عام ٦٤٤ م قتل عمر ، قتله فيروز الفارسى وكان قد جىء به إلى المدينة أسيراً . كان عمر يصلى بالناس فى المسجد لما انقض الرجل عليه من الخلف وطعنه ثلاث طعنات قبل أن يتمكن من أن يحمى نفسه ، ولم تكن الجراح قاتلة لوقتها ، وعلى الرغم من ذلك فإن عمر لم يعين خلفه صراحة بل اختار ستة ليختاروا الخليفة القادم ، ثم استأذن عائشة فى أن يدفن إلى جوار صاحبيه ، فوافقت عائشة على ذلك ، فلما فاضت روحه

قبر أمير المؤمنين فى حجرة عائشة ، وكانت هذه آخر مرة يفتح فيها قبر الرسول .

فلما انتهى الدفن اجتمع رهط الشورى ، وعرضت الخلافة أولا على علىّ ، على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ، فقبل على الشرطين الأولين ورفض الثالث ، فسحب العرض تبعاً لذلك وعرضت الخلافة على عثمان بنفس الشروط . ولما كان أقل إخلاصاً من علىّ فقد قبل الشروط دون اعتراض ، وعلى ذلك ، ففى عام ٦٤٤ م أصبح عثمان بن عفان زوج ابنة محمد ، وأحد أعضاء الأسرة الأموية الملكية التى ستحكم فى يوم من الأيام الإمبراطورية الإسلامية من قرطبة ودمشق بنجاح ، خليفة المسلمين الثالث .

ولو أن سير الإمبراطورية استمر فى حكم عثمان ، ولو أن الأسطول الإسلامى الأول قد تكون فى هذه الحقبة ، ولو أن قبرس قد استولى المسلمون عليها ، والأسطول البيزنطى قد انمحق ، إلا أن هذا الحكم ما كان له الطابع العظيم للحكم السابق . وما كان عثمان أبداً شخصية بارزة لما كان محمد حياً ، وأظهر اليوم أنه كان ينقصه صفات سابقيه الطيبة ، فكان يتذبذب بسهولة ، وما كان يحجم عن إحلال قواد عسكريين وحكام من المقربين إليه مكان قواد آخرين وحكام آخرين دون النظر إلى كفايتهم ، وقد ارتكب خطأ بتحديه عائشة .

كانت الحادثة طفيفة فى حد ذاتها ، ولكنها كانت من النوع الذى يثير جميع غرائز الحقد فى عائشة ، فإن عثمان قد خفض عطاءها حتى أصبح يساوى عطاء زوجات النبى الأخريات !

كانت عائشة تعتبر نفسها دائماً زوجة محمد الأثيرة عنده، ففي خلال حكم أبيها وعمر، كان ينظر إليها نفس النظرة التي كانت تلحظ بها لما كان زوجها حياً، وقد سألها آخر خليفة الإذن في أن يقبر تحت حجرتها، ولكنها عرفت بعد موت بطليها أنها ستحتاج إلى جميع مواهبها لتحافظ على مركزها، وعلى ذلك، فلما هاجمها عثمان بهجومه غير المباشر قررت عائشة أنه لا يستحق أن يكون خليفة لزوجها، فما إن قررت ذلك حتى لم يبق إلا أن تجد أفضل طريقة لتتخلص من العدو. إن الاتهام أو الوسائل المستعملة ما كان لها من أثر في الموقف، فإن عائشة إذا ماشاءت فعل شيء فإنها لتفعله دون أي اعتبار لفلسفة السلوك والآداب، وقد أمد عثمان عائشة بكل معاونة في هذه القضية.

كانت المحاباة آخذة في الذيوع يوماً عن يوم، فكان يضحي يومياً بصحاب محمد والمقاتلين القدماء والقضاة إرضاء لبعض نزوات الخليفة، فلم تدع عائشة شاردة من سياسته المذبذبة إلا أحصتها وعرضتها على كبار الصحابة، ولم تدع سانحة لتثير الاستياء المتزايد إلا اهتبلتها.

إن قصة تقلبات عثمان وبغيه ودسائس عائشة طويلة جداً، فلن نقص نبأها، وسارت الأمور حتى وجد المسلمون أنفسهم يحقدون على مسلك عثمان، فطلبوا خلعه، فرفض عثمان ذلك، فثارت ثائرة الناس، وفي زمن قصير وجد الخليفة نفسه محاصراً في داره، فانقلب الجو من جو التماس إلى جو وعيد.

انزعج عثمان، فبعث رساله إلى عائشة يطلب منها التدخل في الصلح، فردت عائشة عليه بأنها آسفة لما حدث ولكنها مشغولة، فإنها تتأهب

للحج ، وقبل أن يتمكن عثمان من أن يكتب لها ثانية خرجت فعلا للحج ، وقبل أن تبتعد كثيراً بلغها أن الأمور أصبحت فى أيدى أهل المدينة ، وأنهم قد قتلوا خليفتهم ، وزيادة على ذلك فقد كان حقدهم على مسلكه عظيما حتى إنهم لم يشيعوه ، ودفن جثمانه فى المقابر العامة .

وكانت أفعال عائشة بعد ذلك غير منتظرة . فإنها لعنت قتلة عثمان ، ودعت الأمويين إلى الثأر لعثمان ، وفى أيام قليلة من موت رجل حرضت على قتله بطريق غير مباشر ، استغلت هذا الموت لتبذر بذور حرب أهلية .

أصبح هناك أربعة طلاب للخلافة ، هم على ابن محمد المتبنى وابن عمه وزوج ابنته ، ثم الزبير وطلحة قريبا عائشة وكانت سندهما ، وأخيراً معاوية . كان معاوية بن أبى سفيان من هند ، وكان شيخ الأمويين وحاكم سوريا فى هذه الآونة .

أنجز علىّ عمله سريعاً ، فقبل أن يفكر أحد فى الخلافة عرض نفسه ، فكان هناك معارضة طفيفة ، فمعاوية فى دمشق لا يدرى ما يجرى فى المدينة وقد فر الزبير وطلحة مؤقتاً إلى عائشة التى كانت ترقب الحوادث من مكة ، وكان البارزون الآخرون مشغولين بمقتل عثمان فما كان عندهم الوقت ليفكروا ، فتمكن على من أن يفرض ترشيحه ، ففى ١٨ يوليه سنة ٦٥٦ وفى السنة الخامسة والثلاثين من الهجرة ، نصِّب الخليفة الرابع للإسلام .

ساء النبأ عائشة كثيراً ، فإنها لم تنس أبداً ولم تصفح عن موقف علىّ من حديث الإفك ، وكانت دائماً غيوراً من نظرة محمد إليه كرجل وكزوج ابنته ، وكانت تستاء منه دائماً لأنه كان أبا ورثة محمد الذكور الأحياء ، وإنها ما كانت بقادرة على أن تقبل أن يكون أمير المسلمين ،

لذلك عزمت على أن تزيحه من طريقها بأية طريقة كانت ، وقد كان علىّ كما كان عثمان ألعوبة فى يدى عائشة .

بينا كان على جندياً باسلا ، وواضع خطط حربية عبقرياً ، فما كان رجل حكم وسياسة ، وبينا كان يبت فى ساحة القتـال فى لحظة إلا أنه ما كان يبت فى مجلس الحكم شيئاً ، وفى خلال أسابيع قليلة من توليته كان من الواضح أنه سيكون من السهل على المقربين منه أن يحركوه كما كان الحال وعثمان ، وإن ذلك فقط ما يبغيه مناصرو خلافة الفاطميين ليأملوا فى المناصب الهامة فى الإدارة المدنية والعسكرية للدولة الإسلامية . ولم يبدِ أيضاً أى ميل لمعاقبة قتلة عثمان ، فاستغلت عائشة مباشرة هـذه الأخطاء لتنال من الخليفة الجديد، وقالت إن لعلى ضلعاً فى مقتل عثمان ، وقد سندها فى ذلك معاوية لأنه كشيخ الأمويين يمثل المطالبين بدم عثمان ، ولأنه كان يطمع فى الخلافة .

وإن ماتبع ذلك كان كقصة خياليـة لا تحاكيها أية قصة خرافيـة خرجت من بلاد العرب .

كونت عائشـة بمعاونة طلحة والزبير جيشاً فى مكة وانطلقت إلى البصرة عنـد تلاقى الدجلة بالفرات . كانت البصرة معقلا قوياً وكانت منقسمة فى ولائها لعلى . وإن عون أهلها سيشد من أزر عائشة . وقد تبع وصول عائشة فترة دسائس نسوية عاونت على استيلاء عائشة على المدينة.

وقد كره علىّ أن يستعمل القوة فى ذلك الوقت كرهاً شديداً ضد زوجة الرسول الأثيرة عنده . ولكنه ماكان يستطيع أن يسمح بتمرد سافر . فخرج إلى البصرة وحاول أن ينهى الأمر بحنكة وسياسة . كان فى

كلا المعسكرين كثير من المهورين ، ورجال كثيرون يحبون المغامرة ، وقليلون ممن كانوا يهدفون إلى الوحدة الإسلامية التى غرسها محمد . وقد وقعت بعض مناوشات فى غفلة من القوم فى ٤ ديسمبر ٦٥٦ أدت إلى اشتباك الجيشين فى قتال .

قادت عائشة جيشها بنفسها ، فدخلت فى هودج أحمر ، وقد ستر الهودج بالدروع ، وشد إلى ظهر جملها . كانت الموقعة طويلة وشديدة قاسية وكانت قيادة علىّ المتفوقة ترغم جنود عائشة على التقهقر المرة تلو المرة ، فكانوا يلمون شعثهم المرة بعد المرة على صوت قائدتهم ، واشتدت المعركة حول جمل عائشة ، حتى أصبح الهودج الأحمر كالقنفذ من الرماح والسهام والحراب المغروسة فيه ، وقد سقط المقاتلون مقاتلا بعد مقاتل عند أقدام الجمل ، وقد جرحت عائشة جرحاً طفيفاً ، وأخيراً جاء رجل فضرب الجمل على قوائمه فعقره ، وكان ذلك علامة للهجوم العام لجيش علىّ ، فانهزم رجال عائشة وتفاروا فلم يعد هناك من يشجع على القتال ، ولم يبق إلا القليلون بجوار قائدتهم ، وقد عاون هؤلاء الرجال أخاها (محمد بن أبى بكر) على حمل الهودج والدخول به إلى المدينة ، وقد تبعها علىّ وجنوده ، ولما كان علىّ جندياً باسلا بقدر ما كان حاكما فاشلا ، فقد كبح جماح جنده ، فلم تكن هناك مذابح ولم يستول الجنود على غنائم وأسلاب ، وذهب لزيارة عائشة كما كان يزورها فى الأيام الخوالى فى دور النبى الملتصقة بالمسجد ، فلم ترحب عائشة بالزيارة الكريمة ، واستقبلت علياً فى غطرسة وصمت ، وقد كان كل ما قالته « يابن أبى طالب ، ملكت فأسجح » .

فصفح علىّ وجهزها بجمال وحرس ، وأرسلها إلى مكة ثم إلى المدينة .

لم تذنه متاعب على . فعلى الرغم من أن انتصاره على عائشة جعله المسيطر على بلاد العرب وفارس ومصر ، إلا أن معاوية كان لايزال حاكم الشام ، وكان لايزال يطالب بدم عثمان ويتخذ من ذلك ذريعة لقتال على ، وقد شد من أزره انضمام عمرو بن العاص وجنوده إليه ، وقد خرج عمرو على الخليفة لسبب شخصى ، فقد عزله على عن ولاية مصر التى فتحها بذكائه ودهائه وقدرته .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان على كارها سل حسامه لقتال هؤلاء الرفاق المسلمين كرهه لقتال عائشة ، فبذل ما فى وسعه لإحلال السلام ، ولم يخرج إلى الشام إلا بعد أن أيقن أن الأمويين لايبغون إلا قتاله ، فخرج على رأس تسعين ألفاً .

كان موقفاً غريباً ، فعلىّ ابن عم النبي وزوج ابنته فى جانب ، على رأس جيش من المهاجرين الذين شهدوا بدراً وأحداً وخيبر . وفى الجانب الآخر معاوية ابن زعيم أعداء محمد يعاونه عمرو الذى قاد قريش أيضاً ضد محمد . كان السبب الرسمى للنزاع اتهام علىّ بالإغضاء عن قتلة عثمان ، أحد رفقائه السابقين فى الإسلام فى أوائل أيامه ، وكان عثمان فى ذلك الوقت العدو اللدود للرجلين اللذين يتأهبان الآن للثأر لمقتله ! وكان فى كلا الجانبين مسلمون متعصبون ، وقد وقع فى هذه المعركة الحادث الذى سبق أن أشير إليه فى هذا الكتاب ، حادث رفع جنود معاوية المصاحف على أسنة الرماح ، فأحجم جنود علىّ عن الهجوم الذى كان سيقودهم إلى النصر .

ولو أن هذه الحرب الأهلية قد انتهت من الوجهة العسكرية فى صالح

عليّ ، إلا أن معاوية قد كسب بدهائه السلام ، وتبع ذلك دسائس معقدة انتهت بالمناداة بابن أبى سفيان الخليفة الشرعى لعثمان ، وفتح عمرو مصر فى نفس الوقت وعزل واليها من قبل على ، وبدا كأنما الإسلام قد انقسم إلى أجل غير محدود إلى مطالبين بالخلافة متنافسين . وعلى كل حال فقد قتل عليّ قبل أن تبدأ الأعمال الحربية العنيفة .

قرر بعض الخوارج المتعصبين أن ذلك الانشقاق الواقع بين المسلمين كان نقيض كل مثل محمد العليا التى جاء بها ، وأنه سيقود الى انهيار الإسلام ، وقد رأوا أن المسئولين عن ذلك هم على ومعاوية وعمرو ، لذلك تعاهدوا على أن يخلصوا بلاد العرب منهم ، وقد فشلت خطتان ، فجرح معاوية وما كان جرحه بالغاً ، وقد قتل مكان عمرو إمام كان يؤم المصلين فى مصر ، ولم يسقط إلا على تحت السيوف التى قررت اغتيال الخلفاء ، وقتل فى العراق بمدينة الكوفة على الفرات عام ٦٦٠ م ، سنة ٣٩ هجرية ، وكان فى الثالثة والستين ، وقبر حيث سقط ، وقد شيد له قبر فخم ومسجد هائل ، ونشأت حوله مدينة جميلة تعرف بمشهد على ، وهى اليوم إحدى أماكن الشيعة الرئيسية المقدسة .

وقد بلغ نبأ مقتل عليّ المدينة فى أوائل عام ٦٦١ ، فهز النبأ الناس ، فإن عليًّا كان الحلقة الأخيرة التى تذكرهم بالأيام العظام ، أيام كان محمد حياً ، وكان رد فعل هذا النبأ بالنسبة لعائشة غير متوقع كما هى العادة ، ومهما كان إحساسها الشخصى بالنسبة لموت عدوها فإنها قد أمرت بجمع الناس فى الصباح ، فاجتمع المدنيون فى الحريم ، وقامت على قبر النبى ورثت الخليفة المقتول وعددت فعاله المجيدة للإسلام ، وبدا كأنما معارك

أخرى بين المسلمين وشيكة الوقوع ، ولكن تفكير عائشة غالباً ما يقود إلى المفاجآت ، ففى أيام قليلة من مرثيتها بايعت معاوية ليكون خليفة المسلمين الخامس ، وبذلك انزاح من طريقه العقبة الوحيدة التى كانت تعترض بسط سلطانه على المسلمين أجمعين ، وقد كان ذلك فى صالح عائشة ولا ريب ، فقد تخلصت من الرجلين اللذين أساءا إليها ، وجعلت أزواج محمد الأحياء ينكمشن ويصبحن لا وزن لهن ، وجعلت المسلمين يرون أنها شخص يحسب له حساب ، وإنها لتود الآن أن تنهى أيامها كشخصية دينية باقية « كأم المؤمنين » ، وكخليفة غير رسمية للرسول . إن خير طريق لتنفيذ ذلك يكون بحكومة قوية ودولة إسلامية مترامية الأطراف .

وهذا ما حدث تماماً ، فمن يوم أن أصبح معاوية الخليفة غير منازع زحفت قوة الإسلام . وقبل أن ينقضى على الهجرة مائة سنة كانت الإمبراطورية الإسلامية تمتد من جنوب فرنسا إلى إسبانيا وشمال افريقية ومصر وبلاد العرب وسوريا والعراق وفارس وإلى أبعد حدود الهند ، وثبت المسلمون أقدامهم فى إيطاليا واليونان والبلاد الواقعة جنوب الدانوب ، وكانوا يتأهبون لفتوحات أخرى . وسيصبح القرآن قبل أن ينقضى طويل وقت الكتاب المقدس للهند الشمالية ولأجزاء من الصين ولما يعرف الآن بولايات الملايو والهند الهولندية ، وسيدعو المؤذن الناس إلى الصلاة أيضاً فى أفريقية الشرقية والغربية بنفس الأذان الذى كان يؤذنه بلال من سطح مسجد المدينة الأول .

ما كان عقل عائشة بقادر على أن يلم بكل هذا جغرافياً ، ولكنها كانت راضية ؛ فقد عرفت أن تعاليم زوجها كانت تمتد وتنتشر وأن

الكثيرين قد قبلوها ، وقد عاشت عائشة كثيراً ولكنها لم تعش عيشة ترف ، وكانت تود أن ينسى الناس أيام أن اشتركت فى السياسة ، فراحت تعطف على قومها وتعاونهم بالإحسان والنصيحة ، وما كانت نصائحها دائماً ذات طبيعة روحية ، فكان بعضها نصائحَ مالية وتجارية .

ولما ماتت عائشة كانت فى الرابعة وستين ، فكانت أكبر من الرسول بسنتين عند موته ، وكانت فى نفس السن التى ماتت فيها خديجة . وعلى الرغم من أن بعض القوم قد اقترحوا أن تدفن بجوار زوجها وأبيها إلا أنها عارضت فى ذلك بشدة ، فقد أحست أن فى ذلك عدم كياسة ، وعلى ذلك قبرت فى مقابر المسلمين بالمدينة حيث مقابر أغلب المؤمنين الأولين . وقد اشترك جميع القوم فى جنازتها ، وقد رثاها حاكم المدينة ، وقد ساد الحزن المدينة ، فقد كان موتها آخر حادث سياسى هام فى المدينة . وستنتقل الحكومات الإسلامية من الآن إلى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ، وستصبح مكة والمدينة أماكن مقدسة يقصدها الحجيج من أنحاء العالم للتبرك بالأماكن التى عاش فيها مؤسس دينهم حياته الأرضية .

كانت عائشة الحلقة الأخيرة فى العصر المحمدى ، لقد كانت آخر حلقة ترجع علاقتها بمحمد إلى الأيام السابقة للهجرة ، وبدفنها توقف العنصر الشخصى فى إدارة الإسلام ، وإن اسمها غير معروف خارج العالم الإسلامى ، ولكن ليس هناك شك فى أنها وخديجة كان لهما أثر عظيم فى وجود هذه الديانة التى يدين بها اليوم سبع سكان العالم .

زوجات محمد وسراريه

مرتبات حسب زواجهن من محمد

خديجة بنت خويلد ، ماتت قبل محمد .

سودة بنت زمعة ، أرملة سكران أحد المؤمنين الأوائل وقد مات بالحبشة

عائشة بنت أبى بكر .

حفصة بنت عمر .

زينب بنت خزيمة ، أرملة ابن عمته عبيدة [1] ، وماتت قبل محمد .

أم سلمة بنت أبى أمية ، أرملة أبى سلمة ، وقد مات من جراحه فى أُحد.

زينب بنت جحش ، مطلقة زيد ، عبد محمد المحرر .

جويرية بنت الحارث ، أُسرت بعد الإغارة على بنى المصطلق .

ريحانة ، جارية يهودية أُسرت بعد مذبحة بنى قريظه ، ماتت قبل محمد .

أم حبيبة بنت أبى سفيان ، أرملة عبيد الله ، من أوائل المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة .

مارية القبطية ، جارية أهداها حاكم مصر (المقوقس) إلى محمد .

صفية ، يهودية من بنى قريظة ، أُخذت بعد سقوط خيبر .

ميمونة بنت الحارث ، أخت زوجة عمه العباس .

---

(١) زينب بنت خزيمة وهى من بنى عبد مناف بن هلال بن عامر ويقال لها « أم المساكين » وكانت قبله عند عبد الله بن جحش .

فهـــرس الأعلام

(ب)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

لجنة النشر للجامعيين

تقدم

الكتاب التالى

سخريات صغيرة

لأعلام القصص

دستيوفسكى

تولستوى

توماس هاردى

سمرست موم

ستيفان زفيج

ساكى

ترجمة :

الأستاذ محمد قطب

يظهر فى أول فبراير سنة ١٩٤٧